الوسيط في

رسالة المسجد العسكرية

تأليف

محمود شيت خطّاب

اللواء الركن

دار القرآن الكريم

بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾

سورة الجن (١٨ ـ ٧٢)

الوسيط في
رسالة المسجد
العسكرية

الطبعة السابعة
مزيدة ومنقحة
بيروت
١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م

الإهـــداء

إلى المجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله

محمود شيت خطاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد للّه ربِّ العالمين ، والصّلاة والسّلام على سيِّدنا ومولانا أشرف النبيين والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه الطيِّبين الطّاهرين .

عُقدَ في مكة المكرَّمة : مؤتمر رسالة المسجد ، في يوم ١٥ رمضان المبارك من سنة ١٣٩٥ هجرية إلى يوم ٢٠ رمضان المبارك من سنة ١٣٩٥ الهجرية ، الموافق ٢٠ أيلول (سبتمبر) إلى ٢٥ أيلول (سبتمبر) من سنة ١٩٧٥ الميلادية .

وكنتُ أحد أعضاء هذا المؤتمر ، لبَّيت دعوة القائمين عليه بصفتي الشَّخصيَّة ، وألقيتُ فيه بحثاً بعنوان : الرِّسالة العسكرية للمسجد .

وقد اخترت عنوان البحث بعد وصولي إلى مكَّة المكرَّمة واطلاعي على عناوين البحوث المُقَدَّمة إلى المؤتمر ، فافتقدت بحثاً في : رسالة المسجد العسكرية ، لاستكمال عناوين بحوث المؤتمر ، وكانت البحوث الأخرى تغطي ما يمكن أن يُقال في رسالة المسجد عدا الناحية العسكريّة ، فكان بحثي مكمِّلاً للبحوث ، يملأ فراغاً ويسدّ حاجة .

وعكفتُ على إعداد البحث في مكّة المكرّمَة ، بعيداً عن مكتبتي التي تضمّ المصادر والمراجع وهي ضرورية لإعداد بحث متكامل جديد في موضوعه ، وبعد اعتكاف ثلاثة أيامَ واصلت فيها الليل بالنهار ، معتمداً على المصحف الذي يرافقني وحده مصدراً ، وواثقاً باللّه الذي أنزل المصحف تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمة ، وقاصداً بيت اللّه الحرام في كل صلاة مكتوبة ، فكان كلُّ هذا النور عوناً لي في إكمال البحث قبل ساعات قليلة من إلقائه ، فحمدت اللّه على

فضله وعونه

ونُشر البحث في صحف ومجلات عربية وإسلامية ، وتُرجم إلى الأوردية ونشر في الهند والباكستان ، ونشر في أندونيسيا بعد ترجمته إلى اللغة الأندونيسية ، وحمله علماء المسلمين الذين شهدوا المؤتمر شرقاً وغرباً ، حيث أصبح البحث مشاعاً بعد إلقائه في المؤتمر ، وطبعه وتوزيعه على المؤتمرين !!

ونُشر البحث أيضاً في كُتَيِّب صغير ، وزِّع هدية من مجلة الأزهر الشريف ، فازداد إنتشاراً ، وازدادت الرسائل التي وصلتني تقترح عليّ إعادة طبعه مستقلاً في كُتَيِّب أو كتاب .

وعزمت أن أعيد النظر في البحث ، أُفصِّل ما أوجزتُ ، وأوضِّح ما أجملت ، ولكن ظروفي مسافراً تارة ، ومريضاً تارة أخرى ، حالت دون ما أريد .

وفي القاهرة زارني أحد الناشرين ، ورجاني أن أعيد النظر في البحث وأضيف إليه معلومات جديدة ، فوعدته أن أفعل حين يستقر بي المقام في بغداد .

وحاولت بعد وصولي إلى بغداد أن أبرّ بوعدي ، فحاولت أن أتفرّغ له تفرغاً كاملاً ، وَبدأت بكتابة صفحات منه في أوقات اختلستها اختلاساً ، ولكن عملي فيه كان بطيئاً مضطرباً ، لأنني كنت مجهداً في قضاء أعمال الناس ومصالحهم ، لا أكاد انتهي من حلِّ مشكلةٍ إلا وشغلت بمشاكل جديدة ، فأعود إلى منزلي منهكاً : جسمي يعاني أشد أنواع التعب ، وفكري بعيد عني يفكِّر في مصالح الناس ، وأنّى للجسم المتعب والفكر المجهد أن يفيدا شيئاً !

وفجأةً سقطت مريضاً ، فأُخذت أخذاً إلى المستشفى في الهزيع الأخير من الليل ، وأنا أقرب إلى الموت من الحياة ، لأنّ الطبيب الذي استقُدم لإسعافي في الساعة الثانية من بعد منتصف الليل ، حقنني بالوريد بدواء يُعطى بالتدريج لمدة عشر دقائق ، فأعطانيه خلال أقل من ثانيتين ، فغبت عن الوجود! وانهار

الطبيب ، وألحّ على نقلي إلى المستشفى ، فكان له ما أراد .

وما كدتُ أستعيد الوعي في المستشفى ، إلاّ وخطر على بالي بحثي في : الرسالة العسكرية للمسجد ، والوعد الذي قطعته على نفسي في القاهرة حوله ، والصفحات التي كتبتها وخلّفتها في الدار ، وبدأت أفكر في مادة الكتاب وتبويبه ومصادره ومراجعه ، منتهزاً فرصة المرض وتفرّغي لنفسي وحدها دون الناس ، لا للناس وحدهم دون نفسي في حالة العافية .

والمرض نعمة من نعم اللّه لمن يعرف كيف يستغلّ مدّته ، فالمرء يكون أقرب إلى اللّه في حالة المرض ، فتصفو نفسه وتسمو روحه ويتفتّح فكره ، ويبتعد عن المادة ويقترب من الروح ، وهي طاقات النفس البشرية تتفجّر بالنور وتطمئنّ بذكر اللّه ، وتحاول أن تتخلّص من جاذبية الأرض لترتفع إلى السماء ، كأنها تطمح أن تتّصل بالملإِ الأعلى .

وغادرت المستشفى بحمد اللّه ، وفي عقلي تفاصيل الكتاب ، لم يبقَ عليّ إلاّ وضعه على الورق في كلمات .

وقضيت مدة النقاهة في تسجيل أفكاري في نقاط على دفتر صغير ، لا أكاد أخلو إلى نفسي إلاّ وأبادر إلى دفتري الصغير ، حتى في الليل عندما آوي إلى الفراش لا يفارقني هذا الدفتر ، وعندما أتذكر فكرة جديدة أو حادثاً معيناً في أي وقت من أوقات الليل ، أُضيء النور وأحتضن الدفتر وأسجل ما عنَّ لي من أفكار ، ثم أُطفىء النور ثانية ، ويتكرر ذلك مرات ومرات .

ولم أكد أقضي مدة النقاهة ، حتى شرعت في وضع أفكاري بالكلمات على الورق ، وإلى جانبي مكتبتي وحولي مصادري ومراجعي ، منتهزاً حلول الشتاء الذي يعين على التفكير والدراسة والتتبّع والتسجيل ، ومستغلاً اعتكافي في المنزل تنفيذاً لتعليمات الأطباء ، حتى أكملت الكتاب دون المقدمة التي كتبتها قبل الخاتمة وبعد إكمال الكتاب .

وفي أيام المرض والنقاهة والاعتكاف ، استلمت دعوات كريمة من أقطار

شتى : من المنظمات الإسلامية في الولايات المتحدة الأميركية وكندا ، ومن المنظمات الإسلامية في أوروبا التي مقرها ألمانيا الغربية ، ومن دول الخليج العربي : الكويت ودبي ، كما استلمت رسائل كثيرة من صحف ومجلات عربية تدعوني للكتابة فيها ، ولكنني اعتذرت لكل تلك الدعوات الكريمة ، من أجل إنجاز هذا الكتاب ، فمن تأخّرت عليه أو تقدمت باعتذاري إليه ، فإنني آثرت مصلحة المسلمين كافة لأنني أطمع أن يفيدهم كتابي في حاضرهم ومستقبلهم ، على مصلحة جماعة منهم في بلد من بلادهم ومصلحتي الشخصية ومصالح الذين دعونا لإلقاء المحاضرات أو لقاء الندوات أو كتابة البحوث والمقالات .

ولا يقتصر أملي على أن يستفيد العرب والمسلمون من هذا الكتاب في حياتي ، بل آمل أن يفيدهم بعد انتقالي إلى جوار اللّه ، لأنّ الأقلام تزيِّف واقع العرب والمسلمين تزييفاً شنيعاً ، وقد تجد بعض الأقلام لا تزيِّف في حوادث الماضي البعيد أو القريب أو في القضايا التي لا تمسّ حاضر العرب والمسلمين ، ولكنها تزيف في واقع حاضر المسلمين والعرب ، التي يحبّ الحكّام أن يُظهروه مفاخر وإنجازات وانتصارات وبطولات وحرية وسيادة وتقدّماً ، فتسجل الأقلام الهزيلة ما يحبّ الحكّام أن يسمعوا وما يحبوا أن يسمع الناس في الداخل والخارج ، لا ما يجب أن يسمع الحكّام ويسمع الناس في الداخل والخارج .

والفرق كبير هائل بين ما يحبّ الحكّام أن يسمعوا ويسمع الناس ، وما يجب أن يسمعوا ويسمع الناس .

والواقع أنّ النّاس في كل مكان يعرفون الحقيقة ، ولا يستطيع حاكم أو كاتب أن يغش أحداً أو يخدعه ، فالحقيقة لا تخفى والحق أبلج ، والشِّعار القائل : اكذبْ واكذبْ واكذب ثمّ اكذب واكذب . . حتى يصدِّقك الناس ، هذا الشعار الذي ساد ردحاً من الزمن في الدول الغربية والشرقية الأجنبية ، قد تجاوزه أصحاب السلطان وأصحاب الرأي في الوقت الحاضر ، كما أنّ هذا الشعار لا يمكن أن يتبنّاه حاكم عربي ومسلم يعمل لمصلحة بلاده وشعبه

وعقيدته ، لأنّ المؤمن لا يكذب ـ كما نص عليه حديث المصطفى عليه الصّلاة والسّلام ـ فالكذب ليس من صفات العربي المسلم الحق ويرفضه ولا يرضاه لنفسه ولا لأحد من خلق اللّه .

والكذب الذي يدعيه الحكّام ليحمدوا بما لم يفعلوا ، وتزيفه الأقلام لتقبض ما قَسَمَ اللّه من مال أو مناصب أو سُمعة أو وجاهة ، هذا الكذب مفضوح للقاصي والداني ، قصير عمره لأنّ حَبْل الكذب قصير ! ولكنّ الكذب والتزييف يخدران الشعب ويجعلانه يستنيم للأحلام ويستكين للأماني، ويقنع بالواقع المرير ، وهذا كلّه من مصلحة الاستعمار والصهيونية وأعداء العرب والمسلمين .

لقد أصبحت الأقلام سلعة في المزاد العلني ، يستحوذ عليها مَنْ يقدِّم لها الثمن ، فهي تزيِّف لقاء المادة ، وتفعل كل ما تُؤمر به في غياب الدين وخوف اللّه ، لذلك قلّت الثقة بالكلمة المقروءة والمسموعة .

ولكنّ أكثر الناس يعرفون الأقلام المزيفة ، فيمرون على ما تقوله مرّ الكرام، لا يقرأون إلاّ عنوان الخبر أو الحديث أو البحث أو المقال ، ثم يعبرونه إلى غيره سريعاً ، واللعنة تلاحق المزيفين سراً وعلانية .

لقد أصبحت كل أجهزة الإعلام العربية والإسلامية ملكاً للحكّام بشكل مكشوف في قسم من البلاد العربية والإسلامية ، وبشكل مستور في قسم منها ، والصحف والمجلات التي تكون ملكاً لأصحابها يشتريها الحكام بالمكافآت والهبات والمخصصات .

لهذا تجد هذه الأجهزة تمجِّد الحكّام وتحرق لهم البخور وتثني عليهم بدون حساب ، ما داموا في الحكم وبيدهم السلطة والمال .

فإذا انتهى أمرهم وخلفهم خلف قضى عليهم ، أولم يكن منهم نسباً أو حزباً ، لعنهم لعناً كبيراً ، فكلما جاءت أُمة لعنت أختها ، وكان لعنهم بنفس

الأجهزة الإعلامية التي مجّدتهم وحرقت لهم البخور وأثنت على أشخاصهم الكريمة !

والذين عايشوا عهدين : عَهْداً مضى إلى غير رجعة ، وعهداً تولى إلى أجل مُسَمّى ، يدهشه التناقض في أجهزة الإعلام ، فقد أثنت على العهد السّابق بنفس القوّة التي تلعنه اليوم ، ومَن مدَح وذم فقد كذب مرتين .

ولا لوم على الناس الذين لا يثقون بأجهزة الإعلام وكثير من الأقلام ، ولكنّ اللّوم على الحكّام الذين يسمحون لأجهزة إعلامهم أن تتردى إلى حضيض الكذب الرخيص المكشوف ، وعلى أصحاب الأقلام الذين خانوا أمانة الكلمة وباعوها رخيصة في سبيل الشيطان .

أما الذين سيعيشون بعد أجيال ، ولا يعرفون شيئاً عن واقع العرب والمسلمين ، فلا مفرّ لهم من دراسة الكلمة المكتوبة ليعرفوا عن الواقع الذي عشناه ، وأنا أنصحهم ألاّ يثقوا بكل كلمة تقع أمام أعينهم ، فإنّ التزييف هو القاعدة والصدق هو الاستثناء ، في كل كلمة كتبت عن الوضع الحالي في عهد الحاكم المسؤول عنه ، فعليهم أن يفتحوا أعينهم وعقولهم جيداً ، ليميزوا بين الخبيث والطيب ، ومهمتهم في الواقع من أصعب الصعاب .

وبهذه المناسبة لا بد أن أنصح المؤرخين الصادقين الذين يعيشون اليوم أو يأتون غداً ، ألاّ يصدّقوا ما سجلته لجان إعادة كتابة التاريخ العربي والإسلامي أو سطّره أفراد من تلك اللجان في مؤلفاتهم الجماعية أو الفردية ، وأن يعودوا إلى ما سجله السلف الصالح من المؤرخين كالإمام الطبري وابن الأثير وابن كثير في تواريخهم .

لقد كان السلف الصالح من المؤرخين العرب والمسلمين ، يتميزون بالصدق المطلق وتحرّي الحقائق وتسجيلها كما حدثت بكل أمانة وصدق وإخلاص ، لأنهم كانوا مفسّرين ومحدِّثين وفقهاء ولغويين بالإضافة إلى كونهم مؤرخين ، فكانوا يكتبون الخبر التاريخي كما يكتبون التفسير والحديث والفقه واللغة ، باذلين أقصى الجهد لتحري الصدق فيما يكتبون .

لهذا كانت كتبهم التاريخية من أصدق كتب التاريخ في كل الأمم ، وهي لا تقارن بالنسبة لصدقها مع تواريخ الأمم الأخرى .

وقد اعترف المنصفون الأجانب من علماء التاريخ وغيرهم بهذه الحقيقة ، وتمنّوا أن تكون لهم مؤلفات تاريخية معتمدة كما للعرب والمسلمين .

وقد تحدّث مؤرخ أجنبي معروف عن أستاذه المؤرخ الأجنبي الشهير فقال : « كنت مقرباً من أستاذي ، وكان يستعين بي في كتابة مؤلفاته التاريخيّة ، فيمليها عليّ ، فأُدوِّن ما يمليه ، ثم أعيد عليه تلاوة ما أُملي ، فيعيد صقل العبارات ويحذف ويثبت ، فإذا انتهينا من هذه المرحلة ، عدت بالأوراق إلى داري فأُعيد استنساخها بصورتها النهائية ، وأُعيد قراءتها على المؤرخ الأستاذ ، فيقرّ ما أتلوه عليه .

« وفي يوم من الأيام استعرت أحد مؤلفاته التاريخية لأستفيد منه في دراستي الجامعية ، وكان الكتاب بخطي ، ولكنني ضيّعته فخشيت من غضب أستاذي ، فعكفت على إعادة كتابته مستعيناً على ما بقي في ذاكرتي منه عند الإملاء ، ومخترعاً الأحداث التي خانتني الذاكرة في استعادة حوادثها » .

« وأعدت الكتاب إلى أُستاذي ، بعضه صادق كما ذكره ، وبعضه من وضعي ، ثم فوجئت بأنّ الأستاذ ألقى ما في كتابه جملةً وتفصيلاً ، بشكله الجديد الذي كان أكثره من نظمي وتلحيني ، على طلابه في الجامعة ، دون أن يفطن إلى ما فيه من تزييف » .

« وقد كنت أظن أنه سيكتشف ما في الكتاب من غثّ وسمين ، ولكنني اكتشفت أنّ كل ما جاء فيه غث وتزييف ، وأنني لم أُزيِّف وحدي بل زيف الأستاذ ما أملاه عليّ ، ليتعيّش بما ألفه باعتباره أُستاذاً في الجامعة ، إذ لو كان ما أملاه عليّ حقاً وصدقاً ، لاكتشف تزييفي وانكشف أمري له ، والظاهر أنني أضفت إلى تزييف الأستاذ شيئاً من تزييف طالبه ، فانسجم التزييفان في كتابه » .

ولست أُبَرِّىء المصادر التاريخية القديمة للعرب والمسلمين من الخطأ ، فالقرآن وحده لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والإنسان خَطّاءٌ إلاّ من عصم اللّه . .

ولكنني أُبَرِّىء مصادرنا من الكذب المتعمّد والتزييف المتعمّد ، فقد كان الناس يخافون اللّه ولا يكذبون .

وحين أدعو إلى إعادة كتابة التاريخ ، فإنني أحبّ أن تكتب الحقائق الواردة في المصادر العربية الإسلامية بأسلوب عصريّ ، يفهمه أهل العصر ويقبلون على قراءته ودراسته ، كما فعلت في كتاب : الرسول القائد ، فقد أعدت كتابة الحوادث بأسلوب حديث ، وهذا كل عملي في تأليف هذا الكتاب ، مع إضافة الدروس المستنبطة من الغزوات والسرايا ، والتركيز على تلك الدروس في مقدمة الكتاب وخاتمته .

ويشاطرني هذه الدعوة إلى إعادة كتابة التاريخ العربي والإسلامي ، كل عربي أصيل ومسلم غير دخيل .

ولكنّ الأمر بالنسبة للعرب الذين من قواريروالمسلمين الجغرافيين ، مختلف إلى أبعد الحدود .

فهؤلاء يريدون كتابة التاريخ كما كتبه أعداء العرب والمسلمين من الأجانب الذين تعلّموا العربية ليصبحوا في وزارة الخارجية موظفين ، واجبهم التجسس وحرفتهم العمالة ، فإذا وضعت الحرب أوزارها أو أُحيلوا على التقاعد لبلوغهم السن القانوني ، تولوا مناصب تدريسية في المعاهد والجامعات ، أو عكفوا على تدوين مقالات وبحوث في التاريخ العربي والإسلامي أو في اللغة العربية ، كلها دسٌ وتشنيع وحقد دفين ، ولا عجب في ذلك فأكثرهم صليبيون متعصبون أو يهود حاقدون .

وأقلّ ما في الذي كتبه الجواسيس والصهاينة تشكيك في صدق الحوادث وتشكيك في رواتها من الرجال حتى في وجودهم أحياء على الأرض ، إذ يشمل

التشكيك إنكار وجودهم أصلاً في الدنيا بشراً ، فهم أشخاص وهميون ، اختلقهم الرواة واختلقوا الحوادث التي نقلوها في كتبهم ، والخلاصة هي هدم التاريخ العربي والإسلامي وتقويض بنيانه من الأساس .

وأهداف هدم التاريخ العربي الإسلامي كثيرة جداً ، لعلّ أهمها هي أنّ هذا التاريخ عريق في تسجيل حوادثه ، صادق في سردها ، فهو أفضل تواريخ الأمم بدون استثناء أصالة وصدقاً ، فلا بدّ من هدمه حتى تبرز تواريخهم التافهة الهزيلة .

وهؤلاء الأجانب في تاريخهم كالأقزام إذا قورن بالتاريخ العربيّ الإسلامي العريق الصادق ، فماذا تصنع الأقزام لتبرز وتثبت ذاتها ؟ إنّ الأقزام تتجاوزهم الأنظار بوجود العمالقة ، ففكّروا أن يطيحوا بالعمالقة ليحتلوا مكانهم ومكانتهم ، فما استطاع الأقزام أن يطيحوا بالعمالقة ، ولا استطاعوا أن يصبحوا عمالقة ، لأنّ العمالقة أخذوا مكانتهم بالجهد والعرق والدأب المتواصل والصدق والإخلاص .

ومن أهداف هدم التاريخ العربي الإسلامي ، تقويض معنويات العرب والمسلمين ، فلا يقاومون ولا يستطيعون المقاومة ، ويستسلمون لأعدائهم المستعمِرين والصهاينة .

والذين يقلدون الأجانب في هدم التاريخ العربي الإسلامي ، يعاونون الاستعمار والصهيونية في تحقيق أهدافهما ، فمثلهم كمثل من يطعن أمّه من الخلف بخنجره المسموم ، ثم يتركها وحدها تتلوّى وتلاقي مصيرها المحتوم .

أحقاً قلّد قسم من مؤرخي العرب والمسلمين الأجانب في هدم تاريخ العرب والمسلمين ؟

نعم ، لقد فعلوها بحسن نية أو بسوء نيّة ، فطعنوا أمهم الرؤوم بخنجرهم المسموم .

ولكي نفهم كيف ومتى ، لا بدّ لي من التطرّق بإيجاز شديد إلى قصة

هؤلاء المؤرخين العرب والمسلمين ، الذين تخرّجوا في الغرب ، فأرادوا تقليد أساتذتهم المستشرقين ، فأصبحوا باسم الموضوعيّة والبحث العلمي لا يملّون من تكرار هذين المصطلحين ، مُسْتَغْرِبين في بلادهم لا مستشرقين ، فكانوا كالقرد الذي قلّد الإنسان ليصبح مثله ، فلا أصبح القرد إنساناً ولا اعترف الإنسان بالقرد .

هؤلاء المؤرخون المستغربون ، أُوفد أكثرهم في بعثاتٍ إلى جامعات الغرب العريقة في مسيحيتها على الرغم من تظاهرها الكاذب بالحرية والتحرر ، بعد تخرجهم في المدارس الأعدادية (الثانوية العامة) مباشرة ، وهم في عمر الورد ودور المراهقة بما فيها من أخطار جسام ، أصابت أكثرهم فألحقت بهم أفدح الأضرار .

وقد أوفد هؤلاء قبل أن يستكملوا علمهم وشخصياتهم ، فالذين أوفدوا لدراسة التاريخ ، لم يتعلّموا في بلدهم شيئاً مهماً من تاريخ أمتهم ، غير ما يتعلمه التلميذ في المدرسة الابتدائية والمتوسطة والإعدادية (الإعدادية والثانوية العامة) وفي التاريخ ، وهي معلومات بدائية ، ولم يطلعوا على مصادر التاريخ العربي الإسلامي الأصيلة ، بل لم يسمعوا بها أبداً ، واقتصر اطلاعهم على الكتب المدرسية ، وهي كتب مختصرة وقد تكون مرتجلة .

ويدخل هؤلاء الطلاب العرب والمسلمون الجامعة ، ويحضرون على أساتذتهم في جوٍ غير جوِّهم ومجتمع غير مجتمعهم ، فيقارن الطالب العربي المسلم بين مُدَرِّسِه الذي تعلّم منه التاريخ في بلده ، وبين أستاذه الجامعي ، فيبهره أستاذه الأجنبي ، وتنهار معنوياته ، فيستسلم للأستاذ الجامعي الأجنبي يوجّهه كيف يشاء ويقوده كيف يشاء .

وبنتيجة هذا الانبهار،الذي يعقبه الانهيار المعنوي والاستسلام ، يغترف من أستاذه معلومات تاريخية،لا تخلو من دسٍ وتزييف مبطّن بشعارات براقة كالبحث العلمي، والموضوعية التي يفتقر إليها الأستاذ الأجنبي في حالة دراسته للتاريخ العربي والإسلامي. فالبحث العلمي لا يجتمع مع الحقد

والتعصّب المبتلى بهما الأستاذ الأجنبي .

ويأتي دور الرسائل الجامعية ، فيفرض الأستاذ الأجنبي مواضيعها بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر ، ويفرض أسلوب كتابتها ونتائجها بصفته مشرفاً على رسالة الطالب ، وقد كفر كثير من الطلاب العرب والمسلمين في رسائلهم كفراً صريحاً من أجل الحصول على الشهادة الجامعية بدرجة مشرِّفة !

فلا تعجب أبداً من إحجام أكثر الطلاّب العائدين إلى وطنهم عن ترجمة رسائلهم من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية ،حتى لا يفتضح أمرانحرافهم ، أو كفرهم أو مسايرتهم أساتذتهم الحاقدين والمتعصبين .

ثم لا تعجب إذا عاد الطالب إلى وطنه جاهلاً بالتاريخ العربي الإسلامي وحاقداً عليه ومشكِّكاً فيه .

فماذا يصنع بعد أن يعود أستاذاً في الجامعة ، لأنه تخرج من جامعة أجنبية ؟!

يلجأ فوراً إلى ترجمة محاضرات أستاذه إلى العربية ، كما يترجم مؤلفات أستاذه في التاريخ العربي الإسلامي ومؤلفات أمثاله من الأساتذة الأجانب ، ويلقي ما ترجمه على طلابه في درس التاريخ بعد أن ينسب ما ترجمه من محاضرات ومؤلفات إلى نفسه ، مسجلاً عليها اسمه الكريم ، فإذا أكمل عاماً جمع محاضراته في كتاب خاص ، يبيعه للطلاب كمرجع في الدراسة ، بعد أن يضع على الكتاب المترجم اسمه مع لقبه العلميّ .

فإذا كان في هذه الكتب انحراف ، أيّ انحراف ، ومناقضة للواقع التاريخي وطعن في التاريخ العربي الإسلامي ، وتشويه لحقائقه الناصعة ، وتشكيك في أحداثه ورجاله ، وانتقاص للمؤرخين العرب والمسلمين ، فإنّ مصدره الأستاذ الأجنبيّ ومسؤوليته على مترجمه المبهور بأستاذه ، والمرتكس بالاستعمار الفكريّ إلى الأذقان .

هذا هو مجمل قصة المؤرخين المستغربين من العرب والمسلمين ، ولديّ

الوثائق التي تثبت ترجمتهم محاضرات أساتذتهم الأجانب ونسبتها لأنفسهم ، وهي كثيرة جداً لا تكاد تُعدّ ولا تُحصى ، وباستطاعتي عرضها في كل وقت ومكان على من يريد عليها الاطلاع .

وما يقال عن طلاب التاريخ يقال عن طلاّب علوم اللغة العربية الذين يوفدون بعد تخرجهم في الإعدادية مباشرة (الثانوية العامة) ، بل ما يقال عن هؤلاء أكثر مما يقال عن أولئك ، لأنّ الأستاذ الأجنبي الذي يعلِّم العربية وعلومها ويمنح للطلاّب أعلى الشهادات العلمية ، لا يستطيع هو أن ينال الشهادة الإبتدائية في المدارس العربية ، لأنه لا يتقن العربية كما يتقنها خريج المدارس الابتدائية العربيّ ، وقد صادفت قسماً من أساتذة العربية في الجامعات الأجنبية مرات كثيرة في المكتبات الكبرى بخاصة ، فما وجدت فيهم مَنْ يُتقن جملة كاملة من الجُمَل العربية السليمة .

أما الكتب العربية التي حقّقوها ، فقد استغلوا طلابهم العرب في تحقيقها ، لذلك صدرت أكثرها مشوّهة عرجاء ، قد تفيد الأجنبي بتعليقاتها الأجنبية ، ولكنها لا تفيد العربي الأصيل .

يكفي أن أذكر أنّ طالباً من الباكستان ، حمله أُستاذه الأجنبي على تقديم رسالة عنوانها : التناقض في القرآن .

ونال الطالب الشهادة العالية ، وعُيِّنَ في منصب جامعي ، وربح المال الوفير والتقدير المزيّف ، ولكنه خسر نفسه ، إذ نبذه المسلمون فارتدّ عن الإسلام ، وهو اليوم أستاذ في إحدى الجامعات الأمريكيّة .

وكم أتمنى أن يطلع كل عربي وكل مسلم على رسالة ذلك الطالب : التناقض في القرآن ، ليجد أن هذا التناقض ليس موجوداً إلاّ في عقله المريض وفي عقل أستاذه الصهيونيّ الحاقد اللئيم .

هذا الأستاذ الصهيونيّ الذي اصطدم بطالب باكستاني آخر ، أراد أن يحمله على كتابة رسالته في الطعن والتزييف ، فرفض الطالب ما عرضه عليه

أستاذه رفضاً قاطعاً ، فقدّم الأستاذ الصهيوني تقريراً عن طالبه المسلم ، زعم فيه أنّ الطالب متعصب وعقليته غير علمية ، لذلك لا ينسجم مع الدراسات الجامعية .

وطرد الطالب المسلم ، فخسر الشهادة العلمية ، ولكنه ربح نفسه ، ونجا بدينه ، فوفّقه اللّه في حياته أعظم التوفيق .

والمذهل حقاً أن نوفد الطلاب لتعلّم التاريخ العربي الإسلامي وعلوم العربية في جامعات أوروبا !

أليس من الأفضل أن يتلقّى هؤلاء الطلاب التاريخ والعربية في بلادهم ، ولدينا جامع القرويين والزيتونة وجوامع جمعية العلماء الجزائرية والزوايا السنوسية والأزهر الشريف ومساجد العالم الإسلامي والعربي ، وكلها جامعات كبيرة وصغيرة تعلّم الدين والتاريخ والعربية ؟

وهذه الجامعات نتفوق بها على جامعات الغرب ، إذ ليس في الغرب أمثالها ولا ما ينافسها في مواضيعها التي تُعنى بها ، وهذه الجامعات هي الميزة البارزة للدول العربية والإسلامية ، فلماذا لا نعلّم فيها طلابنا العلم النقي الصافي ؟

والآن ، نعود إلى لجان : إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي ، المؤلّفة في غالب أعضائها ، من خريجي الجامعات الأجنبية ، بالأسلوب والطريقة التي ذكرتها عن إيفادهم ، فعادوا يجهلون التاريخ الأصيل ويعرفون التاريخ المزيف ، ويكرهون التاريخ العربي الإسلامي ويشككون في أخباره وحوادثه ورجاله ، ويجهلون المصادر التاريخية العريقة وقد يقتصرون على معرفة أسمائها في أحسن الظروف ، ويعتمدون المصادر الأجنبية الحاقدة المتعصبة ، ويعتقدون أنّ التاريخ ما هو في صفحاتها ، وهي وحدها حقائق ، وغيرها كذب وافتراء .

وإذا تعارضت مصادرنا العربية الإسلاميّة مع مصادرهم الأجنبية الملفّقة ، أخذوا بما جاء في المصادر الأجنبية بدون تردد ولا تمحيص ، حتى في

حالة تناقضها مع أبسط مناهج البحث العلمي ، هذا إذا افترضنا أنهم يرجعون إلى المصادر العربية الإسلامية ، لأنهم ليسوا بحاجة إليها ، ما دام القول بالنسبة لهم ما قالته حذام: وإذا قالت حذام فصدِّقوها ، فإن القول ما قالت حذام!!

وربما يتبادر إلى الأذهان السؤال التالي : من أين لك أن تعرف المؤرخين المحدثين ، وأنت عسكري قضيت زهرة عمرك في الجيش ؟!

ومِنْ أينَ لك أن تعرف علماء اللغة المحدثين ؟!

إنّ من حق كل قارىء أن يسألني هذا السؤال ، لأنّ القراء لا يمكن أن يعرفوا عني ما يعرفه المقربون إليّ من الأهل والأقرباء والأصحاب والأصدقاء والتلاميذ والطلاب والمعلمين والمدرسين والأساتذة ، لأن هؤلاء المقربين يعلمون أنني أدْرُسُ التّاريخ واللغة منذ كنت طفلاً صغيراً ، وأنّ الواجبات العسكرية لم تشغلني لحظة عن هوايتي المفضلة في التاريخ والعربية ، ومنذ سنة ١٩٦٣م أصبحت وثيق الصلة بالقمة من أساتذة التاريخ واللغة في المجامع العلمية واللغوية العربية كافة، وفي مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف وفي المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، والمجلس الأعلى العالمي للمساجد، والمجمع الفقهي في مكة المكرمة، بالإضافة إلى المؤتمرات العربية والإسلامية التي شهدتها في مختلف البلاد العربية والإسلامية ، والتدريس في مختلف الجامعات العربية والإسلامية ، وحرصي الشديد على اقتناء كل كتاب في التاريخ واللغة ، وقراءة كل بحث فيهما ينشر في الصحف والمجلّات .

كل تلك المعاناة ، أدّت فيما أدَّت إليه ، إلى معرفتي المفصلة الدقيقة بأساتذة التاريخ واللغة ، وطالما جابهت المنحرفين منهم بما يكرهون ، معتبراً تلك المجابهة جهاداً في سبيل اللّه .

وقد قرأت مرة ما سجّله مؤرخ عربي (شهير) عن السلطان محمد الفاتح الذي فتح القُسْطَنْطِينِيَّة ، واصفاً إياه بأوصافٍ قبيحة مختلقة .

وصادفته يوماً في مؤتمر مجمعيّ، فسألته : مِنْ أين اقتبست تلك الأوصاف القبيحة الكاذبة وألصقتها بالسلطان محمد الفاتح ؟ فردّ عليّ بعصبية ظاهرة : اقتبستها من تقارير قناصل الدول الأجنبية الذين كانوا في القسطنطينية في أيام الفتح !

وقلت له : ولكنّ هؤلاء القناصل موتورون من جهة ومتعصبون من جهة أخرى ، وخير دليل اعتبار المؤرخين الأجانب فتح القسطنطينية أعظم نكبة حاقت بالمسيحيّة . فقال وقد اشتدت عصبيته وتصاعدت حدّته : أرجوك ، أنا يطلقون عليّ لقب : مؤرخ الإسلام !

وقلت له : بل أنت مؤرّخ المسيحيّة .

واطلعت في أوائل هذا العام على كتاب في التاريخ يتحدث مؤلفه الأجنبيّ عن فتح القسطنطينية ، فلم أستغرب أنّ مؤلفه نقل عن كتاب مؤرخ الإسلام المزعوم ! ما ورد فيه من نعوت قبيحة كاذبة بحق السلطان محمد الفاتح ، كأنه يريد أن يقول : هذا مؤرخ مسلم ينتقص السلطان محمداً الفاتح ويصفه بأخسّ الأوصاف ، فهذا الانتقاص وتلك الأوصاف حقائق يعترف بها الصديق قبل العدو .

وأشهد أنّ مؤلفات هذا المؤرخ العربي الشهير كافة منقولة من المؤلفات الأجنبية بتصرف تارة وبدونه أخرى ، وليس له في مؤلفاته غير اسمه الكريم .

والسؤال الآن : لماذا يسكت المؤلفون الأجانب على نقل مؤلفاتهم إلى العربية ، دون أن يعترضوا على نهب حقوقهم في التأليف ، وهم الحريصون غاية الحرص على تلك الحقوق ؟!

والجواب على ذلك معروف ، هو أنّ المؤلفين الأجانب المريبين ، يشجّعون التافهين من مؤلفي العرب والمسلمين ، على نقل مؤلفاتهم المريبة ، خدمة لمصلحة الأيدي الخفية من أعداء العرب والمسلمين كالمستعمرين والصهاينة ، بل قد يقبض المؤلف العربي المسلم أموالاً طائلة جزاء خيانته

وعمالته ، مستفيداً من الجهل المتفشي في العرب والمسلمين عن عورات المؤلفين الأجنبية وتكاسلهم الشنيع في مجال القراءة والتتبّع والدرس ، فيظنون أن كتب المؤلفين العرب والمسلمين المنقولة عن اللغات الأجنبية هي من بنات أفكارهم ، وما هي كذلك ، ولكن من يسمع ومَن يفقه في خضم هذا التيار الهائل من التزييف والتدليس .

والآن أعود إلى السبب المباشر الذي جرّني إلى ما ذكرته من حقائق ، وربما أكون قد أطلتُ الحديث من غير طائل ، ولكنني مؤمن بأنّ العرب والمسلمين بحاجة ماسة إلى فضح كل مَنْ يريد بالعرب والمسلمين سوءاً ، فقد طال السكوت عنهم كثيراً دون مسوِّغ ، وقد كتبت تلك الحقائق بأعصابي لا بقلمي ، فلا بد أن تؤثر في القراء أعظم التأثير .

والسبب المباشر هو نصيحتي للمؤرخين الصادقين من العرب والمسلمين الذين يعيشون اليوم أو يأتون غداً ، ألاّ يصدِّقوا ما سجلته لجان : إعادة كتابة التاريخ العربيّ الإسلامي ، أو سطّرهُ أفراد من تلك اللِّجان في مؤلفاتهم الجماعيّة أو الفرديّة ، وأن يعودوا إلى ما سجله السلف الصالح من المؤرخين العرب والمسلمين .

وسبب هذه النصيحة ما ذكرته عن ثقافة أعضاء تلك اللِّجان من الناحية التاريخية ، واستسلامهم الكامل لأساتذتهم الأجانب المريبين ، وثقتهم الكاملة بما كتبوه من محاضرات ومقالات وكتب ، واقتصار ثقافتهم التاريخية على المصادر الأجنبية ، وتوجههم في التاريخ نحو الأجانب لا نحو العرب والمسلمين ، وترجمة أفكار المؤلفين الأجانب وادعائها لأنفسهم أو للجانهم.

لقد وجدتُ مصادر تلك اللجان تقتصرُ على الأجنبية منها ، مع بعض المصادر العربية ، ووجود المصادر العربية لا لاعتمادها مصادر موثوقاً بها أو إعطائها أسبقية على غيرها من المصادر الأجنبية ، بل هي للرجوع إليها في نقل النص العربي الذي أشار إليه المستشرق أو الأستاذ الأجنبي ليس إلاّ .

فمثلاً إذا ورد في كتاب الأستاذ الأجنبي أنّ الطبري قال في تاريخه كذا وكذا ، فاللجنة تعود إلى النص الذي زكّاه الأستاذ الأجنبي أو نقده ، ثم توردہ كما كتبه الطبري ، لأن ترجمته من اللغة الأجنبية إلى العربية يختلف عن النص الحرفي الوارد في تاريخ الطبري ، وحينذاك تنكشف فضائح مؤرخي آخر الزمان التي تزكم الأنوف .

ولكي يتأكد المؤرخون المخلصون للعرب والمسلمين من اقتصار أعضاء لجان إعادة التاريخ على المصادر الأجنبية وحدها ، فبإمكانهم العودة إلى تلك المصادر الأجنبية ليظهر الحق ويزهق الباطل ، إنّ الباطل كان زهوقاً .

فقد ترجموا تلك الكتب إلى العربية ، وتقبلوا مسؤولية الأخطاء الفاحشة التي وقع فيها الأجانب، لأنهم لا يميزون بين الخطأ والصواب .

إنّ هؤلاء لوّثوا أفكار طلابهم بالدسّ والتدليس ، ويحبون أن تتوسع دائرة تلويثهم ، وأخشى ما أخشاه أن يصبح تلفيقهم أساساً في دراسة التاريخ العربي والإسلامي ، وتُهجر مصادرنا التاريخيّة الأصيلة .

ومن المهازل أن يترجم هؤلاء المستغربون ما كتبه أساتذتهم ومَن على شاكلتهم من الأجانب ، وينسبون ما ترجموه إلى أنفسهم ، فيأتي أجنبي آخر من الصليبيين أو الجواسيس أو الصهاينة ، فيترجم مؤلفات المستغربين أو يَعتبرها مصدراً في بحوثه ودراساته أو مرجعاً ، فينقل منها ما يريد مشيراً إلى أن المصادر العربية ومراجعها في التاريخ تؤيد آراءه ، فتصبح المؤلفات المزيفة وحوادثها التاريخية المكتوبة بالعربية حجة على العرب والمسلمين ، يكفي أنه شهد شاهد من أهلها ، وكفى . . . .

كما أنّ الذين في قلوبهم مرض من الصهاينة والجواسيس والصليبيين ، قد يستفيدون من تزييف المستغربين للتاريخ في مواقف حاسمة تضرّ القضايا العربية الحيوية أبلغ الضرر وتطعنها في الصميم .

ولست بحاجة لأنْ أوغل في تعداد الأمثلة الكثيرة على استفادة أعداء العرب

والمسلمين من تزييف التاريخ الذي وقع فيه المستغربون من العرب والمسلمين ، فذلك يحتاج إلى مجلّدات ومجلدات ، ولكن يكفي أن أذكر مثالاً واحداً لعله يغني عن كل مثال .

ففي شهر شباط من سنة ١٩٤٦م ، وقف (فيليب حتي) المؤرخ العربي المستغرب، أستاذ التاريخ في جامعة (برنستون) بالولايات المتحدة الأمريكية ، والقى شهادته في (واشنطن) أمام لجنة التحقيق الإنكليزية الأمريكية (الأنكلو- أمريكيّة) وقال فيها بالحرف الواحد : « ليس هناك شيء اسمه فلسطين في التاريخ مطلقاً »[١] .

ولكن دافيد بن غوريون أمين عام الوكالة اليهودية يومذاك في فلسطين ، والذي أصبح رئيساً لوزراء الكيان الصهيوني في الأرض المحتلة من فلسطين ، أمسك بهذا الكلام واستغله أبشع استغلال ، عند مجيء اللجنة المذكورة إلى القدس ، فقال في شهادته التي ألقاها أمام تلك اللجنة ما نصّه بالحرف الواحد : « . . . . وفي الشهادة التي تقدم بها أمامكم الدكتور (فيليب حتي) في الولايات المتحدة قال لكم : إنه لم يكن هناك في التاريخ شيء يسمى : فلسطين ! وأنا دافيد بن غوريون أقول لكم : إني أوافق الدكتور فيليب حتي على قوله . . . . » .

وأظن أنّ هذا المثال يكفي ، لذلك استحق (فيليب حتي) أن يحتل أعلى المناصب العلمية في الولايات المتحدة الأمريكية ، وينال أعلى الدرجات العلمية من الأجانب ، وتغدق عليه الأموال بغير حساب ، ويطلق عليه : أعظم عالم عربي للتاريخ في هذا القرن !!

وأعداء العرب والمسلمين يرفعون ذكر كل من يطعن العربية لغة والإسلام ديناً ، ويكرمونهم أعظم التكريم ، أما حماة العربية والإسلام فلهم الله ، والله خير وأبقى .

---

(١) قالها بالنص الأنكليزي :

1«There id nothing as Pastestine in History absoluty not»

ولكن الذي يحزنني أشد الحزن ويؤلمني أعظم الألم ويغضبني أعنف الغضب ، هو أن العرب والمسلمين يرددون النعوت والمدائح التي أسبغها الإستعمار والصهيونية والماسونية على الطاعنين في العربية لغة والإسلام ديناً ، من أدعياء العلم وعملاء الاستعمار، وأذناب الصهاينة ومنتسبي الماسونية من العرب والمسلمين ، دون أن يعلموا أنّ ما يرددونه هو من وضع أعداء العرب والمسلمين ، وأنّ ترديده دعم هائل لأولئك الأعداء وتأييد لأكاذيبهم وترسيخ لها !

وكم أتمنى أن يسأل كل مثقف عربي ومسلم نفسه ، قبل أن يردد النعوت والمدائح لكل إنسان ، هذا السؤال البسيط : ماذا فعل هذا الذي أمدحه وأُثني عليه ؟ هل يستحق المدح والثناء ؟

فإذا كان من الذين خدموا العربية والإسلام خدمة تستحق المدح والثناء ، فلا بأس أن يعطوه حقّه .

أما إذا تبين لهم أنه لم يفعل غير الهدم والتخريب ، فعليهم أن يفكروا ملياً بالذي أطلق عليهم المديح والثناء ، وهم سيكتشفون أنّ الذي أطلقها مستعمِر أو صهيوني أو ماسوني !

وعلى كل فهنيئاً لفيليب حتي وأمثاله من الهدامين والمخربين ، فقد أثمرت جهود فيليب في إلغاء اسم فلسطين ، ودنست كنيسة القيامة بأقدام أسياده الصهاينة .

وإذا وضَعَ (فيليب حتي) وأضرابَه مَنْ وضعهم في المكان والمكانة التي كانت أجراً لخيانتهم ، فإني أضعهم في موضع اللعنة في التاريخ ، فذلك هو حقهم ، ولهم الخزي والعار في الدنيا ، ولهم الويل من اللّه في الآخرة وعذاب أليم .

وعدت إلى ثلاثة مصادر قديمة من مصادر التاريخ العربي الإسلامي، أبحث عن : فلسطين ، فوجدتها تكررت اثنتي عشرة مرة في تاريخ ابن خياط

المتوفى سنة أربعين ومئتين الهجرية ، وتكررت في تاريخ الطبري سبعاً وسبعين مرة (٢٢٤ هـ - ٣١٠ هـ) ، وتكررت في الكامل لابن الأثير ستين مرة (٥٥٥ هـ - ٦٣٠ هـ) .

وقد وردت في الكتب الجغرافية العربية القديمة كافة ، وذكرها ياقوت الحموي المتوفى سنة ست وعشرين وست مئة الهجرية في الجزء السادس في كتابه : معجم البلدان [1] ووصفها وعدّد مدنها وذكر قسماً من أحداثها !

فكيف يدّعي أعظم عالم عربي للتاريخ في هذا القرن أنه ليس هناك شيء يسمى فلسطين في التاريخ ؟

وكل إنسان يستطيع القراءة يستطيع أن يتحدّاه بقوله : أتحداك إذا استطعت أن تذكر مصدراً واحداً أو مرجعاً واحداً في التاريخ ، ليس فيه ذكر لفلسطين ، عدا المصادر الصهيونية التي ظهرت بعد سنة ١٩٤٨ الميلادية !

فلمصلحة مَنْ يدّعي هذا الفيليب حتي هذا الادعاء الكاذب الجاهل ؟

لمصلحة بن غوريون والصهيونية العالمية دون أدنى شك !

إنّ تيارات الذين يريدون إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي من المريبين المستغربين على اختلاف أسمائهم ونعوتهم لهم اتجاهات واضحة مكشوفة كلها اتجاهات تخريبية مدمِّرة للتاريخ العربيّ الإسلاميّ العريق .

والهدف من هذا التخريب والتدمير ، هو تلويث الفكر العربيّ الإسلاميّ ، وانتزاع ثقة العرب والمسلمين بتاريخهم الأصيل وماضي أمتهم العربية الإسلاميّة المجيد ، لتنهار معنوياتهم فلا يستطيعون الحرب والقتال ، ويستسلمون استسلاماً كاملاً للأعداء .

فمن هذه التيارات أو الاتجاهات ، التيار أو الاتجاه الاستعماري الصهيوني الماسونيّ ، الذي يقلب الحقائق رأساً على عقب ، أو يعلِّلها تعليلاً يصوِّر فيه

---

(١) الطبعة الأولى - مطبعة السعادة - القاهرة - ١٣٢٤ هـ - خ صفحة (٣٩٦ - ٣٩٧) .

أمجاد العرب والمسلمين وكأنها أشياء تافهة لا قيمة لها ولا تستحق الذكر أو الفخر!

والذي يتصيّد (المثالب) ويضخّمها ويبرز معالمها ويعمّق آثارها ، ويغضّ الطرف عن (المزايا) أو يهوّن عمداً من قيمتها الحقيقيّة .

وأُطلق على هؤلاء لقب (الجُعَلِيُّون) ، نسبة إلى دابة الأرض التي تسمّى: (الجُعَل) ، وهي دابة لا تستريح إلاّ في المواضع النديّة القذرة ذات الرائحة الكريهة ، فإذا وُضعت في الأماكن الجافة النظيفة ذات الرائحة الطيبة الزكيّة ، ماتت فوراً .

ومن هذه الاتجاهات ، الاتجاه الصليبيّ ، الذي يحاول أن يعزو كلّ مفاخر العرب والمسلمين في الفتح والحضارة والعلوم والفلسفة والفنون إلى المسيحيين ، فالمسيحيون عاونوا في الفتح الإسلامي العظيم ، وهم الذين نقلوا العلوم والفلسفة والفنون من اللغات الأجنبية إلى العربية .

ولا ينكر التاريخ العربيّ الإسلامي عليهم حقّهم ولا حقوق غيرهم ، ولكن إبراز تلك الحقوق وجعلها كل شيءٍ ينكره كلّ مؤرخ منصف ويستنكره أيضاً .

وأُطلق على هؤلاء لقب : الشّمْعُونيون ، نسبة إلى كميل شمعون رئيس جمهورية لبنان الأسبق ، الذي يزعم أنّ كلّ ما في لبنان من خير أصله مسيحيّ ، وكلّ ما فيه من شرٍ أصله عربيّ إسلاميّ ، ويتعاون مع العدو الصهيونيّ نكاية بالعرب والمسلمين !!

ومن هذه الاتجاهات ، الاتجاه الاشتراكي العلميّ ، من أصحاب الاشتراكية العلميّة ، أصحاب الولاء المزدوج : الولاء الأول للأجنبيّ ، والولاء الثاني لوطنهم الأصلي ، فإذا تناقض الولاءان كانت الأسبقيّة لولائهم للأجنبيّ . وهؤلاء يجعلون من كلّ مفخرة عربيّة إسلاميّة (إنجازاً) إشتراكياً ، فالفتح الإسلاميّ مثلاً كان لأسباب اقتصادية ، ويصوّرون كل شخصية عربية

إسلاميّة تحدب على الفقراء شخصية اشتراكية ، دون أن يفقهوا أنّ هذا الحدب قد جعله اللّه (حقاً) للفقراء على الأغنياء ، فقال تعالى : ﴿والذين في أموالهم حقٌّ مَعْلوم ، للسّائل والمحروم﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿وفي أموالهم حقٌّ ، للسّائل والمحروم﴾[2] ، وهذا ما لا يحلمون به ولا يطمعون أن تحظى به شعوبهم المغلوبة على أمرها ، فالنبيّ ﷺ (يساريّ) ، وأبو بكر الصديق رضي اللّه عنه (وسط) ، وعمر بن الخطّاب رضي اللّه عنه (يساري) ، وعثمان ابن عفّان رضي اللّه عنه (يمينيّ) ، وعلي بن أبي طالب رضي اللّه عنه (يساري) [3] ، إلى غير ذلك من المهازل التي يرفضها العقل ويدحضها المنطق ويكذّبها التاريخ ويأباها الدين الحنيف .

ومن أكاذيب هؤلاء ، اعتبارهم ثورة الزنج ثورة تحررية تقدمية اشتراكية إلى غير ذلك من شريط النعوت المسجل التي يطلقونها بغير حساب

ولو كان شعار زعيم الزنج : « تحرير العبيد من أسيادهم »، لهان الأمر ، ولكن كان شعاره : «قتل السّادة ليصبح كل عبد منهم تخدمه سيدة من نسل النبيّ ﷺ ».

أهذا تحرير بعد إبادة الأبرياء ؟ أهذه تقدمية بعد إفناء الأطفال والنساء ؟ أهذه إشتراكية بعد بقر بطون الحوامل من السيدات ؟

وأطلق على هؤلاء لقب : القَصَّابِيّون ، نسبة إلى القصاب الذي ذبح الرجال وسحل الأبطال ، وخرّب البيوت ، ودمَّر المنازل ، وسرق الأموال ، وروَّع الآمنين ، باسم الحرية والتقدمية والاشتراكيّة ، وهو لا يفقه من كل هذه المثل شيئاً [4] .

ومن هذه الاتجاهات الاتجاه القومي ، الذي يحاول أن يعزو كل أثر

---

(١) الآية الكريمة من سورة المعارج (٧٠ : ٢٤) .

(٢) الآية الكريمة من سورة الذاريات (٥١ : ١٩) .

(٣) ألفت كتب كثيرة حول ذلك .

(٤) كان ذلك في ثورة الشواف بالموصل من شهر آذار (مارس) من سنة ١٩٥٩ م .

للإسلام ومجد لتعاليمه وشخصياته للعرب ، والغرض من هذا الاتجاه ، هو جعل الإسلام غير ذي موضوع حاسم في الفتح والحضارة ، بل الفضل كل الفضل في الفتح والحضارة للأمة العربية المجيدة .

ولا أشكّ في أنّ الأمة العربية أمة مجيدة ، وأنا عربيّ ابن عربي من مئات السنين ، وعمر مقبرة عائلتنا في الموصل يمتد إلى سبع مئة سنة ، ولا يكره العرب مسلم حق سواء كان عربياً أو غير عربي ، ولا أكره أن أَسمع على قومي العرب أطيب الثناء .

ولكنّ الواقع شيء ، والاختلاق شيء آخر .

ولست أعرف ديناً سماوياً ولا عقيدة أرضيّة كرّمت العرب أمة وأفراداً ، كما كرّمها الإسلام .

يكفي أن يكون النبيّ عربياً ، ويكفي أن يكون الخلفاء الراشدون والأمويون والعباسيون عرباً .

ويكفي أن يكون كل قادة الفتح الإسلامي وجنوده تقريباً من العرب .

وقد وردت إحدى وأربعون آية كريمة في سور مختلفة من سور القرآن لكريم عن العرب بالذات [١] .

وقال رسول الله ﷺ : « لا يكره العرب إلاّ منافق » [٢]، كما جاء في فضل العرب كثير من الأحاديث النبوية ترويها كتب السنّة [٣] ، منها : « إذا ذلّ العرب ذلّ الإسلام [٤] » ، ومنها : « حبّ العرب إيمان وبغضهم نفاق [٥] » ، ومنها : « أحبّ العرب لثلاث : لأني عربيّ ، والقرآن عربيّ ، وكلام أهل الجنّة عربي [٦] » ، ومنها : « ألا مَنْ أحبّ العرب ، فبحبّي

---

(١) انظر التفاصيل في كتاب : تفصيل آيات القرآن الحكيم - جول لابوم - ص (٥٦٦ - ٥٧١) .

(٢) رواه الإمام أحمد ، انظر مفتاح كنوز السنّة (٣٣٩) .

(٣) انظر الترمذي - الكتاب (٤٦) - الباب (٦٩) .

(٤) رواه أبو ليلى في مسنده .

(٥) رواه الدار قطني عن ابن عمر رضي الله عنه .

(٦) رواه الحاكم والطبراني والبيهقي .

أحبّهم ، ومَن أبغض العرب ، فببغضي أبغضهم [1] » .

وقال الإمام ابن تيميّة : « إنّ العرب أفضل من جنس العجم » ، وقال : « الأحاديث الواردة في فضل قريش كثيرة ، وهي تدل على فضل العرب [2] » .

وقال عمر بن الخطّاب رضي اللّه عنه : « العرب مادة الإسلام » ، وقبيل معركة (القادسية) الحاسمة قال : « واللّه لأضربنّ ملوك العجم بملوك العرب [3] » .

وقال المغيرة بن شُعْبَة لرستم قائد الفرس : « إنّا معشر العرب لا نستعبد بعضنا بعضاً ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى [4] » .

وهتف الأشعببن قيس في يوم من أيام(القادسيّة) يشجِّع قومه على القتال : « يا معشر العرب ! إنه لا ينبغي أن يكون هؤلاء القوم أجرأ على الموت ولا أسخى أنفساً عن الدنيا » [5] .

ولم يقبل النبيﷺ الجزية من عرب شبه الجزيرة العربية، وهذا خلاف الحكم على غيرهم [6] .

وقد ضاعف عمر بن الخطّاب الصدقة على نصارى بني تَغْلِب وأُسقطت عنهم الجزية [7] .

وحتى الفقهاء أعطوا للعرب مكانتهم ، ففي بيان ما تعتبر فيه الكفاءة في قضايا الزواج ، ذكروا أشياء منها النّسب ، فقالوا : « والعرب بعضهم أكفاء لبعض : رجل برجل ، والموالي أكفاء بعضهم لبعض : رجل برجل ، لأنّ

---

(١) رواه الطبراني .

(٢) انظر التفاصيل في كتابنا : قادة فتح الشام ومصر (٣٤٥ - ٣٤٩) .

(٣) ابن الأثير (٢ / ١٧٢) .

(٤) ابن الأثير (٢ / ١٧٩) .

(٥) الطبري (٣ / ٦٦) .

(٦) الخراج لأبي يوسف (٧٠) .

(٧) الخراج (١٤٣) والبلاذري (١٨٥ - ١٨٦) .

التفاخر والتعيير يقعان بالأنساب ، ولا تكون الموالي أكفاء للعرب ، لفضل العرب على العجم »[1] .

وقال السرخسي : « العرب بعضهم أكفاء لبعض ، فإنّ فضيلة العرب بكون رسول الله ﷺ منهم، ونزول القرآن بلغتهم . قال رسول الله ﷺ: حبّ العرب من الإيمان. وقال لسليمان الفارسي: لا تبغضني! قال: وكيف أبغضك وقد هداني الله بك؟ ! فقال: تبغض العرب فتبغضني»[2].

ولو أردنا أن نستقصي كل ما جاء في فضل العرب من أقوال أئمة المسلمين لجئنا بأقوال لا تُعَدّ ولا تحصى [3] .

ولا أظنّ أنّ هناك عربياً واحداً ، مسلماً كان أو مسيحياً ، مخلصاً (حقاً) لقومه العرب ، ينبذ الإسلام ويتنكر لأثره العظيم في العرب ، إلاّ إذا كان جاهلاً كلَّ الجهل ، أو صليبياً يكره الإسلام ويحاربه ، أو عميلاً للاستعمار والصهيونية ، أو مغرراً به كلّ التغرير .

إنّ الذي يزعم أنّ النبي ﷺ عبقرية عربية فحسب، لا يقول الحق ويخفي في نفسه ما الله مبديه، فالنبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

والذي يزعم أنّ الأمة العربية المجيدة أنجبت الخلفاء الراشدين وقادة الفتح ومشاهير العلماء وقادة الفكر ، دون أي أثر للإسلام في هذه الأمة ، كذاب أشر، لأنه يكره الإسلام ويتظاهر بحب العرب ، وليس هناك عربي يحب العرب ولا يحب الإسلام ، فالذي لا يحبّ الإسلام لا يحب العرب .

ولنذكر الخلفاء الراشدين الأربعة : أبا بكر وعمر وعثمان وعليّاً رضي الله

(١) البدائع (٢ / ٣١٩) ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ ١٣٢٤ هـ .

(٢) السرخسي (٥ / ٤٤) ـ مطبعة السعادة ـ ١٣٢٤ هـ .

(٣) انظر التفاصيل في بحث : أثر الإسلام في العرب ، الوارد خاتمة لكتابنا : قادة فتح الشام ومصر (٢٦٧ ـ ٣٥٥) .

عنهم ، فلا أدري لولا الإسلام ماذا يمكن أن يكونوا ؟ وهل كان يعرفهم أحد من الناس اليوم ؟!

إن الإسلام ليس ديناً فحسب ، بل حضارة متكاملة للعرب مسلمين وغير مسلمين ، فما عسى أن نصف الذي يتنكر لحضارته ، إذ لولا الإسلام لما كان للعرب مجد ولا حضارة ولا صفحات مشرِّفة في التاريخ .

وأي معنى للعرب بدون إسلام ؟؟ !!

وأطلق على هؤلاء لقب : الجاهليّون ، نسبة إلى الجاهلية في عصبيتها القبليّة وشركها وتخبطها ، وهذا هو معنى الجاهلية : جهالة وضلالة ، والحالة التي تكون عليها الأمة قبل أن يجيئها الهدى والنبوّة .

ومن هذه الاتجاهات الاتجاه الشُعوبي ، وهو المفضِّل أمر العجم على العرب والمصغِّر أمر العرب ، والمحاول الحطّ منهم [1] ، وهو مفرد الشُعوبِيّة ، وكانت نزعة في العصر العباسي تنكرت للعرب أي تنكّر وعادتهم أيّ عداء .

وهؤلاء يقلِّلون من شأن العرب ، ويغمطون حقّهم ويحطّون من قدرهم ، وينكرون عليهم كل فضل ويتنكرون لهم ، بالتظاهر بالإخلاص للإسلام والدفاع عنه .

ولا يمكن أن يحبّ المرء الإسلام ويخلص له ويتمسّك بتعاليمه ويلتزم به ، ثم يكره العرب مادة الإسلام ويتنكّر لهم وينكر فضلهم ويقلِّل من شأنهم ويغمط حقهم في أمجاد المسلمين حضارة وفتحاً .

إنّ العرب جسد ، روحه الإسلام ، والجسد بدون روح فناء ، والجسد بالروح بقاء .

وأطلق على هؤلاء لقب : الشُعوبيون ، ولا يكره العرب إلاّ منافق كما قال عليه أفضل الصّلاة والسّلام .

---

(١) متن اللغة (٣ / ٣٢٨) والوسيط (١ / ٨٤٤) .

إنّ كل عربي مسلم ، لا يأتمن الجُعَليين والشّمعونيين والقصابيين والجاهليين والشعوبيين على إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي ، فهؤلاء يمسخون التاريخ ويشوّهون معالمه، ويزيفون أحداثه ويدسون ويفترون ويشككون باسم البحث العلمي ، وهذا البحث منهم براء .

إنه لا يؤتمن على إعادة كتابة التاريخ غير العربي الحق والمسلم الحق ، فهؤلاء يعيدون كتابته بأسلوب العصر ، وينقونه من الشوائب ، ويبرزون مفاخره ورجاله .

وقد كان السَّلف الصّالح منَ المؤرخين يعتبرون التاريخ الإسلامي هو التطبيق العملي لتعاليم الإسلام تمشي على الأرض ، لذلك كانت الدراسات التاريخية مكمِّلة لدراسات علوم الدين ، فلا عجب أن يتوخّى المؤرخون الحقيقة ولا يدوّنون غير الحقائق .

وكان أسلوبهم في التدوين مختصراً اختصاراً غير مُخِلّ ، يتطرّق إلى ذكر الحوادث والأحداث كما جرت ، دون اللجوء إلى الإطناب المُمِلّ بدون أيِّ مسوِّغ .

وإذا قارنتَ أسلوب تدوين التاريخ الإسلامي الأول ، بأسلوب المؤرخين الأجانب ومَنْ قلّدهم من مؤرخينا المستغربين ، لمستَ كيف يصف التاريخ الإسلامي الحوادث والأحداث (بكلمات) تشفي الغليل ، وكيف يصف الأجانب والمستغربون نفس الحوادث والأحداث (بصفحات) [1] ، فإذا قضيت وقتك في استيعاب تلك الصفحات ، وجدت أنك تعيش في التيه بعد

---

(١) قرأت مقالاً لمستشرق كبير عن : العلاقات بين البيزنطيين والمسلمين في العصر الأموي ، في خمس وثلاثين صفحة من القطع الكبير ، خلاصته أنّ الوليد بن عبد الملك استعان بملك الروم لايفادعمال مهرة إلى دمشق لبناء المسجد الأموي ، وعدت إلى الطبري فوجدته يذكر الحادثة بنصف سطر ، وكلامه واضح جلي ، بينما المستشرق لفّ ودار ، ليجعل القارىء يصاب بالغثيان والدوار ، فقد جعل من الحبّة قبّة ، وحمّل الأمور ما لا تحتمل ، وكل الذي أراد أن يقوله : إن المسلمين كانوا بحاجة إلى عون الروم الفني ، وتمخض الجبل فولد فأرة !!!

أن ضيّعت معالم الطريق وضيّعت وقتك ؛ والتاريخ يقين ، ما دام المؤرخ أميناً غرضه نفع الناس، فأصبح اليوم شكاً ما دام المؤرخ غير أمين، غرضه زرع الشكوك .

وكان المؤرخون الأولون من خريجي المسجد الذي كان جامعاً وجامعة ، فأصبحوا اليوم - إلاّ مَنْ رحم اللّه - من خريجي الجامعة التي هي كنيسة وكنيس ، حتى إذا كانت جامعة عربية أو إسلامية ، ما دامت مناهجها مستنسخة من جامعات الأجانب ، وما دام أساتذتها من خريجي الجامعات الأجنبية الذين يعرفون تاريخهم عن طريق أساتذتهم الأجانب المريبين .

وقد تحدثت عن التاريخ والمؤرخين ، والدعوة إلى إعادة كتابة التاريخ ، مختاراً أخف الضررين ، لأنّ ما يراد بالعربية الفصحى أشدّ وأنكى وأبلغ ضرراً .

إنّ المستعمِرين والصهاينة وأعداء العرب والمسلمين ، يبيّتون القضاء المبرم على العربية الفصحى ، لأنها لغة القرآن الكريم التي تربط المشرق العربي بالمغرب العربي ، والبلاد الإسلاميّة بالبلاد العربية ، وهي أقوى عوامل الوحدة وأولها .

فإذا استجبنا للدعوة إلى العامية ، تفرّق الشمل وتبدّد أمل الوحدة ، وأصبح العربي غريب اللِّسان عن أخيه العربي ، ثم أصبح هذا القرآن مهجوراً ، لا يفهمه إلاّ من يتقن الفصحى بعد إشاعة العامية والقضاء على الفصحى .

وإذا استجبنا للدعوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية ، شطبنا على التراث العربي الإسلامي المكتوب بالأحرف العربية ، وفتحنا الأبواب لتحريف القرآن الكريم ، والنتيجة استئصال العرب والمسلمين من الجذور ، فلا تراث ولا قرآن .

والأجانب ، وأعداء العرب والمسلمين ، وعلى رأسهم الاستعمار

والصهيونية وآلتهم الخفيّة وهي الماسونية ومَنْ يواليها من المستغربين ، لا يفقدون الأمل لحظة واحدة لتحقيق أهدافهم التخريبية الهدامة في الدعوة إلى العاميّة وإلى الكتابة بالأحرف اللاتينية وإلى التهوين من شأن العربية الفصحى والتقليل من قيمتها وجعلها غريبة في وطنها متخلفة بين أهلها ، فيجب الحذر واليقظة ، وعدم التساهل بكل ما يمتّ بصلة قريبة أو بعيدة إلى العربية الفصحى ، تصدر من أي إنسان وتحمل أي شعار ، سواء كان التساهل في الأمور الصغيرة أو الكبيرة منها ، لأن كل خرق مهما يكن صغيراً لا بدّ أن يتوسّع بالتدريج ، فتغرق السفينة ، ويغرق الربّان ، ويغرق الرّكاب .

وكل عربي مخلص أمين ، وكل مسلم مخلص أمين ، مجنّد للدفاع عن لغة القرآن الكريم وتاريخ العرب والمسلمين ، ومدعو لحشد طاقاته المادية والمعنوية في هذا الدفاع وعلى هذا الصعيد .

وما أنا إلاّ نذير بين يَدَيْ خطر عظيم وعذاب أليم ، فحذارِ من الاستعمار والصهيونية والماسونية وأعداء العرب والمسلمين ، وحذارِ من المستغربين الذين لم يتخلّوا عن أسمائهم العربية ودينهم الإسلامي في الظاهر ، ليعاونوا أعداء أمتهم ودينهم على نسف أمتهم ودينهم ، ولولا خشية انكشاف تعاونهم المريب مع الأعداء ، لتخلّوا عن أسمائهم العربية ودينهم الإسلامي في السر على الأقل .

في أيّة ساعة من الليل نحن ؟!

لقد طال الليل البهيم ، وتضافر التعب الشديد مع العدو العنيد ، فمتى يأتي الفجر الصادق ، ليتبيَّن العرب والمسلمون الخيط الأبيض من الخيط الأسود ؟!

وقد تزاحمت الأباطيل ، وتراكمت الأضاليل ، وغُلِّف الباطل بغلاف الحق ، وَزُين الضلال بزينة الهداية ، وارتدى العدو ثوب الصَّديق ، وترعرع الفتى ليبطش بأُمِّهِ ، وشبَّ الغلام ليغتال أباه .

لستُ أدري بأية ساعة من الليل نحن ، ولكنني أدري بأنّ الصبح آتٍ بإذن اللّه ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللّه .

وصدق اللّه العظيم : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ ولَـمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ والضَّرَّاءُ وزُلْزِلوا ، حتى يقولَ الرَّسُولُ والذينَ آمنوا مَعَهُ : مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ، ألآ إنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ ﴾ [1] .

ياالله ! لَكَأنَّ هذه الآية أُنزلت الآن ، وكأنني لم أقرأها قبل اليوم ، جاءت من وراء الغيب ، تطيِّب قلوب المؤمنين من العرب والمسلمين ، وتمدها بمزيد من الأمن والسكينة والاطمئنان ، وتبعث فيها الصبر على الشدائد والقوّة على الصِّعاب ، وتبشِّرها بأنّ نصر اللّه قريب .

واللّه يعلم أنني ما خطّطت لأختم مقدمة هذا الكتاب بهذه الآية الكريمة العظيمة ، ولكنها جاءت كالنور المتألِّق في وسط دياجير الظلام ، فوضعتها في مكانها بغير إرادتي ، واستبشرت بها كثيراً بعد ما يقرب من اليأس ، وانشرح بها صدري بعد أن استحكمت فيه الهموم .

واللّهَ أدعو ، أن يُحَقِّق النصر القريب ، وأن يفيد بهذا الكتاب ، وأن يبقيه علماً ينفع الناس ويمكث في الأرض ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم .

محمود شيت خطاب

بغداد : الثلاثاء : ٢٦/ محرم الحرام/ ١٣٩٩ هـ
٢٦/١٢/١٩٧٨ م

---

(١) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ٢١٤) .

الثّكنة الأولى

لا حدود للعِبَر والدروس المقتبسة من سيرة النبيّ ﷺ في حياته المباركة : قولاً وعملاً ، وخُلُقاً ومعاملة ، وتصرُّفاً وسلوكاً ، فهو الأسوة الحسنة والقدوة الحميدة للمسلمين في كل زمان ومكان ، ولغير المسلمين أيضاً من ذوي المُثُل العليا ، يتعلّم مَن يتعلّم منها ما يفيده في حاضره ومستقبله ، ويُعَلِّم منها من يشاء من تلاميذ وطلاّب .

وقد صدرت كتب وبحوث ودراسات بالعربية وغيرها من اللُّغات ، لا تكاد تُعَدّ ولا تُحْصى ، تتضّخم مع الزّمن وبمروره كميّةً وكيفيّةً ، كتبها مسلمون ملتزمون ، ومسلمون جغرافيون وغير مسلمين من مختلف الأجناس والألوان واللُّغات والاتجاهات ، في السيرة النبويّة العطرة المطهّرة ، لم يصدر عشر معشارها عن شخصيّة عالميّة أخرى منذ خلق اللّه الإنسان وعلّمه ما لم يكن يعلم حتى اليوم ، وستصدر أضعافها عَدَداً ونوعاً في المستقبل القريب والبعيد بحول اللّه وقوّته ، حتى يرث اللّه الأرض ومَن عليها .

وقد أجرت هيئة علمية تابعة لهيئة الأمم المتحدة خاصة بالعلوم والآداب والفنون ، إحصائية عن الكتب والبحوث والدراسات والمؤلفات ، التي نُشرت عن الشخصيّات العالمية من القمم السّامقة ، كالأنبياء والرُّسل والمصلحين ، وقادة الفكر والسياسة والعسكرية ، وأصحاب المذاهب العالمية الشّائعة والمِلَل والنِّحَل ، فتفوّق ما صدر عن الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام ، على ما صدر عن قِمم الشخصيّات العالميّة الأخرى تفوّقاً بعيداً كاسحاً ، وكانت

النسبة التي صدرت عنه، بالمقارنة مع ما صدر عن الشخصيّة التالية له في تعداد الكلمة المكتوبة، كالنسبة بين الجبل الضخم الذي يوضع في كفة الميزان، وبين لفافة القطن التي توضع في كفَة الميزان الأُخرى !!

ومن أطرف ما صدر في نهاية النصف الأول من سنة ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م)، كتاب ألّفه عالم أمريكي، حشد فيه سير مئة شخصية عالمية كان لها أثر حاسم في مجال نشاطها العلمي أو الفني أو الأدبي أو الإصلاحي، ثم وضع على رأس قائمة المؤثِّرين في مجالاتهم المختلفة النبيَّ العربيَّ عليه الصَّلاة والسّلام، ذاكراً أنه أعظم من أنجبتهم البشرية على الإطلاق وأكثرهم تأثيراً وأثراً في النفوس والعقول معاً.

وهذا المؤلِّف [1] الأمريكيّ ليس عربياً ولا مسلماً ليمكن اتهامه بالتحيُّز وسيطرة العاطفة، ولكنه عالم مسيحيّ لا علاقة له بالعرب والمسلمين من قريب أو بعيد.

وليس هذا الكتاب أول كتاب في بابه، ولن يكون آخر كتاب، وقد آثرته بالتنويه دليلاً على استمرارية الكتابة عن النبيّ ﷺ بأشكال وأساليب شتى، لأنّ كل مَنْ يمعنُ النظر في سيرته المباركة، يجد جديداً في شخصيّته النادرة التي لا تتكرّر أبداً.

وقد درستُ سيرته العطرة المباركة منذ استطعت القراءة، وأنصتّ بلهفة وشوق إلى المتحدثين عن تلك السيرة، فوجدت أنّ حياته تتلخّص في: التوحيد والجهاد.

لقد وحّد النبيّ ﷺ في مكة المكرّمة، منذ مبعثه إلى هجرته إلى المدينة المنوّرة من أجل الجهاد: وحّد الأفكار بالتوحيد، ووحدَ الصفوف بالتوحيد،

---

(١) اسمه د. مايكل هارث، واسم كتابه: المئة الأوائل. وقال المؤلف: إن اختياري محمداً ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ قد يدهش القراء، ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح في المستويين الديني والدنيوي، فهو الذي بدأ الرسالة الدينية والدنيوية وأتمها.

ووحدَ الأهداف بالتوحيد ، وجمع الشمل بالتوحيد ، وبنى الإنسان بالتوحيد ، وأزال نعرات الجاهلية بالتوحيد ، وغرس التضحية والفداء بالتوحيد ، وجعل المسلمين كالبناء المرصوص بالتوحيد .

وجاهد النبيّ ﷺ منذ هجرته من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة،حتى التحق بالرفيق الأعلى من أجل التوحيد ، فكان جهاده لتكون كلمة اللّه هي العليا في الأرض .

وكانت همّته العالية منصرفة بكل طاقاتها المادية والمعنوية إلى غاية سامية هي : بناء الرجال والنساء ، بناء الإنسان المسلم ، ليكون قدوة للآخرين أخلاقاً وسلوكاً ومعاملة ومنهجاً وأسلوباً في الحياة .

وكان سبيله إلى بناء الإنسان المسلم هو التوحيد من أجل الجهاد ، والجهاد من أجل التوحيد ، وبالتوحيد،أشاع الانسجام الفكري لأول مرة في التاريخ بين العرب ، وهذا الانسجام جعل التعاون بينهم ممكناً ، إذ لا تعاون مؤثّراً بغير انسجام فكري ،يذيب الاختلافات ويقضي على النزعات ويحمي من الأهواء . كما أنّ هذا الانسجام جعل الجهاد ممكناً أيضاً ويقود إلى النصر ، إذ إنّ التعاون الوثيق والجهاد المقدس الذي تستثيره العقيدة الواحدة،جعل من المسلمين قوّة ضاربة لا تقهر أبداً ، فوحّد الرسول القائد في أيامه شبه الجزيرة العربية كلّها تحت لواء الإسلام ، ولا نعرف لها وحدة بأي شكل من قبله أبداً ، فكان جيش النبيّ ﷺ ،الذي أنشأه وأرسى دعائمه خلال عشر سنوات من عمره المبارك ، هو الذي حمل رايات المسلمين شرقاً وغرباً من بعده ، وتحمّل أعباء الفتح الإسلامي العظيم،الذي شمل خلال ثمانين عاماً من الصين شرقاً إلى قلب فرنسا غرباً ، ومن سيبيريا شمالاً إلى المحيط جنوباً ، فكان هذا الفتح فتحاً مستداماً لم ينحسر إلاّ عن الأندلس انحساراً سياسياً وعسكرياً ،وبقي ثابتاً راسخاً فيها فكرياً وثقافياً حتى اليوم .

وتاريخ جيش النبيّ ﷺ ، يبدأ من يوم مبعثه ، فعمل ﷺ

جاهداً في ميدان بناء الإنسان وهو في مكة المكرّمة ، وحين هاجر إلى المدينة المنورة وأمر أصحابه بالهجرة إليها ، بدأ تنظيم الجيش الإسلامي وتسليحه وتجهيزه وقيادته ، ومعنى الهجرة إلى المدينة المنورة من الناحية العسكريّة،هو حشد المجاهدين في قاعدة أمينة استعداداً للنهوض بأعباء الجهاد .

وبادر النبي ﷺ بعد استقراره في المدينة المنوّرة ، إلى اختيار موضع مناسب لبناء مسجده ، وبدأ ببنائه باللِّبن ، وشارك أصحابه في حمل اللَّبنات والأحجار على كواهلهم ، فتمّ بناء المسجد : فراشه الرَّمل والحصى ، وسقفه الجريد ، وأعمدته الجذوع .

وتمّ ببناء مسجد النبيّ ﷺ في المدينة المنوّرة ، بناء الثُكْنَة الأولى في الإسلام .

وفي مسجد النبيّ ﷺ أخذ بناء المسلم يؤتي أُكُله مرتين ، لينتظم أفراد المسلمين في صفوف المجاهدين : غير القادرين على الجهاد من أبناء المسلمين ليكونوا جيش المستقبل وجنود الفتح الإسلامي وقادته ، والقادرين على الجهاد من المسلمين ليكونوا جيش الحاضر والمستقبل وجنود الفتح وقادته ، والقادرون وغير القادرين في المسجدالنبويّ ، يُحقنون بمصل الجهاد مادياً ومعنوياً ، ليصبح المسلم مجاهداً بماله ونفسه في سبيل اللّه .

ولم يُؤْذَن للمسلمين بالقتال قبل الهجرة من مكة المكرّمة إلى المدينة المنورة بالرغم مما تحمّلوه من تعذيب وتشريد واضطهاد . وفي مكة المكرّمة ،اجتمع النبيّ ﷺ بسبعين رجلاً من مسلمي المدينة المنوّرة ليلاً في : (العَقَبة)،في: بيعة العقبة الثانية ، فاستمع أحد المشركين وهو يتجوّل بين مضارب الخيام ومنازل الحجيج ما دار في اجتماع (العقبة) ، فصرخ ينذر أهل مكة :«إنّ محمداً والصبّاء معه قد اجتمعوا على حربكم » .

ولم يكترث مسلمو المدينة بانكشاف أمرهم ، بل أرادوا مهاجمة قريش بأسيافهم ، ولكنّ النبيّ ﷺ أمرهم بالتفرّق والعودة إلى رحالهم، إذ لم يأذَن الله لهم بالقتال .

وبعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة ، نزلت أول آية من آيات القتال :﴿ أُذِنَ للّذين يُقَاتَلون بأنهم ظُلموا وأنّ اللّه على نَصْرهم لَقَدِير . الذين أُخْرجوا من ديارهم بغير حق ٍ إلاّ أن يقولوا رَبُّنا اللّه﴾[1] ، فخرج الرسول القائد عليه أفضل الصَلاة والسَلام غازياً في شهرصفر،على رأس اثني عشر شهراً من مَقْدمه إلى المدينة ، وبذلك بدأ الجهاد الفعلي في الإسلام [2] .

لقد أمضى النبيّ ﷺ اثنتي عشرة سنة في مكّة المكرَّمة وسنة واحدة في المدينة المنورة بعد هجرته إليها،يعمل جاهداً في ميدان بناء الإنسان المسلم ، منفِّذاً رسالته في مجال الجهاد الأكبر .

وأمضى عشر سنوات في المدينة المنوّرة من بداية الجهاد الأصغر ، حتى التحق بالرفيق الأعلى منفِّذاً رسالته في مجال الجهاد الأكبر ، وهو بناء الإنسان المسلم ، ومنفّذاً بالإضافة إلى ذلك رسالته في مجال الجهاد الأصغر ، وهو الجهاد بالأموال والأنفس لإعلاء كلمة اللّه .

ومن المعلوم أنّ النبيّ ﷺ بُعث في الأربعين من عمره، وتُوفي عن ثلاث وستين سنة ، فكان نبيّاً ورسولاً ، وقائداً ومعلماً ، ورائداً وقدوة ، ثلاثاً وعشرين سنة ، بلّغَ الرسالة ، وأدَّى الأمانة خلالها في مجالين : مجال الجهاد الأكبر ، ومجال الجهاد الأصغر ، فعلمنا أنّ الجهاد الأكبر هو الأصل ، ولكنّ هذا الجهاد لا يبلغ غايته ويحقِّق أهدافه ويصونه ويحميه إلاّ الجهاد الأصغر ، فلا حق بغير قوة ، ولا قوّة بغير مجاهدين صادقين ، يجاهدون أنفسَهم أولاً ، لينتصروا على أعداء الإسلام بالأنفس الطّاهرة ذات الأخلاق المحاربة ، لا بضخامة العَدَد والعُدَد ، إذ لم ينتصر المسلمون أبداً بالتفوّق العَدَديّ والعُدَدِيّ على أعدائهم في أيام النبيّ ﷺ وفي أيام الفتح الإسلامي العظيم، بل انتصروا بتطبيق تعاليم الإسلام نصاً وروحاً ، فلما بدّلوا ما بأنفسهم،وضعفوا

---

(١) الآيتان الكريمتان من سورة الحج (٢٢ : ٣٩ ـ ٤٠) .

(٢) انظر التفاصيل في كتابنا : الرسول القائد (٢٧ ـ ٢٨) .

أمام أنفسهم الأمّارة بالسوء ، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، تبدّلت انتصاراتهم إلى هزائم ، ولم يُفْلحوا أبداً .

إنّ تاريخ جيش النبيّ ﷺ ، بدأ من أول لحظة نزل فيها عليه الوحي ، فأعدّ عليه الصّلاة والسّلام جنوده وقادته (أفراداً) في مكة المكرّمة ببناء الإنسان المسلم ، فلما هاجر إلى المدينة المنورة وشيّد مسجده فيها ، بدأت مرحلة جديدة من تاريخ ذلك الجيش ،هي مرحلة تنظيم (الأفراد) قادة وجنوداً ، استعداداً للجهاد الأصغر ، ولم تمض سنة كاملة على إكمال تشييد المسجد ، إلاّ وأصبح جيش النبيّ ﷺ متكامل التنظيم ، جاهزاً لتحمّل أعباء الجهاد.

فقد اتخذ النبيّ ﷺ من مسجده مقراً للقيادة ، يُعِدُّ فيه الخطط ، ويعقد مجالس الجهاد ، ويُصْدِر (الأوامر) ، وينصت إلى آراء المستشارين .

وكان يحشد أصحابه في المسجد ، ويشحنهم بطاقات مادية ومعنوية ، ويحرِّض المؤمنين على الثبات ، وينهاهم عن الفرار ، ويحذِّرهم من الفُرقة والنزاع ، ويأمرهم بالطاعة والضبط ، ويشيع فيهم الإلفة والنظام .

وكانت الغزوات والسرايا تنطلق من المسجد ، وتُعقد الرايات والأعلام والبنود في المسجد للمجاهدين ، وكان أصحابه يجتمعون في المسجد حين يداهمهم الخطر ، ويعود المجاهدون من الغزوات والسرايا إلى المسجد ، وتضمّد جروح المصابين في المسجد ، ويتعلّم المسلمون أحكام الجهاد في المسجد .

والفرق بين الغزوات والسرايا ، أنّ الغزوات يقودها النبيّ ﷺ ، والسرايا يقودها قادة النبيّ ﷺ .

أخرج الشيخان ـ واللفظ لمسلم ـ عن أنس رضي اللّه عنه ، قال : « كان رسول الله ﷺ أجود النّاس ، وكان أشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق الناس قِبَل الصّوت ، فتلقّاهم رسول الله ﷺ راجعاً وقد سبقهم إلى الصّوت ، وهو على فرس لأبي طلحة رضي اللّه عنه ، يجري في عنقه السّيف وهو يقول : «لم تُراعوا . . . لم تُراعوا . . . » .

سبق النبيّ ﷺ جماعة الاستطلاع إلى الصوت، وكان الصّحابة رضي الله عنهم في المسجد : تحشّدوا فيه انتظاراً لتنفيذ أوامر الرسول القائد عليه الصّلاة والسّلام .

لقد كان المسجد في أيام النبيّ ﷺ (مَثَابَةً) للمجاهدين قادة وجنوداً، و(المثابة) في المصطلحات العسكرية ، هي مكان اجتماع القائد برجاله ، وكان المنادي ينادي حين يتعرّض المسلمون إلى خطر داخليّ أو خارجي : الصّلاة جامعة . . . الصّلاة جامعة . . . فيتقاطر المجاهدون إلى المسجد زرافات ووحداناً ، عليهم السِّلاح كاملاً ، ويجهز لهم مَن وراءهم الخيل والإبل والأمتعة والتجهيزات ، ليصاولوا العدو فوراً ويقضوا على الخطر الدّاهم ، تنفيذاً لخطّة قائد واحد ، تحقيقاً لغاية واحدة ، هي الدفاع عن الإسلام والمسلمين .

لقد كان الرّسول القائد ، النبيّ العربي محمد بن عبد اللّه الهاشميّ القُرَشِيّ صلوات اللّه وتسليمه عليه ، أبا الجيش الإسلاميّ الأول ، ومؤسِّسَه وقائده ، ومطوِّره ورائده ، وبشيره ونذيره ، ومُنظِّمه ومدرِّبه ، ومجهِّزه ومسلِّحه ، وباعث كيانه وموطِّد أركانه ، وراسم أهدافه ومُخطِّطها ، وأُسوته الحسنة وقدوته .

وتاريخ الجيش الإسلامي الأول ، جيش المهاجرين والأنصار ومَن اتبعهم بإحسان وأصحاب النبيّ ﷺ كافة، ذلك الجيش الذي تحطمت على صخرته العاتية القوية محاولات الرِّدة في أيام الخليفة الأول أبي بكر الصِّديق رضي اللّه عنه ، والذي كان النواة الأولى للفتح الإسلاميّ العظيم، في عهد الشيخين أبي بكر الصِّديق وعمر الفاروق ،وفي النصف الأول من عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفّان ذي النورين رضي اللّه عنهم ، يتلخّص بأربعة أدوار تدرّج بها من الضعف إلى القوّة ، ومن الدِّفاع إلى الهجوم ، فأصبح قوّة ضاربة ، ذات عقيدة راسخة ، ومعنويات عالية ، تعمل تحت قيادة واحدة ، لتحقيق غاية واحدة .

وهذه الأدوار الأربعة هي:

الدور الأول: هو دور التحشّد: من بعثته ﷺ سنة (٦١٠م)، إلى هجرته للمدينة المنوّرة سنة (٦٢٢م) واستقراره هناك.

وفي هذا الدور، اقتصر النبيّ ﷺ على نشر الدعوة: يبشّر وينذر، ويرسّخ العقيدة، ويجاهد بكل طاقاته لتبليغ الدعوة ونشر الإسلام. وبهذا الجهاد الأكبر، كوّن الخميرة الأولى لجيش المسلمين، ثم حشدهم في المدينة المنوّرة بالهجرة إليها، فكانت المدينة القاعدة الأولى لجيش المسلمين.

والدور الثاني: هو دور الدِّفاع عن العقيدة: وقد اقتصر في السنة الأولى من الهجرة على تنظيم الجيش الإسلاميّ وإعداده للجهاد، ثم بدأ بعد نزول الإذن بالجهاد الأصغر، يرسل السرايا بقيادة القادة من أصحابه، وقاد الغزوات، وانتهى هذا الدور بانسحاب الأحزاب عن المدينة المنوّرة بعد غزوة (الخندق) [١].

وفي هذا الدور كان مولد الجيش الإسلاميّ جيشاً مجاهداً، في ظل مسجد النبيّ ﷺ، فازداد عدد المسلمين وأحرزوا انتصاراً حاسماً في غزوة (بدر الكبرى) [٢]، وأثبت جدارته في الدفاع عن الدّعوة وعن حماية حرية انتشارها تجاه أعداء المسلمين المتفوِّقين عليهم عَدَداً وعُدَداً.

والدور الثالث: هو دور التعرّض: من بعد غزوة (الخندق) إلى غزوة (حُنَيْن)، وفي هذا الدور انتشر الإسلام في شبه الجزيرة العربية كلها، وأصبح جيش المسلمين قوّة ذات اعتبار وأثر في البلاد العربية، واستطاع سحق كل قوّة تعرّضت للمسلمين.

والدور الرابع: هو دور التكامل: من بعد غزوة (حُنَيْنْ) إلى أن التحق

---

(١) كان ذلك في شوال من السنة الخامسة للهجرة.

(٢) كان ذلك في رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة.

(٣) كان ذلك في شوال من السنة الثامنة الهجريّة.

النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى،يوم الاثنين من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة الهجرية .

وفي هذا الدور تكاملت قوّات المسلمين ، فسيطرت على شبه الجزيرة العربية كلها سيطرة تامّة دون منازع ، ووحّدتها توحيداً كاملاً تحت لواء الإسلام ، وأخذت تحاول أن تجد لها متنفَّساً خارج شبه الجزيرة العربية ، فكانت غزوة (تَبوك) [1] إيذاناً بمولد الدولة الإسلامية [2] .

ولست بحاجة إلى إثبات قابليّة النبيّ ﷺ القياديّة : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾[3] ، فقد كانت قيادته فذّة نادرة لا تتكرّر أبداً .

ولكنّ الفضل ما شهدت به الأعداء ، فقد كتب المشير اللّورد مونتغومري أعظم قائد بريطاني في الحرب العالمية الثانية :(١٩٣٩ - ١٩٤٥)،في آخر كتاب ألّفه وصدر سنة (١٩٦٢) بعنوان : (السبيل إلى القيادة) ، ما نصّه : « مَنْ هم أعظم القادة في كل الأزمان ؟ إنهم بدون شك مؤسسو الديانات العظمى : المسيح ومحمد وبوذا » [4] .

وربما يُتَّهم مونتغومري بأنه أدرج السيد المسيح عليه السّلام بين القادة العظام ، لأنه مسيحيّ متعصب لدينه المسيحيّ ، ومن المعروف عنه أنه متمسِّك بدينه إلى أبعد الحدود ، ولكنه لا يمكن أن يُتَّهم بتعصبه للإسلام .

ولست أعتزّ بهذه الشهادة ولا قيمة لها في نظري ، كما لا ينبغي أن يعتز بها مسلم حسن الإسلام ، ولكنني أوردت شهادته ليطّلع عليها مَن لا تُطربهم مغنية الحيّ ، عبيد الاستعمار الفكري البغيض،الذين تبهرهم أقوال الأجانب ولو كانت فجّة متهافتة ، ولا تعجبهم أقوال بني قومهم ولو كانت حكيمة رصينة !!

---

(١) كان ذلك في رجب من السنة التاسعة للهجرة .

(٢) انظر كتابنا : الفاروق القائد (٢٨ - ٢٩) .

(٣) الآية الكريمة من سورة الأنعام (٦ : ١٢٤) .

(٤) السبيل إلى القيادة (١٧) و(٢٨٢) .

لقد قاد النبيّ ﷺ بنفسه ثمانٍ وعشرين غزوة خلال سبع سنين، من بعد هجرته من مكة المكرّمة إلى المدينة المنورة ، فقد خرج إلى غزوة (وَدّان)، وهي أول غزوة قادها بنفسه الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام في صفر من السنة الثانية الهجريّة ، وكانت غزوة (تبوك) آخر غزواته في رجب من السنة التاسعة الهجريّة ، وقد نشب القتال بين المسلمين الذين يجاهدون بقيادة النبيّ ﷺ من جهة، وبين المشركين ويهود بتسع غزوات من تلك الغزوات وهي : بَدْر ، وأُحُد ، والخندق ، وقُرَيْظة ، والمُصْطَلِق ، وخَيْبَر ، وفتح مكة ، وحُنَيْنْ ، والطَّائف ، بينما فرّ المشركون في تسع عشرة غزوة منها بدون قتال [1] .

وكان من بعض ثمرات هذه الغزوات،توحيد شبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام .

وبدأ الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسَّلام ، يخطط للفتح الإسلاميّ العظيم ، فهو الذي رسم الخطّة التمهيديّة التي حملت جيش المسلمين على فتح (أرض الشام) : فلسطين والأردن وسورية ولبنان ، وتأسيس أول ركن لدولة الإسلام خارج شبه الجزيرة العربيّة،على شواطىء البحر الأبيض المتوسِّط الشرقيّة . ذلك أنّ الرسول القائد عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام ،إلى جانب تبليغه الدعوة الإسلامية إلى قادة العالم في وقته : كسرى فارس وقيصر القُسْطَنْطِينِيَّة، وأمراء وقادة العراق وأرض الشام ومصر والخليج العربي واليمن ، كان قائداً ماهراً يقظاً لا يغضّ الطرف عن أي مظهر عدوانيّ قد يحطّ من شأنِ دعوته ،أو يعمل على النيل منها،أو يضع العراقيل في طريق حريّة انتشارها ، فلم يقف ساكناً إزاء استشهاد رسوله الذي بعثه إلى أمير الغساسنة في (بُصرى)[2] ، فأرسل في السنة الثامنة الهجرية (٦٢٩م) أحد قادته المقرّبين

---

(١) أنظر التفاصيل في كتابنا : الرسول القائد (٤٢٣ ـ ٤٢٤) .

(٢) بصرى : قصبة كورة (حوران) من أعمال دمشق ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٧٨) .

إليه ، وهو زيد بن حارثة الكلبي ، على رأس حملة تَعْدادها ثلاثة آلاف رجل ، إلى الحدود الشمالية الغربيّة من بلاد العرب ، وهناك عند (مُؤْتَة)[1] ، الواقعة على حدود (البَلْقاء)[2] إلى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر (الميِّت) ، التقى المسلمون بقوات الرُّوم وحلفائهم[3] الغساسنة .

ومهما تكن الخاتمة التي لقيتها غزوة (مُؤْتة) ، فإن نتائجها وآثارها كانت بعيدة المدى ، فبينما رأى الرُّوم تلك الغزوة (غارة) من الغارات التي اعتاد البدو شنّها ، كانت غزوة زيد في الحقيقة غزوة من نوع آخر ، لم تقدِّر دولة الرُّوم أهميتها ، فهي حرب منظّمة كانت لها مهمّة جديدة خاصة ، جعلت المسلمين يتطلّعون جدياً لفتح أرض الشّام .

وفي العام التالي ، أي في السنة التاسعة الهجرية (٦٣٠م) ، قاد النبيّ ﷺ بنفسه غزوة (تَبوك)، فأظهر قوّة المسلمين للرُّوم المتربصين بهم، ثم عاد إلى المدينة المنوّرة ، فكانت تلك الغزوة غزوة استطلاعيّة ، بالإضافة إلى تأثيرها المعنويّ في الرُّوم وحلفائهم الغساسنة .

وفي السنة الحادية عشرة الهجرية (٦٣٢م) ، أعدّ النبيّ ﷺ جيشاً بقيادة أُسامة بن زيد الكلبيّ لمهاجمة الرُّوم ، وولّى وجوههم شطر قِبْلَة عيّنها لهم وأهداف واضحة جلية شرحها ، وأصدر لهم أوامر حاسمة جازمة .

وهكذا وقف الرسول القائد عليه أفضل السّلام والصّلاة بثاقب نظره ، على أنّ أشدّ الأخطار التي يمكن أن تحلّ ببلاد العرب ودعوته ، موطنها أرض الشّام حيث الرُّوم وعمّا لهم الغساسنة، وقد أثبتت حوادث الفتح الإسلامي فيما

---

(١) مؤتة : قرية من قرى البلقاء على حدود الشام ووادي القرى ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٩٠) .

(٢) البلقاء : كورة من أعمال دمشق ، بين الشام ووادي القرى ، قصبتها (عمّان) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٧٦) .

(٣) انظر تفاصيل معركة مؤتة في كتابنا : الرسول القائد (٢٩٥ ـ ٣٠٢) .

بَعْدُ صدق هذه الإشارة ، فكان الرُّوم أشدَّ المحاربين عناداً[1] .

تلك هي قصة جيش المسلمين الأول ، الذي أنشأه وسهر على رعايته حتى أصبح جيشاً لا يُقْهر ، حقّق وحدةً ، وأنشأ أُمّة ، وحمى عقيدة ، في حياة قائده ورائده ، ومؤسِّس بنيانه ، ومشيِّد أركانه ، ومرسِّخ إيمانه .

وقد نشأ هذا الجيش في المسجد ، وشبّ وترعرع في المسجد ، واستوى على ساقه في المسجد ، وتلقى تعاليمه في المسجد ، فقد جعل اللّه الأرض كلها مسجداً .

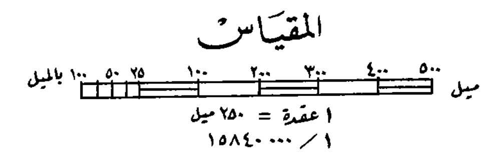
وفي المدينة المنوّرة ، وفي مسجد النبيّ ﷺ ، ثالث المساجد التي تشدّ إليها الرِّحال: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجد النبيّ ﷺ ، انطلق المجاهدون للدفاع عن الإسلام ، ثم انطلق جيشهم لحماية حرية نشر الدعوة ، ثم اندفع لصيانة الكيان الإسلامي ، ثم تكفّل بحماية الدولة الإسلامية ، ثم نهض بأعباء الفتح أقوى ما يكون عزماً وإرادة وتصميماً .

لقد أُسِّس بنيان هذا الجيش على تقوى من اللّه ورضوان ، لذلك أحرز انتصارات باهرة لا تزال أعجوبة من أعاجيب التاريخ ، وحقّق فتوحات فذّة لا تزال باقية على الدهر ، وصدق اللّه العظيم : ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ على تَقْوى من اللّه ورِضْوانٍ خيرٌ ، أم مَنْ أَسَّسَ بُنْيانه على شَفا جُرُفٍ هارٍ فانهارَ به في نار جَهَنَّم ، واللّه لا يَهْدي القَوْمَ الظالمين﴾[2] .

والدرس الذي يمكن أن نستخلصه من بناء جيش المسلمين الأول ، جيش النبيّ ﷺ ، هو أن نَبْني الجيوش العربية والإسلامية على أسس رصينة من تعاليم الإسلام ، لتتحلى تلك الجيوش بالعقيدة الراسخة والمعنويات العالية ، وأن نُحسن اختيار القادة المؤمنين حقاً من ذوي الطَّبع الموهوب والعلم المكتسب والتجربة العملية ، وأن نُعِدّ لها السِّلاح المتطوِّر وندرِّبها التدريب المتكامل ،

(١) الدولة الإسلامية وإمبراطورية الرُّوم ص (٤١) .
(٢) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩: ١٠٩) .

إنتشار الإسلام
في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

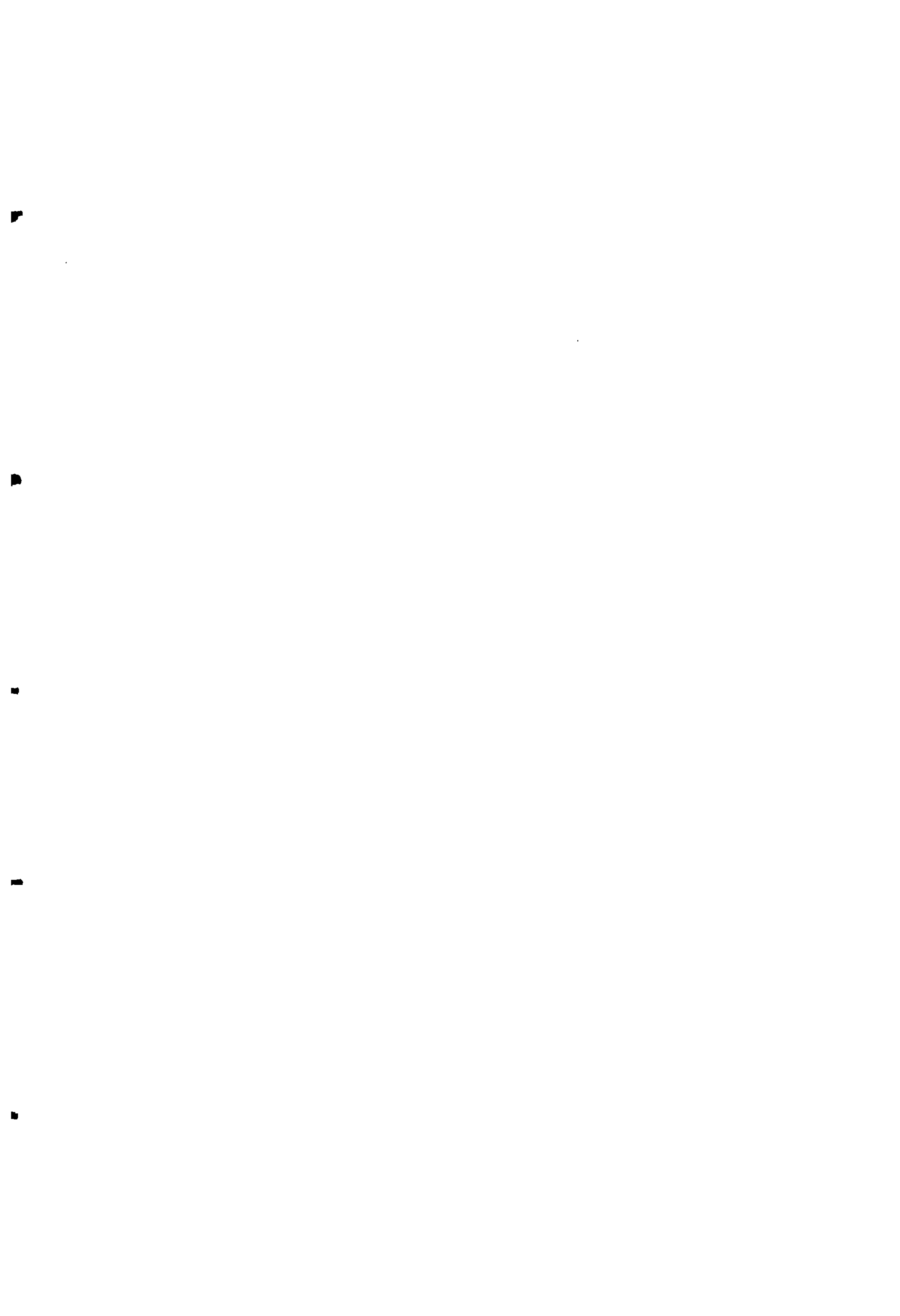


وأن نعيد للمسجد مكانته ليؤدي رسالته في غرس العقيدة الراسخة والمعنويات العالية ، ليخرِّج فرسان النهار ورهبان الليل من المجاهدين الصادقين .

إنّ المسجد يكون في الأرض ، ولكن السماء تكون فيه ، والنفوس المؤمنة كالإسفنج لا تتشبَّع بالماء ولكن بروح المسجد .

وكل مسجد أُسّس على التقوى ثكنة جيش المسلمين ومدرسته ، فمتى يعود المسلمون ثانية إلى المسجد ليستعيد مكانته ويؤدي رسالته؟ .

***



بِنَاءُ الإِنسَانِ المُسْلِم

الدّعائم الثّلاث

استطاع النبيّ ﷺ بعون من الله وتوفيقه، بناء الإنسان المسلم على ثلاث دعائم : العقيدة الإسلامية ، وهي عقيدة منشئة بنّاءة ، تصلح لكل زمان ومكان ، والقدوة الحسنة ، فقد كان خُلُقُه القرآن كما وصفته الصدِّيقة بنت الصدِّيق عائشة أم المؤمنين رضي اللّه عنها ، وكان عليه الصّلاة والسَّلام تعاليم الإسلام تمشي على الأرض بشراً سَوِيّاً ، واختيار الرجل المناسب للعمل المناسب والتنويه بمزاياه ، وعدم غمط حقوق القادرين والإشادة بقدراتهم وإبرازها ، والتركيز على المزايا دون المثالب ، فلكل فرد محاسنه وعيوبه ، والكمال للّه وحده .

والتحق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى، فخلّف من بعده خلفاءَ وأمراء، وقادة عسكريين وإداريين وسياسيين، وقضاة وعلماء وفقهاء ومفسرين ومحدِّثين ووعاظاً ومصلحين، وعبّاداً وزهّاداً ، لم يخلّف أحد من قبله أمثالهم كفاية ومقدرة، وأمانة وحرصاً واستقامة وتفرّغاً للمصلحة العليا للمسلمين، وإنكاراً لذواتهم وأنفسهم، وحبّاً للخير وللمؤمنين وبُعْداً عن الفرقة وتمسّكاً بالوحدة ، ولا يزال أكثرهم قدوة حسنة وأسوة كريمة يملأون الأعين قدراً وجلالاً، والأنفس تقديراً وإعجاباً ، فكان خريجو مدرسته من أبرز خريجي المدارس المثالية ، وكان قرنه أعظم القرون التي مرّت قبله والتي تمرّ بعده ، حتى تقوم السّاعة ويرث اللّه الأرض ومَن عليها .

ولو سألني سائل: ما الفرق بين المسؤول الحق الذي يقدِّر مسؤوليته حقّ قدرها ويعمل لمصلحة المسؤول عنهم ، وبين المسؤول المزيّف الذي لا يقدِّر

مسؤوليته حقّ قدرها ويعمل لمصلحته الخاصة ؟، لأجبت دون تردّد : إنَّ المسؤول الأول يبني الإنسان ، والمسؤول الثاني يحطِّم الإنسان .

ومنذ كان الإسلام حتى اليوم ، حكم المسلمينَ كثيرٌ من الخلفاء والملوك والأمراء والرؤساء والوزراء ، لم يبرز منهم غير عدد قليل بالنسبة لعددهم الكثير ، والذين برزوا وسجّل التاريخ سِيرهم بأحرف من نور ، هم الذين بنوا الإنسان المسلم ، وخلّفوا بعد رحيلهم عن الدنيا عدداً من ذوي الكفايات العالية في شتى المجالات ، يتناسب عددهم تناسباً طردياً مع شدّة تعلّقهم بالمصلحة العليا للمسلمين .

أما الذين حطّموا الإنسان المسلم تحقيقاً لمصالحهم الشخصية ، فماتوا وهم أحياء ، وذكرهم في التاريخ لا يشرِّف أحداً من الناس .

وقد عمل المسجد في أيام النبيّ ﷺ عمله الحاسم المؤثر في بناء الإنسان المسلم .

والمسجد ليس في جمال بنائه وارتفاع أركانه ، بل بالقدوة الحسنة من العلماء والطلاّب ، فالمساجد تُعمر بالإنسان لا بالأحجار ، وبالمؤمنين لا بالمواد ، وبالرّوح لا بالمادة .

***

العَقيدَة الإسْلاميّة

١ـ العرب :

ليس هذا المكان في هذه الدراسة ، موضع بحث العقيدة الإسلامية بالتفصيل ، لأنّ هناك مؤلفات ودراسات تفصِّل العقيدة السمحاء بما لا مزيد عليه لمستزيد ، وهي متيسرة للراغبين في دراستها من الدارسين .

والذي آمُل أن أتطرّق إليه ، هو أثر العقيدة الإسلامية في العرب مادّة الإسلام ، وصدق اللّه العظيم : ﴿فاسْتَمْسِكْ بالـذي أُوحِيَ إليكَ إنَّـكَ على صراطٍ مُستَقِيم . وإنَّهُ لَذِكْرٌ لكَ ولقومِكَ وسَوْفَ تُسْئَلُون﴾[1] .

ومن المعلوم أنّ الإسلام للعرب ولغيرهم من الأقوام والأمم وللناس جميعاً، لا يميِّز بين جنس وجنس آخر ولا بين لون ولون، وكما أنّ النبيّ ﷺ خاتم الأنبياء، فإنّ الإسلام خاتم الأديان، فهو ليس لزمان معيَّن بل لكل زمان ، ولا لمكان معيّن بل لكل مكان ، فهو الرِّسالة الخالدة الباقية التي تصلح لكل زمان ومكان .

ولكنّ العرب قومُ النبيّ ﷺ ، وأنزل القرآن الكريم بلغتهم والقرآن الكريم ليس كتاب الإسلام الأول فحسب ، بل هو كتاب الإسلام الأول وكتاب العربية الأول أيضاً .

وقد احتضن العرب الإسلام قبل غيرهم ، وكانوا قادة الفتح الإسلامي وجنوده ، وهم الذين نهضوا بواجب حماية حرّية نشر الدعوة الإسلامية .

والعرب إذا استقاموا استقام المسلمون ، وقد بلور الإسلام طاقاتهم المادية والمعنوية ، ووحّدهم بعد تفرّق ، وجمعهم بعد شتات ، وجعل منهم قادة

---

(١) الآيتان الكريمتان من سورة الزُّخرف (٤٣ : ٤٣ ـ ٤٤) .

الماضي وسادته ، وسيجعل منهم قادة الحاضر والمستقبل إن تمسّكوا به وعادوا إلى صراطه المستقيم .

لقد كان فضل اللّه على العرب بالإسلام عظيماً ، لأنه أثّر فيهم أعظم التأثير ، وبدّل حالهم إلى أحسن حال .

والواقع أن هناك إفراطاً وتفريطاً في وصف العربيّ فرداً والعرب شعباً ، فللشُعوبيين[1] رأيهم الخاص بالعربيّ والعرب يتّسم بالتجني ، وللعرب المتطرِّفين رأيهم الخاص أيضاً يتّسم بالتحيّز للعربي والعرب .

ومن مناقشة تلك الآراء التي تتّسم بالتجني والتحيُّز ، القديم منها والجديد ، نستطيع أن نَصِفَ العربي الجاهليّ الذي عاش قُبيل الإسلام أو بعد ظهوره مباشرة ، والجاهلية التي ورد ذكرها في الكتاب العزيز أربع مرات في أربع آيات من آيات الذِّكر الحكيم، في أربع سور من سوره[2] ، ليست من الجهل الذي هو نقيض العلم ، ولكن من الجهل الذي هو السَّفه والغضب والأنفة[3] ، وهي الحالة التي تكون عليها الأمة قبل أن يجيئها الهدى والنبوّة[4] ، والجاهليّة : ما كان عليه العرب قبل الإسلام من الجهالة والضَّلالة ، وهي زمان الفترة بين رسولين[5]،ونستطيع أن نصف العربيّ الجاهليّ ، بأنّه عصبيّ المزاج ، سريع الغضب ، وهو أشدُّ هياجاً إذا جرحت كرامته أو انتهكت حرمته أو حرمة أهله أو حرمة قبيلته ، وإذا اهتاج أسرع إلى السَّيفِ واحتكم إليه .

والعربي ذكيّ، يظهر ذكاؤه في لفته، وكثيراً ما يعتمد على اللمحة الدالّة، والإشارة البعيدة، كما يظهر في حضور بديهته.

والعربيّ ميّال إلى الحريّة الشخصيّة ، فلا يدين بالطاعة لرئيس ولا

---

(١) الشعوبيّة : نزعة في العصر العباسيّ تنكر تفضيل العرب على غيرهم وتحاول الحطّ منهم ، وأصحاب هذه النزعة الواحد منهم : شعوبيّ .

(٢) انظر التفاصيل في المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم (١٨٤) .

(٣) فجر الاسلام (١/ ٨٦) .

(٤) معجم ألفاظ القرآن الكريم ـ جـ ٢ ـ ص (٤٢)

(٥) المعجم الوسيط (١/ ١٤٤) .

حاكم ، وهو يحبّ المساواة في حدود القبيلة ، يعتدّ بقبيلته ثمّ بجنسه ، ويشعر في أعماق نفسه بأنه من دم متميِّز[1] .

وكان أكثر العرب يعبدون الأصنام والأوثان. فكانت الوثنية هي الدين السّائد في شبه جزيرة العرب .

وكان العرب في الجزيرة العربية قسمين : بَدْواً وحَضَراً ، وكان البدو القسم الغالب .

وكان البدو ولا يزالون ، يحتقرون الصناعة والزراعة والتجارة والملاحة ، يعيشون على ما تنتجه ماشيتهم : يأكلون لحومها بعد علاج بسيط ، ويشربون ألبانها ، ويلبسون أصوافها ، ويتّخذون منها مساكنهم ، وهم يعتمدون في تغذية ماشيتهم على الكلأ ، وإذا احتاجوا إلى غير ما تنتجه ماشيتهم تعاملوا عن طريق البدل ، فكانوا يستبدلون بالماشية ونتاجها ما يتطلّبون من تمر ولباس .

ونوع آخر اتخذوه أيضاً وسيلة من وسائل العيش ، وهو الغارة والسلب ، فيغيرون على قبيلة معاوية ليأخذوا جمالها وماشيتها ويسبون نساءها وأولادها. وتتربّص بهم القبيلة الأخرى ، لتفعل بهم مثل ما فعلوا بها ، بل هم إذا لم يجدوا عدواً من غيرهم ، قاتلوا أنفسهم ، ولعلّ خير ما يمثّل ذلك قول القُطامِيّ[2] :

ومَنْ تكن الحضارة أعجبته فأيّ رجال بادية ترانا
ومن ربط الجِحَاشِ فإنَّ فينا قَناً سُلُباً[3] وأفراساً حسانا
وكُنَّ إذا أغَرْنَ على قَبِيلٍ[4] فأعوزهُنَّ نهبٌ حيث كانا

(١) فجر الاسلام (١/ ٤٦ - ٤٧) .

(٢) انظر ترجمته في الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (٦٠٩- ٦١٢) .

(٣) قناً : جمع قناة ، وهو الرمح ، سلباً : طوالاً .

(٤) القبيل : الجمع من الناس .

أغَــرْنَ على الضِيــاب على حلال [1]   وضَبَّة [2] ، إنــه مَنْ حانَ حانا [3]
وأحيانــاً على بَكْــرٍ أخينـا إذا لم نجـد إلا أخانـا

ومن أجل ذلك ، كثيراً ما تضطر القبيلة التي ضعفت إلى الاحتماء بقبيلة قويّة تذود عنها ، ولكن قلّ أن يدوم حلفهم أو يطول ، بل سرعان ما ينتقض اجتماعهم وتنفصم وحدتهم ، فينقلب المتحالفون أعداء متحاربين .

أفراد القبيلة متضامنون أشدّ ما يكون التضامن ، ينصرون أخاهم ظالماً أو مظلوماً ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على مَنْ سواهم .

لا يسألــون أخاهــم حــين يندبهم   في النّائبــات على ما قال برهانا

والمعن في البداوة منهم ضعيف الإيمان بدين ، قلّ أن يؤمن إلاّ بتقاليد قبيلته وما ورثه عن آبائه ، وصدق اللّه العظيم : ﴿ الأعـراب أشدّ كُفْـراً ونِفاقاً ؛ وأجْدَرُ ألاّ يَعْلَمـوا حُدُودَ ما أنْـزَلَ اللّـهُ على رسولِـهِ ، واللّـه عليـمٌ حكيم ﴾[4] .

مثله الأعلى في الأخلاق ، يرتكز على ما سمّاه : (المروءة) ، تغنّى بها في شعره وأدبه ، ومن الصّعب أن تَحُدَّها حدّاً دقيقاً ، ولكن يصح أن تقول : إنها تعتمد على الشجاعة والكرم ، أما شجاعته فتتجلّى في كثرة من نازله وقاتله ، وفي مواقف دفاعه عن قبيلته ، وأكثر من هذا في نجدته . وأمّا كرمه فيتجلّى في نحر الجزور للضيف وإغاثة البائس والفقير ، وفوق هذا أن يعطي أكثر مما يأخذ ، وأن يغشى الوغى ويعفّ عن المغنم .

لقد كانت الحروب عند البدو أساساً لحياتهم .

---

(١) الضباب : بطن من الحارث بن كعب من القحطانية ، انظر التفاصيل في نهاية الأرب للقلقشندي (٦٣) والحلال : المجاور.

(٢) بنوضبة : بطن من طابخة من العدنانية ، انظر التفاصيل في نهاية الأرب (٣١٨) .

(٣) من حان حانا : أي من جاء أجله فهو لا بد هالك .

(٤) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ٩٧)

أما الحضر من العرب فهم أرقى من ذلك كثيراً ، يسكنون المدن ويقرون فيها ، ويعيشون على التجارة أو الزراعة ، وقد أسَّسوا قبل الإسلام ممالك ذات مدنية كاليمن ، والغساسنة في الشّام ، والمناذرة في العراق[1] .

لقد كان في العرب مواد أولية متميّزة : الذَّكاء الفطري ، وحبّ الحرّية والمساواة ، والشّجاعة والإقدام ، والكرم والسَّخاء ، فعمل الإسلام على تطويرها وصقلها والإفادة منها ، ونجح في مسعاه أعظم النّجاح .

وصدقَ رسولُ الله ﷺ : «خياركم في الجاهليّة، خياركم في الإسلام[2] إذا فقهوا» و «إنما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارم الأخلاق»[3] .

وقد كانت للعرب من الأخلاق الكريمة ، ما يمكن اعتبارها المواد الأولية المميّزة لهم .

ولكن كان في العرب مواد أولية رديئة : تفرّق كلمتهم، وفقدان الضبط والنظام بينهم ، وعبادة الأوثان والأصنام ، وسيطرة روح القبيلة عليهم ، فعمل الإسلام على محاربتها والقضاء عليها ، ونجح في مسعاه نجاحاً باهراً .

٢ ـ الإسلام :

جاء الإسلام الذي عماده الخضوع للّه والانقياد له ، فكان في تعاليمه الدَّواء النّاجع لعقلية الجاهليّة : عقليّة الأنفة والحميّة .

إنَّ تعاليم الإسلام قسمان : عقائد وأعمال .

---

(١) فجر الإسلام (١/ ١١ - ١٣)

(٢) حديث صحيح متفق عليه ، وفي رواية الإمام مسلم رضي اللّه عنه : «الناس معادن كمعادن الذّهب والفضّة ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا »، انظر كتاب الجامع للأصول في أحاديث الرسول ـ جـ ٥ ـ ص (٨١) .

(٣) رواه البخاري في الأدب والبيهقي في شعب الإيمان والحاكم في المستدرك . ورواه مالك في الموطأ بهذا اللفظ : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » حديث صحيح .

أما (العقائد) ، فإنّ أهم أصل من أصول الإسلام ، هو الاعتقاد باللّه سبحانه وتعالى .

الإسلام يصف اللّه سبحانه وتعالى بأوصافٍ ـ كما ورد في القرآن الكريم ـ بأنه ليس إلّه قبيلة ولا إلّه أمة وحدها ، ولا إلّه النّاس وحدهم ، بل هو إلّه كل شيء ﴿ ربّ العالمين ﴾[1] ،وكل شيء في الوجود مخلوق له وخاضع لأمره ﴿ لله ما في السَّمٰوات وما في الأرض ﴾[2] .

وكلّ شيءٍ من مظاهر الكون خلقه اللّه تعالى ، وقد أحاط علمه بكل شيءٍ ، وأحاطت قدرته بكل شيءٍ ، وهو إلهٌ واحدٌ ، وليس هناك مَنْ يشاركه في أُلوهيته .

وليس لأيّ مخلوق ولا لأيّة طائفة سلطان على الناس في عقائدتهم، ولا في أيّة صفة من صفات الربوبيّة ﴿اتّخذوا أحبارهم ورهبانَهم أرباباً من دون الله[3]﴾، وليس يرضى الإسلام عن أيِّ نوعٍ من التعدّد ولا أيّ رمز يُشعر بالتعدّد .

وقد اختار اللّه أفراداً من خلقه واتّصل بهم بالوحي ، ومن هؤلاء إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات اللّه وتسليمه عليهم جميعاً .

وأصول الأديان السماويّة كلها واحدة ، وكلها تدعو إلى توحيد اللّه وعدم الشِّرك به ، ثم دخل بعض تعاليم الأديان السماوية التغيير والتحويل ، إلاّ تعاليم الإسلام ، وصدق اللّه العظيم ﴿إنّ الدِّين عند الله الإسلام﴾[4] ، وصدق اللّه العظيم : ﴿ ومَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسلام ديناً فلن يُقْبَلَ منه ﴾[5] ، لهذا كان الإسلام خاتم الأديان ، لأنه آخر الأديان السماوية نزولاً ، ولأنه لم يتغيرّ

(١) الآية الكريمة من سورة الفاتحة أم الكتاب (١ : ١) .

(٢) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ٢٨٤) .

(٣) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩: ٣١) .

(٤) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣: ١٩) .

(٥) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣: ٨٥) .

ولم يتبدّل ، ولأنه يصلح لكل زمان ومكان .

وهناك وراء هذه الحياة حياة أخرى : يوم القيامة ، واليوم الآخر ، ويوم الحساب ، ويوم الدين ، وهذا اليوم هو يوم المثوبة على العمل الصّالح ، والعقوبة على العمل السيء ، وكل عمل أتاه الإنسان يُسجَّلُ عليه . وقد جعل للمثوبة والعقوبة دارين : دار المثوبة وهي الجنّة ، ودار العقوبة وهي النّار .

ثمّ إنّ وراء هذا العالم الماديّ ، عالماً آخر روحيّاً فيه نوعان من الأرواح : نوع خيرٌ يطيع اللّه ما أمره ويجذب النّاس إلى الخير ويسمى : الملائكة ، ونوع شرير يستغوي النفوس إلى الشر ويسمى : الشياطين .

أما (الأعمال) ، فهناك على المسلم أعمال يجب أداؤها ، وهي أساسية كالعقائد ، وهي : الصلاة ، ويقصد بها أن تكون مظهراً من مظاهر الإخلاص لله ، وتعبيراً دينياً يشرح عاطفة الإجلال للّه تعالى : ﴿ أقِمِ الصَّلاةَ ، إنّ الصّلاة تَنْهَى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكرُ اللّهِ أكبر ﴾[1].

والزّكاة ، وهي أن تؤخذ من مال الغني للفقير وللصالح العام . ثم صوم رمضان ، وحجّ البيت مَنْ استطاع إليه سبيلاً .

ولم يقتصر الإسلام على غرس هذه (العقائد) وتلك (الأعمال) ، بل أمر بالتمسك بالخلق الكريم : آداب اللياقة ﴿ وإذا حُيِّيْتُم بِتَحيّةٍ فَحَيُّوا بأحسنَ منها أو ردُّوها[2] ﴾ ﴿ يا أيّهاالذين آمنوا لا تدْخُلوا بُيوتاً غير بيوتكم حتى تَسْتَأْنِسوا وتُسَلِّموا على أهلها[3] ﴾،ووفاء بالوعد ، وصبر في الشدائد ، وعدل بين النّاس ، وعفوٌ عند المقدرة .

لقد هدم الإسلام الوحدة القبليّة والوحدة الجنسيّة ، وعلَّم أنّ معتنقي الإسلام كلَّهم كتلة واحدة لا تفاضل بين أفرادها إلاّ بطاعة اللّه وتنفيذ أوامره ،

---

(١) الآية الكريمة من سورة العنكبوت (٢٩ : ٤٥)

(٢) الآية الكريمة من سورة النساء (٤ : ٨٦) .

(٣) الآية الكريمة من سورة النور (٢٤ : ٢٧) .

وحتّم الطّاعة للّه والطّاعة للرسول، والطّاعة لأُولي الأمر في الأمة ما أطاع وليّ الأمر أوامر اللّه[1] .

وكانت للعرب مهارة في حرب العصابات والغارات ، ومهارة في استخدام السِّلاح والفروسية ، وكانت لهم قابليّة متميِّزة على الحركة من مكان إلى آخر بسهولة ويسر وسرعة وبأقل التكاليف الإدارية .

ولكنهم كانوا متفرقين ، لهذا كانت خبرتهم الحربية وشجاعتهم الفطرية ، تذهبان عبثاً في الغارات والمناوشات المحليّة بين القبائل .

فلما جاء الإسلام ، وحّد عقيدتهم ، ووحّد أعمالهم ، وجمع صفوفهم ، ونظّمهم ، وغرس فيهم الضبط والطاعة ، وطهّر نفوسهم ، ونقّى أرواحهم ، وأشاع فيهم انسجاماً مادّياً ومعنوياً ، فأصبحت قوّتهم المبعثرة وجهودهم المضاعة ، تعمل بنظام دقيق وضبط متين وطاعة مطلقة بقيادة واحدة لتحقيق هدف واحد ، وأصبح المؤمنون في مشارق الأرض ومغاربها إخوة يتحابون بنور اللّه بينهم ، وهم أمة واحدة تحيتها السَّلام وغايتها السَّلام ودينها الإسلام .

لقد كان النبيّ ﷺ يؤمّ ألفين في عمرة القضاء[2]، ومئة ألف في حجّة الوداع[3]، يسيرون كلّهم في نظام أدقّ نظام هرولة ومشياً واستلاماً للركن أو ـ الحجر الأسود ،ـ هذا النظام المتصل بروح الإسلام، سبب من أسباب القوّة، بل هو مصدرها وملاكها، وهذه الإمامة، بقيام رجل مطهّر يؤمن أصحابه بصدقه ، هي روح هذه القوّة وقوامها[4].

ولقد بدأت منذ ظهور الإسلام الصّلاة العامة ، ثم قامت صلاة الجماعة التي أدّاها المسلمون وراء إمام واحد . ومَنْ يرى المسلمين وهم مجتمعون

---

(١) فجر الإسلام (١/ ٨٨ ـ ٩٢) .

(٢) كانت في شهر ذي الحجة من السنة السابعة الهجرية .

(٣) كانت حجة الوداع في السنة العاشرة الهجرية . انظر طبقات ابن سعد (٢/ ١٧٢) .

(٤) في منزل الوحي ـ ص (١٠٥) ـ ط ٢ .

صفوفاً للصّلاة ، يؤدّون ركعاتها وسجداتها في تناسق مدهش وفي نظام ووقار ، لا يمكن أن يغفل ما لهذه الصّلاة المنظمة من قيمة تربوية في نفوس المسلمين لفرض النظام والضبط والطاعة .

إنّ العرب أُباةٌ لا يخضعون لمشيئة خارجيّة ، ولكنهم كانوا يفتقرون إلى الشعور التّام بالضبط والطّاعة والنِّظام ، فكانت لهذه الصّلاة أهميّة بالغة في (إيقاظ) روح النِّظام والضبط والطّاعة في نفوس العرب المسلمين ، لذلك غدا مكان الصّلاة أول ميدان حقيقيّ للتدريب العسكريّ عند المسلمين .

ثمّ إنّ نظام المسلمين في الصّلاة ، شجّع روح الوحدة بينهم ، وخلق فيهم شعوراً بالمساواة التي كانت من الأفكار الجديدة على بلاد العرب ، إذ كانت الوحدة الموجودة حتى ذلك الوقت هي رابطة الدّم ، كما أنّ المظاهر الرئيسية التي سادت حياة العرب إذ ذاك ، هي الافتخار بالأُسرة والحسب والثراء وامتهان شأن الفقير وعديم الجاه، لذلك فإن النبيّ ﷺ ، مهّد السبيل لوحدة بلاد العرب المتنافرة عندما نجح في تدعيم الاتحاد الذي احتضن الفقير والغني على أساس المساواة ، وعندما نجح كذلك في توجيه ضربة عنيفة إلى العصبية القبليّة والعائلية .

وإلى جانب الصّلاة ، كانت فكرة المساواة الاجتماعية تجديداً تاماً أحدثه الإسلام ، فأصبحت مساعدة الفقير والقيام بأمره واجباً مقدّساً ، ولم يعد من شأن الأفراد أن يعطوا كيفما شاؤوا ، وإنما غدت الزكاة فرضاً تجبى إلى بيت المال وينفق منها على الفقراء[1] .

والحق أنّ الزكاة كانت وما تزال طفرة حاسمة إلى الأمام ، وحتى اليوم نجد أن الضرائب بمختلف أنواعها وأشكالها وغاياتها وأهدافها ، تُوضع على الأرباح وتَعفي رأس المال ، أما الزكاة فلا تعفي رأس المال، مع شمولها الأرباح أيضاً .

---

(١) الحضارة العربية - ي. هل - ترجمة د. إبراهيم العدوي - ص (٢٣ - ٢٤)

لقد وجد الإسلام بتعاليمه التي تغرس الطاعة والضبط والنظام في النفوس ، وتدعو إلى توحيد اللّه ووحدة الصفوف ، أرضاً خصبة في العرب التي كانت لهم خبرة طويلة في الحروب ، والذين لا يهابون الموت ويتعشّقون الحرية ، فكان من فضل الإسلام على العرب أنه جمع شملهم ووحّد صفوفهم وطهّر قلوبهم،وأشاع في عقولهم الانسجام الفكري،الذي بدونه يكون التعاون مستحيلاً ، كما غرس فيهم النِّظام والطَّاعة والضّبط ، فأصبحوا كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً ، أقوياء بعد ضعف ، موحِّدين بعد شِرْك ، موحَّدين بعدَ تفرّق ، متعاونين بعد تقاطع ، يؤثرون المصلحة العامة على المصلحة الشخصيّة ، ومصلحة المسلمين على مصلحة القبائل ، بعيدين عن العصبية والتعصّب ، أكرمهم عند اللّه أتقاهم لا أغناهم أو أقواهم أو أشرفهم حسباً ونسباً .

لقد كانت العقيدة الإسلامية عقيدة منشئة بناءة ، وكان العرب هم الروّاد الأولين لهذه العقيدة .

وللّه وحده الفضل والمِنّة .

٣ ـ أثر الإسلام في العرب :

لا شكّ في أنّ تعاليم الإسلام رفعت المستوى العقلي للعرب إلى درجة كبرى ، فهذه الصفات التي وصف الإسلام بها اللّه سبحانه وتعالى ، نقلتهم من عبادة أصنام وأوثان ، وما يقتضيه ذلك من انحطاط في النّظر وإسفافٍ في الفكر ، إلى عبادة إلٰه وراء المادة .﴿ لا تُدْرِكُهُ الأبصَارُ وهو يُدْرِكُ الأبصار[1] ﴾.

وكان الإلٓه عند أكثرهم إلٓه فردٍ أو إلٓه عائلة أو إلٓه قبيلة ، وإن اتّسع سلطانه فإلٓه قبائل أو إلٓه العرب ، فأبانه الإسلام إلٓه العالمين ومدبِّر الكون ، بيده كل شيء ، عالماً بكل شيءٍ ، فاستطاع العربيّ بهذه التعاليم أن يرقى إلى

(١) الآية الكريمة من سورة الأنعام (٦: ١٠٣) .

فهم إلّه لا مادّة له ، واسع السلطان والعلم ، وأفهمهم الإسلام أنّ دينهم خير الأديان ، وأنّ العالم حولهم في ضلال ، وأن نبيَّهم نبيّ الناس جميعاً ، وأنهم ورثته في حمل دعوته إلى الأمم ؛ فكان ذلك من البواعث لهم على حمل الدعوة للناس كافة وحماية حرية نشر الدعوة ، فمن دخل في دينهم كان كأحدهم ، له ما لهم وعليه ما عليهم.

وكان لعقيدة اليوم الآخر ودار الجزاء والجنّة والنّار ، أثرٌ عظيمٌ في بيع كثير منهم نفوسهم في سبيل اللّه حماية لحرية انتشار الدعوة :﴿إنَّ اللّه اشْتَـرى من المؤمنينَ أنفسهُم وأموالَهم بأنَّ لهم الجَنَّةَ ، يقـاتِلون في سَبيـلِ اللهِ فَيَقْتُلـونَ ويُقْتَلونَ ، وَعْداً عليه حقّاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومَنْ أوفَى بعهده من اللهِ ، فاسْتَبْشِروا بِبَيْعِكُمُ الذي بايَعْتُمْ به ، وذلك هو الفوزُ العظيم﴾[1] .

وكان للإسلام أثرٌ كبير في تغيير قيمة الأشياء والأخلاق في نظر العرب ، فارتفعت قيمة أشياء وانخفضت قيمة أخرى ، وأصبحت مقوِّمات الحيـاة في نظرهم غيرها بالأمس .

إنّ الإسلام رسم للإنسان مَثَلاً أعلى غير المثل الأعلى للحياة في الجاهلية ، وهذان المثلان لا يتشابهان وكثيراً ما يتنـاقضان ، فالشجاعـة والكـرم إلى حد الإسراف ، والشّهامة التي لا حدّ لها ، والإخلاص التام للقبيلة ، والقسوة في الإنتقام ، والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل ، هذه التي كانت أصول الفضائل عند العـرب الوثنيـين ، أصبحـت في الإسلام الخضوع لله ، والانقياد لأمره والصبر ، وإخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين ، والقناعة وعدم التفاخر والتكاثر ، وتجنّب الكِبر والعظمة ، هي المثل الأعلى للمسلم في الحياة[2] .

إنّ الإسلام عقيدة وعملاً ومُثُلاً عُليا ، صهر نفسيّة العربي المسلم ونفى

---

(١) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩: ١١١) .

(٢) فجر الإسلام (١/٩٣ ـ ٩٥) .

عنها الخَبَثَ ، فأصبح لا يكذب ولا يسرق ولا يزني ولا يخون ولا يغشّ ولا يتجسّس ، يخلص لعقيدته أكثر مما يخلص لنفسه وقبيلته ، ويطيع أوامر اللّه ورسوله وأولي الأمر ما أطاعوا اللّه ، وبذلك أصبح فرداً مفيداً باع نفسه للّه إخلاصاً لعقيدته .

هذا العربي المسلم ، بهذه المزايا النّادرة ، أصبح بدون شك عنصراً مفيداً كلّ الفائدة لتكوين أمة صالحة : تعبد ربّاً واحداً ، وتعمل بانسجام وتعاون ونكران ذات ، لتحقيق هدف واحد ، هو أن تكون كلمة اللّه هي العليا .

لقد تصرّف العربي المسلم ـ فرداً ـ تصرّفاً لا يزال يعتبر من الأعمال الفذّة النادرة في مجال تصرّف الأفراد في مختلف الملل والنِّحَل والأجناس والألوان : تحمّل التعذيب صابراً ، والموت راضياً ، وترك أهله وماله مهاجراً إلى اللّه ورسوله ، وضرب بمصلحة أهله الأقربين وعشيرته وقبيلته عُرض الحائط حين تعارض مصلحة عقيدته العليا .

وتصرّف العربي المسلم ضمن المجموع من أمته تصرّفاً لا يزال يعتبر من الأعمال الفذّة النّادرة في مجال تصرّف الأمم : اندفع يجاهد في اللّه حق جهاده ، وحمى الدعوة وحرية نشرها بين الناس ، ودافع عن الأرض والعرض والمال والأنفس ، فخرجت القوّة المؤمنة التي اختزنتها الصحراء عبر الأجيال ، تحمل رايات الإسلام وتبلّغ دين اللّه عن أمره ، فتتابعت انتصاراتها الباهرة حين تمسكت بمبادىء الإسلام ، فلما تخلّت عنها لم تنتصر أبداً .

والمطلوب اليوم أن نعود إلى الإسلام من جديد ، بالتمسك بتعاليمه نصاً وروحاً ، دون الاكتفاء بترديد شعاراته ، فحمل الشعار وترديده شيء ، وتطبيقه شيء آخر .

والمهم هو التطبيق ، ولا عبرة بالترديد !

القدوة الحسنة

١- في مكة المكرمة:

كان النبيّ ﷺ القدوة الحسنة لأصحابه، وكان هو المثال الشخصي لهم : يقتفون آثاره ، ويتأسّون بأعماله . إذ لا تأثير بكلام لم يمتلىء من نفس قائله ليكون عملاً ، فيتحوّل في النفوس الأخرى عملاً ولا يبقى كلاماً . إنّ التأثير في النفوس الأخرى لا يكون بتأليف القول للسّامع يسمعه ، ولكنه تأليف النفس لنفس أخرى تراها في كلامها ، فيكون هذا الكلام قرابة بين النَّفْسَين ، وقديماً قالوا : « الكلام الخارج من القلب يؤثّر في القلب ، والكلام الخارج من اللّسان ، لا يتجاوز الآذان » .

وقد كان النبيّ ﷺ من أقل النّاس كلاماً، ولكنه إذا تكلّم نطق قلبه ، وإذا عمل نطقت جوارحه ، لذلك كان تأثيره هائلاً في أصحابه ، وكان مثلهم الأعلى قولاً وعملاً وإيماناً وخُلقاً ومعاملة واستقامة وشجاعة وإقداماً .

كان النبيّ ﷺ من أشرف بيوتات قريش[١]، التي تعتبر أشرف القبائل العربية على الإطلاق ، وقد تزوج خديجة بنت خُوَيلد رضي اللّه عنها . وكانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم[٢] ، وقد عرضت خديجة عليه نفسها ، فبعثت إليه قائلة : « إني قد

(١) انظر نسبه في سيرة ابن هشام (١/١) وطبقات ابن سعد (١/ ٥٥) وجوامع السيرة (٢) وجَمهرة أنساب العرب (١٤ ـ ١٦) وعيون الأثر (١/ ٢١) .

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٠٢) .

رغبت فيك ، لقرابتك وسِطتك[1] من قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك » ، وكانت خديجة يومئذٍ أوسط قريش نسباً وأعظمهنّ شرفاً وأكثرهنّ مالاً ، كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه[2] .

وكان رجال قريش يطلقون عليه لقب: الأمين؛ قبل أن ينزل عليه الوحي[3] .

كان شريفاً في قمة الشرف ، وكان موضع ثقة قومه وحبهم ، وكانت حالته المادية على أحسن ما يرام ، فاستهان بكل ذلك في سبيل الإسلام .

وبُعث النبيّ ﷺ ، فبدأ يدعو إلى الله سرّاً، ثم جهر بالدعوة إلى دين اللّه ، فمشى رجال من أشراف قريش إلى عمه أبي طالب ، فقالوا : « إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّه أحلامنا ، وضلّل آباءنا ؛ فإما أن تكفّه عنا، و إما أن تخلّي بيننا و بينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه». . ولكن رسول الله ﷺ مضى على ما هو عليه: يُظهر دين الله ، ويدعو إليه[4] .

ومشى أشراف قريش إلى أبي طالب مرة أخرى ، فقالوا له : « يا أبا طالب ! إنّ لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، و إنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تَنْهَهُ عنا ، و إنا واللّه لا نصبر على هذا : من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفّه عنا أو ننازله و إياك[5] في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين » ، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه[6]، ولكنه قال له: « يا ابن أخي !

(١) سِطتك : شرفك وسامي منزلتك .

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٠٤ - ٢٠٥) .

(٣) سيرة ابن هشام (١/ ٢١٤) .

(٤) سيرة ابن هشام (١/ ٢٧٦ - ٢٧٧) .

(٥) ننازله و إياك . أي نحاربكما . تقول : تنازل القوم ، إذا تحاربوا .

(٦) خذلانه : تركه . تقول : خذلت الرجل : أي تركته ولم تنصره .

إنّ قومك قد جاؤوني ، فقالوا لي : كذا . . وكذا . . فابْقِ عليَّ وعلى نفسك ولا تحمِّلني من الأمر ما لا أطيق». فقال رسول الله ﷺ : «يا عم! واللّه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ،على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره اللّه أو أهلك فيه ، ما تركته !! »[1] .

وجعل رجال قريش يجلسون بسُبُل[2] الناس حين قدموا الموسِم،[3] لا يمرّ بهم أحد إلا حذّروه إيّاه وذكروا له أمره [4].

وأغرى رجال قريش برسول الله ﷺ سفهاءهم، فكذّبوه وآذوه ورموه بالشعر والسّحر والكهانة والجنون، ورسول الله ﷺ مُظْهِرٌ لأمرِ اللّه لا يستخفي به ، مُبادٍ لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إياهم على كفرهم .

وطلع رسولُ الله ﷺ يوماً، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: « أنت الذي تقول كذا وكذا ؟!»، لِما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول : « نعم ، أنا الذي أقول ذلك » ، فأخذ رجل منهم بمجمع ردائه ، فقام أبو بكر رضي اللّه عنه دونه وهو يبكي ويقول : « أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي اللّه ؟! » [5].

وخرج رسول الله ﷺ يوماً، فلم يلقه أحد من الناس إلاّ كذّبه وآذاه ، فرجع إلى منزله وتدثّر من شدّة ما أصابه ، فأنزل اللّه قوله في كتابه العزيز : ﴿ يا أيها المدَّثِّر ، قُمْ فأنْذِر ﴾[6] .

وذكر عبد الله بن مَسْعود، قال: « كنّا مع رسول الله ﷺ في المسجد

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٧٨) .
(٢) السبل : ج سبيل : الطريق .
(٣) الموسم : يريد موسم الحج .
(٤) سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٤) .
(٥) سيرة ابن هشام (١/ ٣٠٩ - ٣١١) .
(٦) سيرة ابن هشام (١/ ٣١١) ، والآية الكريمة من سورة المدثر (٧٤: ١ - ٢) .

الحرام ، فقال أبو جَهْل : ألا رجل يقوم إلى هذا القذر يلقيه على محمد ؟ فانبعث رجل فألقاه عليه ، فجاءت فاطمة رضي اللّه عنها ، فألقته عنه »[1] .

ومرَّ أبو جَهْل برسول الله ﷺ عند (الصَّفا)، فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره[2] .

ولما رأت قريش أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً ، وأنّ (النجاشيّ) صاحب الحبشة قد منعَ مَنْ لجأ إليه منهم، وأنّ الإسلام جعل يفشو في القبائل ، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المُطَّلِب ، على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، فكتبوا ذلك في الصَّحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم ؛ فاجتمع بنو هاشم وبنو المطَّلِب إلى أبي طالب ودخلوا معه في شِعْبه،وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جَهدوا : لا يصل إليهم شيء إلاّ سِرّاً[3]

وكان نفرٌ من قريش يؤذون رسول الله ﷺ في بيته، فكان أحدهم يطرح عليه ﷺ رحم الشّاة وهو يُصلي، وكان أحدهم يطرحها في بُرْمته[4]، إذا نُصبت له، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجراً يستتر به منهم إذا صلّى ، فكان إذا طرحوا عليه الأذى يخرج به على العود ، فيقف على بابه ، ثم يقول : « يا بني عبد مناف ! أيّ جوار هذا ؟! » ، ثم يلقيه في الطريق[5] .

ومات أبو طالب ، وماتَتْ خديجة أم المؤمنين ، في عام واحد ، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب: بموت خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام ، يشكو إليها ، وكانت له زوجة صالحة على الخير ، يأوي إلى حنانها ،

---

(١) عيون الأثر (١٠٣/١).
(٢) عيون الأثر (١/ ١٠٤) .
(٣) سيرة ابن هشام (١/ ٣٧١ - ٣٧٦) وجوامع السيرة (٦٤) .
(٤) البرمة : بضمة فسكون ـ القِدْر مطلقاً ، وهي في الأصل التي تتخذ من الحجر المعروف بالحجاز واليمن .
(٥) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٥) .

وبموت عمه أبي طالب ، وكان له عضداً وحِرْزاً وَمَنعَةً وناصراً على قومه ؛ وكان موتهما قبل مهاجره إلى المدينة المنوّرة بثلاث سنين . فلما هلك أبو طالب ، نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً ، فدخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: «لا تبكي يا بُنَيّة ! فإنّ اللّه مانعٌ أباكِ »[1] .

وخرج رسول الله ﷺ وحده إلى (الطائف) يلتمس النّصْرة من (ثَقِيف) والمنعَةَ بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من اللّه عزّ وجلّ .

وانتهى رسول الله ﷺ إلى (الطّائف)، فعمد إلى نفرٍ من (ثقيف) وأشرافهم ، وجلس إليهم ودعاهم إلى اللّه ، وكلّمهم بما جاء له من نصرته على الإسلام والقيام معه على مَنْ خالفه من قومه ، فلم يفعلوا ، وأغروا بهسفهاءهم وعبيدهم يسبّونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس،وألجأوه إلى حائط لعُتْبَة بن ربيعة وشَيْبَة بن ربيعة وهما فيه ، فعمد إلى ظل شجرة العنب ، فجلس فيه يقول : « اللّهم أشكو ضعف قوّتي وقِلّة حيلتي وهواني على النّاس، يا أرحم الرّاحمين! أنت ربّ المُسْتَضْعَفِين وأنت ربي. إلى مَنْ تَكِلُني ؟ إلى بعيد تجهّمني ! أم إلى عدوٍ ملّكته أمري ! إن لم يكُن بك عليّ غضبٌ فلا أُبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصَلُحَ عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تُنْزِل بي غضبك أو يحلّ عليّ سخطك ، لك العُتْبى[2] حتى ترضى ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بك » . . ثم انصرف من مدينة (الطّائف) عائداً إلى مكة المكرّمة حين يئس من قبيلة (ثقيف) [3]

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٥ ـ ٢٦) .

(٢) العتبى : الرضى (٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٨ ـ ٣١) وعيون الأثر (١/ ١٣٤) وجوامع السيرة (٦٧) وطبقات ابن سعد (١/ ٢١٠ ـ ٢١٢)

وكانت بيعة (العَقَبَة) الأولى وبيعة (العَقَبة) الكبرى ، ثمَّ أمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة وقال : « إنّ اللّه عزّ وجلّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها »، فخرجوا إرسالاً، وأقام رسول الله ﷺ في مكة ينتظر أن يأذن له ربّه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة [١] .

ولما رأت قريش أنّ رسول الله ﷺ قد كانت له شيعة وأصحاب من غيرهم في غير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، وعرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم مَنعَة؛ فحذروا خروج رسول الله ﷺ وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا في دار (النَّدْوَة) يتشاورون فيما يصنعون من أمر رسول الله ﷺ ، فقال أحدهم :«احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ، ثم تربَّصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله » . وقال آخر : « نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا أُخْرِجَ عنّا فواللّه لا نبالي أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنّا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وأُلْفَتنا كما كانت » .

وقال أبو جَهْل بن هشام : « واللّه إنّ لي لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد . . أرى أن نأخذ من كل قبيلة شاباً فتىً جليداً نسيباً وسيطاً فتيّاً ، ثم نُعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدون إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعَقْل [٢] فعقلناه لهم » ؛ فتفرّق القوم على ذلك وهم مجمعون له [٣].

واجتمع الشباب الذين اختارهم أشراف قريش من القَبَائل لقتل النبيّ ﷺ على بابه ليلاً، يرصدونه متى نام ليثبوا عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «نَمْ على فراشي وَتَسَجَّ

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٧٦)

(٢) العقل : الديّة .

(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٩٢ ـ ٩٥) .

بِبُرْدِي هذا الحضرميّ الأخضر فَنَمْ فيه، فإنه لن يَخْلَصَ إليك شيء تكرهه منهم[1] » .

هنا تبدأ قصّة من أجلّ ما عرف تاريخ المغامرة في سبيل الحق والعقيدة والإيمان قوّةً وروعة !

كان أبو بكر الصِّدِّيق رضي اللّه عنه قد أعدّ راحلتيه ، فأتى رسول اللّه ﷺ أبا بكر وخرجا من خَوْخَة[2] لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمدا إلى غارٍ بجبل (ثَوْر) أسفل مكة فدخلاه ليلاً وأقاما فيه ثلاثاً .

وجعلت قريش حين فقدوه مئة ناقة لمن يردّه عليهم[3] .

وطلبت قريش رسولَ الله ﷺ أشدَّ الطلب حتى انتهوا إلى باب (الغار) ، فقال بعضهم : « إنّ عليه العنكبوت قبل ميلاد محمد »[4] .

وفي (الغار) كان النبيّ ﷺ يُصلي، وكان أبو بكر خائفاً على النبيّ ﷺ ، فكان يقترب منه ويلصق نفسه به، فيهمس النبيّ ﷺ في أذن أبي بكر الصِّدِّيق : « لا تحزن! إنّ اللّه معنا » . وحين شعر أبو بكر بدنوّ الباحثين عنهما قال هامساً : « لو نظر أحدهم تحت قدميه ، لأبصرَنا » ، فأجابه النبيّ ﷺ : « يا أبا بكر ! ما ظنّك باثنين، الله ثالثهما ! »[5] .

وخرجا بعد ثلاثة أيام من (الغار) حين عرفا أن قد سكن النّاس عنهما ، ولكنّ سُرَاقَة بن مالك بن جُعْشم علم بمكانهما ، فركب في أثرهما ، فلما اقترب منهما عثر به فرسه وذهبت يداه في الأرض وسقط عنه ، فعرف سراقة حين رأى ذلك أنّ النبيّ ﷺ قد مُنِع منه[6] .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٩٥) وطبقات ابن سعد (١/ ٢٢٧) .
(٢) الخوخة : كوّة في البيت تؤدي إليه الضوء . وباب صغير وسط باب كبير نصب حاجزا بين دارين . ومخترق ما بين كلّ دارين .
(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٩٨ - ٩٩) .
(٤) طبقات ابن سعد (١/ ٢٢٨) .
(٥) طبقات ابن سعد (٣/ ١٧٣ - ١٧٤)
(٦) سيرة ابن هشام (٢/ ١٠٣) .

٢ ـ في المدينة المنوّرة :

قدم رسول الله ﷺ المدينة وهو لا يملك ديناراً ولا داراً فيها، فنزل ضيفاً على أبي أيوب الأنصاريّ ستة أشهر[١]، حتى أنجز بناء مسجده ومساكنه، وعمل في المسجد ليُرَغِّب المسلمين في العمل[٢]، وجعل ينقل الحجارة بنفسه[٣]، فتمّ ببناء المسجد بناء (الثُكْنَة) الأولى في الإسلام.

ولكي يتفرّغ لقتال قريش دون أن تقلقه الجبهة الداخلية في المدينة المنوّرة، كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار من جهة وبين يهود من جهة ثانية: وادعهم فيها وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم[٤]، وقد نَصّت هذه المعاهدة بصراحة على: «أنه لا يجوز لمشرك من أهل المدينة أن يجير مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن[٥]»، فاستطاع الرّسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام بهذه المعاهدة أن يجعل أهل المدينة جميعاً على اختلاف أديانهم يداً واحدة على أعدائهم[٦]، وبخاصة على قومه قريش.

ولم يكد يستقرّ في المدينة إلاّ ونصبت أحبار يهود له العداوة بغياً وحسداً وضغنا، وأضاف[٧] إليهم رجال من الأوس والخزرج كانوا أهل نفاق، فظهروا بالإسلام واتّخذوه جُنَّة[٨] من القتل ونافقوا في السرّ، وكان هواهم مع يهود لتكذيبهم النبيّ ﷺ وجحودهم الإسلام[٩]

وذهب يهود إلى أبعد من ذلك، فحاولوا الوقيعة بين أصحاب رسول الله

---

(١) عيون الأثر (١/ ١٩٥).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ١١٤) والسيرة الحلبية (٢/ ٧٦).

(٣) طبقات ابن سعد (١/ ٢٤٠).

(٤) أنظر نص المعاهدة في سيرة ابن هشام (٢/ ١١٩ ـ ١٢٣) وشرح العيون (١٩٧ ـ ١٩٨).

(٥) سيرة ابن هشام (٢/ ١٢١).

(٦) الرسول القائد (٦٠) ـ ط ٣

(٧) أضاف إليهم: يريد أنه اخذ ما اخذوا به من الحسد والبغض والعداوة.

(٨) الجنّة: وقاية يجتنون بها، أي يستترون.

(٩) سيرة ابن هشام (٢/ ١٣٥).

ﷺ ، فقد جمع الأوس والخزرج مجلس واحد يتحدّثون ، فغاظ أحد يهود ما رآه من أُلفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهليّة ، فأمر هذا اليهودي شاباً يهودياً فقال : إعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم (بُعاث) وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما تقاولوا فيه من الأشعار ، وكان يوم (بُعاث) يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، فتكلّم القوم عند ذاك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيَّين على الرُّكب ، وغضب الفريقان معاً وقالوا : موعدكم الظّاهرة[1] . . . السِّلاح . . السِّلاح . . وخرجوا إليها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال : « يا معشر المسلمين ! اللّهَ اللّهَ ! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم اللّه للإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهليّة ، واستنقذكم به من الكفر ، وألّف به بين قلوبكم ؟! » ، فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، فأنزل اللّه تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تُطيعوا فَريقاً مِنَ الذينَ أُوتـوا الكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بعد إيمانِكُمْ كافرينَ . وكيف تَكْفُرونَ وأنتم تُتلى عليكم آياتُ اللّه وفيكم رسوله ، ومَنْ يعتصِمْ باللّه فقد هُديَ إلى صراطٍ مستقيم ﴾[2] .

بل ذهبت يهود إلى أبعد من ذلك كثيراً، فحاولت اغتيال النبيّ ﷺ حين خرج إلى يهود بني (النّضير) يستعينهم في ديّة رجلين قتلهما خطأً أحد المسلمين ، فاختلى بعضهم ببعض وقالوا : « لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن ، فمن رجل يظهر على هذا البيت ، فيطرح عليه صخرة ، فيريحنا منه » ، فقال أحدهم: «أنا»، ولكن النبيّ ﷺ انصرف عنهم[3] ، قبل أن ينفذوا خطّة اغتياله ، ففوت عليهم الفرصة .

---

(١) الظاهرة : الحرَّة ـ حرَّة المدينة المنوّرة

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ١٨٣ ـ ١٨٥) والايتان الكريمتان من سورة آل عمران (٣: ١٠٠ ـ ١٠١) انظر تفسيرهما في البغوي (٢/ ١٩٨ ـ ١٩٩) والكشاف (١/ ٣١٧) والبيضاوي (٢/ ٣٢) .

(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٢) .

وبدأ الصراع بين قوة المسلمين القليلة وقوّات المشركين الكثيرة ، وكانت قوّة المسلمين قليلة بعَددها وعُدَدها قوية بإيمانها وقيادتها ، فكان الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام هو الأسوة الحسنة للمؤمنين من أتباعه في الجهاد ، كما كان هو الأسوة الحسنة لهم في السلم .

كان عدَدُ الذين شهدوا غزوة (بَدْرٍ) الكبرى الحاسمة بضعة عشر وثلاثمائة رجل [١] ، وكان عدد الذين شهدوها من المشركين تسعمائة وخمسين رجلاً [٢] ، وكان مع المسلمين سبعون بعيراً وفرسان [٣] ، وكان مع المشركين مِئَتا فرس وعدد ضخم من الإبل ، وكان المسلمون حين خرجوا إلى (بدر) تنقصهم الضروريّات الإدارية، فدعا لهم النبيّ ﷺ بقوله: «اللّهم إنهم حفاة فاحملهم ، اللّهم إنهم عراة فاكْسِهِمْ ، اللّهم إنهم جياع فأشبعهم» [٤] ، أما المشركون فكانوا في حالة إداريّة متميِّزة .

ولكنّ الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام ، قرّر أن يخوض هذه الغزوة الحاسمة على الرغم من تفوّق المشركين على المسلمين بالعَدَد والعُدَد والقضايا الإدارية .

لقد كان رسولُ الله ﷺ يقدِّر تمام التقدير ويعرف تمام المعرفة، ماذا يعنيه اندحار المسلمين في هذه الغزوة الحاسمة . . في هذا الصراع الحاسم بين عقيدتين ، لذلك دأب على مناشدة ربه ما وعده من النصر ، فيقول فيما كان يقول : « اللّهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعْبَد » ، وأبو بكر الصِّديق رضي اللّه عنه يقول : « يا نبيّ اللّه ! بعض مناشدتك ربّك ، فإنّ اللّه منجزٌ لك ما وعدك [٥] » .

وخرج شَيبة وعُتْبَة إبنا ربيعة والوليد بن عُتْبَة ودعوا إلى البراز ، فخرج

(١) فتح الباري بشرح البخاري (٧/ ٢٢٨) وطبقات ابن سعد (٢/ ١٩) .
(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ١٥) .
(٣) طبقات ابن سعد (٢/ ١٤) .
(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ٢٠)
(٥) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٦٧) .

إليهم ثلاثة من الأنصار بنو عَفْراء : مُعاذ ومُعَوِّذ وعَوْف بنو الحارث ، فكره رسول الله ﷺ أن يكون أول قتال لقي فيه المسلمون المشركين في الأنصار ، وأحبّ أن تكون الشوكة ببني عمه وقومه ، فقال : « يا بني هاشم ! قوموا قاتلوا بحقكم الذي بعث اللّه به نبيّكم ، إذجاؤ وا بباطلهم ليطفئوا نور اللّه » ، فقام حمزة بن عبد المطَّلب وعلي بن أبي طالب وعُبَيْدَة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف[1] ، وقاتلوا أولئك المشركين الثلاثة ، وبذلك استأثر النبيّ ﷺ لأهله الأقربين بالخطر[2]، فاستشهد يومئذٍ بسبب هذه المبارزة عبيدة بن الحارث بن عبد المطّلب[3] .

ونزل الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسَّلام بنفسه ليضرب لأصحابه أروع الأمثال في الشجاعة والتضحية والفداء ، فقد شوهد في أثر المشركين مُصْلِتاً للسيف يتلو هذه الآية الكريمة : ﴿ سَيُهْزَمُ الجَمْعُ ويولّـونَ الدُّبُرَ ﴾[4] . قال عليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه : « لما كان يوم (بدر) ، وحضر البأس ، اتّقينا برسول الله ﷺ، وكان من أشد الناس بأساً يومئذٍ، وما كان أحد أقرب إلى المشركين منه »[5] .

وفي غزوة (أُحُد) جُرح وجه رسول الله ﷺ وكُسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه[6] ، واستشهد عمّه حمزة بن عبد المطلب رضي اللّه عنه[7] ، واستشهد سبعون من أصحابه[8] .

وفي غزوة (ذات الرِّقاع)[9] ، حاول رجل من (غَطَفَان) أن يفتك برسول

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ١٧) وانظر عيون الأثر (١/ ٢٥٤) وسيرة ابن هشام (٢/ ٢٦٥) .
الرسول القائد (١٠٠)
(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٥١) والإصابة (٤/ ٢١٠) وأسد الغابة (٣/ ٣٥٧) .
(٣) طبقات ابن سعد (٢/ ١٧) ، والآية الكريمة من سورة القمر (٥٤ : ٤٥)
(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ٢٣)
(٥) شرح النووي على مسلم (٤/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠) وفتح الباري بشرح البخاري (٧/ ٢٨٦)
(٦) فتح الباري بشرح البخاري (٧/ ٢٨٣) وسيرة ابن هشام (٣/ ١٥) .
(٧) فتح الباري بشرح البخاري (٧/ ٨٨)
(٨) قيل لها : غزوة ذات الرقاع ، لأنهم رقعوا فيها راياتهم ، وقد غزا النبيّ ﷺ نجداً يريد بني محارب
(٩) وبني ثعلبة من غطفان ، انظر سيرة ابن هشام (٣/ ٢١٤) .

الله ﷺ ، فقال هـذا الرجل لقومه: «ألا أقتل لكـم محمداً؟»، قالوا : بَلَى، وكيف تقتله ؟»، قـال: «أفتك بـه». فأقبل إلى رسول الله ﷺ وهو جالس وسيفه في حجره ، فقال : « يا محمّـد ! أَنْظُـر إلى سيفـك هذا ؟ » ، قال : « نعم ! » ، فأخذه واستلّه وجعل يهـزّه ، ثم قال : « يا محمـد ! أمـا تخافني !! » ، قال : « لا ، وما أخاف منك ! » ، قال : « أما تخافني وفي يدي السَّيف ! » ، قال : « لا ، يمنعني اللّه منك »[١] .

وفي غزوة (الخندق)، عمـل رسول الله ﷺ مـع المسلمين في حفر الخندق ، لينشط المسلمين ، وكان ينقل التراب على كاهله حتى اغبرَّ بطنه ، وكان المشركون عشرة آلاف ، وكان المسلمـون ثلاثـة آلاف ، وازداد موقف المسلمين في المدينة المنوّرة خطراً بعد أن نقض بنو (قُرَيظَة) من يهود العهـد ، فبعث رسول الله ﷺ بعـض الأنصار فقـال: «انطلقوا حتى تنظروا أحقّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟! فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه ولا تفتّوا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس » ، فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم . نالوا من رسول الله ﷺ وقـالوا: مَنْ رسول الله ؟! لا عهد بيننا وبين محمـدٍ ولا عقد[٢] .

ونجم النفاق ، وفشل الناس ، وعظم البلاء ، واشتدّ الخوف ،وخيف على الذراري والنساء ، وكان المسلمون كما قال اللّـه تبـارك وتعـالى : ﴿ إذْ جاءُوكم من فَوْقِكم ومن أَسْفَلَ منكم ، وإذ زاغَتِ الأَبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجِرَ ﴾[٣] . وكانت القضايا الإدارية للمسلمين سيئة للغاية ، إذ لبثوا ثلاثة أيام لا يذوقون ذواقـاً، وكـان بطن النبيّ ﷺ معصوباً بحجر[٤] من الجوع ، ومع ذلك صبر الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام صبراً لا مثيل له في

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٢١٦) .

(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٦٦) وسيرة ابن هشام (٣/ ٢٣٥) . فالحنوا لي لحناً : أي قولوا قولاً يخالف ظاهر الكلام معناه . وفتّ في عضده : إذا ضعّفه وأوهنه ، وانظر سيرة ابن هشام (٣/ ٣٧) ، وانظر فتح الباري بشرح البخاري (٣/ ٣٠٨) حول نقله التراب .

(٣) طبقات ابن سعد (٢/ ٦٧) ، والآية الكريمة من سورة الأحزاب (٣٣: ١٠)

(٤) فتح الباري بشرح البخاري (٧/ ٣٠٤)

التاريخ كله، وثبت ثباتاً عظيماً ، حتى انسحب المشركون يجرون أذيال الخزي والعار، وحينذاك قال النبيّ ﷺ : «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، ونحن نسير إليهم »[1] .

وفي غزوة بني (المُصْطَلِق) من (خُزَاعَة) ، حاول أحد المشركين إغتيال النبيّ ﷺ ، فقد أدركته القائلة، فنزل تحت شجرة واستظلّ بها، وعلّق سيفه ، وتفرّق النّاس في الشّجر يستظلّون ؛ فأتاه أعرابيّ وهو نائم ، واخترط سيف رسول الله ﷺ ، فاستيقظ والأعرابي على رأسه ﷺ مخترطاً سيفه صلتاً، فقال: «مَنْ يمنعك مني؟!»، فقال النبيّ ﷺ : « اللّه »[2] .

وفي هذه الغزوة ، ازدحم أحد الأنصار بأحد المهاجرين على الماء ، فنادى الأنصاريّ : « يا لَلأنصار ! » ، ونادى القرشي : « يا لقريش ! يا لَكِنانة » ، فأقبلت قريش سراعاً وأقبلت الأوس والخزرج ، وشهروا السِّلاح ، فقال عبداللّه بن أُبيّ رأس المنافقين : « لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجنّ الأعزّ منها الأذل » ، ثم أقبل على مَنْ حضر من قومه فقال : « هذا ما فعلتم بأنفسكم » . وخرج من ساعته وتبعه الناس ، فتقدّم عبداللّه بن عبداللّه بن أُبيّ الناس حتى وقف لأبيه على الطريق فقال : « لا أُفارقك حتى تزعم أنك الذليل ومحمد العزيز»، فمرّ رسول الله ﷺ فقال: «دَعْهُ،فلعمري لنُحْسِنَنَّ صحبته ما دام بين أظهرنا ! »[3] .

وفي هذه الغزوة أيضاً ، أثار المنافقون وبعض المُغَفَّلِينَ من المسلمين شائعة الإفك حول عائشة أم المؤمنين رضي اللّه عنها ، فأنزل اللّه تعالى براءتها[4] .

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري (٣/ ٣١١)

(٢) فتح الباري بشرح البخاري (٣/ ٣٣٣)

(٣) طبقات ابن سعد (٢/ ٦٥) وسيرة ابن هشام (٣/ ٣٣٤ ـ ٣٣٦) .

(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ٦٥) وانظر سيرة ابن هشام (٣/ ٣٤١ ـ ٣٤٨) وفتح الباري بشرح البخاري (٧/ ٣٣٣ ـ ٣٣٨) .

وحاول أبو سُفيان بن حرب قبل إسلامه اغتيال النبيّ ﷺ ، فقد قال لنفرٍ من قريش : « ألا أحدٌ يغتال محمداً ، فإنه يمشي في الأسواق ؟ » ، فأتاه رجل من الأعراب ، فقال : « قد وجدت أجمع الرجال قلباً وأشدّه بطشاً وأسرعه شداً ، فإن أنت قوّيتني خرجت إليه حتى أغتاله ، ومعي خنجر مثل خافية النسر فأسوره[1] ، ثم آخذ في عيرٍ وأسبق القوم عدواً ، فإنني هادٍ بالطريق خِرِّيْت[2]» ، قال : « أنت صاحِبُنا ! » ، فأعطاه بعيراً ونفقة وقال : « إطوِ أمرك » ، فخرج ليلاً وسار على راحلته خمساً وصبّح المدينة صبح سادسه ، وأقبل يسأل عن رسول الله ﷺ حتى دُل عليه ، فعقل راحلته ثم أقبل إلى رسول الله ﷺ وهو في مسجد بني عبد الأشهل ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «إنّ هذا ليريد غدراً !». وذهب الرجل ليحني على رسول الله ﷺ ، فجذبه أحد الأنصار ، فإذا بالخنجر ، فسقط من يديه وقال: «دَمي ! دَمي . .» ، فقال رسول الله ﷺ : «أصْدِقْني ، ما أنت ؟ » ، قال : « وأنا آمِنٌ ؟! » ، قال : « نعم » ، فأخبره بأمره وما جعل له أبو سفيان بن حرب ، فخلّى عنه رسول الله ﷺ ، فأسلم الرجل[3] .

وفي غزوة (الحُدَيْبية)[4] ، حين أراد الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام إبرام الهدنة بين المسلمين وبين قريش ، ضاق بعض المسلمين بأمر الهدنة ، ومنهم عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، فقد أتى النبيّ ﷺ فقال: « يا رسول اللّه ! ألستَ برسول اللّه ؟! » ، فقال : « بلى » ، قال : « أولسنا بالمسلمين ؟! » ، قال : « بلى » ، قال : « أوليسوا بالمشركين ؟! » ، قال : « بلى » ، فقال : « فَعَلاَمَ نعطي الدَنِيَّة[5] في ديننا ؟ » ، فقال : « أنا عبداللّه ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيِّعني »[6] .

---

(١) أسوره : أبطش به (٢) الخريت : الدليل الحاذق بالدلالة (٣) طبقات ابن سعد (٢/ ٩٣ - ٩٤)
(٤) الحديبيّة : قرية ليست بكبيرة ، بينها وبين مكة مرحلة واحدة ، وبينها وبين المدينة تسع مراحل ويقال : إنّ بعضها من الحل وبعضها من الحرم ، وسميت بذلك لبئر فيها تسمى : الحديبية .
(٥) الدنية : الذل والصغار . يريد : لماذا تقبل من المشركين ما يعتبر هواناً لنا ومذلة ؟
(٦) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٦٥ - ٣٦٦)

وكان مما أثار حفيظة عمر بن الخطّاب وغيره رضي اللّه عنهم جميعاً ، صبر النبيّ ﷺ على سُهَيْل بن عمرو أثناء كتابة العهد، يقول: «أكتب بسم اللّه الرحمن الرحيم » ، فيقول سُهَيْل : « أمْسِك ، لا أعرف الرحمن الرحيم ، بل أكتب باسمك اللّهم». ويقول ﷺ :«أكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول اللّه سُهَيْل بن عمرو » ، فيقول سهيل : « أمْسِك ، لو شهدتُ أنك رسول اللّه لم أقاتلك ، ولكن أكتب اسمك واسم أبيك »[1]

وفي غزوة (الفتح)، رأى المسلمون رسول الله ﷺ حين دخل مكة المكرّمة ، ورأسه قد انحنى على رحله ، وبدا عليه التواضع الجم ، حتى كادت لحيته تمسّ واسطة راحلته خشوعاً ، وترقرقت في عينيه الدموع تواضعاً وشكراً للّه[2] .

وقام رسول الله ﷺ على باب الكعبة خطيباً، فكان مما قاله:«لا إلّه إلاّ اللّه وحده ، لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كلّ مأثرة أو دم أو يُدَّعى فهو تحت قدميّ هاتين ، إلاّ سدانة البيت وسقاية الحاج . . يا معشر قريش ! إنّ اللّه قد أذهب عنكم نخوة الجاهليّة وتعظمها بالآباء : الناس من آدم ، وآدم من تراب : ﴿ يا أيها النّاسُ إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنْثى وجعلناكم شُعوباً وقبائلَ لِتَعارفوا ، إنَّ أكرمَكم عند اللّه أتقاكم ﴾[3] ، يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم !؟ ، قالوا : خيراً . أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء »[4] .

قال عمر بن الخطّاب رضي اللّه عنه : « لّما كان يوم الفتح ورسول اللّه ﷺ بمكة، أرسل إلى صَفْوان بن أُمَيّة بن خَلَف،وإلى أبي سُفْيان بن حَرْب،

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٦٦)

(٢) الرسول القائد (٣٤٧) .

(٣) الآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٩ : ١٣) .

(٤) سيرة ابن هشام (٤/ ٣١ - ٣٢)

وإلى الحارث بن هشام ، فقلت : قد أمكن اللّه منهم ، أعرِّفهم بما صنعوا ، فقـال النبيّ ﷺ لهـم: مثلي ومثلكم كمـا قال يوسف لإخوته: ﴿لا تثريب عليكم ، اليوم يغفر اللّه لكم ، وهو أرحم الراحمين﴾[1] .

وحين كـان يطوف النبيّ ﷺ بالبيت الحـرام، أراد فُضَالة بن عُمَيْر بن الملوّح اللّيثيّ قتلـه، فلما دنا منـه قال لـه النبيّ ﷺ : «أفضالة»؟! ، قال : « نعـم فضالـة يا رسـول اللـه ! » ، قال : « مـاذا كنـتَ تحـدِّث به نفسك ؟! » ، قال : « لا شيءَ . . كنتُ أذكر اللّه عزّ وجلّ » ، فضحك النبيّ ﷺ ثمّ قـال: «إسْتَغْفِرِ الله »، ثم وضـع يده على صدر فضالة، فكان فضالة يقول : « واللّه ما رفع يده عن صدري ، حتى ما من خلق اللّه شيء أحبّ إليّ منه »[2] .

وفي غزوة (حُنَيْن) ، انهزم المسلمون لا يلوي أحد على أحـد ، فانحـاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قـال: «أين أيها النّاس؟! هلمّوا إليَّ، أنا رسول اللّه محمد بن عبدالله»، وقد بقي معه نفر من المهاجرين والأنصـار وأهل بيته[3] ، فأمر عمّه العبّاس أن ينادي : « يا معشر الأنصار ! يا أصحاب السّمرة ! يا أصحاب سورة البقرة ! » ، فأقبلوا كأنهـم الإبـل إذا حنّـت على أولادها يقولون : « يا لبيك ! يا لبيك ! » ، وحملوا على المشركين[4] .

في ذلك الموقف الحرج للغاية ، أراد شَيْبَة بن عُثْمان بن طَلْحَة أن يغتال النبيّ ﷺ ! قـال شيبة: « قلت: اليـوم أدرك ثأري. . اليوم أقتل محمداً! فأدَرْتُ برسول الله ﷺ لأقتلـه ، فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي فـلم أطق ذلك ، فعلمت انه ممنوع مني » ، وكان أبو شيبة قتل يوم (أُحُد)[5] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ١٤١ ـ ١٤٢) .

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٧)

(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ٧١ ـ ٧٢)

(٤) طبقات ابن سعد (٣/ ١٥١) وسيرة ابن هشام (٣/ ٧٤)

(٥) سيرة ابن هشام (٣/ ٧٣)

ويـوم (حُنَيْنْ) أعطى رسول الله ﷺ مـن غنائم (حُنَيْنْ) في قريش وفي قبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء .

ووجد هذا الحيُّ من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منهـم القالـة[١] ، وحتى قـال قائلهم: «لقي واللهِ رسولُ الله ﷺ قـومَهُ!!» . فدخل عليه سعد بنُ عبادة فقال : « يا رسول اللّه ! إن هذا الحيّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم ، لما صنعتَ في هذا الفيء الذي أصبتَ : قَسَمْتَ في قومك ، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء ! » . قال : « فأين أنت من ذلك يا سعد ؟! » ، قال : « يا رسول اللّه ! ما أنا إلاّ من قومي » ، قال : « فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة »[٢] .

وخرج سعد ، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة ، فأتاهـم رسـول اللّـه ﷺ وقـال: « يـا معشر الأنصار! مـا قالة بلغتني عنكم وجـدَة[٣] وجدتموها عليّ في أنفسهم ؟ ألم آتِكم ضُلاّلاً فهداكم اللّه ، وعَالـة[٤] فأغنـاكم اللّـه ، وأعـداء فألّف بـين قلوبـكم ؟! » ، قالـوا : «بلى ، اللّــه ورسولــه أمَــنّ[٥] وأفضل » .

ثم قال : « ألا تجيبونني يا معشر الأنصار ! » ، قالوا : «وبماذا نجيبك يا رسول اللّه ؟! . . . للّه ورسوله المنّ والفضل ! » .

فقال : « أما واللّه لو شئتم لقلتُـم فلصَدَقْتُـم ولصُدِّقْتُـم ! أتيتنـامُكَذَّبـاً فصدّقناك ، ومخذولاً فنصرنـاك ، وطـريداً فآوينـاك ، وعائـلاً فآسينـاك[٦] ، أَوَجَدْتُمْ يا معشر الأنصار في أنفسكم لُعَاعَة[٧] من الدنيا تألّفتُ بها قوماً لِيُسْلموا

---

(١) القالة : الكلام الرديء

(٢) الحظيرة : هي في الأصل ، مكان يتخذ للأبل والغنم يمنعها الانفلات وهجمات اللصوص والوحوش .

(٣) الجدة : أراد بها الموجود ، وهي العقاب ، وأكثر ما تستعمل الجدة في المال .

(٤) عالة : الفقراء .

(٥) أمَنّ : هو أفعل تفضيل من المنّة ، وهي النعمة .

(٦) آسيناك : أعطيناك حتى جعلناك كأحدنا

(٧) اللعاعة : بقلة حمراء ناعمة ، شبّه بها زهرة الدنيا ونعيمها .

ووكلتكم إلى إسلامكم؟! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول اللّه إلى رحالكم ؟! فوالذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعْباً[١] وسلكت الأنصار شِعْباً لسلكت شِعْبَ الأنصار . اللّهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » ، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم[٢] ، وقالوا : رضينا برسول اللّه قِسْماً وحَظّاً[٣] .

٣ ـ في نفسه :

كانت غنائم يوم (حُنَيْن) أربعة وعشرين ألف بعير ، وأربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أُوقية من الفضّة ، وستة آلاف نسمة من السَّبي[٤] ، وقد أعاد السبايا إلى (هوازن)[٥] .

فهل أبقى النبيّ ﷺ لنفسه شيئاً من هذا المال ؟

لقد قام يومئذٍ إلى جنب بعير ، فأخذ وبرة من سنامه[٦] بين إصبعيه ، ثم رفعها وقال : « أيها الناس ! واللّه مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدّوا الخياط[٧] والمخيط ، فإنّ الغُلول يكون على أهله عاراً وناراً وشناراً يوم القيامة »[٨] .

بل هل أبقى لنفسه شيئاً من ماله الخاص ؟!

كان النبيّ ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاء، وكان عامة خبزهم الشعير .

وفي يوم من الأيام، جاءت فاطمة ابنة النبيّ ﷺ بكسرة خبز، فقال: « ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟ » ، قالت : « قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى

---

(١) الشعب : الطريق بين جبلين . (٢) أخضلوا لحاهم : بلّوها بالدموع . والغصن الخضل : هو الذي بلّه المطر . (٣) سيرة ابن هشام (٤/ ١٤٧ ـ ١٤٨) وعيون الأثر (٢/ ١٩٤ ـ ١٩٥) والسيرة الحلبية (٣/ ١٤١ ـ ١٤٢) وفتح الباري بشرح البخاري (٨/ ٣٨ ـ ٤٤) (٤) الرسول القائد (٣٦١ ـ ٣٦٢) (٥) سيرة ابن هشام (٤/ ١٣٥) (٦) السنام : أعلى ظهر البعير . (٧) الخياط : الخيط (٨) سيرة ابن هشام (٤/ ١٣٨ ـ ١٣٩) .

آتيك بهذه الكسرة » ، فقال : « أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام » .

وقالت عائشة أم المؤمنين رضي اللّه عنها : « ما شبع آل محمد غداء وعشاء من خبز الشعير ثلاثة أيام متتابعات حتى لحق باللّه » .

وخطب رسول الله ﷺ فقال: «والله ما أمسى في آل محمد صاع من طعام ، وإنها لتسعة أبيات » ، وما قالها استقلالاً لرزق اللّه ، ولكن أراد أن تتأسى به أُمته.

وقال عبداللّه بن العباس رضي اللّه عنهما : « واللّه لقد كان يأتي على آل محمدﷺ الليالي ما يجدون فيها عشاء » .

وقالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «ما شبع رسول الله ﷺ في يوم مرتين حتى لحق باللّه ، ولا رفعنا له فضل طعام عن شبع حتى لحق باللّه ، إلاّ أن نرفعه لغائب » .

وقالت : « كان لنا جيران من الأنصار، لهم ربائب يسقوننا من لبنها، جزاهم اللّه خيراً » .

وقالت : « إنّ آل محمد لم يشبعوا ثلاثة أيام متوالية من طعام بُرٍ حتى مضى النبيّﷺ لسبيله » .

وقالت : « واللّه لقد كان يأتي على آل محمد ﷺ شهر لا نخبز فيه » .

وقالت: «لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبزٍ وزيت في يوم مرتين » .

وقد توفي النبيّﷺ ، ودرعه مرهونة عند رجل من يهود بوسق من شعير .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : «إنّ النبيّ ﷺ كان يجوع»، فقيل له : « وكيف ذلك الجوع؟! » ، فقال : « لكثرة مَنْ يغشاه وأضيافه ، وقوم يلزمونه لذلك ، فلا يأكل طعاماً أبداً إلاّ ومعه أصحابه وأهل الحاجة يتتبعون

من المسجد » .

وكان النبيّ ﷺ يقول: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه: حسب ابن آدم أكلات يُقمنِ صُلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه وثلث لشرابه ، وثلث لنَفسِه »[١] .

إنه لم يستقر في قلبه العظيم ما يجعل للدينار معنى الدينار، ولا للدرهم معنى الدرهم، إن فقرهﷺ كان من أنه كان يتّسع في الكون لا في المال .

إنه يُفهم من فقر النبيّﷺ ، أنّ الشهوات خلقت مع الإنسان تتحكّم فيه ، ولكنه كان يتحكّم فيها ولا تتحكّم فيه ، وأنّ الإنسان العاقل يجب أن يكون ذا روح تمتد فتفيض عن غايات جسمه إلى ما هو أعلى فأعلى ، حتى تصبح من حكم النور وانطلاقه وحريته .

إنّ الفقر وما إليه،والزهد وما هو بسبيل منه ، والانصراف عن الشهوات والرذائل ، كل ذلك إن هو إلاّ تراجع النفس العالية إلى ذاتها النورانية .

هذا هو سيد الأُمة ، يمسكه في الحياة نبياً عظيماً ، ما يُخرج غيره منها ذليلاً محتقراً ، وكأنما أشرق وصفاء نفسه على تراب الأرض ، فردّه أشعّة نور[٢] .

لم يفكِّر أبداً بنفسه ، كما لم يفكر أبداً بأهله ، يسبغ عليهم هذا الترف الذي يشيع بين ذوي الجاه والسلطان ، وحين نصره اللّه وردّ عنه الأحزاب وفتح عليه قُرَيْظَة والنَّضِيرْ ، ظنّ أزواجه أنه اختصّ بنفائس يهود وذخائرهم . وكُنَّ تسع نسوة قعدن حوله وقُلْنَ : « يا رسول اللّه ! بنات كسرى وقيصر في الحلي والحُلَلْ والإماء والخَوَل ، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق » . وآلمن قلبه بمطالبتهنّ له بتوسعة الحال ، وأن يعاملهنّ بما تعامل به الملوك وأبناء الدنيا أزواجهم ، فأمره اللّه تعالى أن يتلو عليهّن ما نزل في أمرهنّ من تخييرهنّ في

---

(١) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (١/ ٤٠٠ ـ ٤٠١)

(٢) انظر مقال : سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم ، في كتاب : وحي القلم للأستاذ المرحوم مصطفى صادق الرافعي (٢/ ٤٨ ـ ٦٢) .

فراقه ، وذلك قوله : ﴿ يا أيها النبيّ قل لأزواجك أنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدنيا وزينتَها ، فَتعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ[1] سَراحاً جميلاً . وإنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللّـهَ ورسولَه والدارَ الآخرة ، فإِنّ اللّهَ أعدَّ للمُحْسِنَات مِنْكُنَّ أجراً عظيما ﴾[2] .

وبـدأ رسـول الله ﷺ بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، فقال لهـا: « إني ذاكر لكِ أمراً ما أحبّ أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويكِ » ، فقالت : « ما هو ؟ » ، فتلا عليها الآية ، فقالت : « أفيكَ أستأمر أبويَّ ؟! بل اختار اللّه تعالى ورسوله » .

ثمّ تتابعن كلهنّ على ذلك ، فسّماهنَّ اللّه : أمّهـات المؤمنـين ، تعـظيماً لحقهنّ وتأكيداً لحرمتهنّ وتفضيلاً لهنّ على سائر النساء .

لقد أمره ربّه أن يُخَيِّرهنّ جميعاً في سراحهنّ ،فيكُنّ كالنِّساء ويجدن ما شئن من دنيا المرأة ،وبين إمساكهنّ، فلا يكُنَّ معه إلاّ في بيعة أخرى تبدأ من حيث تنتهي الدنيا وزينتها ، ولا تقتصر الآية الكريمة عن نفي الدنيا وزينـة الـدنيا عنهنّ ، بل نفت الأمل في ذلك أيضاً إلى آخر الدهر ، وأماتت معناه في نفوسهنّ بقصر الإرادة منهنّ على هذه الثلاثة : اللّه في أمره ونهيه ، والرسول في شدائده ومكابدته ، والدار الآخرة في تكاليفها ومكارهها ، فليس هناك ظرف ولا رقّة ولا عاطفة ولا سياسة لطبيعة المرأة ولا اعتبار لمزاجها ولا زلفى لأنوثتها ، بل هو تخيير بين ضدين لا تتلوّن بينهما حالة تكون منهما معاً[3] .

وكما كان قدوة في فقره ، كان قدوة في خلقه ومعاملاته وسيرته في بيته ومع أهله والناس .

وكل ذلك معروف مشهور ، لا جدوى من إعادة ذكره .

وأخيراً مـات النبيّ ﷺ متأثِّراً بالسُّم ذي المفعول البطيء، فقـد أهدت

(١) السرّاح : الطلاق . ومتعة الطلاق : ما تعطاه المطلقة ، وهو يختلف حسب السعة والإقتار .
(٢) الآيتان الكريمتان من سورة الأحزاب (٣٣: ٢٨ ـ ٢٩) ، وانظر تفسيرها في تفسير ابن كثير (٦/ ٥٣٨ ـ ٥٤٢) وتفسير البغوي (٦/ ٥٣٨ ـ ٥٤٢) وتفسير الكشّاف للزمخشري (٢/ ٤٢٩) .
(٣) انظر مقال درس من النبوة للأستاذ المرحوم مصطفى صادق الرافعي في كتاب : وحي القلم (٢/ ٦٤ ـ ٦٥)

امرأة يهوديّة من (خَيْبَر) شاة مسمومة لرسول الله ﷺ ، فأكل منها، وأكل بعض مَنْ كان معه من أصحابه وفيهم بِشْرْ بن البِراء بن مَعْرور ، فمات بشر ، واحتجم رسول الله ﷺ على كاهله من أجل الذي أكل، وأمر أصحابه فاحتجموا أوساط رؤوسهم .

وعاش رسول الله ﷺ بعد ذلك ثلاث سنين، حتى كان وجعه الذي قُبِضَ فيه ،فجعل يقول في مرضه : « ما زلتُ أجد من الأكلة التي أكلتها يوم (خَيْبَر) عِدَاداً ،حتى كان هذا أوان انقطاع أبهرِي[1] » ، فتوفي رسول الله ﷺ شهيداً، صلوات الله ورحمته وبركاته عليه[2] .

لقد تحمل التعذيب والأذى والتكذيب والمقاطعة والاضطهاد والمطاردة ؛ وهو الشريف الصّادق الأمين الغني ، الذي كان بإمكانه أن يعيش في رفاهية وعز وسؤدد .

واستهان بالوعد والوعيد والمال والمجد ، وصبر على شظف العيش والجوع والعُري والمشقّة ؛ وهو القوي الأمين ، السيِّدالثَري ،الذي كان بإمكانه أن يعيش مصاناً مترفاً .

وقاتل قومه وقبيلته ، وعادى مَنْ عادى الإسلام ، وسالم مَنْ سالمه ، وعرّض نفسه للقتل في ساحات الجهاد مجاهداً ، وخارج ساحات الجهاد داعياً ، وضحّى بالأقربين من أهله وبنفسه ، وتحمل المسؤوليات الجسام التي تنوء بها العصبة القويّة من أفذاذ الرجال ، واستأثر بنفسه لنفسه بالأخطار الفادحة ، وهو البِرّ الرحيم الذي كان بإمكانه أن يعيش مرفّهاً مصاناً بعيداً عن الأخطار .

إنه كان تجسيداً حيّاً لتعاليم الإسلام عقيدةً وتشريعاً ومُثُلاً عليا وعملاً وتضحية وجهاداً ، فهو الأسوة الخالدة للمسلمين في كلّ زمان ومكان : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أُسْوَةٌ حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخرَ وذكر الله

---

(١) الأبهر : عرق في الظهر . والعداد : يقال به مرض عداد : يدعه زمناً ثم يعاوده .
(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٢٠٢ - ٢٠٣)

كثيراً ﴾[1].

إنه كان مثالاً حيّاً وبشراً سويّاً للخُلق الكريم : ﴿ وإنك لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[2] ، والإسلام في حقيقته وروحه عقيدةٌ وعملٌ وتضحية وجهاد ، وكلها في جملتها وتفصيلها معنى من معاني الخلق الكريم .

أيبذل بشر من ذات نفسه ووقته وجهده مثل هذا البذل ؟! أيضحي إنسان بماله ونفسه وأهله وقومه مثل هذه التضحية ؟! أيجاهد رجل بما يملك من مال ونفس وغالٍ ورخيص مثل هذا الجهاد ؟! أيستطيع أحد ان يتحمّل كل هذا البذل والتضحية والجهاد ؟!

وصدق اللّه العظيم : ﴿ اللّه أعلمُ حيث يجعل رسالته ﴾[3] .

إنّ المرء حين يستمع إلى مثل هذه (الأمثلة) الرائعة من بذله وتضحيته وجهاده ، يسمعها وهو مبهور الأنفاس،يكاد يُصْعق بروعتها وبهائها وجمالها وجلالها ، فكيف به لو استمع إلى كل تفاصيل بَذْله وتضحيته وجهاده في سبيل اللّه ، لتكون كلمة اللّه هي العليا .

لقد تأسّى أصحاب رسول اللّه به في حياته وبعد التحاقه بالرفيق الأعلى ، لذلك كان قرنه خير القرون ، وكان رجاله أعظم الرجال ورعاً وخُلقاً وشجاعة وإقداماً ، فأصبحوا قدوة لمن حولهم من الناس كل حسب حجمه وطاقاته ، ولا يكلِّف اللّه نفساً إلاّ وُسْعَها .

إنّ القدوة الحسنة هي التي تؤثر في الإنسان فتبنيه ، لأنّ القدوة عمل مخلص ينقلب في الآخرين عملاً مخلصاً ولا يبقى كلاماً .

والذين يريدون أن يبنوا الإنسان ، يجب أن يقدِّموا أعمالاً باقية ليكونوا قدوة حسنة،لا كلاماً فارغاً يتبدّد ثم تذروه الرياح .

فلينظر الرعاة ـ فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته ـ كيف يعملون .

---

(١) الآية الكريمة من سورة الأحزاب (٣٣: ٢١)

(٢) الآية الكريمة من سورة القلم (٦٨: ٤)

(٣) الآية الكريمة من سورة الأنعام (٦: ١٢٤)

اختيار المسؤولين

اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب ليس سهلاً ، وهو سرّ نجاح الحكّام والمحكومين على حدٍ سواء في الحياة العمليّة .

ليس سهلاً ، لأنّ النفس الأمّارة بالسوء - إلا مَنْ رَحِمَ ربّك - تحول دون تولية مَنْ هو أفضل منها كفاية وعلماً وخُلقاً .

وهو سر نجاح الحكّام والمحكومين ، لأنّ الحكّام الصالحين هم الذين يقودون إلى النصر في أيام الحرب ، وإلى التقدّم في أيام السّلام ، ولأنّ المحكومين القادرين ،هم الذين يُعينون الحكام على إحراز النصر في أيام الحرب ، ويعينونهم على التقدم والرقي في أيام السّلام .

وقد كان النبيُّ ﷺ مؤيداً من الله سبحانه وتعالى بالوحي، وكان لهذا التأييد أثر حاسم في توفيقه بَشِيراً ونذيراً ، ومشرِّعاً وقاضياً ، وسياسيّاً وإداريّاً ، وقائداً وجنديّاً ، ومربياً ومعلِّماً ، وبَشَراً وإنساناً .

وهذا التأييد الإلّهيّ ، لا يمنع من أن يكون لكفاياته الشخصيّة أثر حاسم أيضاً في توفيقه ، وهذه الكفايات هي القدوة والأسوة والمثل،التي باستطاعة المسلم أن يضعها نصب عينيه ، لأنها كفايات بشريّة متميِّزة يمكن الطموح في اقتفاء آثارها،ما استطاع المقتفي إلى ذلك سبيلاً .

أما التأييد الإلّهي بالوحي ، فيقتصر على الأنبياء والرسل وحدهم .

لقد وجدتُ بالدراسة المستفيضة الطويلة لسيرة النبيّ ﷺ ، أنّ من

ضمن كفاياته الفذّة المتميِّزة ، قابليته النّادرة على اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب .

ووجدت أنّ هذه القابلية التي التزم بها التزاماً صارماً في حياته المباركة ، هي من أهم الأسباب (الدنيويّة) لانتصاره في الحرب ونجاحه في أيّام السّلام .

كان عليه أفضل الصّلاة والسّلام يعرف أصحابه معرفة دقيقة مفصّلة ، وكان يعرف ما يتميّز به كل صحابي من (مزايا) تفيد المجتمع الإسلامي الجديد ، وكان يستغلّ هذه المزايا استغلالاً كاملاً لخير هذا المجتمع ،وللمصلحة العامة للمسلمين .

وكان في الوقت نفسه ، يدرك ما يعاني كلّ صحابي من (نواقص) ، وكان يتغاضى عن تلك النواقص ويغضّ الطرف عنها، ويحاول تقويمها وتلافي محاذيرها ، وكان يذكر أصحابه بأحسن ما فيهم من مزايا ويشيد بها ، ويأمر أصحابه أيضاً بالتغاضي عن (نواقص)إخوانهم ،والإشادة بأحسن ما فيهم من مزايا تقديراً وإعجاباً .

وكان عليه أفضل الصّلاة والسّلام ، بهذا السُّلوك الرائع الذي التزم به في كل حياته المباركة : يشيد بالمزايا وينتفع بها لخير المسلمين ، ويغضّ الطرف عن النواقص ويقوِّمها بالحسنى ، ثم يداويها بما عرف عنه من حكمة وموعظة حسنة وتربية مثالية .

بهذه الخطّة الرائعة والطريقة السليمة والأسلوب الحصيف ، كان النبيّ ﷺ ، يبني المسلم ولا يحطمه، ويقوِّم المعوجّ ولا يكسره، ويشيِّد للحاضر والمستقبل ، لا للحاضر وحده أو للسّاعة التي هو فيها .

لقد كان يعلم علم اليقين ، أنّ كل إنسان يتّسم بمزايا حميدة معيّنة ، وفي الوقت نفسه يعاني من نواقص خاصة ، لأنّ الكمال للّه وحده سبحانه وتعالى ، فكانت إشادته بالمزايا وإشادة أصحابه بها ، تقوّي تلك المزايا وتشدّ أزرها ، وكان إغضاؤه عن النواقص وإغضاء أصحابه عنها ، يقلِّل من أثرها ويستر

عليها، و يجعلها تتضاءل شيئاً فشيئاً حتى تتلاشى نهائياً أو يضعف تأثيرها، وقد تنتهي إلى الأبد .

وكان عليه الصّلاة والسّلام ، يدرك كلّ الادراك ، أنّ كل إنسان لا بدّ أن يعاني من نقص أو نواقص في ناحية من نواحيه الخلقيّة ـ وكفى المرء نُبلاً أن تُعَدَّ معايبه ـ ،فكان يغضّ الطرف عن النقص أو النواقص في أصحابه، ويستفيد لمصلحة المسلمين من ناحية الكمال ؛ فلا يكون ذلك النقص أو تلك النواقص سبّة أو مثلبة ، لأنه كأن يُبْرز ناحية الكمال ، فينوِّه بها وبصاحبها ويذكُره بها ويثني عليه أعظم الثناء .

كان لا يُبْقي المزايا طاقات مُعَطَّلة ، بل ينتفع بها لمصلحة المجتمع الإسلامي الجديد ، وهكذا تتضافر الطاقات المتميِّزة لشدِّ أزر الأمة وتقويتها ودفعها نحو النصر والبناء .

لقد كان من بين أصحاب النبيّ ﷺ ، مَنْ تميّز بالثراء، فأفاد المسلمون من ماله لأغراض الجهاد ، ولمعاونة الفقراء ، ولم يكلِّفه عليه الصّلاة والسّلام بمصاولة الصناديد والأبطال ، إذا لم يكن قادراً على القتال .

وكان من بين أصحابه مَن تميّز بالقيادة العسكريّة ، فولاّه قيادة قوّات الجهاد في السَّرايا والغزوات .

وكان من بين أصحابه مَن تميّز بالشّجاعة الفرديّة ، ولم تكن له قابليّة قيادية ،فاستفاد منه في مبارزة الشجعان والأقران، والنهوض بالواجبات الفدائية جندياً من جنود المسلمين ، دون أن يولّيه القيادة .

وكان من بين أصحابه مَنْ تميّز بالرأي السديد والتفكير العميق ، فأفاد منه عليه أفضل الصّلاة والسّلام في مجال الرأي والحكمة والشورى .

وكان من بين أصحابه مَن تميَّز بالقيادة الإداريّة ، فاستفاد منه في مجال الولاية على الأمصار .

وكان من بين أصحابه مَنْ تميّز بالقيادة المالية ، فاستفاد منه في مجال جباية الأموال والسّيطرة على الأمور الماليّة .

وكان من بين أصحابه من تميّز بالقضاء بين الناس ، فاستفاد منه في المجال القضائي .

وكان من بين أصحابه مَنْ تميز بالتأثير في نفوس وعقول الآخرين داعية إلى الله ، فاستفاد منه في مجال الدعوة .

وكان من بين أصحابه مَنْ تميّز بإتقان حفظ القرآن وترتيله وتفسيره ، فاستفاد منه في مجال تعليم القرآن الكريم .

وكان من بين أصحابه مَنْ تميَّز بالشعر المتين والبيان البليغ ، فأفاد المسلمون من شعره وبيانه . . .

وكان من بين أصحابه مَنْ تَميّز بالخطابة ، فأفاد المسلمون من قابليته الخطابيَّة .

وكان . . . . وكان . . . .

كلُّ هذه الكفايات المتميِّزة في الرجال ، استفاد منها المسلمون ، ولم تُغْمط كفاية ولم يُهْمل صاحب كفاية . . . وبذل قصارى جهده لإضفاء التجربة العملية على تلك الكفايات .

وَضَعَ كلّ رجل من ذوي الكفايات المتميِّزة ، في المكان المناسب لكفايته .

سأل النبيّ ﷺ وهو بمكّة المكرمة في (عمْرَة القضاء)[1]، الوليدَ بن الوليد المَخْزُمِيّ،أخا خالد بن الوليد رضي الله عنهما قائلاً :«أين خالد ؟! » ، ثم قال : « ما مثل خالد مَنْ جهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وحدّه مع المسلمين على المشركين ، لكان خيراً له ولقدّمناه على غيره » .

(١) كانت في شهر ذي الحجّة من السنة السّابعة الهجريّة .

وكتب الوليد بن الوليد بذلك إلى أخيه خالد ، فكان ذلك سبب هجرته إلى المدينة المنوّرة و إعلان إسلامه .

وقدم خالد بن الوليد المدينة المنوّرة مهاجراً إلى اللّهورسوله،في أو ل يوم من صفر سنة ثمان الهجريّة .

قال خالد: «فلما طلعتُ على رسول الله ﷺ ، سلّمتُ عليه بالنبوّة ، فردّ عليه الصّلاة والسّلام بوجه طلق ، فأسلمتُ وشهدتُ شهادة الحق ، فقال النبيّ ﷺ : قد كنتُ أرى لك عقلاً رجوتُ ألاّ يُسْلِمَك إلا إلى خير. وبايعتُ رسول الله ﷺ ، وقلتُ: إستَغْفِرْ كلّ ما وَضعتُ فيه من صدٍ عن سبيل الله ! فقال : الإسلام يَجُبُّ ما قبله[1] : قلت : يا رسول الله : على ذلك ! قال : اللّهمَّ اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صَدٍّ عن سبيلك. . . فوالله ما كان رسول الله ﷺ يوم أسلمتُ يعدل بي أحداً من أصحابه فيما يُجْزِئه »[2] .

وولّى النبيّ ﷺ خالداً قيادة أصحابه في الجهاد بعد إسلام خالد مباشرة .

وما يقال عن خالد ، يقال عن عمرو بن العاص أيضاً ، فقد ولاّه قيادة أصحابه في الجهاد بعد إسلامه مباشرة ، وقال عليه أفضل الصّلاة والسّلام عن خالد وعمرو لأصحابه الذين كانوا حوله حين قدما المدينة المنوّرة مُسْلِمَيْن : « أَلْقَتْ إليكم مكّة أفلاذ كَبِدِها »[3] .

وكان عثمان بن عفّان رضي اللّه عنه غنياً ، فأفاد المسلمون من ثرائه : ابتاع للمسلمين مِرْبداً[4] بعشرين ألفاً ، وابتاع للمسلمين (بئر رُوْمَة)[5] ،

(١) طبقات ابن سعد (٤ / ٥٢) و(٧/ ٣٩٤) .
(٢) أسد الغابة (٣ / ٣٨٢) والاستيعاب (٣/ ١٠٣٤) .
(٣) أسد الغابة (٣/ ٣٨٢) والاستيعاب (٣/ ١٠٣٤)
(٤) مربد : موضع يجعل فيه التمر لينشف .
(٥) بئر رومة : بئر في عقيق المدينة ، وهي من ضواحي المدينة المنورة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٤) .

وجهّز جيش العُسْرة ، الذي زحف شمالاً بقيادة النبيّ ﷺ لمواجهة جيش الروم في غزوة (تَبوك)، حتىما يفقد هذا الجيش عقالاً ولا خِطَاما [١] ، ولم نسمع أنّ الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام كلّف عثمان بمنازلة الأقران يوم الطِّعان .

وكان حسّان بن ثابت الأنصاريّ رضي اللّه عنه شاعراً مجيداً ، فاستفاد المسلمون من قابليته الشعريّة، ولكن النبيّ ﷺ كان يتركه مع النساء عندما يتوجَّه للجهاد .

وكان كثير من صحابة النبيّ ﷺ يُعَدُّون من أشجع الشجعان، ولكنهم بقوا جنوداً في جيش المسلمين ، ولم يتولوا مناصب قياديّة ، لأنهم كانوا جنوداً متميِّزين ولم يكونوا قادة متميِّزين .

وكان من بين أصحابه مَنْ يُحْسن القراءة والكتابة ، فجعلهم كتاباً للوحي ومحررين لرسائله إلى الملوك والأمراء .

وكان من بينهم إداريون ودعاة وجباة وقضاة ، فولى كل واحد منهم ما يناسب قابلياته وكفاياته .

وقد سأله قسم من الصحابة أن يوليهم مناصب إداريّة ، فردّ الذين لا يستطيعون النهوض بهذا الواجب ، ثم ذكر لقسم منهم بصراحة متناهية سبب عزوفه عن توليتهم !

عن أبي موسى الأشْعَرِيّ رضي اللّه عنه قال : « دخلت أنا ورجلان من بني عمي على النبيّ ﷺ ، فقال أحد الرجلين: يا رسول الله! أمِّرنا على بعض ما ولاّك الله . . . . . وقال الآخر مثل ذلك ، فقال النبي ﷺ : إنّا لا نولي هذا الأمر أحداً سأله ولا أحداً حرص عليه » .

وطالب الولاية لا يُوَلّى .

وقال أبو ذَرٍ الغِفاريّ رضي اللّه عنه : « يا رسول اللّه ! ألا تستعملني ؟

---

(١) سنن النسائي (٢/ ١٢٤) ، وانظر حاشية السندي على النسائي على هامش سنن النسائي (٢/ ١٢٤) .

فضرب النبيّ ﷺ على مَنْكِبَيَّ ، ثم قال يا أبا ذر! إنك ضعيف، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلاّ الذي أخذها بحقها وأدى الذي عليها » .

ذلك هو رجل الدولة الحق ، لا يولي أحداً سأله الولاية ، ولا أحداً حرص عليها ، ولا أحداً لا يستحقها .

إنه يوليها لمن يعتبر توليه تكليفاً لا تشريفاً ، ويكون قادراً على حملها،لا قادرة على حمله .

وكان عليه الصّلاة والسّلام ، يتغاضى عن هنات المسلمين ، وحسبه أن ينتفع بمزاياهم لمصلحة المسلمين العليا .

قبل حركة جيش المسلمين بقيادة النبيّ ﷺ لفتح مكة المكرمة[1] ، حرص الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام على كتمان حركته من المدينة المنوّرة إلى مكّة المكرّمة ، كما حرص على كتمان نياته العسكريّة في الفتح ، حتى يباغت قريشاً ويجبرها على الاستسلام دون إراقة الدماء .

ولكنّ حاطب بن أبي بَلْتَعَة رضي اللّه عنه ، كتب رسالة إلى قريش وأعطاها امرأة متوجّهة إلى مكّة المكرّمة ، أخبر بها قريشاً بنيات المسلمين في الحركة لفتح مكة .

وعلم النبيّ ﷺ بهذه الرسالة، فبعث عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه،والزبير بن العوّام رضي اللّه عنه ، ليدركا تلك المرأة التي تحمل تلك الرسالة - رسالة حاطب - ويأخذاها منها ، فأدركاها وأخذا الرسالة التي كانت معها .

ودعا النبيّ ﷺ حاطباً يسأله: ما حمله على ذلك؟! فقال حاطب: « يا رسول اللّه ! أما واللّه إنيلَمؤمن باللّه ورسوله ، ما غيّرتُ ولا بدّلتُ ،

(١) كان ذلك في السنة الثامنة الهجرية في شهر رمضان المبارك من تلك السنة .

ولكني كنتُ امرأً ليس له في القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم » !

فقال عمر بن الخطّاب رضي اللّه عنه : « يا رسول اللّه ! دعني فَلأَضْرِبْ عنقه ، فإنّ الرجل قد نافق » .

فقال النبيّ ﷺ : «أما إنه قد صدقكم، وما يدريك؟ لعلّ الله قد اطّلع على مَنْ شهد (بَدْراً) فقال : إعملوا ما شئتم » .

شفع لحاطب ماضيه الحافل بالجهاد، فعفا النبيّ ﷺ عنه ، وأمر أصحابه أن يذكروه بأفضل ما فيه .

وعاش حاطب في مجتمع الصحابة ، لا يشنِّع عليه أحد ، ولا يذكره الناس إلاّ بالخير ، ولا يسمعونه إلاّ ما يشتهي ، ولا يرددون عنه إلاّ أفضل ما فيه من خصال .

كانوا يقولون عنه حين يرونه أو حين يذكرونه : إنه بدريّ . . . شَهِدَ بدراً مع النبيّ ﷺ . . . وكفى بذلك فخراً.

وبعدَ فتح مكة ، أسلم عِكْرِمة بن أبي جَهْل المخزوميّ ،(1) وحَسُن إسلامه ، ثمّ أصبح من أعاظم قادة الفتح الإسلامي المجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه ، ومن أكابر المجاهدين في سبيل اللّه .

وكان أبوه من أشدِّ الناس عداوة للنبيّ ﷺ وللمسلمين كافة وللدين الحنيف ، وقد لقيَ مصرعه في غزوة (بَدْرٍ) الكبرى كما هو معروف ، فمات غير مأسوف عليه ، وتخلّص المسلمون بموته من خصم لدود .

وكان الصحابة يذكرون أبا جهل بن هشام بما فيه ، فلما أسلم ابنه عكرمة وحسن إسلامه، قال النبيّ ﷺ : «عكرمة يأتيكم، فإذا رأيتموه فلا تسبّوا أباه ، فإن سبّ الميت يؤذي الحي » .

---

(1) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح الشام ومصر (٨٥ - ٩٥) .

هكذا يأمر النبيّ ﷺ أصحابه الكرام بالكف عن سبّ أعدى أعداء الإسلام والمسلمين ، إكراماً لولده المسلم ، حتى لا تتأثر نفسية هذا الولد من أجل سبّ والده ، فتتعقّد نفسيته ويضيق ذرعاً بالمجتمع الإسلامي الذي يعيش بين أفراده وُجماعاته : له ما لهم ، وعليه ما عليهم .

لقد كان النبيّ ﷺ يعرف حقّ المعرفة كل مزايا أصحابه، فيفيد من تلك المزايا ويبرزها للعيان ، ويشجّع أصحابها ويثني عليهم أطيب الثناء .

وهو في الوقت نفسه ، يغضّ الطّرف عن النواقص ويتستّر عليها ويبذل جهده لإصلاحها ، والمهمّ ألا يذكرها بل يذكر المزايا فحسب .

واستفادته من كل مزية ، لكل مسلم من أصحابه ، واستقطاب المزايا لبناء المجتمع الإسلامي ، فلا يضع لبنة إلاّ في مكانها اللائق بها والمناسب لها ، جعل هذا البناء يرتفع ويتعالى سليماً مرصوصاً يشدّ بعضه بعضاً .

وكان ذلك سبباً من أهم أسباب انتصار النبيّ ﷺ عسكرياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً ، وفي أيام الحرب وأيام السّلام .

فلما التحق عليه الصّلاة والسّلام بالرفيق الأعلى ، كان بين المسلمين قادة وأمراء وولاة وقضاة وعلماء وفقهاء ومحدِّثون، قادوا الأمة الإسلاميّة عسكرياً وسياسياً وإداريّاً وفكرياً واقتصادياً واجتماعياً إلى المجد والسؤدد والخير ، وإلى الفتح والنصر والتوفيق ، وإلى طريق الحق وسبيل الرشاد .

وكان أولئك القادة هم خريجي مدرسة الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام .

ذلك هو الدرس الذي يجب أن يتعلّمه العرب والمسلمون في هذه الأيام وفي المستقبل أيضاً ، حكّاماً ومحكومين ، قادة وشعوباً : أن يبنوا البشر ولا يحطموهم وأن يستفيدوا من الكفايات ولا يعطلوها ، وأن يضعوا الشخص المناسب في المكان المناسب .

والسؤال الآن ، كيف يستطيع الحاكم أن يبني الكفايات ويضع

الشخص المناسب في المكان المناسب ؟ .

والجواب : ليس كل حاكم يستطيع أن يبني الكفايات ويستقطبها ويضعها في المكان المناسب .

لقد كان النبيّ ﷺ قمة القمم نسياناً لذاته وتفكيراً في المسلمين وإخلاصاً لمصالحهم العليا.

لذلك خرّج في مدرسته القمم من جميع الكفايات والقابليات لمختلف المناصب والواجبات .

وليس ذلك بالأمر السهل ، وبخاصة نسيان الذات من أجل المصلحة العامة ، فهو جدّ عسير بالنسبة للذين تأمّروا من أجل مصالحهم ،لامن أجل مصالح الآخرين ،ومن أجل أنفسهم ،لا من أجل الأنفس الأخرى .

وصدق رسول الله ﷺ : «مَن استعمل رجلاً من عصابة وفيهم مَنْ هو أرضى للّه منه ، فقد خان اللّهَ ورسولَهُ والمؤمنين » .

ذلك هو رجل الدولة ، وهذا هو بيانه للناس في رجل الدولة ، قاله في كلمات معدودات ، ولكنها أبلغ من مؤلفات ومجلّدات! .

أثر الرّسَالة في العَـرَبي المسُلِم

في عهد صاحب الرّسالة

١ ـ في مكّة المكرّمة :

تحمّل العربيّ المسلم التعذيب في سبيل عقيدته ، فعدت كل قبيلة على مَنْ فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذّبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكّة إذا اشتدّ الحر ، يفتنونهم عن دينهم .

فقد كان بِلال بن رَبَاح يخرجه أُميَّة بن خَلَف إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكّة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : « لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللّات والعُزّى » ، فيقول وهو في ذلك البلاء : « أَحَدٌ . . . . . أَحَدٌ » [١] .

وكان بنو مخزوم يخرجون بعَمّار بن ياسر وبأبيه وأُمه إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكّة، فيمرّ بهم رسول الله ﷺ فيقول: «صبراً آل ياسر ، موعدكم الجنّة » ، فأما أُمه فقتلوها وهي تأبى إلاّ الإسلام [٢] .

وعندما أسلم عثمان بن عفّان رضي اللّه عنه ، أخذه الحَكَم بن أبي العاص بن أُميّة فأوثقه كتافاً وقال : « ترغب عن مِلّة آبائك إلى دين محمد ؟! واللّه لا أحلّك أبداً حتى تدع ما أنت عليه » ، فقال عثمان : « واللّه لا أدعه أبداً ولا أُفارقه » . وقيل : عذّبه عمّه بالدخان ليرجع ، فما رجع [٣] .

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٣٩ - ٣٤٠) والأصابة (١/ ١٧١) .

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٣٤٢) وأسد الغابة (٤/ ٤٢) .

(٣) السيرة الحلبيّة (١/ ٣١٢) .

وعندما أسلم الزُّبير بن العوّام[1] رضي الله عنه، علّقه عمه في حصير ودخّن عليه ليرجع إلى الكفر، فكان يقول: « لا أكفر أبداً »[2].

ولاقى سعد بن أبي وَقَّاص [3] رضي اللّه عنه معارضة شديدة لإسلامه حتى من أمه! قال سعد: « كنت رجلاً برّاً بأمي، فلما أسلمتُ قالت: يا سعد! ما هذا الذي أحدثت؟! لتدعنّ دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فَتُعَيَّر بي! فقلت لها: لا تفعلي يا أُماه، فإني لا أدع ديني، فمكثت يوماً وليلة لا تأكل ولا تشرب، فأصبحتْ وقد جهدت، فقلت لها: واللّه لو كان لك ألف نَفْس، فخرجت نَفْساً نفساً، ما تركتُ هذا الشيء! فلما رأت ذلك مني، أكلت وشربت، فأنزل اللّه: ﴿ وإن جاهداكَ على أن تُشْرِكَ بي ما ليس لك به عِلْمٌ فلا تُطِعْهُما وصاحِبْهُما في الدنيا معروفاً ﴾ . . . » [4].

ولما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإنّ بها مَلِكاً لا يُظْلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل اللّه لكم مخرجاً مما أنتم فيه »، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرّوا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام [5]. وهكذا ترك المسلمون المهاجرون ديارهم وأموالهم وأهليهم حرصاً على دينهم.

وعاد المسلمون المهاجرون إلى مكّة من الهجرة الأولى إلى الحبشة، لأنهم سمعوا بإسلام قريش، ولكن ظهر لهم بعد العودة أنّ قريشاً لا تزال على دينها، فاشتدّ عليهم قومهم، وسَطَتْ بهم عشائرهم، ولقوا منها أذى شديداً؛ لذلك أذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى الحبشة ثانية، فكانت

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الشّام ومصر (١٩٧ - ٢٢٨).

(٢) الإصابة (٣/ ٥) وحلية الأولياء (١/ ٨٩) وصفة الصفوة (١/ ١٣٢).

(٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٢٢١ - ٢٦٨).

(٤) أسد الغابة (٢/ ٢٩٢) وطبقات ابن سعد (٤/ ١٢٤)، وانظر تفسير ابن كثير (٦/ ٤٥٨) وتفسير البغوي (٦/ ٤٥٨) وتفسير الكشاف (٢/ ٤١٣) وشرح النووي على مسلم (٥/ ١٥٩)، والآية الكريمة من سورة لقمان (٣١ : ١٥).

(٥) سيرة ابن هشام (١/ ٣٤٣)، وانظر طبقات ابن سعد (١/ ٢٠٣ - ٢٠٤) وعيون الأثر (١/ ١١٥).

خرجتهم الثانية أعظمها مشقّة ، ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً ، ونالوهم بالأذى [1] .

وفي الحبشة سألهم النجاشيّ : « ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا ديني ولا دين أحدٍ من هذه المِلَل ؟! » ، فقال له جعفر بن أبي طالب رضي اللّه عنه : « أيها الملك ! كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونُسِيءُ الجوار ، ويأكل القويّ منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث اللّه إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى اللّه لنوحِّده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤ نا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصِلَة الرَّحم وحسن الجوار والكفّ عن المحارم والدِّماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزُّور وأكل مال اليتيم وقذف المُحْصَنَة ، وأمرنا أن نعبد اللّه وحده ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزّكاة والصِّيام ـ وعَدَّد عليه أمور الإسلام ـ فصدّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من اللّه ، فعبدنا اللّه وحده فلم نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرّم اللّه علينا ، وأحللنا ما أحلّ اللّه لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة اللّه تعالى ، وأن نستحلّ ما كنا نستحلّ من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناكَ على مَنْ سواكَ ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نُظلم عندكَ ، أيُّها الملك ! » [2] .

وبلغ أصحاب النبيّ ﷺ الذين خرجوا إلى الحبشة إسلام أهل مكّة ، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك . حتى إذا دنوا من مكّة بلغهم أنّ ما كانوا تحدّثوا به من إسلام أهل مكّة كان باطلاً ، فلم يدخل منهم أحد إلاّ بجوارٍ أو مُسْتَخْفياً [3] .

ودخل عُثمان بن مظْعون بن حبيب الجُمَحِيّ بجوار من الوليد بن

---

(١) طبقات ابن سعد (١/ ٢٠٧) .
(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٣٨٨) .
(٣) سيرة ابن هشام (١/ ٣٨٨) .

المُغيرَة، فلما رأى ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء،وهو يغدو ويروح في أمان قال : «والله إنّ غُدُوّي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشِّرْك ، وأصحابي وأهل ديني يلقون البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني ، لنقص كبير في نفسي » ، فمشى إلى الوليد بن المغيرة وقال له : « يا أبا عبد شمس ! وفَتْ ذمتك ، وقد رددتُ إليك جوارك » ، فقال له : « يا ابن أخي ! لعلّه آذاك أحد من قومي ؟! » ، قال : « لا ، ولكني أرضى بجوار الله ، ولا أريد أن أستجير بغيره » ، فانطلقا إلى المسجد ، ورد عثمان جوار الوليد علانية [1] .

وكان أبو بكر الصِّديق رضي اللّه عنه قد ضاقت عليه مكّة وأصابه الأذى، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه، فاستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فأذن له. وخرج أبو بكر رضي الله عنه مهاجراً ، حتى إذا سار من مكّة يوماً أو يومين لقيه ابن الدّغُنّة فقال : « أين يا أبا بكر؟!»، قال: «أخرجني قومي وآذوني وضيّقوا عليّ!»، فقال: «ولم؟! فواللّه إنك لتزيِّن العشيرة ، وتُعين على النّوائب وتفعل المعروف وتُكْسِبُ المعدوم [2] . . . إرجع وأنت في جواري » ، فرجع أبو بكر رضي اللّه عنه مع ابن الدغنّة ، حتى إذا دخل مكّة قام ابن الدغنّة فقال : « يا معشر قريش ! إني قد أجَرْتُ ابن أبي قُحَافة ، فلا يعرضَنَّ له أحد إلاّ بخير » . وكان لأبي بكر الصِّديق رضي اللّه عنه مسجد عند داره في بني جُمَح يصلي فيه ، وكان رجلاً رقيقاً إذا قرأ القرآن استبكى ، فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته ، فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنّة فقالوا : «يا ابن الدغنّة ! إنك لم تجُرْ هذا الرجل ليؤذينا . . . إنه رجل إذا صلّى وقرأ ما جاء به محمد ، يرقّ ويبكي ، وكانت له هيئة ونَحْوٌ ، فنحن نتخوّف عليه صبياننا

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٩١ - ٣٩٢) .

(٢) يقال : كسبت الرجل مالاً ، فتعديه إلى مفعولين . ويقال : أكسبته مالاً . ومعنى تكسب المعدوم : تكسب غيرك ما هو معدوم عنده .

ونساءنا وضَعَفَتَنا أن يَفْتنهم ، فأْتِهِ فَمُرْه أن يدخل بيته ، فليصنع فيه ما شاء » . ومشى ابن الدغنّة إليه ، فقال له : « يا أبا بكر ، إني لم أُجِرْك لتؤذي قومك . . . إنهم قد كرهوا مكانك الذي أنت به ، وتأذّوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببتَ » ، فقال أبو بكر : « أوَأردُّ عليك جوارك وأرضى بجوار الله؟» ، فقال : « أرْدُدْ عليّ جواري » ، فردّ أبو بكر الصِّديق رضي اللّه عنه على ابن الدغنّة جواره [1] .

٢ ـ في المدينة المنوّرة :

وأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالخروج من مكّة إلى المدينة، والهجرة إليها واللّحوق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : « إنّ اللّه عزّ وجلّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها ، فخرجوا إرسالاً [2] .

وآخى رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال : « تآخوا في اللّه أخوين أخوين » [3] ، فقال سعد ابن الربيع لعبد الرحمن بن عوف رضي اللّه عنهما : « إني من أكثر الأنصار مالاً ، وأنا مقاسمك ؛ وعندي امرأتان ، فأنا مطلّق إحداهما ، فإذا انقضت عِدَّتها فتزوّجها » ، فقال له عبد الرحمن : « بارك الله لك في أهلك ومالك » [4] .

وقد وصف عبد اللّه بن عمر بن الخطّاب رضي اللّه عنهما هذه المؤاخاة بقوله : « لقد رأيتنا ، وما الرجل المسلم بأحقّ بديناره ودرهمه من أخيه المسلم » .

وقال المهاجرون : « يا رسول اللّه ! ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً من كثير : كفونا المؤونة ، وأشركونا في المَهْنأ [5] ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر » [6] .

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٩٤ ـ ٣٩٦) . (٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٨٦) . (٣) سيرة ابن هشام (٢/ ١٢٤) .

(٤) أسد الغابة (٢/ ٢٧٨) وعيون الأثر (١/ ٢٠٣) .

(٥) المهنا : ما يأتيك فتسيغه وتقبله طبيعتك . (ج) : مهانىء .

(٦) عيون الأثر (١/ ٢٠٠) .

وفي المدينة المنوّرة، أظهر العرب المسلمون الأعاجيب في إخلاصهم لعقيدتهم ، فقد كان عُمَيْر بن سعد [1] في حجر جُلاَس بن سُوَيد بن الصّامت ، إذ خلف جُلاَس هذا على أم عمير بعد أبيه ، فسمع عمير كلمة نابية قالها جلاَس على النبيّ ﷺ ، فقال: «والله يا جلاَس! إنك لأَحب الناس إليّ ، وأحسنه عندي يداً ، وأعزّه أن يصيبه شيء يكرهه ، ولقد قلتَ مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنّك ، ولئن صمتُّ ليهلكنّ ديني ، ولأحدهما أيسر عليّ من الأخرى!» ، ثم مشى إلى رسول الله ﷺ ، فذكر له ما قال جلاّس [2].

واجتمع المنافقون يوماً في المسجد ، فرآهم رسول الله ﷺ يتحدّثون خافضي أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم فأُخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً : قام أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاريّ إلى عمرو بن أبي قيس من بني النجّار - وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية - ، فأخذ برجله وسحبه من المسجد ، ثم أقبل أبو أيوب إلى رافع بن وديعة من بني النجّار ، فلبّبه [3] بردائه ، ثم نتره نتراً [4] شديداً ولطم وجهه ثم أخرجه من المسجد [5].

وكان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من يهود ، لِمَا كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهليّة ، فأنزل اللّه فيهم ينهاهم عن مباطنتهم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تَتَّخِذوا بِطانَةً من دونكم لا يأْلونَكُمْ خَبَالاً ، ودّوا ما عَنِتُّم ، قد بَدَتِ البَغْضاء من أفواههم وما تُخْفِي صدورُهم أكبر ، قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تُحِبّونهم ولا يُحِبُّونكم ، وتؤمنون بالكتاب كلِّه [6] ، وإذا لقوكم قالوا آمنّا ، وإذا خَلوا عَضُّوا عليكم الأنامل من الغَيظ ، قُل موتوا بغيظِكُمْ ، إنّ اللّه عليم بذات الصُّدور ﴾ [7] ، فقاطع المسلمون العرب حلفاءهم من يهود .

---

(١) انظر تفاصيل سيرته في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٤٦٩ - ٤٧٥) . (٢) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤١) . (٣) لبّبه . جمع ثيابه عند نحره في الخصومة ثم جرّه . (٤) نتره : جذبه . (٥) سيرة ابن هشام (٢/ ١٥٠ - ١٥١) . (٦) وتؤمنون بالكتاب كلّه : أي تؤمنون بكتابهم وكتابكم وبما مضى من الكتب قبل ذلك ، وهم يكفرون بكتابكم ، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم . (٧) الآيتان الكريمتان من سورة آل عمران (٣ : ١١٨ - ١١٩) ، وانظر ما جاء عن هذه القضية في سيرة ابن هشام (٢/ ١٨٦ - ١٨٧) .

وتحمّل المهاجرون بصبر وجلد ما أصابهم من وباء الحُمَّى في المدينة المنوّرة بعد هجرتهم إليها .

قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، قدمها وهي أوْبأُ أرض اللّه في الحُمَّى ، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم، وصرف الله تعالى ذلك عن نبيِّه ﷺ ، فكان أبو بكر وعامر بن فُهَيْرَة وبلال في بيت واحد ، فأصابتهم الحمّى ، فدخلت عليهم أعودهم ، وذلك قبل أن يُضرب علينا الحجاب ، وبهم ما لا يعلمه إلاّ الله من شدّة الوَعْك[1] ، فدنوت من أبي بكر ، فقلت : كيف تجدك يا أبَتِ ؟ فقال :

كلّ امرىء مُصَبَّح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

« فقلت : واللّه ما يدري أبي ما يقول ! ثم دنوت إلى عامر بن فُهَيْرَة فقلت له : كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدتُ الموت قبل ذوقه إنّ الجبان حتفه من فوقه
كل امرىء مجاهد بطَوْقِه كالثور يَحْمِي جلده بِرَوْقه[2]

« فقلت : والله ما يدري ما يقول ! وكان بِلال إذا تركته الحمّى اضطجع بفناء البيت ، ثم رفع عَقِيرته[3] فقال :

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة بفسخ وحولي أذخر وجليل[4]
وهل أرِدَنْ يوماً مياه مجَنَّة وهل يَبْدُوَنْ لي شامة وطفيلُ[5]

« فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ وقلت : إنهم ليهذون وما يعقلون من شِدّة الحمّى »[6] .

---

(١) الوعك : شدّة ألم المرض ، يقال : وعكته الحمّى ، إذا بالغت فيه .
(٢) الطوق هنا الطّاقة والقوة . والروق : القرن .
(٣) عقيرته : صوته .
(٤) فسخ : موضع خارج مكة به مويه . الأذخر : نبات يشبه الأسل الذي تعمل منه الحصر . الجليل : الشام ، وأهل الحجاز يسمون الشّام : الجليل .
(٥) مجنة : اسم موضع ، وقيل : بلد على بعد أميال من مكة . وطفيل : اسم جبل وشامة : جبل بمكة .
(٦) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٠ - ٢٢١) .

لقد تحمّل العرب المسلمون الفقر والمرض بعد هجرتهم إلى المدينـة من أجل عقيدتهم .

٣ ـ في ميدان الجهاد :

أـ في غزوة بدر الكبرى[١] :

وبدأ الصِّراع الحاسم بين المسلمـين وأعدائهـم ، فأبـدى المسلمـون في جهادهم ضروباً من البطولة والتضحية لا مثيل لهما في التاريخ .

فقد استشار رسـول الله ﷺ أصحابه قبل غزوة (بدر) ، فقام أبو بكر الصِّديق رضي اللّه عنه فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطّاب رضي اللّه عنه فقال وأحسن ، ثم قام المِقداد بن عمرو فقال : « يا رسول اللّـه ! إمْضِ لما أراك اللّه فنحن معك ، واللّه لا نقـول لك كما قالـت بنـو إسرائيل لموسى : ﴿فاذهبْ أنت وربّك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ [٢] ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون ؛ فوالذي بعثك بالحق لو سِرْت بنا إلى (بَرْك الغِماد) [٣] لجالدنا معك مـن دونـه حتى تبلغه»، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له . ثم قال : « أشيروا عليَّ أيها الناس » ، وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم عدد الناس ، وأنهم حين بايعوه بالعَقَبة قالوا : « يا رسول اللّه ! إنّا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلتَ إلينا فأنت في ذمتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنـا ونساءنـا»، فكان رسول الله ﷺ يتخوّف ألاّ تكون الأنصار ترى عليها نصره إلاّ ممن دَهَمَهُ [٤] بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم من بلادهم إلى عدو ؛ فلما قال ذلك رسول الله ﷺ ، قال سعد بن مُعاذ : « واللّه لكأنك تريدنا يا رسول اللّه ؟! » ، قال : « أجـل » ، قال : « فقد آمنا بك وصدّقناك ، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطّاعة ، فامْضِ يا رسول اللّـه لما أردتَ

---

(١) انظر تفاصيل الغزوة في كتابنا : الرسول القائد (٨٧ ـ ١٣٥) .
(٢) الآية الكريمة من سورة المائدة (٥ : ٢٤) .
(٣) برك الغماد : موضع بناحية اليمن .
(٤) دهمه : فجأه . يقال : دهمتهم الخيل ، إذا فاجأتهم على غير استعداد .

فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلّف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً ، إنّا لصُبُرٌ في الحرب ، صُدق في اللّقاء ، لعلَّ اللّه يريك ما تقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة اللّه » [1] .

ومرّ الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسّلام برجاله يعدِّل صفوفهم يوم (بدر) ، فمرّ بسَواد بن غُزَيّة حليف بني عَدِيّ بن النجار ، فطعن رسول الله ﷺ بالقِدْح[2] الذي كان بيده في بطن سواد وقال: « إستَوِ يا سواد » ، فقال : « يا رسول اللّه ! أوجعتني وقد بعثك اللّه بالحق والعدل ، فأَقِدْني ! » ؛ فكشف رسول اللّه ﷺ عن بطنه وقال : « إسْتَقِدْ ! » ، فاعتنقه وقبَّل بطنه ، فقال : « ما حملك على هذا يا سواد ؟! » ، قال : « يا رسول اللّه ! حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسّ جلدي جلدك » [3] .

وحرّض رسول الله ﷺ أصحابه على القتال، فقال: «والذي نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فَيُقْتل صابراً محتسِباً مقبلاً غير مدبر ، إلاّ أدخله اللّه الجنة » ، فقال عُمَيْر بن الحُمام : « بَخْ .... بَخْ .. [4] ! أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء » ، وكانت بيده تمرات يأكلهنّ ، فقذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قُتِل .

واستصغر النبيّ ﷺ عُمَيْر بن أبي وَقّاص الزُهْرِيّ لما أراد المسير إلى (بدر) ، فبكى عمير فأجازه ! وكان سيفه طويلاً ، فعقد عليه حمائل سيفه أخوه سعد بن أبي وقّاص . قال سعد : « رأيتُ أخي عُمَيْراً قبل أن يعرضنا رسول

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤) وعيون الأثر (١/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨) .

(٢) القدح : قطعة من الخشب ، تعرّض وتسوّى ، وتكون في طول الفتر أو دونه ، وتخط فيه حزوز ، تميز كل قدح بعدد من الحزوز .

(٣) عيون الأثر (١/ ٢٥٥) .

(٤) بخ : كلمة تقال عند الرضا والأعجاب بالشيء ، أو المدح والفخر . تقول : بَخْ وبَخٍ ، وتقول مكرراً : بَخْ بَخْ وبَخٍ بَخٍ .

اللّه ﷺ يتواري ، فقلت : ما لكَ يا أخي ؟! فقال : أخاف أن يستصغرني رسول الله ﷺ ، فيردّني ، وأنا أحب الخروج ، لعل الله أن يرزقني الشّهادة » ، فرزق ما تمنى ، إذ مات شهيداً[1] .

وقال عبد الرحمن بن عَوْف رضي اللّه عنه : إني لواقف يوم (بدر) في الصف ، نظرتُ عن يميني وعن شمالي ، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما تمنيت لو كنت بين أضلع منهما ، فغمزني أحدهما قائلاً : يا عم ! هل تعرف أبا جهل بن هشام ؟ فقلت : نعم ، وما حاجتك يا ابن أخي ؟! قال : بلغني أنه كان يسبّ رسول الله ﷺ ، والذي نفسي بيده ، لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا ! وغمزني الآخر ، فقال مثلها ، فعجبت لذلك . ونظرت إلى أبي جهل يزول في الناس ، فقلت لهما : ألا تريان !؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه ، فابتدراه بسيفهما ، فضرباه حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ ، فأخبراه ، فقال: أيّكما قتله؟ فقال كل واحد منهما : أنا قتلته ، وهما مُعاذ بن عمرو بن الجموح ومعوِّذ أخوه [2] .

في هذه الغزوة التقى الآباء بالأبناء ، وأخوة بالإخوة! خالفت بينهم المبادىء ، ففصلت بينهم السيوف .

كان أبو بكر الصِّديق رضي اللّه عنه مع المسلمين ، وكان ابنه عبد الرحمن مع المشركين ، وكان عُتْبَة بن ربيعة مع قريش ، وكان ولده أبو حُذَيْفَة مع المسلمين [3] .

قال عبد الرحمن بن أبي بكر الصِّديق بعد إسلامه لأبيه : « لقد أهدفت لي يوم (بدر) مراراً ، فصدفتُ عنك » ، فقال أبو بكر رضي اللّه عنه : « لو أهدفتَ لي لم أصدف عنك » [4] .

---

(١) عيون الأثر (١/ ٢٥٥) .
(٢) عيون الأثر (١/ ٢٦١ ـ ٢٦٢) .
(٣) الرسول القائد (١٠٦ ـ ١٠٧) .
(٤) السيرة الحلبية (٢/ ١٧٩) .

وفي يوم (بدر) قتل أبو عُبَيْدَة بن الجرّاح أباه وكان مشركا [1] .

ب- في أُحُد:

وفي غزوة (أُحُد) ، أراد الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة أن يستثير روح المنافسَة الشريفة بين أصحابه ويحثّهم على القتال فقال : « مَنْ يأخذ هذا السيف بحقِّه ؟ » . . . فقام إليه رجال فأمسكه عنهم ، حتى قام إليه أبودُجَانة سِماك بن خَرَشَةَ أخو بني ساعدة ، فقال : « وما حقّه يا رسول اللّه ؟ » ، قال : « أن تضرب به العدوّ حتى ينحني » ، قال : « أنا آخذه يا رسول اللّه بحَقِّه ! » ، فأعطاه إياه . وكان أبو دُجَانَة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب [2] إذا كانت ، وكان إذا أعلم بعصابة حمراء فاعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل ؛ فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ ، أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه ، ثم جعل يتبختر بين الصّفين ، فقال رسول الله ﷺ حين رأى أبا دجانة يتبختر : « إنها لَمِشْيَة يبغضها اللّه إلاّ في مثل هذا الموطن [3] » .

وقال الأنصار حين رأوا أبا دجانة يخرج عصابته الحمراء : « أخرج أبو دجانة عصابة الموت » ، وهكذا كانت تقوله له إذا تعصّب بها ، فخرج وهو يقول :

« أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسّفح لدى النَّخيل
ألاّ أقوم الدّهر في الكيّول [4] أضرب بسيف اللّه والرّسول »

فجعل لا يلقى أحداً إلاّ قتله . وكان في المشركين رجل لا يدع للمسلمين جريحاً إلاّ ذَفَفَ [5] عليه ، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فاختلفا ضربتين ، فقتله أبو دجانة .

---

(١) الإصابة (٤/ ١١) والسيرة الحلبيّة (٢/ ١٧٨) .

(٢) يختال عند الحرب : هو من الخيلاء ، وهو الزهو .

(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ١١ - ١٢) وانظر أسد الغابة (٢/ ٣٥٢) .

(٤) الكيول : آخر الصفوف في الحرب ، وهو بتشديد الياء ، وقد تخفف ، والكاف مفتوحة على الوجهين .

(٥) ذفف عليه : أجهز عليه وأسرع قتله .

قال أبو دجانة : « رأيت إنساناً يَحْمِشُ [1] الناس حَمْشاً شديداً ، فصمدت له [2] ، فلما حملت عليه السيف ولول [3] ، فإذا امرأة ، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة» [4] .

وقاتلت أم عُمارة نُسَيْبَة بنت كَعْب المازنيّة يوم (أُحُد) ، قالت نسيبة : « خرجت أوّل النهار وأنا أنظر مايصنع الناس ومعي سِقَاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه، والدُّوْلَة [5] والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ ، فقمت أباشر القتال وأذبّ عنه بالسيف وأرمي عن القوس ، حتى خَلُصَت الجراح إليّ » ، فكان على عاتقها جرح أجوف له غور [6] .

وفي (أُحُد) أيضاً، جُرِح النبيّ ﷺ في وجهه، فغار في وجهه الشريف حلقتان ، فنزع أبو عبيدة بن الجرّاح إحدى الحلقتين من وجه رسول الله ﷺ فسقطت ثنيّتُه، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيّته الأخرى [7].

وترّس دون رسول الله ﷺ أبو دُجانة بنفسه يقع النَّبْلُ في ظهره وهو منحنٍ عليه حتى كثر فيه النَّبْلُ . ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول اللّه ﷺ ، فكان النبيّ ﷺ يقول له: « إرْمِ فِداك أبي وأُمي» [8].

ولما خرج رسول الله ﷺ إلى (أحد)، رُفع حُسَيْل بن جابر (وهو اليَمَان أبو حُذَيْفَة بن اليمان) وثابت بن وَقَش في الآطام مع النساء والصبيان ، فقال أحدهما لصاحبه وهما شيخان كبيران : « لا أبا لك ! ما تنتظر ؟! فواللّه إن بقي لواحد منّا من عمره إلاّ ظَمْء حمار [9] ، إنما نحن هَامَة [10] اليوم أو

---

(١) يحمش : يثير حميتهم وغضبهم .

(٢) صمدت له : قصدت نحوه . (٣) الولولة : رفع الصوت . (٤) سيرة ابن هشام (٣/ ١٣ - ١٤) .

(٥) الدولة : بفتح الفاء المهملة أو ضمها ، والمراد بها هنا الغلبة . والريح : النصر .

(٦) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٩ - ٣٠) الأصابة (٨/ ١٩٨ - ١٩٩) .

(٧) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٨) وطبقات ابن سعد (٣/ ٤١٠) وجوامع السيرة (١٦١) .

(٨) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٠) .

(٩) الظمء : مقدار ما يكون بين الشربتين ، وأقصر الأظماء ظمء الحمار ، فضرباه مثلاً لقرب الأجل .

(١٠) هامة اليوم أو غد : يريدان أنهما يموتان اليوم أو غداً .

غـداً، أفلا نأخذ أسيافنا ثم نلحـق برسـول الله ﷺ ، لعلّ الله يرزقنا شهادة مـع رسول الله ﷺ » فأخـذا أسيافهما ثم خرجا حتى دخـلا في الناس ، ولم يُعْلَمْ بهما [1]

أما ثابت بن وقش ، فقتله المشـركون[2] .

وأما حسيل بن جابر ، فاختلفت عليه أسياف المسلمين ، فقتلوه وهم لا يعرفونه ، فقال ابنه حُذيفة : « أبـي . . . . أبـي . . . . واللّـه » ، فقالـوا : « واللّه إن عرفناه » ، فقال حذيفة : « يغفر اللّه لكم وهو أرحم الراحمين » ، فـأراد رسول الله ﷺ أن يَدِيَه ، فتصدّق حذيفة بديته على المسلمين [3].

ج ـ شهداء الرَّجيْع[4]:

وقـدم على رسول الله ﷺ بعد (أُحد) رهط مـن عَضَل والقارة ، فقالوا : يا رسول اللّه ! إنّ فينا إسلامـاً ، فابعـث معنـا نفـراً من أصحابـك يفقهوننا في الدين ، ويُقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائـع الإِسـلام ، فبعـث رسول الله ﷺ معهم عشرة[5] رهـط مـن أصحابه. وخرج القوم، حتى إذا كانوا على (الرَّجَيْع وهو ماء لهُذَيْل بناحية الحجاز) غدروا بهم [6] ، فقتلوا قسماً منهم وأسروا ثلاثة منهم قتلوا أحدهـم في الطـريق إلى مكّة ، وأخـذوا خُبَيْب بن عَدِيّ و زيد بن الدَّثِنَّة أسيرين ، فقدموا بهما مكّة و باعوهما من قريش بأسيرين من هُذَيْل كانا بمكّة [7] .

وخرج المشركون بخُبَيْب من (الحرام) إلى (الحِلّ) ، فقال لهم : « دعوني أركع ركعتين » ، فتركوه فركع ركعتين ، ثم قال : « واللّه لولا أن تحسبوا أنّ ما

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/٣٦).
(٢) أسد الغابة (١/ ٢٣٤) والإصابة (١/ ٢٠٤) . (٣) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٧) والاستيعاب (١/ ٣٥٢) .
(٤) الرجيع : ماء لهذيل قرب الهدأة بين مكة والطّائف ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٢٢٨) .
(٥) في رواية أنهم كانوا ستة رجال من أصحابه ، انظر سيرة ابن هشام (٣/ ١٦٠) .
(٦) طبقات ابن سعد (٢/ ٥٥ ـ ٥٦) وانظر سيرة ابن هشام (٣/ ١٦٠) . (٧) سيرة ابن هشام (٣/ ١٦٤) .

بي جزعاً من الموت لزدتُ ! اللّهم احْصِهم عَدَداً ، واقتلهم بَدَداً ، ولا تُبْقِ منهم أحداً » .

« فلستُ أُبالي حين أُقْتَلُ مُسلماً على أيِّ جنبٍ كان في اللّه مصرعي
وذلك في ذات الإِلّه وإن يشأ يبارك على أوصال شِلْوٍ [1] مُمَزَّع »

ثمّ قاموا إليه فقتلوه [2].

وأما زيد بن الدَّثِنَّة ، فابتاعه صفوان بن أُميّة بأبيه أُميّة بن خَلَف ، فأخرجه رجاله ليقتلوه . واجتمع رهط من قريش منهم أبو سُفْيان بن حَرْب ، فقال أبو سفيان حين قُدِّم زيد ليقتل . « أنشدك اللّه يا زيد ! أتحبّ أنّ محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه و إنك في أهلك ؟ » ، فقال زيد : « واللّه ما أحبّ أنّ محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه ، تصيبه شوكة تؤذيه ، وأني جالس في أهلي » ، فقال أبو سفيان : « ما رأيتُ أحداً يُحبّ أحداً كحبّ أصحاب محمد محمداً » . . . . ثم قتلوه [3] .

د- في غزوة الخندق :

وفي غزوة (الخندق) كانت صفيّة بنت عبد المطّلب مع النساء والصبيان ، قالت : « فمرّ بنا رجل من يهود ، فجعل يُطيف بالحصن ، وقد حاربت بنو قُرَيْظَة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ ، وليس بيننا وبينهم أحدٌ يدفع عنّا، ورسول الله ﷺ وأصحابه في نحور عدوِّهم، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آتٍ ، فقلت لأحد الرجال : إنّ هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن ، وإني واللّه ما آمنه أن يدلّ على عورتنا مَنْ وراءنا من يهود، وقد شغل عنّا رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزل إليه فاقتله.

(١) الشِّلْو : العضو ، والقطعة من اللّحم ، والبقية من كل شيء (ج) : أشلاء . وأشلاء الانسان وغيره : أعضاؤه بعد التفرق والبلى . والممزع : المقطّع ، والمزعة : القطعة من اللحم ونحوها .

(٢) الإصابة (٣/ ١٠٣) وأسد الغابة (٢/ ١٠٤) ، والحرم هي مكة وما يحيطها بحدود معينة معروفة ، والحل خارج تلك الحدود . (٣) سيرة ابن هشام (٣/ ١٦٤ - ١٦٥) .

قال : يغفر اللّه لكِ يا ابنة عبد المطّلب ! واللّه لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا . . . . فلما قال لي ذلك ولم أرَ عنده شيئاً ، احتجزتُ [١] ثم أخذت عموداً [٢] ثم نزلتُ من الحصن إليه ، فضربته بالعمود حتى قتلته ، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن . . . . » [٣] .

ولما انتهى إلى رسول الله ﷺ وسلّم ما اختلف من أمر الأحزاب في غزوة (الخندق) ، دعا حُذَيْفَة بن اليمان [٤] وبعثه إليهم ليلاً لينظر ما فعل القوم . قال حذيفة : « فذهبتُ ، فدخلتُ في القوم ، والريح وجنود اللّه تفعل بهم ما تفعل ، لا تقرّ لهم قِدْراً ولا ناراً ولا بناء ، فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ! لينظر امرؤ مَن جليسه ! قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي ، فقلت: من أنت ؟ قال فلان بن فلان ! ثم قال ابو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام ، لقد هلكَ الكِراع والخِف [٥]، وأخلفتنا بنو قُرَيْظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدّة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قِدْر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ؛ فارتحلوا فإني مُرْتَحل ! . . . ثم قام إلى جَمَلِه وهو معقول فجلس عليه ، ثم ضربه فوثب به على ثلاث ، فوالله ما أطلق عقاله إلاّ وهو قائم . . . فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مِرْط [٦] لبعض نسائه مراجل [٧]، فلما رآني أدخلني إلى رجليه وطرح عليّ طرف المِرْط ، ثم رجع وسجد ، فلما سلّم أخبرته الخبر » [٨] .

هـ ـ في غزوة بني قُرَيظة

وحاصر النبيّ ﷺ بني قُرَيْظَة خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم

---

(١) احتجزت : شددتُ وسطي ، تقول : احتجز فلانٌ بإزاره : إذا شدّ وسطه وربطه فيه .

(٢) العمود هنا : أحد أعمدة البيت التي يقام عليها ، وقد يكون العمود ، المقرعة من الحديد .

(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٤٦) وأسد الغابة (٥/ ٤٩٣) وطبقات ابن سعد (٨/ ٤١) والإصابة (٨/ ١٢٩) .

(٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح فارس (١٠٨ ـ ١١٧) .

(٥) الكراع : الخيل . والخف : الأبل .

(٦) مرط : الكساء (٧)مراجل : ضرب من وشي اليمن .

(٨) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٥٠ ـ ٢٥٢) وطبقات ابن سعد (٢/ ٦٩) .

الحصار[1] ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن أبعث إلينا أبا لَبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف لنستشيره في أمرنا ، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش [2] إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرقّ لهم ، وقالوا له : « يا أبا لُبابة ! أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ » ، قال : « نعم » وأشار بيده إلى حلقة كأنه يقول لهم : إنه الذبح ، أي أنّ النبي ﷺ سيقتلهم. قال أبو لُبابة: «فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت رسول الله ﷺ ». وانطلق أبو لُبابة على وجهه، ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عُمُده وقال : « لا أبرح من مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعتُ ، وأعاهد الله أن لا أطأ بني قُريظة أبداً ولا أُرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً»، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره ـ وكان قد استبطأه ـ قال: «أما إنه لو جاءني لاستغفرت له ، فأما إذ قد فعل ما فعل ، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه » . وتاب الله على أبي لُبابة ، فثار الناس إليه ليطلقوه، فقال: «لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده» ، فلما مرّ عليه ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح ، أطلقه» [3] .

ونزل بنو قُريظة على حكم رسول الله ﷺ ، فتواثبت الأوس فقالوا : « يا رسول الله صلَّى الله عليك وسلَّم ! إنهم كانوا موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت » ، وقد كان رسول الله ﷺ حاصر بني قَيْنُقاع حلفاء الخزرج قبل بني قُريظة فنزلوا على حكمه ، فسأله إياهم عبدالله بن أُبيّ بن سَلُول فوهبهم له ، فلما كلَّمته الأوس قال رسول الله ﷺ : «ألا تَرْضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ » ، قالوا : « بلى ! » ، فقال : « فذاك إلى سعد بن مُعاذ » [4] ،

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٥٤) .

(٢) تقول : جهش الرجل بالبكاء وأجهش : إذا تهيأ له وبدأ فيه .

(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦) .

(٤) زعيم الأوس قبل الإسلام وسيدهم بعده .

فأقبل الأوس مع سعد إلى رسول الله ﷺ يقولون لسعد: «يا أبا عمرو! أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاّك ذلك لتُحسن فيهم»، فلما أكثروا عليه قال: «لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم». وانتهى سعد إلى رسول الله ﷺ، فقال: «إني أحكم فيهم، أن تُقْتَل الرجال، وتُقسم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء»[1].

و- غزوة المرَيْسيع[2]:

وفي غزوة (المُرَيْسِيْع) تزاحم أحد المهاجرين مع أحد الأنصار على الماء، فاقتتلا، فصرخ المهاجريّ: يا معشر المهاجرين! وصرخ الأنصاري: يا معشر الأنصار! فغضب عبدالله بن أُبيّ بن سَلُول رأس المنافقين وقال: «أَوَ قد فعلوها؟! قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أَعُدُّنا وجلابيب قريش[3] هذه إلاّ كما قال الأُول: سَمِّن كلبكَ يأكلك[4]، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل»[5].

وبلغ عبدالله بن عبدالله بن أُبيّ الذي كان من أمر أبيه، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: «يا رسول الله! إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنتَ لا بدّ فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجلٍ أبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري، فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأَقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار»، فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفّق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»[6].

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٥٧ - ٣٥٩).

(٢) المريسيع: اسم ماء في ناحية القديد، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤١)، وبين المريسيع وبين الفُرْع نحو يوم، وبين الفرع والمدينة نحو ثمانية بُرُد، أنظر طبقات ابن سعد (٢/ ٦٣).

(٣) جلابيب قريش: لقد كان المشركون يلقبون به أصحاب رسول الله ﷺ من أهل مكة.

(٤) سمِّن كلبك يأكلك: مثل من أمثال العرب، وفي ضده نقول: جوِّع كلبك يتبعك.

(٥) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٣٤).

وفي رواية : أن عبدالله هذا ، تقدَّم الناس حتى وقف لأبيه على الطريق ، فلما رآه أناخ به وقال : « لا أفارقك حتى تزعم أنك الذليل ومحمد العزيز » ، فمرَّ بـه رسول الله ﷺ فقال: «دَعْهُ، فلعمري لنُحْسِنَنَّ صُحبته ما دام بين أظهرنا» [1] .

ز - في صلح الحديبية[2] :

وكان في صلح الحُدَيْبِيَّة نص يقول : « مَن أتى محمداً من قريش بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم»[3]، فلما قـدم رسول الله ﷺ المدينة المنورة، أتاه أبو بَصِيرْ عُتْبَة بن أُسَيْد بن جارية ، وكان ممن حبس بمـكة ، فلما قدم على رسـول الله ﷺ كتب فيه أزهـر بن عبد عوف بن عبد الحـرث بن زُهرة، والأخنس بن شريـق بن عمرو بن وهب الثقفيّ إلى رسول الله ﷺ ، وبعثا رجلاً من بني عامر بن لؤي ومعـه مولى لهم، فقدما على رسول الله ﷺ بكتـاب الأزهر والأخنس، فقال رسول الله ﷺ: «يـا أبا بصير! إنَّا قـد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمتَ ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإنَّ الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك ! » ، فقال أبو بصير : « أتردّني إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟! » ، فقال عليه الصَّلاة والسـلام : « يا أبا بصير ! انطلق فإنّ الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المُسْتَضعَفِين فرجـاً ومخرجـاً » . وانطلـق أبـو بصـير مع حارسيه ، حتـى إذا كان بـ (ذي الحُلَيْفَـة)،[4] جلس إلى جدار ، وجلس معـه صاحبـاه ، فقـال أبـو بصـير لأحدهما : « أصارم سيفك هذا يا أخا عامِر ؟! » ، فقال : « نعم » ، فقال : « أنظر إليه ؟ » ، فقال : « أنظر إن شئت » ، فاستلَّه أبو بصير ثم علاه به حتى قتله. وخـرج المولى وهـو صاحبه الثاني سريعاً حتى أتى رسول الله ﷺ

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ٦٥) .

(٢) الحديبية : قرية بينها وبين مكة مرحلة واحدة ، تقع بين جدة ومكة .

(٣) طبقات ابن سعد (٢/ ٦٥) .

(٤) ذو الحليفة : قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة ، وهي ميقات أهل المدينة الذي يحرمون عنده للحج ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٣٢٩) .

وهو جالس في المسجد ، فلما رآه طالعاً قال : « إنَّ هذا الرجل قد رأى فَزَعاً » ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال: «ويحك! ما لك؟!»، فقال: « قتل صاحبكم صاحبي » . وطلع أبو بصير متوشحاً بالسيف حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: «وَفَتْ ذمتك، وأدّى الله عنك. أسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بديني أُفْتَنُ فيه أو يُعْبَث بي»، فقال رسول الله ﷺ : « وَيْل أمه مِحَشّ حرب [1] لو كان معه رجال » . وخرج أبو بصير حتى نزل (العِيْص) [2] من ناحية (ذي المروة) [3] على البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون عليها إلى الشام . وبلغ المسلمين الذين كانوا حُبِسوا بمكة قولُ رسول الله لأبي بصير: «ويل أمه محش حرب لو كان معه رجال»، فخرجوا إلى أبي بصير بالعيص ، فاجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلاً ، فضيَّقوا على قريش : لا يظفرون بأحد منهم إلاّ قتلوه ، ولا تمرّ بهم عير إلاّ اقتطعوها، حتى كتبت قريش إلى رسول الله ﷺ تسأله بأرحامها إلاّ آواهم فلا حاجة لهم بهم ، فآواهم رسول الله ﷺ [4] .

ح - في غزوة مُؤتة[5]:

وفي غزوة (مُؤْتَة)،التقى المسلمون بجموع (هِرَقْل) من الروم والعرب غير المسلمين، فقام زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى استُشْهد، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب وقاتل بها ، حتى إذا ألحمه القتال اقتحم على فرس له [6] شقراء فعقرها ، ثم قاتل القوم حتى استُشْهِد وهو يقول :

---

(١) محش حرب : أي أنه يوقد الحرب ويهيجها ويشعل نارها . حشّ فلان النار : إذا أوقدها وجمع لها الحطب .

(٢) العيص : موضع من ناحية ذي المروّة على ساحل البحر الأحمر بطريق قريش إلى مكة التي كانوا يسلكونها من مكة إلى الشام في تجارتهم .

(٣) ذو المروة : قرية بوادي القرى ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٩) . ووادي القرى : وادٍ بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى . (٤) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٧٢ ـ ٣٧٣) .

(٥) مُؤْتة : قرية من قرى البلقاء في حدود الشام ، والبلقاء دون دمشق ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٩٠) وطبقات ابن سعد (٢/ ١٢٨) .

(٦) أقتحم عن فرس له : أي رمى بنفسه عنها ، يريد أنه كان فارساً فترجّل . وألحمه القتال : اشتد .

يا حبذا الجنَّة واقترابها طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرةً بعيدةً أنسابها
عليَّ إذ لاقيتها ضِرابها [1]

وكان جعفر رضي الله عنه قد أخذ اللِّواء بيمينه فقُطعت ، فأخذه بشماله فقُطعت ، فاحتضنه بعضُديه [2] حتى استُشْهِد عليه رضوان الله ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة [3] ، فوُجد في جسمه بضع وتسعون من طعنة ورمية ، كلها فيما أقبل من جسمه [4] .

وأخذ عبدالله بن رَوَاحة الراية ، فتقدَّم بها وهو على فرسه وهو يقول :

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلنَّه لتنزلنَّ أو لتكرهنه
إن أَجْلَبَ الناس وشدُّوا الرنَّة مالي أراك تكرهين الجنَّة [5]
قد طالما قد كنت مطمئنة هل أنتِ إلاَّ نُطْفَة في شَنَّة» [6]

ثم قال أيضاً :

يا نفس إلاَّ تُقْتَلي تموتي هذا حمام الموت قد صَليتِ
وما تمنَّيت فقد أُعطيتِ إن تفعلي فعلهما هُديتِ

يريد : صاحبيه زيداً وجعفراً ، ثم أخذ سيفه فتقدَّم وقاتل حتى قُتِل [7] .

وأخذ الراية ثابت بن أرقم فقال : « يا معشر المسلمين ! اصطلحوا على رجل منكم » ، فقالوا : « أنت ! » ، فقال : « ما أنا بفاعل » ، فاصطلح

---

(١) سيرة ابن هشام (٤٣٣ ـ ٤٣٤) .
(٢) احتضنه : أخذه في حضنه . وحضن الرجل ما تحت العضد إلى أسفل .
(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٤٣) . (٤) الإصابة (١/ ٢٤٨) .
(٥) أجلب الناس : صاحوا واجتمعوا . والرنّة : صوت فيه ترجيع يشبه البكاء .
(٦) النطفة : الماء القليل الصافي . والشنة : القربة القديمة . (٧) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥) .

الناس على خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية ، دافع القوم وحاشى [١] بهم ، ثم انحاز وانحيز عنه ، حتى انصرف بالناس [٢] .

ط ـ تحدّي الأهل وأصنامهم :

وقاد عُكاشة بن مِحْصَن الأسديّ سرية من المسلمين إلى (الغَمر) غمر بني مرزوق ، وهو ماء لبني أسد على ليلتين من (فَيد) طريق الأُول إلى المدينة [٣] ، وعكاشة أسديّ ، ولكنه هاجم قومه بني أسد .

وقاد أبو العوجاء السُّلَمي سرية من المسلمين ليقاتل قومه بني سُلَيْم ، فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يستجيبوا لدعوته ، فقاتلهم [٤] .

وقاد الطُّفَيْل بن عمرو الدَّوْسِيّ سرية من المسلمين ليهدم (ذا الكَفَينْ) صنم عمرو بن حَمَمَة الدّوسي ، فخرج الطفيل سريعاً إلى قومه ، وهدم (ذا الكفين) وجعل يحش النار في وجهه ويحرقه ويقول :

« يا ذا الكفين لستُ من عبَّادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا

إني حَشَشْتُ النار في فؤادكا» [٥]

وقاد الضَّحَّاك بن سُفيان الكِلابيّ سريّة من المسلمين ليقاتل قومه بني كلاب ، فدعاهم إلى الإسلام، فأبوا ، فقاتلهم وهزمهم [٦] .

وبعث النبيّ ﷺ المُغِيْرَة بن شُعْبَة الثَّقفيّ [٧] إلى (اللاَّت) ، وكان سدنتها من بني ثقيف ، فهدمها المغيرة وحرَّقها بالنار [٨] .

---

(١) حاشى : من المحاشاة . أي أبعدهم عن الخطر ، وصار خالد لهم ساقةً ليجعلهم ينسحبون بدون مداهمة العدو لهم .

(٢) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٣٥) . (٣) طبقات ابن سعد (٢/ ٨٤) .

(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ١٢٣) .

(٥) طبقات ابن سعد (٢/ ١٥٧) وسيرة ابن هشام (١/ ٤١٠).

(٦) طبقات ابن سعد (٢/ ١٦٢ - ١٦٣) .

(٧) أنظر تفاصيل سيرته في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٣٨٧ - ٤١١) .

(٨) كتاب الأصنام للكلبي (١٦ - ١٧) .

ي- في غزوة الفتح :

وكانت قوات المسلمين في غزوة فتح مكَّة عشرة آلاف رجل، تتألف من المهاجرين والأنصار ومسلمي أكثر القبائل العربية يومذاك : سبعمائة من سُلَيم ، وألف من مُزَيْنة ، وأربعمائة من بني غِفَار ، وأربعمائة وألف من بني جُهَيْنَة ، وعدد من تَمِيْم وأَسَد وَقَيْس وغيرها من القبائل الأخرى ، فلم يتردَّد المهاجرون في مهاجمة بلدهم الحبيب : مكَّة المكرَّمة ، ومعهم قوَّات القبائل العربية الأخرى ، على الرغم من وجود أهليهم وأموالهم فيها .

وقبل الحركة إلى هذه الغزوة ، خرج أبو سفيان بن حرب حتى قدم على رسول الله ﷺ في المدينة المنوَّرة، فدخل على ابنته أم حَبِيْبَة بنت أبي سفيان أم المؤمنين رضي الله عنها ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: «يابُنَيَّة، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني!»، فقالت: «بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ »، فقال : « والله لقد أصابك يا بنيَّة بعدي شر » [1] .

ولما نزل رسول الله ﷺ (مرّ الظّهْران)[2] قبل أن يدخل مكَّة، ركب أبو سفيان خلف العباس بن عبد المطلب عمّ النبيّ ﷺ من عجز بغلة النبيّ ﷺ . قال العبَّاس: «فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: مَنْ هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عمّ رسول الله ﷺ على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، فقال : مَنْ هذا ؟ وقام إليَّ ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان عدوّ الله !!! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد! ثم خرج يشتدّ نحو رسول الله ﷺ . وركضت البغلة، فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء ، فاقتحمتُ عن البغلة ، فدخلت على

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ١٢ - ١٣) .

(٢) مرّ الظهران : موضع على مرحلة من مكة ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢١) .

رسول الله ﷺ ، ودخل عمر، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان، قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، فدعني فلأضرب عنقه ! فقلت : يا رسول الله ! إني قد أجرته. . . ثم جلست إلى رسول الله ﷺ ، فأخذت برأسه وقلت : والله لا يناجيه الليلة دوني رجل . فلما أكثر عمر في شأن أبي سفيان قلت : مهلاً يا عمر ! فوالله لو كان من رجال بني عَدِيّ بن كَعْب ما قلتَ هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مَنَاف ! فقال : مهلاً يا عبَّاس ! فوالله لإسلامكَ يوم أسلمتَ كان أحبّ إليّ من إسلام الخطّاب لو أسلم ، وما بي إلا أني قد عرفتُ أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم »[1] .

وأمر النبيّ ﷺ عمه العبَّاس أن يأخذ أبا سفيان إلى خيمته ويحضره إليه صباح يوم غدٍ، فلما كان الصباح جيء بأبي سفيان إلى النبيّ ﷺ معلناً إسلامه ، فقال العبَّاس : « يا رَسول الله ! إنَّ أبا سفيان يحب هذا الفخر ، فاجعل له شيئاً » ، فقال :« نعم ، مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومَن أغلق بابه فهو آمن ، ومَن دخل المسجد فهو آمن » .

واحتجز العباس أبا سفيان في مضيق الوادي الذي يؤدي إلى مكَّة ، فمر جيش المسلمين بأبي سفيان : مرَّت القبائل على راياتها ، كلما مرَّت قبيلة سأل أبو سفيان عنها العبَّاس ، فيعدّ العبَّاس : سُلَيْم ، مُزَيْنة ، . . . . . حتى مرَّ الرسول ﷺ في كتيبته الخضراء، وفيها المهاجرون والأنصار، لا يُرى منهم إلاَّ الحُدُق من الحديد ، فقال أبو سفيان : ما لأَحدٍ بهؤلاء من قِبَل ولا طاقة »[2] .

٤- الجهاد بالأموال:

لقد قرن الإسلام دائماً الجهاد بالأرواح بالجهاد بالمال : ﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون ﴾[3] .

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٢١ - ٢٢) .

(٢) أنظر التفاصيل في كتابنا : الرسول القائد (٣٢٧ - ٣٢٨) .

(٣) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ٢٠) .

وقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الـذين يُنْفِقون أموالهم في سبيل الله كمثل حَبَّـة أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِل في كلِّ سُنْبُلَة مائةُ حَبَّة والله يُضَاعِفُ لمن يَشَاءُ واللهُ واسـعٌ عليم ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وما لكم أَلاَّ تُنْفِقوا في سبيل اللهِ ولله ميراثُ السموات والأرضِ لا يستوي منكم مَنْ أَنْفَقَ من قَبْلِ الفَتْحِ وقاتَلَ أُولئك أَعْظَمُ درجةً من الذين أنفقوا من بَعْدُ وقاتلوا وكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى ، والله بما تَعْملـون خَبير﴾ (٢).

وقال تعالى : ﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجُاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ لا يَسْتَـوِي القاعـدون من المؤمنـين غـيرُ أُوْلي الضَّرر والمجاهدون في سبيل اللهِ بأموالِهِم وأنفسهم ، فضَّل اللهُ المُجَاهِدِينَ في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً وكلاًّ وعَدَ اللهُ الحُسْنَى ، وفَضَّـلَ اللهُ المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾ (٤) .

بل يلاحظ في تلك الآيات الكريمة ، أنَّ المال يُقَدَّمُ على الأنفس دائماً ، مما يدلّ على أهمية المال في الحـرب وأهمية الجهـاد بالمال ، فالمال هو عصـب الحرب .

لقد أنفق المسلمون الأولون من العرب أموالهم في سبيل الله : أنفق أبو بكر الصديق جميع ماله ، وكان له أربعون ألفاً أنفقها كلها على رسول الله ﷺ ، وقد أعتق سبعة كانوا يعذّبون في الله، منهم بِلال بن رَباح (٥)، وأنفق عمر بن الخطّاب نصف ماله (٦) .

وأنفق عثمان بن عفّان أموالاً طائلة : جهّز جيش العُسرَة (٧) ، واشترى

---

(١) الآية الكريمة من سورة البقرة (١ : ٢٦١) .

(٢) الآية الكريمة من سورة الحديد (٥٧ : ١٠) .

(٣) الآية الكريمة من سورة الصف (٦١ : ١١) .

(٤) الآية الكريمة من سورة النساء (٤ : ٩٥) .

(٥) الرياض النضرة (١/ ١١٦) .

(٦) الرسول القائد (٤٥٦) .

(٧) الرياض النضرة (٢/ ١١٨) .

للمسلمين بئر (رُومة)[1]، وأنفق كثيراً من الأموال كما ذكرنا من قبلُ .

وكان للزبير بن العوَّام ألف مملوك يؤدون إليه الخَراج ، فما كان يدخل منها بيته درهم واحد ، فقد كان يتصدَّق بذلك كله . وباع داراً له بستمائة ألف درهم ، فقيل له : « يا أبا عبدالله ! غُبِنْتَ ! » ، فقال : « كلا ! والله لتعلمنَّ لم أُغبن . . . هي في سبيل الله » [2] .

وباع عبد الرحمن بن عوف أرضاً من عثمان بن عفَّان بأربعين ألف دينار ، فقسَّم ذلك المال في بني زُهرة وفقراء المسلمين وأمهات المؤمنين . وتصدَّق على عهد رسول الله ﷺ بشطر ماله: أربعة آلاف، ثمَّ تصدَّق بأربعين ألف دينار ، ثم حَمَلَ على ألف وخمسمائة راحلة في سبيل الله ، وقد وردت له قافلة من تجارة الشَّام ، فحملها إلى رسول الله ﷺ [3] .

وعاد رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقَّاص عام حجة الوداع، فقال سعد : « يا رسول الله ! إني قد بلغ بي من الوجع ما ترى ، ولا يرثني إلاَّ ابنة ، فأتصدَّق بكل مالي ؟ » ، فقال : « لا ! » ، فقال : « فالشَّطر يا رسول الله ؟ » ، قال : « لا ! » ، فقال : « فالثّلث » ، فقال : « الثُّلثُ ، والثُّلث كثير . إنك إن تذر ورثتك أغنياء ، خير من أن تَدَعُهم عالة يتكفَّفون الناس » [4] .

لقد تأسَّى أصحاب رسول الله ﷺ به في حياته المباركة: ببذله السَّخيّ ، وتضحياته الفذَّة ، وجهاده الرائع بالأموال والأنفس .

إنه أتعبَ هو وأصحابه مَنْ يريد التأسّي بهم من المسلمين .

---

(١) الرياض النضرة (٢/ ١٢٢) .

(٢) الرياض النضرة (٢/ ٣٦٤) .

(٣) الرياض النضرة (٢/ ٣٨٥) .

(٤) الرياض النضرة (٢/ ٤٠٦) .

بعد صاحب الرّسالة

١ ـ في حرب الردّة :

والتحق النبيّ ﷺ بالرّفيق الأعلى، فارتدّ أكثر العرب إلاّ أهل المدينة ومكّة والطّائف [١] .

واستُخلِف أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه ، فقال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه لأبي بكر الصدِّيق : « كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : أُمرتُ أن أُقاتل النَّاس حتى يقولوا: لا إلّه إلاَّ الله، فمن قال: لا إلّه إلاَّ الله ، عصم مني ماله ونفسه إلاَّ بحقِّه وحسابه على الله؟ . » ، فقال أبو بكر الصدِّيق : « والله لأُقاتلنّ مَنْ فرَّق بين الصَّلاة والزكاة ، فإن الزكاة حقّ المال، والله لو منعوني عِقالاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على مَنْعها » [٢] .

وخرج أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه بنفسه شاهراً سيفه،راكباً راحلته لقتال أهل الرِّدَّة ، فجاء عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وأخذ بزمام راحلته وقال : « أين يا خليفة رسول الله ﷺ ؟! ، أقول لك ما قال رسول الله ﷺ لك يوم (أُحُد): شِمْ سيفك[٣] ، لا تفجعنا بنفسك وارجع إلى المدينة، والله لئن أُصبنا بك لا يكون بعدك نظام أبداً!»[٤] .

لقد ثبت أبو بكر الصِّدِّيق ثباتاً عجيباً أمام تيَّار المرتدين الجارف ، وقاوم

---

(١) تاريخ أبي الفدا (١/ ١٥٢) وابن الأثير (٢/ ١٢٣) .

(٢) الرياض النضرة (١/ ١٢٩) .

(٣) شم سيفك : أي أغمده، ويقال سِلَّهُ ، وهو من الأضداد

(٤) الرياض النضرة (١/ ١٣٠) .

بصبر وعناد وإيمان ، كلّ فكرة لمهادنتهم ، فعزَمَ الله لأبي بكر على قتالهم ، ما رضي منهم إلاّ بالخطّة المخزية أو الحرب المُجْلِيَة . فأما الخطّة المخزية فأن يُقِرّوا بأنّ مَنْ قُتِل منهم في النار،ومَنْ قُتِل من المسلمين في الجنَّة ، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم . . لقد تضرمت الأرض ناراً بعد موت النبيّ ﷺ ، وارتدَّت كل قبيلة عامة أو خاصة إلاَّ قريشاً وثقيفاً[1] . . . ونَجَمَ النفاق ،واشرأبّت يهود والنصارى ، وأصبح المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية [2] ، فنجح أبو بكر في ثباته الرَّاسخ ، وأعاد وحدة العرب تحت لواء الإسلام ، تلك الوحدة التي جاهد الرسول الأعظم عليه الصَّلاة والسَّلام كلّ حياته المباركة من أجلها .

وفي معركة (اليمامة) [3] ، كانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حُذَيْفَة ، فقالوا : « نخشى علينا من نفسك شيئاً ! » ، فقال : « بئس حامل القرآن أنا إذاً » [4] .

واحتدم القتال في هذه المعركة بين المسلمين من جهة،وبين المرتدين من أصحاب مُسَيْلَمَة الكذّاب من جهة أخرى ، فقال ثابت بن قيس : « بئسما عوّدتم أنفسكم يا معشر المسلمين ! اللّهم إني أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء - يعني أهل اليمامة - وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء - يعني المسلمين - » ، ثمّ جالد بسيفه حتى قُتِل .

وقال زيد بن الخطّاب حين انكشف الناس عن رحالهم : « لا تحوّز [5] بعد الرحال » ، ثم قاتل حتى قتل .

وقام البَراء بن مالك أخو أنس بن مالك رضي الله عنهما ، وكان إذا حضر

---

(١) ابن الأثير (٢/ ١٣٠) . (٢) الطبري (٢/ ٤٦١) .

(٣) بين المسلمين وعلى رأسهم خالد بن الوليد وبين مُسَيْلَمَة الكذّاب على رأس المرتدين من حنيفة .

(٤) الطّبري (٢/ ٥٠٩) .

(٥) الحوز : الانضمام إلى فئة في القتال ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ومَن يولّهم يومئذ دُبره إلاّ متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من اللّه ، ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ . سورة الأنفال (١٦/٨)

الحرب أخذته العُرواء [١] حتى يقعد عليه الرجال وهو ينتفض تحتهم حتى يبول في سراويله ، فإذا بال يثور كما يثور الأسد ، فلما رأى ما صنع الناس أخذه الذي كان يأخذه حتى قعد عليه الرجال ، فلما بال وثب وقال : « أين يا معشر المسلمين ! أبا البراء بن مالك . . . هلمّ إليّ » ، وزحف المسلمون حتى ألجأوا المرتدين إلى حديقة الموت وفيها مُسَيلمة الكذَّاب ، فقال البراء : « يا معشر المسلمين ! ألقوني عليهم في الحديقة ! » ، فقال الناس : « لا نفعل يا بَراء ! » ، فقال : « والله لتطرحنّي عليهم فيها » ، فاحْتُمِلَ حتى إذا أشرف على الحديقة من الجدار ، اقتحم فقاتلهم عن باب الحديقة حتى فتحها للمسلمين [٢] .

وقال زيد بن الخطّاب قبل استشهاده : « لا والله لا أتكلّم اليوم حتى نهزمهم ، أو ألقى الله فأُكلِّمه بحُجَّتي ! عضّوا على أضراسكم أيها الناس ، واضربوا في عدوكم ، وامضوا قُدُماً » .

وقال ثابت بن قيس : « يا معشر المسلمين ! أنتم حزب الله ، وهم أحزاب الشيطان ، والعزَّة لله ولرسوله ولأحزابه . . . أروني كما أُريكم » .

وقال أبو حُذَيفة : « يا أهل القرآن ! زيِّنوا القرآن بالفعال » .

وحمل خالد بن الوليد وقال لحماته : « لا أوتينّ من خلفي » ، حتى كان بحيال مسيلمة ، يطلب الفرصة ويرقب مسيلمة [٣] .

٢ - في معارك الفتوح :

قاتلت النساء أيضاً في معركة (اليرموك) الحاسمة ، فقد خرجت جُوَيرة بنت أبي سفيان ، وكانت مع زوجها ، فقاتلت قتالاً شديداً ! [٤] .

وفي معركة (الجسر) بين العرب المسلمين وبين الفرس ، جعلت الفيلة لا تحمل على جماعة من المسلمين إلاّ دفعتهم ، فنادى أبو عُبَيْد بن مَسْعود الثقفيّ [٥]

(١) العرواء : اعتراه أي غشيه ، أي يقع مغشياً عليه .
(٢) الطبري (٢/٥١١) .
(٣) انظر سيرته التفصيلية في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٢١٢ - ٢٢٠) .
(٤) الطبري (٢/٥١٣) .
(٥) الطبري (٥/٥٩٧) .

قائد جيش المسلمين : « احْتَوِشوا [1] الفيلة ، وقطِّعوا بُطُنها [2] ، واقلبوا عنها أهلها » ، ثم واثب هو الفيل الأبيض وتعلَّق بِبطانِه فقطعه ووقع الذين عليه ، ولكنّ الفيل أهوى لأبي عبيد ، فنفخ مشفره بالسيف ، فاتقاه الفيل بيده ، فوقع أبو عُبَيْد ، فخبطه الفيل وقام عليه [3] ، فمات أبو عبيد شهيداً .

وتتابع بعد أبي عبيد سبعة من (ثَقِيْف) ، كلهم يأخذ اللواء فيقاتل حتى يموت . . . ثم أخذ المثنّى بن حارثة الشّيباني [4] اللواء ، فحمى الناس ونادى : « يا أيها الناس ! أنا دونكم فاعبروا على هَيْنَتِكُمْ ولا تدهشوا ، فإنا لن نُزايل حتى نراكم في ذلك الجانب ، ولا تُغْرِقوا أنفسكم » ، فعبر الناس [5] .

وفي معركة (القادسيّة) الحاسمة ، قالت امرأة من (النَّخَع) لبنيها الذين شهدوا (القادسية) : « إنكم أسلمتم فلم تُبَدِّلوا ، وهاجرتم فلم تُثربوا ، ولم تَنْبُ بكم البلاد ، ولم تُقحمكم السنة ، ثم جئتم بأمكم عجوز كبيرة ، فوضعتموها بين يدي أهل فارس . . . واللهِ إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة : ما خنتُ أباكم ، ولا فضحتُ حالكم . . . انطلقوا فاشهدوا أوّل القتال وآخره » ، فأقبلوا يشتدون [6] .

وفي هذه المعركة أيضاً ، كان أبو مِحْجَن الثَّقفيّ [7] في السجن قد قُيِّد وحُبِس في مقر سعد بن أبي وقّاص ، فصعد إلى سعد حين أمسى يستعفيه ، فردّه سعد ؛ فأتى سلمى بنت خَصَفَة زوج سعد ، فقال : « يا سلمى ! يا بنت آل خَصَفَة ! هل لكِ إلى خير ؟ » ، فقالت : « وما ذاك ؟ » ، فقال : « تخلِّينَ عني ، وتعيرينني (البلقاء) [8] ، فللّه عليّ إن سلّمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجليّ في قيدي ! » ، فقالت : « وما أنا وذاك ! » ، فرجع يرسف في قيوده ويقول :

---

(١) احتوش : نفّر . واحتوش : أحاط به وجعله وسطه .
(٢) بطن : (ج) بطان وهو حزام يشدّ على البطن .
(٣) الطبري (٢/ ٦٤١) .
(٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٢٥ ـ ٤٤) .
(٥) الطبري (٢/ ٦٤٢) .
(٦) الطبري (٣/ ٥٣) .
(٧) اسمه : عمرو بن حبيب بن عمرو الثقفي .
(٨) البلقاء : اسم فرس سعد بن أبي وقّاص .

« كَفَـى حَزَنـاً أن تُردى الخَيل بالقنا وأُتـرك مشـدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمـت عنانـي الحـديد وأُغلقت مصـاريع دونـي قد تصـمّ المناديا
وقـد كنـت ذا مالٍ كثـيرٍ وإخوة فقد تركوني واحداً لا أخا ليَـا
ولله عهـد لا أُخيس بعهده لئن فرجت ألاّ أزور الحوانيا»[1]

فلما سمعت ليلى ذلك رقّت له فخلّت سبيله وأعطته الفرس ، فقاتل قتالاً عظيماً ، كان يُكبِّر و يحمل فلا يقف بين يديه أحد ، وكان يقصف الناس قصفاً منكراً ، فعجب الناس منه وهم لا يعرفونه ، ورآه سعد وهو فوق القصر ينظر إلى القتال ، فقال : « لولا أنّ أبا محجن محبوس لقلت :هذا أبو محجن وهـذه البلقاء تحته » ، فلما تراجع الناس عن القتال ، عاد أبو محجن إلى القصر وأدخل رجليه في القيد ، فأعلمت سلمى سعداً خبر أبـي محجـن ، فأطلقـه وقـال : « إذهب . . . لا أحُدّك أبداً » ، فتاب أبو محجن حينئذ وقال : « كنت آنف أن أتركها ـ يريد الخمرة ـ من أجـل الحَدّ [2] ، فوالله لا أشربها أبداً » [3] .

وفي (القادسية) أيضاً ، تكبَّد المسلمون خسائر فادحة بالأرواح من جراء هجوم الفيلة عليهم ، فأرسـل سعـد إلى المسلمـين من الفُـرْس وسألهـم عن الفيلة : « هل لها مَقَاتِل ؟ » ، فقالوا : « نعم . . . المشافِر والعيون ، لا يُنْتَفَع بها بعدها » ، فأرسل إلى القَعْقَاع بن عمرو التميمي ،[4] وأخيه عاصـم بن عمرو التميمي [5]،وقال لهما : « اكفياني الفيل الأبيض » ، وكانت الفيلة كلها آلفة له وكان بإزائهما ، فأخذ القعقاع وعاصم رمحين أَصَمَّينِ لَيِّنين ، ودبَّا في خيل ورَجِل ، فقالا : « اكتنفوه لتحيرِّوه » ، ثم وضعا رمحيهما معاً في عينـيّ الفيل الأبيض ، فنفض الفيل رأسـه وطـرح سائسـه ودلّى مِشْفَـرَه ، فنفحـه القعقاع فرمى به ووقع لجنبه ، فقتلوا مَنْ كان عليه [6] .

(١) الطبري (٣/ ٥٦) . وخاس العهد ، خيْساً وخَيَسَاناً : نقضه وخانه ، ويقال : خاس بالعهد ، وخاس فيه . والحوانيا : الخمر ، والخمارون
(٢) أسد الغابة (٥/ ٢٩١) .
(٣) الإصابة (٧/ ١٧٠) والاستيعاب (٤/ ١٧٤٨) .
(٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٣٠١ ـ ٣٢٣) .
(٥) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح فارس (٢٧٩ ـ ٢٨٩) .
(٦) الطبري (٣/ ٦٢)

وحين عزم سعد بن أبي وقّاص على فتح (المدائن) [1] عاصمة كسرى ، جمع الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : « إنّ عدوّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلُصُون إليهم معه وهم يخلصون إليكم إذا شاؤوا ، فيناوشونكم في سفنهم ، وليس وراءكم شيء تخافون أن تُؤْتوا منه ، فقد كفاكموهم أهل الأيام ، وعطّلوا ثغورهم ، وأفنوا ذادتهم ، وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا . ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم » ، فقالوا جميعاً : « عَزَمَ الله لنا ولك على الرَّشَد ، فافعل » ، فندب سعد إلى العبور قائلاً : « مَنْ يبدأ و يحمي لنا الفِراض [2] حتى تتلاحق بنا الناس لكيلا يمنعوهم من الخروج ؟ » ، فانتدب له عاصِم بن عمرو التميمي ذو البأس ، وانتدب بعده ستمائة من أهل النجدات ، فاستعمل عليهم عاصماً [3] .

وسار عاصم فيهم حتى وقف على شاطىء (دَجْلة) وقال : « مَن ينتدب معي لنمنع الفراض من عدوِّكم ولنحميكم حتى تعبروا ؟ » ، فانتدب له ستون جعلهم نصفين على خيول إناث وذكور ، ليكون أساس العوم الخيل ، ثم اقتحموا (دجلة) واقتحم بقية الستمائة على أثرهم ، فلما رآهم الأعاجم وما صَنَعُوا ، أعدّوا للخيل التي تقدَّمت سعداً مثلها ، فاقتحموا عليهم (دجلة) وأعاموهم إليهم ، فلقوا عاصماً في الخيل متقدمة وقد دنا من الفِراض ، فقال عاصم : «الرِّماحَ . . . الرِّماحَ ! إشرعوها وتوخُّوا العيون ، فالتقوا ، واطعنوا » ، فقتل المسلمون عامتهم ، ونجا مَنْ نجا منهم عوراناً [4] .

ولما رأى سعد عاصماً على الفِراض قد منعها ، أذن للناس في الاقتحام ، وقال : « قولوا : نستعين بالله ونتوكّل عليه . . . حسبنا الله ونِعْمَ الوكيل . . .

---

(١) المدائن : تقع على مسافة ستة فراسخ من شرق بغداد ، فيها قبر الصحابي الجليل سلمان الفارسي ، وتسمى اليوم : سلمان باك ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٤١٤) .

(٢) الفراض : جمع فرضة . والفرضة : المكان الذي يحتله الجنود في الضفة الثانية من النهر لحماية عبور الجنود الآخرين إلى تلك الضفة .

(٣) الطبري (٣/ ١١٩ - ١٢٠) . (٤) الطبري (٣/ ١٢٠) .

والله لينصرنّ الله وليّه وليظهرنّ دينه وليهزمـنّ عدوّه ، ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم » . وتلاحق الناس في (دجلة) ، وإنهم يتحدَّثون كما يتحدَّثـون في البر . . ثم خرجوا من الماء ولم يفقدوا شيئاً ، إلاّ مالك بن عامِر العنبريّ سقط منه قِدْح ، فقال : « والله إني لعلى حالة ما كان الله ليسلبني قدحي من بـين العَسْكَرَين » ، فلما عبروا ألقته الريح إلى الشاطىء ، فتناوله بعض الناس ، فعرفه صاحبه ، فأخذه [1] .

وكان أول مَنْ دخل (المدائن) كتيبة الأهوال ، وهي كتيبة عاصـم بن عمرو التَّميميّ ، ثم الكتيبة الخرساء ، وهي كتيبـة أخيه القعقـاع بن عمـرو التَّميميّ ، فأخذوا في مسككها لا يلقون فيها أحداً يخشونه . ونزل سعد القصر الأبيض ثلاثاً ، واتخذ إيوان كسرى مُصَلّى دون أن يُغَيِّر ما فيه من تماثيل ، وقرأ في صلاة الفتح حين صلَّى في إيوان كسرى : ﴿ كَمْ تَرَكوا من جَنَّاتٍ وعيون ، وزُروع ومَقامٍ كريم ، ونِعْمَةٍ كانـوا فيهـا فاكِهين ، كذلك وأورثناهـا قومـاً آخرين ﴾ [2] ، وصلَّى صلاة الفتح ثماني ركعات لا يفصل بينهن [3] .

وزحف البَراء بن مالك أخو أنس بن مالك في معركة (تُسْتَر) [4] ، بين المسلمين وبين الفُرْس مئة زحفاً ، استُشهد في آخرها بعد أن دعا ربّه قائلاً : « اللهمّ اهزمهم لنا واستشهدني » [5] .

وفي معركة (نَهاوَنْد) قاتل النُّعْمان بن مُقَرِّن المُزَنِيّ [6] حتى قُتِل ، فتناول الراية أخوه نُعَيْم بن مقرِّن المزنيّ قبل أن تقع ، وسجّي النعمان بثوب وكتم مصاب أخيه [7] ، حتى لا يؤثر استشهاده في معنويات رجاله .

---

(١) الطبري (٣/ ١٢٢) ابن الأثير (٢/ ١٩٨) .
(٢) الآيات الكريمة من سورة الدخان (٤٤ : ٢٥ ـ ٢٨) .
(٣) ابن الأثير (٢/ ١٩٩) .
(٤) تستر : أعظم مدينة بخوزستان من أرض ايران ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣٨٦) .
(٥) الطبري (٣/ ١٨١) .
(٦) انظر سيرته التفصيلية في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (٩٧ ـ ١٠٧) .
(٧) الطبري (٣/ ٢١٧) وانظر سيرة نعيم بن مقرن المزني في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (١٢٣ ـ ١٢٩) .

وقاتل عبد الرحمن بن ربيعة الباهليّ [1] الترك في (بَلَنْجَر) [2] حتى استُشهد ، فأخذ الراية أخوه سلمان بن ربيعة الباهليّ [3] ، فنادى المنادي : « صبراً آل سلمان بن ربيعة » ، فقال سلمان : « أَوَ تراني جزعاً ؟ » [4] .

وأعاد الكرّة سلمان بن ربيعة على الترك في منطقة (بلنجر) أيضاً ، فاستُشهد هناك [5] .

وفي (قالِيْقَلا) ، [6] حشد الروم حشوداً هائلة لقتال المسلمين وعلى رأسهم أحد قادتهم الكبار (الموريان) ، فأجمع حبيب بن مَسْلمة الفِهري أن يبيِّت (الموريان) قائد الروم ، وسمعته امرأته يذكر ذلك ، فقالت له : « وأين موعدك ؟ » ، فقال : « سرادق موريان أو الجنة » ، ثم بيَّتهم وقتل مَنْ صادفه في طريقه ، وأتى حبيب السرادق ، فوجد امرأته قد سبقته إليه [7] .

واستعمل معاوية بن أبي سفيان على البحر ،حين كان على الشّام أيام عثمان ابن عفّان رضي اللّه عنه ،عبداللّه بن قيس الحارثي حليف بني فَزَارة ، فغزا خمسين غزاة بين شاتية وصائفة في البحر ،ولم يَغرق فيه أحد ولم يُنْكب ، وكان يدعو اللّه أن لا يبتليه بمصاب أحد من جُنْده ، وقد استُشْهِد وحده بعد أن هجم عليه العدو ، فقاتلوه وقاتلهم [8] .

وحاصر مَسْلَمَة بن عبد الملك [9] حصناً من حصون الروم ، فندب الناس إلى نَقْب فيه ، فما دخله أحد ، فجاء رجل من عرض الجيش فدخله ، ففتح

---

(١) انظر سيرته المفصلة في : المجلد الرابع والعشرين من مجلة المجمع العلمي العراقي - (٨٣ - ٩٢) - ١٩٧٤ - بغداد .

(٢) بلنجر : مدينة ببلاد الخزر ، انظر التفاصيل (٢ / ٢٧٨) .

(٣) انظر سيرته المفصلة في المجلد الثالث والعشرين من مجلة المجمع العلمي العراقي - ١٩٧٣ - بغداد

(٤) الطبري (٣ / ٢٣٨) .

(٥) البلاذري (٢٠٦) والاستيعاب (٢ / ٦٣٣) .

(٦) قاليقلا : مدينة بأرمينية من ناحية خلاط .

(٧) الطبري (٣ / ٣٠٩) والبلاذري (٢٠١) ، واسم امرأة حبيب ام عبدالله بنت يزيد الكلبيّة .

(٨) الطبري (٣ / ٣١٧) .

(٩) انظر تفاصيل سيرة مسلمة بن عبد الملك في المجلدات ٢٨ و٢٩ و٣٠ من مجلة المجمع العراقي - ١٩٧٧ - ١٩٧٨ - ١٩٧٩ - بغداد .

اللّه عليهم ، فنادى مسلمة : « أين صاحب النَّقب ؟ » ، فما جاءه أحد ! فنادى : « إني أمرتُ الآذن بإدخاله ساعة يأتي ، فعزمت إلاّ جاء ! » ؛ فجاء رجل فقال : « استأذن لي على الأمير » ، فقال له : « أنت صاحب النَقب ؟ » ، فقال : « أنا أخبركم عنه » ، فأذن له .

وقال الرجل للأمير : « إنّ صاحب النّقب يأخذ عليكمْ ثلاثاً : ألاّ تُسَوِّدوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة ، ولا تأمروا له بشيء ، ولا تسألوه ممن هو ! » ، فقال مسلمة : « له ذلك » ، فقال الرجل : « أنا هو ! » فكان مَسْلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا قال : « اللّهمّ اجعلني مع صاحب النّقب » .

ولو أردت استقصاء أثر النبيّ ﷺ في العربيّ المسلم من الناحية العسكرية وحدها ، لطال بي الشّوط وبَعُدَ المدى ، وحسبي ما أوردته .

أما أثره عليه أفضل الصّلاة والسّلام في العربيّ المسلم من النواحي الدينية والسياسية والاجتماعية ، فحدِّث عن البحر ولا حرج .

وأسباب انتصار المسلمين ، لأنهم : ﴿ كانوا قليلاً من اللّيلِ ما يَهْجَعون . وبالأسْحارهم يَسْتَغْفِرون . وفي أموالهم حقٌ للسَّائل والمحروم ﴾ [1] : العقيدة الإسلامية ، والقدوة الحسنة ، واختيار المسؤولين ، وهي الأسباب نفسها التي اتخذها الرسول ﷺ في بناء العربي المسلم، فرداً وجماعة وأمة ودولة .

وهذا الأسلوب هو الذي أثمر قادة الجهاد وجنوده أبطالاً لا يجود بهم الزمان أبداً ، فكان رجاله عليه الصّلاة والسّلام أفضل الرجال بحق ، كما كان قرنه أفضل القرون .

عندما نقل أبو بكر الصِّديق رضي اللّه عنه خالد بن الوليد من ميدان قتال العراق، الى ميدان قتال أرض الشّام ، أمره أن يأخذ نصف الناس، ويستخلف المثنيّ بن حارثة الشيبانيّ على العراق في نصف الناس . وأحضر خالد أصحاب

(١) الآيات الكريمة من سورة الذاريات (٥١ : ١٧ - ١٩) .

رسول الله ﷺ الذين كانوا معه مستأثراً بهم لنفسه ، تاركاً للمثنى مثل عددهم ممن لم يكن لهم مع الرسول ﷺ صحبة ، واستأثر أيضاً لنفسه بمن كان قدم على النبيّ ﷺ ، تاركاً للمثنى مثل عددهم من أهل القناعة ، ثم قسّم سائر الجند قسمين ، فلما رأى المثنى صنع خالد غضب وقال : « والله لا أُقيمُ إلاّ على إنفاذ أمر أبي بكر ! وبالله ما أرجو النصر إلاّ بأصحاب النبيّ ﷺ » ، فلما رأى خالد ذلك أرضاه[1] .

إنهم خريجو مدرسة الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام ، فلا عجب أن يكونوا مقدّمة النصر وقمّة المنتصرين .

والنبيّ ﷺ أسوة حسنة لأصحابه، وللمسلمين كافة في كل زمان ومكان .

وسيرته مسجّلة معروفة ، ومنهاجه في بناء الإنسان المسلم معروف ، فما أحرانا أن نتأسّى به ونقتفي آثاره ونتبع خطواته ، ونطبِّق منهاجه في بناء الإنسان ، فقد تأسّينا بغيره واقتفينا آثار سواه ، ولم نتَّبعْ خطواته ولم نطبِّق منهاجه ، فتفرّقت بنا الطرق وغُلِبْنا على أمرنا ، واسْتَعْبَدنا مَن كان مُسْتَعبداً ، حتى يهود أصبح لهم كيان في أقدس بلادنا ، وهم مليونان ونصف المليون ، والعرب مئة وخمسون مليوناً ، والمسلمون ألف مليون !

أهذا ممكن ؟! . . . أهذا يصير ؟! .

إنّ منهاج النبيّ ﷺ هو روح المسجد الذي هو بيت الله، وصدق اللّه العظيم : ﴿ وما النصر إلاّ من عند اللّه ﴾[2] .

والله ينصر الذين يَتَّبِعون منهاجه ، كما نصر رسولَه عليه الصّلاة والسّلام والذين طبقوا منهاجه .

أما الذين يتبعون مناهج الصليبيين ، ويطبقون مناهج الشعوبيين ، ويقتفون آثار المستعمِرين والصهيونيين ، فلا نصر لهم ولا قرار .

و واقعنا المرير أعظم دليل .

---

(١) البلاذري (٢٥٠) وانظر : قادة فتح العراق والجزيرة (٣٠)

(٢) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣ : ١٢٦) .

المَسْجِدُ

في أيام الفتح الإسلامي العظيم وبعده

المسجد في أيام الفتح الإسلامي

ظلّ شأن المسجد في أيام الفتح الإسلامي العظيم رفيعاً سامياً كما كان على عهد النبيّ ﷺ .

وبدأ أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه بعد مبايعته بالخلافة مباشرة بإنفاذ جيش أسامة بن زيد [1] الذي توفي النبيّ ﷺ قبل أن يسير إلى هدفه.

وكانت العرب قد ارتدت إما عامة و إما خاصة من كل قبيلة، وظهر النفاق واشرأبت يهود والنصرانيّة، وبقي المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة لفقد نبيِّهم وقلّتهم وكثرة عدوِّهم. فقال الناس لأبي بكر الصِّديق رضي الله عنه: « إنّ هؤلاء - يعْنون جيش أسامة - جند المسلمين، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك، فلا ينبغي أن تفرِّق جماعة المسلمين عنك»، فقال أبو بكر: «والذي نفسي بيده، لو ظننتُ أنّ السباع تختطفني لأنفذتُ جيش أسامة، كما أمر النبيّ ﷺ » .

وخاطب أبو بكر الناس في المسجد، وأمرهم بالتجهّز للغزو، وأن يخرج كل مَنْ هو من جيش أُسامة الى معسكره بـ (الجُرْف)[2] ، فخرجوا كما أمرهم[3] .

وكان إنفاذ جيش أُسامة أعظم الأمور نفعاً للمسلمين، فإن العرب قالوا:

---

(١) أنظر سيرته في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٣٣ - ٥١).

(٢) الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة المنورة نحو الشام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٨٧).

(٣) الطبري (٢/ ٢٢٣) وابن الأثير (٢/ ٣٣٤).

لو لم يكن بهم قوّة لما أرسلوا هذا الجيش، فكفّوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه [1].

وأراد الأعراب المرتدون الذين يقطنون حول المدينة المنورة انتهاز الفرصة، فشنوا غارة على المدينة، وكان أبو بكر قد أمر المسلمين بالتحشد في المسجد، فلما علم أبو بكر بالأمر خرج بأهل المسجد، فردّوا الأعراب وطاردوهم [2].

وانطلقت جيوش المسلمين نحو أهدافها للقضاء على المرتدين من المسجد، فقد كان المسجد حينذاك المقر العام للقيادة العليا للمسلمين.

ونظمت خطة القضاء على المرتدين في المسجد، وكانت الجيوش المنتصرة تعود إلى المسجد.

واستتبّ الأمر للمسلمين، وانتهت فتنة الرِّدَّة، وأصبح العرب في شبه جزيرة العرب كتلة واحدة، فبدأ الفتح الإسلامي سنة اثنتي عشرة الهجرية فانتشرت المساجد في البلاد المفتوحة، وشيِّدت في كل مدينة جديدة، فكان المسلمون يفكرّون ببناء المسجد قبل أن يفكِّروا ببناء بيوتهم الخاصة، وقبل أن يفكِّروا بإنشاء دور الحكّام أيضاً.

ففي سنة سبع عشرة الهجرية اختط سعد بن أبي وقّاص (الكوفة)، وكان أول شيء خطّ فيها مسجدها وأول شيء بنى فيها مسجدها أيضاً. فقد قام في وسط ساحة من الأرض رجل شديد النزع، فرمى في كل جهة بسهم، وأمر أن يبنى ما وراء ذلك للناس، أما الساحة التي حدّدتها السِّهام فبُنِيَ فيها مسجد الكوفة، وبُني ظُلَّة في مقدّمة المسجد على أساطين من رخام من بناء الأكاسرة في (الحِيرة)، وجعلوا حول الصحن خندقاً لئلا يقتحمه أحد ببنيان، ثم بنوا لسعد ابن أبي وقّاص داراً بحياله [3].

---

(١) ابن الأثير (٢/ ٣٣٦).

(٢) ابن الأثير (٢/ ٣٤٤).

(٣) الطبري (٤/ ٤٤) وابن الأثير (٣/ ٥٢٨) وانظر فتوح البلدان (٣٨٨).

وما يقال عن مسجد (الكوفة) ، يقابل عن مسجد (البصرة)، فقد بُنيا في سنة سبع عشرة الهجرية أيضاً ، كما كان أول شيء خُطَّ فيها، وأول شيء بني فيها مسجدها، وقد قام في وسط ساحة من الأرض رجل شديد النزع ، فرمى في كل جهة بسهم، وأمر أن يُبنى ما وراء ذلك للناس [١] .

وبدأ عمرو بن العاص بفتح مصر سنة عشرين الهجرية [٢] فلما أكمل فتحها وعاد إلى (الفسطاط) بنى سنة إحدى وعشرين الهجرية مسجده الجامع [٣] .

وفي سنة خمسين الهجرية ، بنى عقبة بن نافِع الفِهْرِيّ [٤] مدينة (القيروان) وبنى المسجد الجامع فيها، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وتمّ بناء القيروان سنة خمس وخمسين الهجرية [٥] .

وقصّة تغلغل الفتح الإسلامي شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، هي قصّة تغلغل المساجد في البلاد المفتوحة، فقد زرع الفاتحون المساجد في كل بلد صغير أو كبير فتحوه ، وقدوتهم في إعمار المساجد هو النبيّ المصطفى عليه الصلاة والسلام، فقد بنى مسجده في المدينة المنوّرة بعد هجرته إليها مباشرة قبل أن يبني مساكنه، وبني الفاتحون في كل مكان وصلوا إليه فاتحين المساجد قبل أن يبنوا مساكنهم أيضاً، لأنّ المسلم الحق يستطيع أن يستغني عن كل شيءٍ ولا يستطيع أن يستغني عن المسجد.

ولم يبق مسجد النبيّ ﷺ في المدينة المنورة على ما كان عليه في عهده المبارك، بل توسّع مرات عديدة في أيام الفتح الإسلامي.

فقد بناه النبيّ ﷺ في السنة الأولى من الهجرة [٦] (٦٢٢م)، وكان المسجد على عهد رسول الله ﷺ مبنياً باللّبِن وسَقَّفه الجريد وعمده خشب

(١) ابن الأثير (٣/ ٥٢٨).
(٢) الطبري (٤/ ١٠٤) وابن الأثير (٢/ ٥٦٤).
(٣) معجم البلدان (٦/ ٣٨٢) وانظر التفاصيل في كتاب الانتصار بواسطة عقد الأمصار (٥٩ ـ ٧٥).
(٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (١/ ٩٠ ـ ١٣٦) وكتابنا: عقبة بن نافع الفهري.
(٥) ابن الأثير (٤/ ٤٦٦) وانظر البيان المغرب (١/ ١٦).
(٦) ابن الأثير (٢/ ١٠٩).

النخل وسغته سبعون في ستين ذراعاً. ولما فتح الله على النبيّ ﷺ (خَيبَر) وكان ذلك في محرّم من السنة السابعة الهجرية،[1] بناه و زاد عليه مثله فجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخّره مئة ذراع وكذا في العرض فأصبح مربّعاً ، ودفع عثمان ابن عفّان رضي الله عنه ثمن الزيادة في الأرض عشرة آلاف درهم، وكان الصحابة يحملون اللّبِن إلى بناء المسجد ورسول الله ﷺ معهم[2] .

ولم يزد أبو بكر الصديق في المسجد شيئاً لاشتغاله في حروب الردّة والفتح، ولكن عمر بن الخطّاب زاد فيه سنة سبع عشرة الهجرية (٦٣٨ م)، فأصبح طوله مئة وأربعين ذراعاً وعرضه مئة وعشرين ذراعاً وبناه على بنائه في عهد رسول الله ﷺ باللّبن والجريد وأعاد عمده خشباً[3] .

وفي سنة تسع وعشرين الهجرية (٦٤٩ م)، زاد عثمان بن عفان في مسجد النبيّ ﷺ في شهر ربيع الأول، وبناه بالحجارة المنقوشة والجص، وجعل عُمده من حجارة فيها رصاص، وجعل طوله ستين ومئة ذراع، وعرضه خمسين ومئة ذراع، وجعل أبوابه على ما كانت أيام عمر ستة أبواب [4].

وفي ربيع الأول من سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٦ م)،كتب الوليد بن عبد الملك إلى عامله عمر بن عبد العزيز على المدينة المنورة يأمره بأدخال حُجَر أزواج النبي ﷺ في مسجد رسول الله ﷺ، وأن يشتري ما في نواحيه حتى يكون مائَتَيْ ذراع في مائتي ذراع [5]، فبناه بالحجارة المنقوشة والحص وعمل سقفه بالسّاج وماء الذهب، وعمله بالفُسَيْفسَاء والمرمر، وزخرف حيطان المسجد من داخله بالرُّخام والذهب والفسيفساء ورؤوس الأساطين مذهّبة وأعتاب الأبواب مذهبة أيضاً،واتخذ المحراب والشرفات وثلاث منارات فقط، وأنجز عمارة المسجد سنة إحدى وتسعين الهجرية [6].

---

(١) الرسول القائد (٤١٧).

(٢) انظر التفاصيل في كتاب : خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى (١٤٦ - ١٥٥)

(٣) انظر التفاصيل في كتاب خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى (١٨٠ - ١٨٣)

(٤) ابن الأثير (٣/ ١٠٣) وانظر التفاصيل في كتاب: خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى (١٨٣ - ١٨٦).

(٥) ابن الأثير (٤/ ٥٣٢) وابن خلدون (٣/ ١٣١ - ١٣٢).

(٦) انظر التفاصيل في: خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى (١٨٦- ١٩٣).

وكما توسع المسجد النبويّ الشريف عدّة مرات في أيام الفتح الإسلامي، توسّع المسجد الحرام عدّة مرات أيضاً، لانتشار الإسلام وكثرة الحجاج والمعتمرين، كماتوسعت مساجد الأمصار في بلاد المسلمين.

ولكنني ركزت على توسّع المسجد النبوي الشريف، لأنه كان مقر القيادة الإسلامية العليا الرئيسي في أيام حروب الردّة على عهد أبي بكر الصِّديق، وأيام الفتح في أيامه وأيام عمر بن الخطّاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، فلما انتقل الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه من المدينة المنوّرة إلى (الكوفة)، أصبح مسجد الكوفة الجامع هو المقر الرئيسي الأعلى للقيادة الإسلامية.

وقتل عمر بن الخطّاب في المسجد، وقتل عليّ بن أبي طالب في المسجد أيضاً.

لقد كان المسجد في أيام الخلفاءالراشدين المقر العسكري والثكنة،ومركز الإشعاع الروحي الذي يرفع المعنويات والهِمَمْ ويغرس روح الجهاد.

ولما تولي بنو أُمية الخلافة، أصبح مقر الخلفاء في مكان سكناهم، وبقي المسجد مركز الإشعاع الروحي الذي يؤجج روح الجهاد.

ولعل استشهاد عمر بن الخطّاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما في المسجد، كان من أسباب حذر بني أُمية من بقائهم في المسجد في كل وقت، مما يسهل أمر اغتيالهم من أعدائهم المتربصين بهم.

كما أنّ موقع عاصمتهم في (دمشق) قريباً من بلاد الرُّوم، جعلهم يفضلون الأماكن الآمنة المحروسة على المساجد المكشوفة غير الآمنة.

فقد زار عمر بن الخطّاب رضي الله عنه(الشّام)في أيام خلافته سنة ثماني عشرة الهجرية [1] (٦٣٩ م) وعليها معاوية بن أبي سفيان. وتلقى معاوية بن أبي سفيان عمرَ بن الخطّاب بموكب عظيم، فلما دنا عمر من معاوية قال له:

---

(١) ابن الأثير (٢/ ٥٦١).

« أنت صاحب الموكب العظيم!» ، قال : « نعم يا أمير المؤمنين » ، قال : « مع ما يبلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك ! » قال : « مع ما يبلغك من ذلك ! » قال : « ولِمَ تَفْعَل هذا ؟ » ، قال : « نحن بأرضٍ ، جواسيسُ العدو بها كثيرة ، فيجب أن نُظْهِرَ من عِزِّ السلطان ما نُرْهبهم به ، فإن أمرتني فعلتُ ، وإن نهيتني انتهيتُ » ، فقال عمر لمعاوية : « ما سألتك عن شيء إلاّ تركتني في مثل رواجب الضرس ، إن كان ما قلتَ حقاً إنه لرأي أريب ، وإن كان باطلاً إنه لخدعة أديب » ، قال : « فمرني يا أمير المؤمنين ! » قال : « لا آمرك ولا أنهاك »[1] .

ولا يمكن اغفال مرور الزمن وتطوّر أساليب المعيشة والتقدم الحضاري وأثر الفتوح على الناس في الثراء ، مما أدى إلى تطور الأساليب الحياتية ، كل ذلك أدى إلى جعل الخلفاء يأوون إلى مقرات يأمنون فيها وهي قصورهم ، ولا يبقون في مقرّات مكشوفة كالمساجد .

وعلى الرغم من بقاء أهميّة المسجد في الأمور العسكرية حتى بعد انتقال الخلافة إلى بني أُميةمن جميع الوجوه ـ عدا سيطرتها على مقر القيادة العليا ـ، إلا أنّ الخليفة أو القائد الأعلى لم يكن كل شيء في الفتوح ، بل كان القادة العامون يكادون يكونون مستقلين في إدارة شؤون الفتح لابتعاد أماكن الفتوحات عن عاصمة الخلافة ، وصعوبة سيطرة الخليفة المباشرة على الفتح . وكان القادة العامون والقادة المرؤوسون ، يهتمون أعظم الاهتمام بالمسجد ، ويأوون إليه في كل أمورهم العسكرية ، ويتخذونه مقراً وثكنة ومركزاً روحياً لرفع المعنويات وتوجيه قضايا الجهاد الوجهة السليمة .

لقد كان للمسجد في أيام الفتح الإسلامي العظيم مكان القيادة والريادة والتوجيه.

وكان له أعظم الأثر في الفتوح.

لقد بدأ الفتح سنة إحدى عشرة الهجرية (٦٣٢ م) في أواخر أيام أبي بكر

---

(١) الاستيعاب (٣/ ١٤١٧) وانظر كتابنا : قادة فتح الشام ومصر (١٨٤)

الصِّديق رضي الله عنه، وانتهى سنة مئة الهجرية (٧١٨م) يوم انسحاب المسلمين عن حصار (القُسْطَنْطينيّة) في بداية خلافة عمر بن عبد العزيز [١] رضي الله عنه، وكان الجيش المحاصِر بقيادة مَسْلَمَة بن عبد الملك بن مروان الذي حلف ألا ينسحب حتى يبنى له الرُّوم جامعاً كبيراً في (القُسْطَنْطِينِيَّة)، فبنوا له جامعاً ومنارة، فهو بها إلى الآن، يصلي فيه المسلمون الجمعة والجماعة [٢]

وهكذا نشأ جيش المسلمين وترعرع وشبّ واستوى على ساقيه في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنوّرة.

وقُضِي على فتنة (الردّة) بالقوات التي انطلقت من مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنوّرة.

وبدأ الفتح الإسلامي العظيم منطلقاً من مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة المنوّرة.

وانتهى الفتح الإسلامي بمسجد مَسْلَمة بن عبد الملك بن مروان في (القسطنطينية)، ولكل أجل كتاب.

---

(١) الطبري (٦/ ٥٥٣) وابن الأثير (٥/ ٤٣) والعيون والحدائق (٣٩) وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز (٣٢) والمعارف (٣٦٠) والبداية والنهاية (٩/ ٣٢٨) وتاريخ خليفة بن خياط

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨).

المسجد بعد الفتح

في سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٧١٠م) سيّر موسى بن نُصَيْر[١] بعد فتح الأندلس، طائفة من عسكره في البحر إلى جزيرة (سَرْدانِـيَة)[٢]، فدخلوها. وعمد سكانها إلى مالهم من آنية ذهب وفضّة، فألقوا الجميع في الميناء الـذي لهم، وجعلوا أموالهم في سقفٍ بنوه للبيعَة العظمى التـي لهـم تحـت السّـقف الأول. وغنم المسلمون فيها ما لا يُحَدّ ولا يوصف، وأكثروا الغُلول[٣]، فاتّفق أنّ رجلاً من المسلمين اغتسل في الميناء، فعلقت رجله في شيءٍ، فأخرجه فإذا صحفة من فضّة، فأخذ المسلمون جميع ما في الميناء. ودخل رجل من المسلمين إلى تلك الكنيسة، فنظر الى حَمَـام فرمـاه بسهـم فأخطـأه، ووقـع السَّهـم في السّقف، وانكسر لوحٌ فنزل فيه شيء من الدنانير، فأخذ المسلمون جميع المال، وازدادوا غُلولاً[٤].

ومنذ بدأ قسم من المسلمين يخونون في المغنم، أصبح الجهاد، أو بتعبير أصح، أصبحت الحرب بالنسبة لهؤلاء ـ ولا أقول الجهـاد، لأنّ الجهـاد هو لتكون كلمة الله هي العليا، والحرب من أجل اقتناص المغانم ـ من أجل المغانم ولم تبق جهاداً في سبيل الله.

إنّ المجاهِد الحق يطبّق قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ما كان لنَبِيٍّ أن يَغُلَّ

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٢١ ـ ٣٠٩).

(٢) سردانية: جزيرة في بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) كبيرة، غزاها المسلمون وملكوها سنة اثنتين وتسعين الهجرية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٦٦).

(٣) الغلول: الخيانة في المغنم.

(٤) ابن الأثير (٤/ ٥٦٧).

ومَـنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بمـا غلَّ يومَ القِيامـة ، ثُمَّ تُوفَّى كلُّ نَفْس ما كسَبَـتْ وهـم لا يُظْلَمـون ﴾[1] ، وقال النبيّ ﷺ : « فـأدوا الخياط[2] والمِخيَط[3] ، فإنّ الغُلول يكون على أهله عاراً وناراً وشناراً يوم القيامة »[4] .

لقد غيرّ أولئك الذين غَلُّوا ما بأنفسهم ، فلم ينتصروا أبداً ، وصدق الله العظيم : ﴿ إنّ الله لا يُغَيِّرُ ما بقَوْمٍ حتى يُغَيِّروا ما بأنفسهم ﴾[5] .

ومن أعجب العجب ، أن موسى بن نصير كتب إلى الوليد بن عبد الملك في هذه السنة : «إنها ليست الفتوح ، ولكنها الحشر » [6]

فكيف انقلب النصر المؤ زر إلى هزائم نكراء في السنة نفسها ؟؟؟!!!

من الطبيعي أن الذي (يجاهد) دفاعاً عن مبادئه ، ليس كالـذي (يقاتـل) حرصاً على أهوائه .

والذي (يجاهد) من أجل (قلبه) ، ليس كالـذي (يقاتـل) من أجـل (جيبه) .

والذي يبذل نفسه وماله في سبيل الله ، ليس كالذي يبذل جهده في سبيل اقتناص المال .

والذي يعتبر ثمرة الجهاد إحدى الحسنَيين :النّصر أو الشهادة ، ليس كالذي يعتبر ثمرة القتال حسنة واحدة : المغانم .

وليس الذي (يُعطى) مجاهداً ، كالذي (يأخذ) محارباً .

وليس الذي يعتبر الجهاد (عبادة) من أجلّ العبادات ، كالذي يعتبر القتال (تجارة) من أربح التجارات .

وشتان بين جهاد المؤ منين ، وبين قتال المتكسِّبين ، وبين الجهـاد وبـين الحرب .

الجهاد يقود إلى النصر ، والمجاهدو ن هم المنتصرو ن ، لأنهم يعملون لله لا لمكاسب شخصية ، لذلك يضحّون بأنفسهم وينفقون أموالهم لعـزة الإسـلام

(١) الآية الكريمة من سورة ال عمران (٣: ١٦١) .

(٢) الخياط: الخيط. (٣) ـ المخيط: الآلة الخياطة كالإبرة ونحوها.

(٤) سيرة ابن هشام (٤/ ١٣٨ ـ ١٣٩).

(٥) الآية الكريمة من سورة الرعد (١٣ : ١١).

(٦) نفح الطيب (١/ ٢٦٦).

وحماية العقيدة والدفاع عن بلاد المسلمين.

وهناك أسباب كثيرة لتوقف الفتح منها: الفرقة بعد الوحدة، ونشوب الفتن الداخليّة، وظهور النعرة القبليّة، ولكنّ أهم تلك الأسباب تغيّر نفوس قسم من المسلمين، فأصبحوا يستهدفون المغانم من الحرب، وكانوا قبل أن يغيّروا ما بأنفسهم يستهدفون إعلاء كلمة الله من الجهاد.

وكنت قد ذكرت في بحوث سابقة أنّ الفتح قد توقّف سنة اثنتين وتسعين الهجرية، مستدلاً على ذلك بإقدام المحاربين على الغلول، ولم يقدموا على ذلك قبل اليوم، كما ذكرت أنّ الفتح توقّف سنة أربع وتسعين الهجرية، باعتبار إكمال فتح الأندلس في المغرب وإكمال بعض الفتوحات الجديدة في المشرق.

وقد ذكرت اليوم أنّ الفتح انتهى سنة مئة الهجرية، معتبراً الانسحاب عن (القسطنطينية) آخر الفتوح.

وما ذكرته أنّ الفتح توقف سنة اثنتين وتسعين الهجرية صحيح، باعتبار ما طرأ على نفوس قسم من الفاتحين من تغيّر واضح، يؤدي فيما يؤدي إليه إلى توقّف الفتح، ولا عبرة بالتوسع في الأرض، لأنه تمّ بعد عام اثنين وتسعين الهجرية بالقوّة الاستمرارية لا بالقدرة الذاتية.

وما ذكرته أنّ الفتح قد توقّف سنة أربع وتسعين الهجرية صحيح أيضاً، باعتبار ما فتحه المسلمون حتى ذلك التاريخ لا يمكن إغفاله، وهو إكمال فتح الأندلس.

وما ذكرته أخيراً، أنّ الفتح انتهى سنة مئة الهجرية صحيح أيضاً، على اعتبار حصار (القسطنطينية) كان حدثاً بارزاً في الفتح الإسلامي على الرغم من إخفاق هذا الحصار.

وعلى كل حال، لم يستطع المسلمون بعد سنة مئة الهجرية (٧١٨م) أن يحقّقوا نصراً توسعيّاً حاسماً على أعدائهم إلاّ في فتح جزيرة (صقليّة) من جزر البحر الأبيض المتوسط، ثم زال هذا الفتح بعد حين.

وبعد انهيار دولة بني أمية في الشام سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية (٧٤٩م)، بدأت صفحة الدولة العباسية في التاريخ، وبعد سنة من مولد هذه الدولة، أي سنة ثلاث وثلاثين ومئة الهجرية (٧٥٠م)، استطاع الروم الانتصار

على المسلمين في (مَلَطْيَة) [1] واستعادوها منهم ، فهدموا المدينة والجامع ، وأجلُوا المسلمين الذين بقوا على قيد الحياة عن هذه المدينة [2] .

وتوالت الفتن والمشاكل ، منها طائفية ومنها سياسية ، ولعلّ أعظمها كان انفصال الأندلس سنة تسع وثلاثين ومئة الهجرية (٧٥٦م) عن الدولة العباسية[3] ، فأصبحت الدولة الإسلامية الواحدة دولتين : الدولة العباسيّة في المشرق ، والدولة الأمويّة في الأندلس من المغرب .

وكانت هاتان الدولتان قويتين في ابتداء أمرهما ، ولكنّ استقلال الأمصار عنهما بالتدريج ، أدّى في النهاية إلى سقوط الدولة العباسية على يد التتار سنة ست وخمسين وستمائة (١٢٥٨م) [4] ، وخروج العرب من الأندلس سنة سبع وستين وثماني مئة الهجرية (١٤٩١م) ، واستيلاء الصليبيين على أقسام كبيرة من سورية ولبنان وفلسطين وشمالي إفريقية في ايام الحروب الصليبية ، حتى قيّض الله للمسلمين والعرب قائداً فذاً هو صلاح الدين الأيوبي [6] ، الذي استعاد القدس من الصليبيين وقضى على أحلام الإفرنج في البلاد العربية ، وكان سر نجاحه يكمن في الوحدة والجهاد .

ومن سنة مئة الهجرية حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الذي استُعْمِرَت فيه أكثر البلاد العربية ، جرت معارك دفاعية ـ عدا فتح (صقليّة) وفتح (القسطنطينية) وبعض الأقطار الأوروبية ـ انتصر فيها المسلمون بفضل قادتهم لا بفضل عَدَدهم ومعداتهم ، بعكس ما كان يحدث في القرن الأول الهجري ، فقد كان المسلمون ينتصرون بعقيدتهم وقيادتهم المؤمنة القادرة ، أما في هذه المدّة أي بعد انتهاء القرن الأول الهجري حتى أواخر القرن

---

(١) ملطية : بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم بلاد الشام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٥٠) .

(٢) العبر (١/ ١٧٩) .

(٣) ابن الأثير (٥/ ٤٨٩ ـ ٤٩٦) وفيه تفاصيل دخول عبد الرحمن الداخل الأندلس .

(٤) العبر (٥/ ٢٢٦) .

(٥) نفح الطيب (٦/ ٢٢) .

(٦) انظر سيرته في كتابنا : بين العقيدة والقيادة (٢٧٩ ـ ٣٢٣) .

الثالث عشر الهجري، فقد كان انتصار المسلمين بفضل قادتهم المؤمنين القادرين، يكفي أن أذكر منهم: أسد بن الفرات فاتح (صقلية) [1]، وصلاح الدين الأيوبي الذي استعاد القدس من الصليبيين، وقطز قاهر التتار [2]، ومحمد الفاتح فاتح (القسطنطينية) [3].

والقاسم المشترك بين هؤلاء القادة المنتصرين، هو تمسّكهم بالدين الحنيف، وكل القادة الذين نجحوا في صدّ المعتدين أو أضافوا فتحاً جديداً على الفتوحات الإسلامية، كانوا متدينين إلى أبعد الحدود، وكانوا أمثلة شخصيّة لرجالهم في التدين والاستقامة والعمل الصالح في خدمة الإسلام والمسلمين.

والسبب في هزائم المسلمين المتوالية بعد سنة مئة الهجرية، هو ابتعادهم عن دينهم وتخلّيهم عن تعاليمه الواضحة في الجهاد، وتقبّلهم الإسلام في العبادات دون تقبّله بما فيه من جهاد في سبيل الله وتضحية وفداء.

أي أنّ أكثر المسلمين، أصبحوا يؤدون العبادات كعادة لا كعبادة، والعبادات التي تؤدّى كعادة لا تثمر، أما التي تؤدّى كعبادة فإنها تثمر ثمرات طيبة كثيرة، ومن ثمراتها الجهاد في سبيل الله.

وليس معنى ذلك أنّ المجتمع الإسلامي خلا نهائياً من المجاهدين الصادقين، فالواقع أنّ هذا المجتمع لم يَخْلُ أبداً من المجاهدين الصادقين، ولكنهم كانوا قِلّة قليلة في تلك الحقبة من عمر التاريخ، وكانوا في القرن الأول الهجري كثرة وهم الأغلبية في أجناد المسلمين.

والابتعاد عن الدين أدّى فيما أدى إليه، إلى أن يصبح الجيش الإسلامي في غالبيته من المرتزقة، أي من الجنود الذين اتخذوا الجندية مهنة لهم، ولهم رزق معلوم شهرياً من ديوان الجيش، والمرتزقة لا يقاتلون كما يقاتل المجاهدون ولا يثبتون ثباتهم، لأنّ الذي يقاتل مدفوعاً بمتطلبات (جَيْبه)، ليس كالذي يجاهد

(1) انظر سيرته في كتابنا: بين العقيدة والقيادة (٢٤٧ ـ ٢٧٧).

(2) انظر سيرته في كتابنا: بين العقيدة والقيادة (٣٢٥ ـ ٣٤٧).

(3) انظر سيرته في كتابنا: بين العقيدة والقيادة (٣٤٩ ـ ٤٦٦).

مدفوعاً بمتطلبات (قلبه) .

وأصبحت الدولة الإسلامية الواحدة التي كانت في القرن الأول الهجري، دولاً ودويلات، على رأس كل دولة أو دويلة حاكم لا يعرف غير نفسه وغير مصالحه الشخصيّة وغير الحرص على عرشه أو كرسيِّه، وكان الحكّام أقرب إلى الخصام مع بعضهم منهم إلى الوئام، والتاريخ يحدثنا أنّ منهم من أعان الصليبيين في المشرق ومنهم من أعان التتار أيضاً ومنهم مَنْ أعان الإسبان والطامعين في الأندلس ، من غير الإسبان ، على إخوانهم في الدين والمصالح ، فليس غريباً أن ينهزم أمثال هؤلاء الحكّام الذين كان وجودهم لمصلحة العدو ما في ذلك أدنى شك ، بل الغريب أن ينتصروا على أعدائهم !

وأصبحت القاعدة في الجيوش (الغلول)، وأصبح الاستثناء (الأمانة)، ولا ينتصر جيش لا تسوده الأمانة المطلقة.

وأصبحت المناصب القياديّة تباع وتشترى بالمال، أو تُمنح لمن يخشى الحاكم جانبه أو يرجو إسكاته، أو تعطى لذوي القربى والأصحاب، أو تُقَدّم للإمعات والمنافقين وأشباه الرجال ممن لا يخشى الحاكم على نفسه منهم، أو تهدى إرضاء لأصحاب الشفاعات، وهؤلاء لا يمكن أن ينتصروا.

أما صفات القادة المنتصرين كفاية وعلماً وتجارب ، فآخر ما كان يفكِّر فيه الحكّام حينذاك.

كما انتشر الظلم والفساد والرشوة، فأصبح المسلم الحق يشعر بأنه غريب وهو بين أهله وفي وطنه، لأنّ كلّ ما يعرفه عن الإسلام الصحيح أصبح غريباً.

ولكنّ المساجد أصبحت أضعاف ما كانت عليه في القرن الأول الهجري، وكانت الملجأ الذي يلجأ إليه المسلمون في أيام الحروب والنكبات، وكان دورها في العلوم والفنون والآداب رائداً قائداً، وكانت هي المدارس والجامعات التي يتخرّج فيها التلاميذ والطلاّب ، ويعكف على التدريس فيها الشيوخ

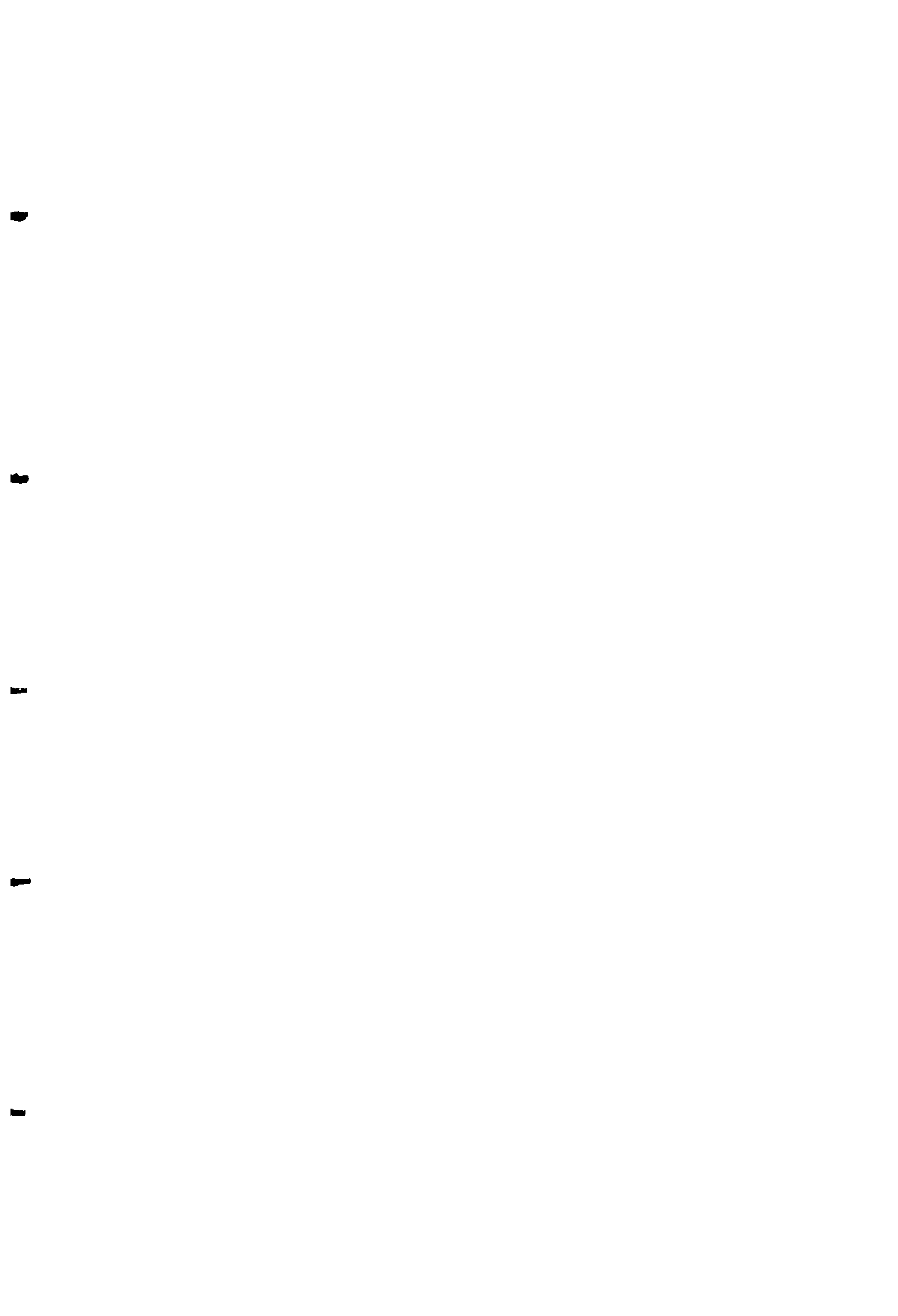
الأجلّاء والأئمة الأعلام .

وإلى هذه المساجد يرجع الفضل الأول في بقاء التماسك بين المسلمين، لأنها كانت المنبر الأول لتلاوة القرآن الكريم والحديث الشريف وعلوم الدين، وهي التي خرَّجت البقيّة الباقية من القادة المنتصرين ومن المسلمين المجاهدين.

لقد تحمّل المسلمون كثيراً من النكبات والحروب، ما لو تحمله غيرهم لأصبحوا أثراً بعد عَين.

ولكنّ المسلمين لم يَتَفَتَّتُوا نهائياً بفضل المسجد وهذا القرآن الكريم، ولولا المسجد والقرآن لانتهى العرب والعربيّة والإسلام والمسلمون.

لقد خبا أثرالمسجدالذي كان في القرن الأول الهجريّ، ولكن بقي شيء من أثره في العقول والقلوب معاً، لذلك استهدف الاستعمار القديم والحديث المسجد للقضاء على بقية تأثيره، فهل نجح في تحقيق هدفه؟



المَسجدُ

بين أيام الاحتلال والاستقلال

المَسجدُ في أيّام الاحتلال

احتلّ الفرنسيون الجزائر سنة ١٢٤٦ الهجرية (١٨٣٠ م) ، واحتلّوا تونس سنة ١٢٩٩ الهجريّة (١٨٨١ م) ، واحتلّوا المغرب سنة ١٣٣١ الهجرية (١٩١٢ م) ، واحتلّوا لبنان سنة ١٣٣٨ الهجرية (١٩١٩ م) ، واحتلّوا سوريّة سنة ١٣٣٩ الهجرية (١٩٢٠ م) .

واحتلّ الإنكليز مصر سنة . .١٣ الهجريّة ، واحتلّ الإيطاليون ليبيا سنة ١٣٠٠ الهجرية (١٩١١ م) .

كما احتلّ البريطانيون (عَدَن) واليمن الجنوبيّة وأمارات الخليج العربيّ وفلسطين وشرقي الأُردن والعراق ، ولم يبق من الدول العربيّة مستقلاً بعد الحرب العالميّة الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨ م) غير اليمن الشمالي والحجاز ونَجْد .

وما يقال عن البلاد العربيّة يقال عن البلاد الإسلامية بكل مكان ، إذ أطبق عليها ظلام الاستعمار ، ولم يبق مستقلاً من بلاد المسلمين غير الأفغان وأجزاء أخرى قليلة من تلك البلاد .

وقد جاء الاستعمار ومعه تجارب تاريخية طويلة عن البلاد العربية بخاصة والبلاد الإسلامية بعامة : تجارب الفتح الإسلامي بما فيها انتصارات العرب المسلمين على الروم والإسبان والفرنسيين والإيطاليين ، وتجارب الحروب الصليبية في القرون الوسطى التي استمرت أكثر من قرنين وبضع سنين ، مسجلّة في تاريخهم بأسلوب متحيِّز متعصِّب،بعكس ما يصوِّره التاريخ العربي

الإسلامي من سماحة وصدق ؛ مع دراسات مفصّلة عن طبيعة الأرض والسكّان في الوقت الحاضر ، أعدّها علماء مختصون من الغرب والسُّيّاح الأجانب والإرساليات التبشيرية والسفارات الأجنبية والجواسيس والعملاء .

وخلاصة ما صوّره لهم مؤرخوهم ، أنّ العرب انتصروا بالعقيدة ، وأنهم إذا تسلّحوا بهذه العقيدة أصبحوا إعصاراً يكتسح كلّ ما يقف عقبة في سبيله ، وما يقال عن العرب يقال عن المسلمين أيضاً ، فأيقنوا أنّ انتصارات المسلمين كانت انتصارات عقيدة بلا مِراء .

وقد جاء الاستعمار ـ بحسب زعمه ـ ليبقى أطول مدة ممكنة ، فلا بدّ من تفتيت عنصر قوّة العرب والمسلمين وسر تماسكهم ووحدتهم ، ليضمن بقاءه ومصالحه في الأرض المحتلّة ، لضعف أهلها وتهافتهم ، لأنّ ما يصيب أيّ مجتمع يكون جراء ضحالة أفكاره لا حراء قِلّة أشيائه .

والذي لا عقيدة له ، لا يمكن أن يثبت في ميدان الجهاد ، ولا يمكن أن يجاهد كما يجاهد الرجال .

وقد كان من أهم أسباب انتصار العدو الصهيونيّ على العرب في حرب سنة ١٩٦٧ الميلاديّة ، هو تمسك الصهاينة بعقيدتهم وتخلّي العرب عن عقيدتهم ، فكان المقاتل الصهيوني يقاتل وفي جيبه التوراة ، والمقاتل العربي يقاتل وفي جيبه تصاوير الفنانين والفنانات ، فانتصرت العقيدة الفاسدة على مَنْ لا عقيدة لهم .

لقد كان الهدف الحيويّ الأول للاستعمار هو محاولة القضاء نهائياً على العقيدة الإسلامية في البلاد العربية والإسلامية ، ليضمن الاستعمار استغلال المرافق والخامات والطاقات الطبيعية والبشرية للبلاد المستَعْمَرَة ، دون أن تحرِّك شعوبها ساكناً أو تبدي مقاومة .

ولكن أيّ إسلام أراد الاستعمار القضاء عليه ؟

إنّ الاستعمار استهدف الإسلام (الحركيّ) الذي يدعو إلى الجهاد بالأموال

والأنفس في سبيل اللّه ، والذي يعتبر الجهاد (فرضاً عَيْنِيّاً) إذا كان شبر واحد من بلاد المسلمين محتلاً ، والذي ينهى عن أي نوع من التعاون معَ العدو المغتصب في أيِّ مجال ، والذي يأمر بالدفاع عن الدين والأرض والعِرض إلى آخر رمق .

هذا هو الإسلام الذي حاول الاستعمار القضاء عليه ، إسلام المجاهدين الصادقين لا إسلام القاعدين المتخاذلين ، فالاستعمار لا يكترث بالمسلم الذي يعتبر العبادة (عادة) ، ويكتفي بأداء العبادات وتلاوة الأوراد ، ثم ينصرف إلى أهله ليأكل وينام ، ولا يغزو ولا يحدِّث نفسه بالغزو ، ولا يهمه أمر المسلمين ، فهذا النوع من المسلمين يهادن الإستعمارَ ويهادنه الاستعمارُ، ولا يشكِّل خطراً على المستعمرين .

وقد تعاون أمثال هؤلاء المسلمين الجغرافيين مع الإستعمار ، وتسنّم قسم منهم المناصب الرفيعة ، فقدّموا للمستعمِرين أعظم خدمة ، لأنهم أعطوا المستعمِر نوعاً من الشرعية ، وجعل بعض الذين في قلوبهم مرض من المسلمين وغيرهم يقولون : « فلان متديِّن ، يغشى المساجد ويؤدي أركان الإسلام كاملة ، وهو صاحب حُظوة عند المستعمِر ، مما يدلّ على أنّ الاستعمار لا يقاوم الدين والمتدينين ! » . . .

وقد تنطلي مثل هذه الأقاويل على السذّج من الناس ، أما غيرهم فيعلمون أن الاستعمار لا يقاوم المسلم الجغرافيّ ، بل يقاوم المسلم الحقّ المجاهد الذي يصاول المستعمرين وأذنابهم ، المسلم الذي قال فيه الشاعر :

ذلك المؤمن المجاهد يَغْشَى غَمْرة الحرب ، والرَّدى يَخْشاه
تحت ظلِّ السيوف ماضٍ قويٌّ درعه : لا إله إلاّ اللّه[1]

والحق أنني لم أجد مسلماً واحداً ، حسن الإسلام ، يَتَقَبَّل الإسلام بما فيه من تكاليف التضحية والفداء ، عاون الاستعمار أو تعاون معه من قريب أو

---

(١) الشعر لإقبال، ترجمه المرحوم الدكتور عبد الوهاب عَزام إلى العربية ونظمه شعراً .

بعيد ، لأنه يفهم قول اللّه في كتابه العزيز : ﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنونَ باللّه واليومِ الآخرِ يُوادُّون مَنْ حَادَّ اللّهَ ورسولَهُ ﴾ [1] ، وبمعناها آيات كثيرة في الكتاب العزيز وأحاديث كثيرة للنبيّ ﷺ .

ولكنني وجدت كثيراً من المسلمين الجغرافيين عاونوا الاستعمار بشكل أو بآخر، وبحجة أو بأخرى ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك إلاّ لقاء مال حرام أو منصب يزول .

ومهما قيل عن انحسار أثر المسجد من الناحية العسكرية في أيام الاحتلال ، إلاّ أنه بقي المصدر الأول لإنتاج المجاهدين الصادقين الملتزمين بتعاليم الدين الحنيف في الجهاد ، والمدرسة الأولى للتلاميذ المسلمين : يتعلّمون فيه تلاوة القرآن الكريم ، ويحفظونه أو يحفظون قسماً منه فيه ، ويمارسون فيه الصّلاة جماعة بما فيها من أثر اجتماعي ، ويدرسون مبادىء اللّغة العربية والحساب ، ويتقنون فيه الخط العربي الجميل . كما بقي المسجد الجامعة الأولى لطلاّب المسلمين : يتعلّمون فيه علوم القرآن الكريم والحديث النبويّ الشرّيف والتاريخ الإسلامي والسيرة النبوية وعلوم العربية ومختلف العلوم الأخرى ، كما بقي المسجد المكان الأول لسماع المواعظ اليوميّة والموسميّة وبالمناسبات الدينية وخطبة الجمعة والمكان المفضّل لاجتماع أهل المحلّة يومياً لسماع الأخبار ومعالجة المشاكل المحليّة .

ولست أنسى حين كنت طفلاً ، كيف كان يجتمع المصلّون من أهل (المحلّة) التي يقع فيها دار العائلة في الموصل يومياً في صلاة المغرب وصلاة العشاء والصبح ، وكيف كان يقضي الوقت بين الصلاتين : المغرب والعشاء أكثر الرجال في سمر متصل وتداول للأخبار ، وكيف كانوا يتفقدونَ من يتخلّف عن الصّلاة ، فإذا علموا بمرضه زاروه مجتمعين في داره ، فيتظاهر الأغنياء من العُوَّد بتقبيله ثم يضعون تحت وسادته ما تيسّر من نقود ، ويغادرون الدار وهم يبتهلون إلى اللّه بالدعاء لشفاء المريض .

(١) الآية الكريمة من سورة المجادلة (٥٨ : ٢٢) .

ولم يكن الهاتف يومذاك معروفاً ولا المذياع والمذياع المصوّر ، وكانت الأخبار المحليّة تنقل شفهياً من شخص إلى آخر ، وعلى رأس قائمة الأخبار السياسية أنباء المستعمِر (الكافر) وتحركاته وأعماله ، فإذا اعتدى جندي من جنود الاحتلال على شخص ما ، أو ارتكب عملاً لا أخلاقياً ، انتشرت أخباره بسرعة خاطفة ، واجتاح المصلين حماسة عارمة على الاستعمار والمستعْمرين .

وقد أخذ المصلّون في كل مكان يقنتون في صلاتهم ، يدعون اللّه في قنوتهم أن يرفع هذه الغمّة عن هذه الأمة ، وينصر الإسلام والمسلمين على الكفّار المغتصبين !

وأذكر حادثة لها مغزاها ، وهي أنّ شاباً من شباب جيراننا في الدار ، لمح انكليزياً يحاول مغازلة إحدى الفتيات المسلمات في الطريق ، فاستغاثت تلك الفتاة ، فما كان من هذا الشاب إلاّ أن هجم على الإنكليزي وأغمد خنجره في أحشائه على ملأ من الناس ثم هرب إلى داره . وطاردته الشرطة العسكرية البريطانية ، ولكنّ جيرانه أخفوه عن الأنظار . وبدأ التحقيق في القضيّة ، فلم يشهد أحد عليه . ومضى عليه وقت وهو بعيد عن الأنظار متنقلاً من دار إلى أخرى ، حتى غُلقت القضية ، فظهر ليمارس عمله كالمعتاد ، فما كان يراه أحد إلاّ ويحتضنه ويقبله ويزجي له أعظم التقدير والاحترام قائلاً عنه : « هذا رجل غيور » .

وقد حاول المستعمِر أن يغري قسماً من الناس بالتعاون معه في تسنم المناصب الحكومية ، فما وجد من تعاون معه من المسلمين الذين يرتادون المساجد ، واقتصر التعاون معه على المسلمين الذين لا يؤدون فريضة الصّلاة ، وعلى غير المسلمين . . . . ولا أزيد !!

وفي أيام محاولة بريطانيا احتلال العراق ، هرب كثير من الجنود الهنود المسلمين من صفوف الجيش البريطاني إلى صفوف الجيش العثماني المقاتل في العراق أثناء الحرب العالمية الأولى ، فرحب بهم سكّان العراق المسلمون وآووهم ورعوهم حقّ الرعاية ، وقد أعدم البريطانيون قسماً من الهاربين الهنود

الذين ألقوا عليهم القبض ، وكان إعدامهم من الأيام البائسة التي لا يزال يذكرها العراقيون .

لقد كان من الصعب على المسلم أن يُقْدِمَ على مقاتلة المسلم ، حتى ولو أدّى به إحجامه عن القتال إلى ساحة الإعدام ، وكان المسجد ملجأً المسلم الهارب من صفوف الأعداء إلى صفوف المسلمين ، يلجأ إليه ، فإذا عرف الناس بأمره احتضنوه أخاً باراً لا يبيع دينه بدنياه .

وقد اضطر البريطانيون أن يعتمدوا على غير المسلمين من الهنود في حرب العراق ، فإذا لم يستطيعوا الاستغناء عن الجنود والمراتب الأخرى من المسلمين في تلك الحرب ، اتخذوا تدابير مشددّة لإبعاد المسلمين عن التماس المباشر بإخوانهم المحاربين في ساحة العراق ، فنجحوا في إبقاء الجنود المسلمين معهم مرة وأخفقوا مرّات .

ولم تكن مصالح الاستعمار وحدها تحتِّم عليه إبعاد العرب والمسلمين عن عقيدتهم ، بل كان مع الاستعمار عاملان إضافيان آخران هما : الحقد التاريخي على العرب والمسلمين أولاً ، والصهيونية العالمية التي تُخَطِّط لإنشاء دولة إسرائيل في الأرض المقدّسة : فلسطين ، كخطوة أولى تتبعها خطوات تدريجية تهدف إلى تحقيق أحلام الصهيونية في السيطرة على أجزاء واسعة جداً من الوطن العربي ، لإنشاء : إسرائيل الكبرى من : النيل إلى الفرات ، في احتلال توسعيّ استيطانيّ عنصريّ ، وبذلك تضافرت الأعمدة الشيطانية الثلاثة على سلب عقيدة العرب والمسلمين ، وهي : الاستعمار ، والحقد التاريخي الأسود ، والصهيونية العالمية .

وليس أدلّ على الحقد التاريخي الأسود ، من قول (اللّنْبي) قائد البريطانيين في احتلال فلسطين ، فحين دخل القدس في أواخر سنة ١٩١٧ قال : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

وحين دخل (غورو) قائد الحملة الفرنسية مدينة دمشق ، وقف على قبر البطل صلاح الدين الأيوبي شاهراً سيفه قائلاً : « ها نحن عدنا ثانية يا صلاح

الـدين » ، ثم مشى بحذائـه فوق الجـدث الطاهـر !! . . . وكان ذلك سنـة ١٩٢٠ م .

وقد كان غورو يعرف كما يعرف غيره ، أنّ صلاح الدين لو كان حياً ، لبقـيغورو ترتعد فرائصه وهو في بلده البعيد !

وفي (الجزائر) هدم الفرنسيون المساجد وحولوها إلى ثُكنات أو اسطبلات أو كنائس .

جـاء في كتـاب : الجهـاد الأفضـل، الذي ألّفـه الـوزيرُ الجزائـري عمّار أوزيغان : « لقد كان الدين الإسلامي وثاقاً يُمَتِّنُ اتحاد مُختلف العناصر في القوّة الشعبية التي تزخر بها بلادنا الجزائر . غير أنّ العدو الاستعماريّ كان أكثر ذكاء حين كان يهدم الجوامع ويحوِّلها إلى ثكنات أو إسطبلات ! كانـت هذه معابـد تُهدم ويتمّ الخلاص منها ، إلاّ أنّ الجامع كان أيضاً الجامعة ، كما هي الزيتونة في تونس والقرويين في (فاس) وكما هو الأزهر في القاهرة ، فهدمُ جامع كان يعني هدم مدرسة ومكتبة وقاعة للمحاضرات وبيتٍ للشّعب وجمعية استشارة أو شورى ، ومتحف موسيقييدرّس فيه تجويد القرآن . . .

« ولن نشدِّد على الروح الصليبيّة التي تجلّت في تحويل الجامع إلى كنيسة ، وإقامة الأنصاب التذكارية يعلّـق عليهـا الصـليب الحـديدي ، فوق العبـارة اللاّتينيّة التي معناهـا : (سـننتصر بهـده الإشـارة **In hoc signo Vinces**) ، ولاشعارات المدينة كشعار مدينة الجزائر ، الذي عُمِّم في العالم كلّه بواسطـة الطابع البريدي الذي رسم عليه صليب ضخم في السماء ، منتصراً على هلال صغير مُنَكّس » [١] .

ذلك مبلغ الحقد التاريخي الأسود الذي يتأجّج في أعماق المستعمِر

---

(١) انظر التفاصيل في الجهاد الأفضل (٢٩ ـ ٣١) .

الغاصب . أما التخطيط التوسعي الاستيطاني للصهيونية العالمية فقد أصبح معروفاً اليوم ، وحسبي أن أذكر بعض أقوال الإنكليز المحتلين لفلسطين وفقرات من صك الانتداب البريطاني على فلسطين ، لنعرف ما كان يُبَيَّتُ قبيل أيام الاحتلال وبعده للأرض المقدسة من شرٍ مستطير .

قال اليهودي هربرت صمويل سنة ١٩١٤م: « لقد كنتُ الشخص الأول من الشعب اليهودي الذي قدِّر له أن يحتلّ مقعداً في الوزارة البريطانية ، ولعلّ الفرصة سنحت أمامي لتحقيق وإعادة إنشاء دولة يهودية في فلسطين » .

وقال هذا اليهودي الذي أصبح أول مندوب سام على فلسطين سنة ١٩٢٠ م : « إنني ذاهب إلى فلسطين ، لاتخاذ مشروعات وتنفيذ أوامر حكومتي ، لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين »[١] .

وجاء في المادة الثانية من صك الانتداب البريطاني على فلسطين: «تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن جعل فلسطين في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تكفل إنشاء الوطن القومي اليهودي » .

وجاء في المادة السادسة من صكّ الانتداب : « على حكومة فلسطين أن تُسَهِّل هجرة اليهود إلى فلسطين في أحوال مناسبة » .

والقاسم المشترك بين الاستعمار والصهيونية عدا المصلحة المشتركة الخاصة بكل منهما ، هو الحقد التاريخي الأسود ، فالصهاينة يحقدون على كل البشرية عدا شعب الله المختار - كما يطلقون على أنفسهم - ، والواقع أنهم شعب الحقد الأسود ، وقد تبيّن لكل شعوب العالم ما اقترفه الصهاينة قبل مولد كيانهم وبعده ، مما هو معروف مشهور لا حاجة إلى تعريفه وإثباته .

يكفي أن أذكر ما قاله موشى دايان يوم ٦ حزيران (يونيه) وهو يوم احتلال الصهاينة للقدس سنة ١٩٦٧ م ، فقد قال في ذلك اليوم المشؤوم : « اليوم أصبح الطريق إلى المدينة مفتوحاً » ، ويقصد بالمدينة مدينة النبيّ ﷺ .

---

(١) انظر التفاصيل في جهاد شعب فلسطين (٨٣ - ٨٤) .

وبالرغم من أنّ العرب بعد الإسلام حموا يهود ولم يضطهدوهم كما اضطهدتهم الشعوب الأخرى ، فقد أعاد عمر بن الخطّاب رضي اللّه عنه لهم حريتهم في العودة إلى القدس ، وكان الروم قد حرموهم من سكنى القدس ؛ وقربهم المسلمون أيام الدولة العباسية في بغداد وأيام الدولة الأموية في الأندلس ، فتسنّم منهم في أيام الدولتين مناصب رفيعة ، إلاّ أنهم بعد أن تمكنوا من العرب شرّدوهم واغتصبوا أرضهم وفعلوا بهم الأفاعيل . . .

وما ذلك إلاّ تنفيس عن حقدهم الأسود في العرب ، انتقاماً للاضطهاد الذي عانوه من غير العرب عبر قرون طويلة ، ولكن لكل أجل كتاب ، فإذا غُلب العرب ساعة ، فلن يُغلبوا إلى قيام السّاعة .

والتقت مصلحة الاستعمار بمصلحة الصهيونية العالمية ، لذلك كان التعاون بينهما وثيقاً في تحقيق الهدف الحيويّ الأول لهما معاً ، وهو سلب العقيدة من العرب والمسلمين ، لأنّ العرب جسد روحه الإسلام ، ولا بقاء للجسد بلا روح ، كما أنّ الجسد بدون روح موت ، والأموات لا يُقاتلون .

وأعداء الإسلام والمسلمين : الاستعمار القديم والاستعمار الجديد ، والصهيونية العالمية ، لا يجتمعون على شيءٍ اجتماعهم على محاربة الإسلام .

وسرّ ثبات الإسلام أمام التيارات الجارفة التي تعرض لها سابقاً ويتعرّض لها اليوم وسيتعرض لها غداً ، يكمن في القرآن الكريم لغة وعقيدة وتشريعاً ومُثُلاً عُلْيا .

والقرآن الكريم يُعَلَّم في المسجد ، ويُحْفَظ في المسجد ، وتدرس علومه في المسجد ، ويُتْلى صباح مساء في المسجد ، فلا بدّ من إغراء المسلمين بالابتعاد عن المسجد ، حتى تضعف صلتهم بالقرآن الكريم .

وقد سمعتُ أحد وزراء الثقافة والإرشاد العرب ، يحمل شهادة الدكتوراه من الخارج ، يقرأ قول اللّه : ﴿ ويومَ حُنَيْنٍ إذ أَعْجَبَتْكُمْ كثْرتُكم ﴾ [1] ، يقرؤها : ﴿ ويومَ **حَنِينٍ إذا أعجبتكم كثرتكم** ﴾ ، لأنه

(۱) الآية الكريمة من سورة التوبة (۹ : ۲٥) .

لم يتعلّم القرآن في المسجد ، فلا يستطيع قراءته كما ينبغي ، ولن يستطيع .

لقد تفنّن أعداء الإسلام بمحاولاتهم إضعاف اللّغة العربية لغة القرآن الكريم ، فدعوا إلى الكتابة بالحروف اللاتينية ، والتخاطب والكتابة باللهجات العامية ، وأشاعوا أنّ العربية أصعب اللغات ، وزعموا أنَّ العربية الفصحى لغة أدبيّة لا علميّة ، وأنّ الفصحى لا تستطيع مجاراة العلوم الحديثة . وفرض المستعمرون لغتهم على الدراسات العلمية ، وقلّصوا من تدريس القرآن في المدارس والمعاهد والجامعات ، وهوّنوا من شأن اللّغة العربية ومدرسيها وأساتذتها ، وهدف كل ذلك محاصرة القرآن الكريم وعزله .

وتفنّن أعداء الإسلام بالتشكيك في العقيدة الإسلامية ،فتزعزعت عقيدة قسم من المسلمين ، وتشوّشت عقيدة قسم آخر ، وثبت على عقيدتهم آخرون .

ألغوا درس الدين ، أو جعلوه درساً ثانوياً ، وأوكلوا أمر تدريس الدين إلى المعلمين الذين يتّسمون بالجهل وضعف الشخصية .

وعزوا كل تخلّف عن ركب الحضارة يعاني منه العرب والمسلمون إلى الدين ، وزعموا أنّ الدين يناقض العلم ويعاديه .

وليس الإسلام عدواً للعلم ، وأصل هذه الفرية أنه انتشرت في الغرب مقولة : « إنّ (الدين) يناقض العلم » ، فاقتبس (المريبون) من المسلمين ـ وأنا أعني ما أقول ـ هذا الزعم ، ونقلوه نقلاً عن الغرب وطبقوه ظلماً على الإسلام من غير تحقيق ولا تمحيص ، أو تنفيذاً لمخططات أعداء الإسلام ، الذين تعمّدوا زجّ الإسلام في معركة لم يكن من دعاتها ولا طرفاً فيها .

فقد بدأ التعصّب يلازم فكرة الدين في أوروبا ، وأصبح الإنسان يُراق دمه في الحروب الأوروبية ، وأخذت السلطات الدينية تضيِّق على الحريات السياسية ، فأصبح لا مكان لحرية الفكر في كل بلد ديني يسيطر عليه الكهنة ورجال الدين ، بزعم أنّ هذه هي تعاليم المسيحية التي تعتبر تعطيل الفكر

أساساً من أسس اعتناق المسيحية ، وعند تعميد المسيحيين بصورة خاصة .

لقد كانت معارضة الدين للعلم منصبّة أساساً على المسيحية التي اغتصبت من الناس حريّة الفكر والعمل ، وكان الصراع بين المسيحية والعلم صراعـاً دموياً ، وسيقت أعداد لا تحصى من البشر إلى ساحات الإعدام بتهمة عدم تأييد الكنيسة[1] .

وهكذا أصبح الدين والعلم نقيضين لا يجتمعان في أوروبـا ، فإما أن يخضع الإنسان للدين وحده أو يخضع للعلم وحده ، ولا يمكن أن يخضع لهما معاً ، لأنّ (الدين) ظلّ عدواً قوياً للعلم .

وقد أساء المفكرون الغربيون (الفهم) وأساء بعضهـم (النيّة) ، عندمـا ظنوا أنّ بعض صور المسيحيّة ، أو بعبارة أدق : صور الكنيسة ، هي النموذج الديني الصحيح لسائر الأديان ، واستخلصوا من ذلك أنّ الـدين ليس شيئـاً سوى التعصّب ويؤدي إليه ، وبالتالي قرّروا أنهم ليسوا بحاجة إلى الدين ـ أيّ دين بالطبع ـ في العالم المتمدين ، وكلما بذلت جهود بعد ذلك لإحياء الدين فإنها كانت توصم بالمذهبية والتعصّب .

وحاول الغربيون الوجوديون والماديون والصليبيون ويهود ومَنْ لفّ لفهم من أعداء الإسلام ، أن يُلقوا بهذا الإفتراء على الإسلام أيضـاً كما ألقـوه على المسيحيّة ، وكلما عقدت ندوة من ندوات البحث الجامعي حول طبيعة الفكر الإسلامي وخصائصه وحول قيام دولـة إسـلاميّة ، فإنهـم يبـادرون بدلاً من مناقشة المشكلة الحقيقيّة إلى إقحام التعصب الدينيّ .

---

(١) جون وليام درابر ـ كتاب تاريخ النهضة الفكرية في أوروبا ـ الجزء الأول ـ المجلد الأول : ذكر أنّ محاكم التفتيش الكاثوليكية عاقبت في المدة من عام ١٤٨١ ـ ١٨٠٨ م حوالى (٣٤٠٠٠٠) شخص ، أعدم من بينهم (٣٢٠٠٠٠) شخص حرقاً .

وقد ذكر كنيث ووكر إحصائية رهيبة عن البلاد التي عاشت في سنوات الصراع الأولى ، فيقول : « إنه خلال القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر الميلادية ، أعدم (٣٠٠٠٠) شخص بتهمة البدعة والخروج عن تعاليم الكنيسة في مدينة (مدريد) وحدها » ، انظر كنيث ووكر في كتابه تشخيص الإنسان ـ ص (٣١٠) .

ولا يمكن أن ننتظر من أعداء الإسلام غير ذلك ، ولكنّ الإسلام يختلف عن المسيحيّة واليهودية ، وقد ظهر حديثاً كتاب باللغة الفرنسية لمؤلف فرنسي يثبت هذا الاختلاف بشكل جازم حاسم [١] ، فالقرآن يدعو إلى العلم ويحثّ عليه ويمجِّد العلماء ، وينهى عن الجهل ويحاربه حرباً لا هوادة فيها ويذم الجهّال ، وكان السَّلف الصّالح من العلماء يعتبرون العلم عبادة من أجلّ العبادات .

وخطورة الأمر تَكْمُنُ في نقل كلمة (الدين) من المسيحية واليهودية وتعميمها على سائر الأديان ، وجاء هذا الخطأ الفاحش من ترجمة كلمة : (Religion) الإنكليزية وما يرادفها في الفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية ولغات أوروبا الأخرى ، إلى كلمة (دين) ، لأنّ الإسلام ليس ديناً فحسب ، بل هو بالإضافة إلى ذلك مذهب للحياة أيضاً(Way of Life) يشمل القضايا الروحية والأمور المادية ، وليس ديناً يشمل القضايا الروحيّة فقط أو القضايا الماديّة فقط ، فهو يهتمّ بالدنيا كما يهتمّ بالآخرة ، لذلك صلح لكل زمان ومكان .

ولا ألوم الغربيين الذين ظنوا أنّ الإسلام يناقض العلم عن جهل بحقائق الإسلام أو عن سوء نية وقصد وتنفيذاً لمخطط تخريبيّ ، ولكنني ألوم المسلمين الذين يعتبرون أنفسهم مثقفين، ثمّ ينقلون افتراءات الغربيين والأجانب الذين وصموا (دينهم) بالتناقض مع العلم ؛ ثم نشره أولئك المسلمون في بحوثهم ومؤلفاتهم وألقوه محاضرات في مدارسهم ومعاهدهم وكلياتهم ، وسمّموا أفكار الشباب المسلم بأفكار بعيدة عن الحق والواقع .

وقد حارب الاستعمار والصهيونية العالمية المسلم المتديِّن الحركيّ برزقه وسمعته ومستقبله ، ووصموه بالرجعيّة والتخلّف والتعصّب ، أما المسلم

---

(١) La Bible, le Coran, et la Science- Par Maurice Bucaille, Ed. Sogress, PARIS, 1976.

وقد ترجم إلى العربية وطبع في مصر ، كما ترجم إلى العربية ثانية وطبع في بيروت سنة ١٩٧٨ .

الجغرافي فقد عاونوه وعاونهم ، فاستفاد جاهاً زائلاً ومالاً حراماً ، فكان كالذي يطعن والدته بخنجره من الخلف !

ويوم تنكشف الحقائق ، ستبيضّ وجوه وتسودّ وجوه .

وتفنّن أعداء الإسلام بمحاولاتهم إحلال القانون الوضعي مكان شريعة اللّه ، فانتشرت السرقة، وشاع الفسق والفجور ، وتفكّكت أواصر العائلة ، وانصرف الشباب عن الزواج .

إنّ تطبيق الشريعة الإسلاميّة ، يجعل من ضمير المسلم الحق رقيباً عليه ، لأنها تنفيذ لأوامر اللّه ، وقد كان الإمام علي بن أبي طالب يعمل قاضياً لعمر رضي اللّه عنهما ، فقضى سنتين لم يراجعه خلالهما خصمان .

والشّريعة الإسلامية هي لحماية الفضيلة ، والمحافظة على النفس والدين والمال والأرض والعرض ولصيانة المجتمع الإسلامي .

وقد سبقت الشريعة الإسلامية القوانين الوضعيّة في كثير من مبادئها ، فهل من المعقول أن نطبِّق قوانين نابليون الذي جعل من حرم الأزهر الشريف إسطبلاً لخيوله ، ونستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟!

لقد نجح أعداء الإسلام بجعل الشريعة الإسلاميّة غائبة عن المجتمع الإسلامي .

وتفنّن أعداء الإسلام بمحاولاتهم إلغاء المُثُل العليا الإسلاميّة ، فنجحوا في ذلك أعظم النجاح !

ولا يزال نجاحهم في مَدٍّ عارم ، ولا يعرف غير اللّه أين سيصل المسلمون بمحاكاة الأجانب بمباذلهم ، فقد بلغوا في هذا المجال حداً مخيفاً .

وقد قيل الكثير عن أثر الاستعمار في العرب والمسلمين ، ولكنني أرى أنّ أخطر آثار الاستعمار في العرب والمسلمين ، هو اختيار المستعمِر كلَّ منخوب جنسيّاً وكلّ منخوبٍ جيبياً ، وتوليتهم المناصب المرموقة و إغداق الأموال والجاه

عليهم ، وتحكيمهم في مصائر الناس وتسليطهم على رقابهم ، فقلّدهم العرب والمسلمون الجغرافيون من ضعاف النفوس ليتولّوا المناصب الرفيعة ويقتنصُوا المال الحرام ويستمتعوا بالجاه المزيّف ، لأنهم وجدوا أنّ السبيل الوحيد للتقدم والغنى هو في التخلي عن المُثُل العليا الإسلاميّة ، فساءت الحال وتردّت الأحوال .

وإذا كان للمستعمِر عذره في اختيار الإمعات والتافهين والمنخوبين ، فما عذر ولاة أمر المسلمين في اختيار أمثال هؤلاء بعد أن آل الأمر إليهم ؟! .

وقد كان عمر بن الخطّاب رضي اللّه عنه يقول لجيوشه المتوجّهة للفتح : « أخوف ما أخاف عليكم ذنوبكم ، فهي أخطر عليكم من عدوّكم » ، وقد غرق العرب والمسلمون اليوم بالذنوب ، فمن أين يأتيهم النصر ؟

عندما أبحر القائد الفرنسي (غورو) من فرنسا إلى لبنان ، كان معه جيشه المقاتل ، وكان مع جيشه باخرة تعجّ بالعاهرات ، وعندما استغرب الناس وجود النساء السّاقطات برفقة الجيش المحارب ، قال غورو : « ستكون النسوة أشد فتكاً في أهل لبنان من الجيش المحارب » !! . . .

لقد فتح المستعمِر الحانات ، وأقام الملاهي ، وأباح الزنا ، وأشاع الميسر ، وغمر بلاد المسلمين بالفسق والفجور ، وكل هذه التدابير لإبعاد المسلم عن المسجد .

ولعلّ أكثر ما شغل العربي والمسلم عن المسجد ، الخَيَالة [1] (السينما) في دورها أو في أجهزة الإذاعة المسموعة والمرئيّة .

ومصر هي رائدة الخيالة العربية ، والمعروف أنّ الذين أسّسوا هذه الخيالة هم يهود ، كما جاء ذلك في كتاب : (اليهود والحركة الصهيونية في مصر من ١٨٩٧م - ١٩٤٧ م) [2] ، وقد ورد في هذا الكتاب ما نصّه : « إنّ عائلة

---

(١) الخيالة : السينما ، ومعناها في الأصل : الطَّيْف .

(٢) اليهود والحركة الصهيونية في مصر (١٨٩٧ م - ١٩٤٧ م) - أحمد محمد غنيم وأحمد أبو كفّ - كتاب الهلال - العدد ٢١٩ - القاهرة - ١٩٦٩ م .

موصيري الصهيونيّة ، أسّست شركة للسينما عام ١٩١٥ م باسم (جوزي فيلم) ، ومنذ عام ١٩٢٩ م احتكرت هذه الشركة استيراد الأفلام الخام وبيعها ، وكذلك طبع الترجمة على الأفلام الأجنبية التي كانت تستوردها ، ثم توسعت الشركة بعد ذلك ، وأقامت (استوديو) للإنتاج السينمائي » [١] .

وقد ظهر أنّ روّاد ممثلي الخيالة المصريّة من الماسونيين [٢]

فما عسى أن ينتظر العرب والمسلمون من (خَيَالة) أسسها الصهاينة وأخرجها الصهاينة ووزعها الصهاينة ، ومثّلها ممثلون من الماسونيين ؟!

فلا يدهش أحد من الدعاية الضخمة التي واكبت هذه الخيالة وممثليها والتركيز على إبراز العاملين فيها مدحاً وثناءً وثراءً،وحتى ألقاباً علمية فخريّة . . . بدون حساب .

إنّ الصهيونية والماسونية وراء هذه الدعاية الضخمة الهائلة ، تلك الدعاية المحمومة التي رفعت الخيالة والعاملين فيها إلى أعلى المكانات ، وجعلت منها أبرز الانجازات ومنهم أبرز الشخصيات ، وفي الوقت الذي يموت فيه قادة الفكر العربي الإسلامي حقاً فلا يعرف بموتهم أحد ، ويشيعهم إلى مثواهم الأخير ما لا يزيد على عدد أصابع اليدين ، يموج الأثير بنعي الممثلين والفنانين والممثلات والفنانات ، ويشيِّعهم عشرات الألوف من الرجال والنساء ، وينتحر لموت بعضهم بضع فتيات !

هذا هو أسلوب المستعمِر الذي أبرز التافهين والمخرِّبين وأنسى العلماء والمُعَمِّرين ، فالتافه المخرِّب لمدة خمسين سنة يكرم حيّاً وميتاً ، والعالم المعمِّر لمدة خمسين سنة لا يعرفه أحد في حياته ويوم موته ، وقد يُعرف بعد حين .

إنّ الأمة بمُثُلها العُليا ، بأخلاقها المحاربة ، بفضائلها ومزاياها ، بعلمائها الأعلام ، بأبطالها الميامين ، برجالها المخلصين ، ولا قيمة لأمة تتخلى عن مُثُلها

---

(١) نفس المصدر ص (٥٢ ـ ٥٣) .

(٢) انظر مقال : الماسونية للشيخ أحمد الشرباصي ـ مجلة الهلال ـ العدد (٦) يونيه (حزيران) التصاوير المنشورة في المقال والشرح الموجود أسفل كل تصوير ، للاطلاع على أسماء هؤلاء الرواد ، وما خفي كان أعظم .

العليا وأخلاقها وفضائلها .

والدول تبدأ بالمُثل العليا التي تقودها إلى مراقي السؤدد والمجد ، وتنتهي بالترف الذي يوصلها إلى المذلة والحضيض .

والاستعمار وأذنابه وعملاؤه ، والصهيونية العالمية وربيبتها الماسونية ، بدأوا بالترف أولاً ، فدمّروا المُثل العُليا ، وعكسوا المفاهيم ، وقلبوا الموازين ، وضيعوا الشعوب المستعمَرة ، وجعلوا منها شعوباً مستهلِكة لا منتجة ، ولاهِية لا جادّة ، ومتواكلة لا متوكِّلة .

هكذا جعل الاستعمار والصهيونيّة العرَب والمسلمين يبدأون من حيث تنتهي الأمم الأخرى ، فلا عجب أن يزيد الاستعمارُ والصهيونية العرب والمسلمين من ضعفهم وتهاونهم وانحلالهم وتفسخهم، لكي يضمن الاستعمار بقاءه أطول مدة ممكنة في البلاد العربية والإسلامية ، ولكي تضمن الصهيونية لها كياناً في قلب الأمة العربية كخطوة أولى تتبعها خطوات تحقق لها أهدافها التوسعيّة الاستيطانية في الوطن العربي ، لتشمل : من النيل إلى الفرات .

فهل استطاع الاستعمار القضاء على البقية الباقية من نور المسجد ؟

الحق أنه لم يخفق كل الإخفاق ، بل حقّق بعض أهدافه في زعزعة ثقة العرب والمسلمين بلغة القرآن الكريم .

وحقّق أهدافه كاملة في زعزِعة مكانة الشريعة الإسلامية ، فغابت تلك الشريعة عن العرب المسلمين ، وحلّت مكانها الشرائع الوضعيّة ، إلاّ في قضايا الأحوال الشخصية ، فقد غابت هي أيضاً عن بعض البلاد العربية والإسلامية وبقيت في بعضها الآخرِ .

وحقّق بعض أهدافه في زعزعة العقيدة الإسلاميّة في كثير من العرب والمسلمين .

وحقّق كثيراً من أهدافه في زعزعة المُثُل العليا في كثير من العرب والمسلمين .

لقد قضى الاستعمار على جزء غير قليل من النور الذي بقي في المسجد ، فحقّق في ذلك نجاحاً لأهدافه وأهداف الصهيونية العالمية .

***

المَسجد في أيّام الاستِقلال

انبعثت ثورات العرب كلها وثورات المسلمين جميعاً من المسجد على الاستعمار والمستعمِرين .

فقد انبعثت ثورة ١٩٢٠ في العراق على الإنكليز من المسجد ، وانبعثت في المغرب من جامع القرويين ، وفي تونس من الزيتونة ، في الجزائر من جمعية علماء الجزائر على الفرنسيين ، وانبعثت من الزوايا السنوسيّة في ليبيا على الإيطاليين ، وكان للأزهر دور عظيم في ثورة سنة ١٩١٩ في مصر على الانكليز .

وانبعثت من مسجد بني أميّة في دمشق على الفرنسيين .

وانبعثت كلّ الحركات الاستقلالية في العالم الإسلامي من المسجد ، لا يستثنى من ذلك حركة مصطفى كمال في تركيا ، الذي أصدر منشورات تهيب بالمسلمين لنصرته ، وتمسّح بالسيد أحمد السنوسي لالتماس بركته ، ولكنّه نكص على عَقِبَيْهِ استجابة لمخططات الماسونية ومن وراءها من الصهاينة .

وقد اتهمت الإدارة الفرنسيّة والصحافة الموالية لها أعضاء جمعية العلماء الجزائرية بأنهم متعصبون ، يعملون للوحدة العربية والجامعة العربية[١] ، لأنّ رئيس الجمعية الشيخ عبد الحميد بن باديس يساند كل عمل مناهض للاستعمار[٢] ؛ ولأنّ خلفه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أنكر الزواج المختلط

(١) الجهاد الأفضل (٢٢ - ٢٣)
(٢) الجهاد الأفضل (٢٧)

قبل القضاء على الطغيان الاستعماري فقال : « مَنْ يتزوّج فرنسية يدخل الاستعمار إلى بيته »[1] .

وما قال الفرنسيون عن جمعية العلماء الجزائرية ، قاله الإيطاليون عن الزوايا السنوسية ، وقاله الإنكليز عن الأزهر الشريف ومساجد العراق ، وقاله الفرنسيون عن جامع الزيتونة وجامع القرويين والمسجد الأُموي ، وقاله المستعمِر عن المسجد في كل مكان من البلاد العربية والإسلامية ، لأنّ المسجد كان موطن الأخطار التي تصاول الاستعمار ولا تسالمه وتناوىء المستعمِر ولا تهادنه .

وقد لاحظ أحد المفكرين العرب المسلمين[2] ظاهرتين جديرتين بالنظر والاعتبار في تحرير الشعوب العربية والإسلامية من الاستعمار الغربي ، منذ ابتدأت حركات التحرر في القرن التاسع عشر الميلادي حتى اليوم .

الظاهرة الأولى : أنّ المشعل الذي كان يقود هذه الحركات هو مشعل الإسلام ، وأنّ بذور الثورات على الاستعمار كانت المبادىء والتعاليم الإسلامية ، ففي مصر والمغرب العربي والعراق وسائر البلاد العربية الأخرى والهند وأندونيسيا وفي الأقطار الإفريقية والآسيوية التي ينتمي أكثر سكانها إلى الإسلام ، كان القرآن الكريم والتمسّك به مصدر الثورة وباعث حركة التحرير فيها ، وكان العلماء وطلاّب الجمعيات والمعاهد الإسلامية ، هم الذين ضحّوا بكل غالٍ في العمل على طرد الاستعمار .

والظاهرة الثانية : أنّ الذين تولوا توجيه السياسة بعد الاستقلال ونجاح هذه الحركات نجاحاً جزئياً في الشكل السياسي ، كانوا من الذين تثقفوا على الغرب المستعمِر ، ولم تكن لهم صلة قوية بالإسلام وتاريخ دعوته وفهم مبادئه[3] .

---

(١) الجهاد الأفضل (٢٦)
(٢) هو الدكتور محمد البهي رئيس جامعة الأزهر ووزير الأوقاف المصري سابقاً .
(٣) انظر التفاصيل في مقدمة تفسير ابن باديس (٥ ـ ٧)

وهاتان الظاهرتان جلبتا أنظار كثير من المفكرين ، دون إعطاء جواب حاسم على أسباب هذا التناقض .

وكنتُ من الذين فكّروا في سبب أو أسباب هذا التناقض ، فأجبت عليه : أنّ المستعمر لم يترك البلاد إلاّ بعد أن خلّف وراءه تلاميذ مخلصين لمبادئه وقوانينه ، حتى لقد سمعنا ـ مع الأسف الشديد ـ من بعض هؤلاء تهماً للإسلام لم يستطع المستعمِر في أيامه السّود أن يتفوّه بها أو ببعضها[1] .

وكنت بهذا الجواب مقتنعاً منذ سنة ١٣٨٦ الهجرية (١٩٦٦م) حتى سنة ١٣٩٧ الهجرية (١٩٧٨م) . وفي الحين الذي ظهرت فيه حقائق جديدة بالنسبة لي ، أضفتها إلى جوابي الأول وهي ما استجدّ من حقائق . إنّ الثوار في البلد العربي أو الإسلامي يتألفون من عدّة أجنحة أو عدة اتجاهات ، تتّفق فيا بينها في الهدف الرئيسي ، وهو طرد المستعمِر والحصول على الاستقلال ، فإذا تحقق هذا الهدف أو أوشك على التحقيق ، انفجرت الصراعات الداخلية بينها ، فيتغلّب الجناح او الاتجاه القوي على الجناح أو الاتجاه الضعيف ، ويتولى الحكم في بلاده مقتطفاً ثمرات الصراع .

ولكن كيف يتغلّب هذا الجناح أو الاتجاه على الأجنحة والاتجاهات الأخرى ؟

لقد التقيت بقسم من قادة الحركات التحررية في الوطن الإسلامي ، فوجدت أن الحركة التحررية تتألف من عدّة أجنحة واتجاهات : إسلامية وحزبية . . الخ . . فالإتجاهات الإسلاميّة هي دائماً الأكثر عَدَداً ولكنها الأقل مَدَداً ، إذ يعاونها المسلمون أفراداً وجماعات ودولاً بالدعوات والتمنيات الطيبة ، ولو كان مع العواطف النبيلة سلاح ومال وتأييد سياسي لتغلّب الجناح او الاتجاه الإسلامي على غيره من الأجنحة أو الاتجاهات بسهولة ويسر ، ولتَوَلّى السلطة الإسلاميون .

والواقع الذي حدث من قبلُ ويحدث الآن ، هو أن الأحزاب المختلفة تمد

(١) قادة فتح المغرب العربي (٢/ ٣٤٨)

يد العون حسب طاقاتها للأجنحة أو الاتجاهات في الحركات التحررية سلاحاً ومالاً ودعماً سياسياً ، فتهيىء الظروف المناسبة للنصر على منافسيها ، حتى تضمن تلك الأحزاب موطىء قدم لها في الموطن المتحرِّر عند تولي الحزب الموالي لها سُدَّة الحكم .

الدول الاشتراكية مثلاً تدعم الأجنحة أو الاتجاهات الموالية لها ، والدول الغربية تدعم مَنْ يواليها أيضاً ، وهكذا كل دولة تدعم الجناح أو الإتجاه الذي يؤمِّن مصالحها في المستقبل .

أمّا الأجنحة الإسلامية أو الاتجاهات الإسلامية ، فلها الله .

وأستطيع أن أُضيف عاملاً آخر ، هو أن الإسلاميين الملتزمين حقاً بتعاليم الدين الحنيف ، لا يضربون غيرهم من الخلف أو يخونون عهودهم أو يناقضون مُثُلهم العليا ، فيقتلون ويشرِّدون ويفتكون حسبما تقتضي مصالحهم السياسيّة .

بينما يفعل غيرهم كل شيء تقريباً في سبيل الاستيلاء على السلطة .

لا عجب إذاً ، في تولي غير المسلمين حقاً السلطة بعد الاستقلال ، بينما تُؤَجِّج الثورات التحررية من المسلمين حقاً وتنشب باسم الإسلام منطلقة من المسجد .

ولعلّ الغرور الذي يصيب نفوس المتفوقين عدَداً على غيرهم أصاب الذين يثورون باسم الإسلام على المستعمِر ، فلا يكترثون بتنظيم طاقاتهم المادية والمعنوية في وقت مبكِّر من اندلاع الثورة ، بينما تنظم الأقليّة صفوفَها ويتعاون أفرادها فيما بينهم تعاوناً وثيقاً ويستمدون من غيرهم العون والدّعم ، والقلّة القليلة المنظّمة تتغلّب دوماً على الكثرة الكثيرة غير المنظَّمة .

والاستعمار بشكليه القديم والجديد : القديم الذي يعتمد على القوة والسيطرة والاستعباد ، لنهب الموارد والخامات، والجديد الذي يعتمد على السيطرة الاقتصادية والاحتكارات والأحلاف لنهب الموارد والخامات أيضاً ،

هذان الاستعماران يعاونان كل اتجاه وكل جناح في الثورات ، ولا يعاونان الاتجاه أو الجناح الإسلامي .

وكان الاستعمار القديم الذي تخلّص منه العرب والمسلمون ، خمسة أنواع من الاستعمار : استعمار عسكري ، واستعمار سياسي ، واستعمار اقتصادي ، واستعمار اجتماعي ، واستعمار فكري .

وأخطر أنواع الاستعمار على الإطلاق هو الاستعمار الفكريّ ، فإذا تخلّص المستعمَرون من الاستعمار العسكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي ، ولم يتخلّصوا من الاستعمار الفكري ، فإنهم يكونون قد أخرجوا الاستعمار من البابَ ورحبوا به من الشباك .

إنّ الاستعمار الفكري يُطْبِق على العرب والمسلمين من كل جانب .

وما دام العرب والمسلمون لا يزالون يعيشون اليوم ضمن نطاق الحضارة الغربية بكل ما فيها من خيرٍ وشر، فإنهم لا يزالون يعيشون في نطاق حضارة مسيحية ، لأن الحضارة الغربية بخيرها وشرها حضارة مسيحية لا يختلف في ذلك أحد .

وللعرب والمسلمين حضارة عربيّة إسلاميّة عريقة ، مستمدة من دينهم الحنيف وتقاليدهم العريقة وتراثهم العظيم ، فلمصلحة من يستبدلون حضارة مستوردة لا تتفق في كثير من وجوهها واتجاهاتها مع الدين الإسلامي والتراث الإسلامي والتقاليد العربية الإسلامية بحضارتهم ؟ .

وآمل أن يكون ما أردته مفهوماً ، وبخاصة من أصحاب (الانفتاح) الذين لا ينفكون يردّدون هذا التعبير بمناسبة وبغير مناسبة ، حتى ضيّعوا أنفسهم وضيّعونا وضيّعوا شعبهم وبلادهم ، فقد اقتبسنا من الحضارة الغربية قشورها ومظاهرها ، وهذه القشور والمظاهر قد تناسب غير العرب والمسلمين ولكنها لا تناسبهم في حال من الأحوال ، لأنها تناقض تعاليم دينهم وتقاليدهم وتراثهم وتقودهم إلى الهاوية . ومن المؤسف حقاً أن أصحاب المُثُل العليا من الغربيين يشكون مُرَّ الشكوى من قشور حضارتهم ومظاهرها ، ويرون تمسّك

شبابهم بها مؤشراً واضحاً على تفسّخهم وانحلالهم ، كما أنها من مخططات الصهيونية العالمية لإفساد العالم ليسهل عليها التحكّم والسيطرة عليه .

والذين اقتبسوها من المسلمين والعرب ، هم كالذين يحاولون بناء الهرم من القمة ، لا يفعلون شيئاً إلاّ إلحاق الضرر بحاضرهم ومستقبلهم ، ثم لا يبنون شيئاً !!

أما ما يفيد العقل والعلم وبخاصة العلوم التطبيقية من الحضارة الغربية ، فمن الضروري اقتباسه وتعلّمه وتعليمه ، فالحضارة ـ كلّ حضارة ـ عالمية ، شارك فيها مفكرو الأمم وعلماؤها وأدباؤها ، والعرب والمسلمون لهم قسط وافر في إقامتها ، والإسلام يأمر بالعلم وينهى عن الجهل ، ولكنه يأمر بالعلم الذي يفيد لا بالذي يضرّ ، وبالذي يبني لا بالذي يخرِّب ، ونقل الحضارة الغربية بكل ما فيها من نور وظلام ، كما دعا إليه بعض المسلمين والعرب ، مرفوض رفضاً باتاً ، والمطلوب هو نقل النور لا نقل الظلام .

وجريمة الاستعمار أنه استقدم معه قشور حضارته ومظاهرها إلى بلاد العرب وديار المسلمين ، وشجّع على المنكر والفحشاء ، وبوّأ الأشرار والمخربين الذين نقلوا الشر والهدم والتخريب أعلى المناصب ، وحكّمهم في رقاب أبناء جلدتهم ، كأنه كان يلقي في روع العرب والمسلمين بأنّ الذي يسير في ركابه يحظى بالسُّلطة والجاه والمال ، والذي لا يطاوعه يحظى بالفقر والحرمان والإهمال ، وبذلك جعل العملة الرديئة تسيطر على العملة الصّالحة .

ولم تكن بلاد العرب والمسلمين تعرف البغاء العلني والحانات والملاهي ودور الميسر وصالات الرقص ، ومصارف الربا والقوانين الوضعية قبل الاستعمار والاحتلال ، كما لم تكن تعرف أدباء المخدع ورقوق الخَيالة الخليعة ، والسخرية بالدين وعلماء الدين والتراث والعربية الفصحى ونشر العامية على نطاق واسع في أجهزة الإعلام ، وتقويض المدارس والمعاهد والجامعات الدينية التي تعلِّم الدين والعربية والتاريخ الإسلامي ، واضطهاد رجال الدين والعربية والحطّ من مكانتهم وكفاياتهم واستعباد المرأة باسم

تحريرها .

تلك هي قشور الحضارة الغربية ومظاهرها التي يجب أن يرفضها العرب والمسلمون ويتخلّوا عنها ، وتلك هي مخلّفات الاستعمار وأيامه السوداء في البلاد العربية والإسلامية .

وإذا كان هدف الاستعمار والصهيونية من إشاعتها تمييع العرب والمسلمين وجعلهم أمة لا تقاتل أبداً عن دينها وأرضها وعرضها ، فلماذا يُبْقي عليها أصحاب السلطان من العرب والمسلمين بعد أن تخلّصوا من براثن المستعمِرين ؟!

إنّ المسؤولين العرب والمسلمين الذين يحرصون على الحفاظ على مخلفات المستعمِر وتعميق مخلّفات الاستعمار وآثاره ، خلافاً لمصلحة العرب والمسلمين العليا ، لا بدّ أن يكونوا عملاء للمستعمِر أو خلائفه أو أيتامه ، أو يكونوا ملوثين بقشور حضارة المستعمِر ومظاهرها ، وإلاّ فإنّ أيّ عاقل منصف لا يستطيع أن يسوِّغ سكوت هؤلاء المسؤولين على تدمير دينهم وتخريب شعوبهم .

لقد بلغ الاستعمار الفكري المدى في بعض العقول والقلوب العربية المسلمة ، دون أن نحسب حساب تأثير هذا الاستعمار التدميري في العرب والمسلمين ، ودون أن نحسب حساب تأثيره المخرب في حاضرهم ومستقبلهم ، ودون أن نفكِّر أنه استعمار أقسى من الاستعمار السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي ، وأنه (غاية) لكل أنواع الاستعمار .

وقد عالج المؤرخ البريطاني (توينبي) هذه المشكلة : مشكلة استقلال البلاد العربية والإسلامية ، مع بقائها متمسِّكة بالاستعمار الفكري ، وسأسوق نماذج من أقواله ليطّلع عليها منْ لا تطربهم مغنية الحي ، قال : « ولكنّ الغرب ما زالت له (السيادة) في الميدانين الاقتصادي والثقافي ، فالسيطرة الثقافية المستمرة للغرب ، هي بقيّة من بقايا سيطرته السياسية السّابقة . أما على الصعيد السياسي ، فإن البلاد التي كانت خاضعة لسيطرة الغرب بطريقة

مباشرة ، قد استردّت الآن كلّها تقريباً استقلالها من الغرب ، ولكن هذه البلاد التي استقلّت سياسياً ما زالت غير متحرِّرة تماماً من الوجهة الثقافية ، فهي لا تزال متأثرة بالأفكار والمثل العليا الغربيّة دون تمييز ودون أيّ انتقاد لها[1] .

وقال : « على أنّ هذه البلاد التي نجحت في أن تحرِّر نفسها من سيطرة الغرب السياسيّة ، قد استغلّت حريتها في نحوٍ غير متوقّع على الإطلاق . فقد ناضلت هذه البلاد بعنفٍ شديد ضد السيطرة السياسية للغرب ، ويمكن القول بأنّ كفاحها هذا قد كُلِّل بالنجاح في كل الحالات حتى الآن . ولقد كان من المتوقع بعد أن تمكنت من أن تتحرر سياسياً من الغرب ،أن تستخدم هذه الحرية الجديدة التي اكتسبتها في النضال ضد المدنية الغربية بوجهٍ عام ، أي أنه كان من المتوقّع أن تستخدم هذه البلاد حريتها المكتسبة حديثاً لكي ترجع إلى أُسلوبها التقليدي في الحياة ، وهو الأُسلوب الذي كان سائداً في حياتها قبل أن يسيطر عليها الغرب ، ولكنّ الذي حدث في جميع الحالات ، تقريباً كما نعلم ، هو أنّ البلاد التي تحرّرت حديثاً قد استخدمت حريتها للغرض العكسي تماماً ، أي أنها قد استخدمتها لتقتبس بمحض اختيارها عناصر من المدنية الغربية ، أعني في أسلوب الحياة الحديثة ، وقد فعلت ذلك بحماسة ، وبلغت حماستها هذه حداً لم يكن الحكّام الغربيون السابقون يجرؤون على أن يفرضوا المدنية الغربية عليهم ، ذلك لأنّ نظام الحكم الأجنبي يتعيّن عليه دائماً أن يكون أكثر حذراً من نظام الحكم القومي ، وهناك أمور لا يجرؤ النظام الأجنبي على فعلها مطلقاً ، ومع ذلك يجرؤ عليها النظام القومي »[2] . ويقول : « ولكنني أعتقد أنه سيكون من سوء حظ الجنس البشري كلِّه ، وضمنه الغرب ذاته ، أن يتجه الجزء غير الغربي من العالم إلى قبول المدنية بكل عناصرها دون تمييز ودون تفرقة بين ما هو نافع وما هو ضار . وأقول : إنّ هذا يكون من سوء الحظ ، لأنّ المدنية الغربية ، شأنها شأن أية مدنيّة أخرى ، فيها أوجه نافعة وأوجه ضارة »[3] . وقال : « ذلك لأن المستوى المادي للمعيشة ، ليس (غاية) في

(١) محاضرات آرنولد توينبي (٣٥)
(٢) محاضرات آرنولد توينبي (٣٦)
(٣) محاضرات آرنولد توينبي (٣٧)

ذاته ، وإنما هو (وسيلة) لغاية أخرى هي رفع المستوى (الروحي) للحياة »[1] .

وقال : « وعلى ذلك فمن وراء رأس المال المادي ، يوجد رأس المال الإنساني ، وهو أهم رأس مال يملكه البشر»[2]. وقال :«وهكذا فمن الممكن أن تؤدي الفردية إلى نتائج ضارة بالمجتمع ، إذا لم توضع تحت السيطرة الأخلاقية»[3] .

وقال أيضاً :«ففي الغرب أناس قد اعتادوا حياة النشاط العملي إلى حد أنهم يصرفون أوقاتهم في ممارسة أمور عملية تافهة لا جدوى منها ، حتى لا يضطروا إلى مواجهة أنفسهم مواجهة روحيّة صريحة ، والتحوّل إلى عالمهم الداخلي ، وممارسة التأمل الباطن في حياتهم . هذه الصفة هي ما يسميه علماء النفس بالطابع الانبساطي التي يتمّ على حساب الطابع الانطوائيّ . والواقع أن عجز الإنسان عن التأمل الروحي الباطن ، يتضمّن إهداراً لإنسانيته لا يقلّ عن ذلك الذي يتضمنه عجزه عن النشاط العملي . فلكي يكون المرء إنساناً بحق ، عليه أن يجمع ويوفّق بين نوعي السلوك هذين في الظاهر والباطن . وهكذا فإنّ التأمل والصّلاة ليسا بأقل أهمية من النشاط العملي الخارجي من حيث هما عنصر ضروري لا غنى عنه في حياة الإنسان »[4] .

وأشهد أن هناك في تراثنا العربي الإسلامي ما هو أفضل من هذا الذي قاله توينبي ، كما أنّ المخلصين من مفكرينا وعلمائنا قالوا أفضل مما قاله هذا الأجنبي ، وقد تحدّث بما ذكره لأنه شخصياً متذمِّر من قشور مدنيّة الغرب ومظاهرها، ويتمنى أن يتخلّص منها الغربيون قبل أن تقودهم إلى الهاوية ، كما تذمّر منها عدد لا يحصى من مفكري الغرب وعلمائه المخلصين ، والعرب والمسلمون لا ينصتون بعد أن استقلوا وملكوا أمرهم إلى آراء مفكريهم وعلمائهم المخلصين ، ولا يسمعون ما يردده مفكرو الغرب وعلماؤه المخلصون ، بل ينصتون إلى المريبين من مفكريهم وعلمائهم الذين نصحوا لهم أن ينقلوا المدنية الغربية بما فيها من خير وشر إليهم ، وهؤلاء الذين قدّموا هذا

---

(١) محاضرات آرنولد توينبي (٤٠)

(٢) محاضرات آرنولد توينبي (٤٢)

(٣) محاضرات آرنولد توينبي (٤٢)

(٤) محاضرات آرنولد توينبي (٤٤) .

النصح ماسونيون وموالون للاستعمار والصهيونية ، كما أثبتت ذلك الدراسات الحديثة وكشفته المعجمات الماسونية التي صدرت وفي صفحاتها أسماء أقطاب الماسونية ، وكما تكشفه الصهاينة بشكل أو بآخر ، وقد قرأت أخيراً مقالاً يتحدث عن المؤلفات التي ترجمها الصهاينة لأدباء عرب ، وذكر الكاتب أنّ هؤلاء الأدباء العرب صرّحوا أنه لم يفهم أحد ما كتبوه كما فهمه الصهاينة ، وقال أحدهم لكاتب صهيوني :«إنّ صلتي بكم قديمة . . »هكذا بدون خجل أو حياء ، وكل الذين ترجم لهم الصهاينة لم يكتبوا حرفاً ضد الصهيونية وكان موقفهم منها موقف المتفرج ، فكيف يمكن الثقة بأمثالهم وكيف يستسيغ عاقل ما ينصحون به ، وهم الرَتَل الخامس للاستعمار والصهيونية ما في ذلك أدنى شك .

ولماذا لا يستمعون إلى ما قاله مفكرو الغرب وعلماؤه المخلصون ؟

إنهم لا ينصتون إلى المخلصين من مفكري العرب والمسلمين ، ولا يستمعون إلى ما يقوله المخلصون من مفكري الغرب وعلمائه ، بل ينصتون إلى المربيين من مفكريهم وعلمائهم الذين ارتفعوا على أكتاف الاستعمار والصهيونية وربيبتها الماسونية !

ولا يستمعون إلى ما قاله المخلصون من مفكري الغرب وعلمائه ، بل ينصتون إلى جواسيسه وعملائه ومبشريه وصهاينته !

إنّ العرب والمسلمين بعد استقلالهم يخربون بيوتهم بأيديهم ، فاعتبروا يا أولي الأبصار .

لقد ذكر توينبي ، أنّ العرب والمسلمين لا يزالون يعانون من الاستعمار الفكري ، وأنهم متأثرون بالأفكار والـمُثل العليا الغربية دون تمييز ودون أيّ انتقاد لها ، وأنهم لا يزالون يقتفون آثار الاستعمار التي أدخلها على مجتمعاتهم لتخريبها ، وأنهم أدخلوا إلى بلادهم وشعوبهم ما لم يجرؤ الاستعمار على إدخاله إلى بلادهم وشعوبهم ، وأنهم نقلوا المدنية الغربية دون تمييز بين ما هو نافع وما

هو ضارّ ، وأنهم أصبحوا يهتمون بالقضايا المادية لا بالقضايا الروحيّة ، أي أنهم أضاعوا الصّلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غياً .

وهنيئاً للاستعمار وهنيئاً للعدو الصهيوني ، وهنيئاً لكل أعداء العرب والمسلمين على ما فعله العرب والمسلمون بأنفسهم و بمحض اختيارهم و بإرادتهم وأيديهم !!

لقد بذل الاستعمار جهوداً جبارة لهدم اللغة العربية الفصحى ، فماذا فعل العرب والمسلمون (عملياً) للحفاظ على لغة القرآن ؟

إنّ الإذاعات المرئية والمسموعة في البلاد العربية بخاصة تعمل عملها التخريبي في هدم العربية الفصحى ، فمن النادر أن تسمع مذيعاً يضبط النطق العربي صرفاً ونحواً ، وأكثر المذيعين يخاطبون المستمعين والمشاهدين باللهجة العامية ، و يمزج قسم منهم هذه العامية بلُكْنة أجنبية !!

ومن المهم جداً أن أذكّر المسؤولين الكبار في البلاد العربية ، بأنهم مسؤولون عن إلقاء خطبهم بالعربية الفصحى ، لأنهم قدوة شعوبهم ، وعدم التزامهم بالفصحى و إيثار العامية عليها ، يؤثّر في تلك الشعوب أسوأ تأثير ، لأنهم يقلّدون المسؤولين الكبار ، والناس على دين ملوكهم .

وأعداء العرب والمسلمين يستهدفون من إشاعة العامية قتل العربية الفصحى ، قتلاً ، أفيتطوّع كبار المسؤولين لتحقيق هدف حيوي لأولئك الأعداء ، والمفروض أن يحبطوا أهداف الأعداء لا أن يتطوّعوا لتحقيقها !!

وذكرنا أنّ الاستعمار والصهيونية بذلوا جهودهم المضنية لتفتيت العقيدة ، وقد استمر هذا التيار بعد الاستقلال ، حتى وجدنا مَنْ يفخر بالإلحاد و يفخر بنبذ الإسلام !!

لقد قُلِّص التعليم الديني في المدارس ، وأصبح درس الدين درساً ثانوياً ، وخلت المساجد من الوعّاظ والخطباء والأئمة وقرّاء القرآن الكريم .

كما انسلخت دول إسلامية عن الدين ، فصدرت في دولة إسلامية

مراسيم أطلق عليها : مراسيم الإطاحة بالدين .

وشُـوِّه التاريخ الإسلامي بأفكار لا صحة لها ، كالقول بأنّ الفتح الإسلامي كان لأسباب إقتصادية !! كأنّ العرب كانوا أغنياء قبل الفتح !

ومـن المذهـل أنّ الـذين أوكل لهم ، : إعـادة كتابـة التـاريخ العربـي الإسلامي ، لا يعتبرون للعرب وزناً وللإسلام قيمةً ، لأنهم خريجو أساتذة من يهود وصليبيين ، وهم يكتبون التاريخ العربي الإسلامي بأقـلام معـادية غـير نزيهـة ، كما أنهـم لم يطّلعـوا على التـاريخ العربـي الإسلامـي في مصـادره المعتمدة ، بل اقتصر اطلاعهم على مراجع يهود والمستشرقين ، فيترجم الذين يشرفون على إعادة التاريخ العربي الإسلامـي ما كتبـه المستشرقـون ويهـود ، وينسبون ما ترجموه لأنفسهم دون حياء !

واستشرى نشاط الإرساليات التبشـيرية في ديار العرب والمسلمين في أيام الاستقلال ، وكان الاستعمار قد شدّ أزرها في أيامـه ، لأنّ المبشرين مهّـدوا للاستعمار وعملوا تحت لوائه حتى في مجالات التجسّس والمخابرات ، كما ثبت ذلك بشكل لا شك فيه .

ولما ذهب الاستعمار إلى غير رجعة بإذن اللـه ، بقـي التبشـير ركيزة من ركائزه ، حاملاً لأهدافه التخريبيّة ، داعياً لحضارته المسيحية ، مروِّجاً لمبادئه .

وقد ورثت الإرساليات التبشيرية أحقاد الحروب الصليبية ، وارتبطـت ارتباطاً وثيقاً بأهداف الدعوات الاسـتعمارية ، ومـن المعـروف أنّ الحـروب الصليبية لم تكن من أجـل الـدين المسيحـي من بعيد أو قريب ، بل كانـت للاستعمار والاستغلال واستثمار الموارد ، كما أثبت ذلك مؤرخو النصرانية قبل غيرهم ، إذ لو كانت من أجل الدين المسيحي فحسب ، لما ارتكب الصليبيون المجازر البشعة التي تناقض مبادىء المسيح عليه السّلام .

كما أنّ التبشير هو الممهِّد للاستعمار الغربي القديم والحديث ، والمحرِّض عليه ، وصلة الاستعمار بالتبشير معروفة جداً لا تحتاج إلى دليل ، فلا عجب أن

تموِّله المصارف الأجنبية والشركات الاحتكارية والدول الاستعمارية التي لا يقيم أكثرها وزناً للدين حتى في بلادها ، والعدو الصهيوني الذي لا علاقة له بالمسيحية .

والجديد في أمر الإرساليات التبشيرية ، هو دعمها من العدو الصهيونيّ والصهيونية العالمية في أفريقية وآسيا ، لا حباً بالمسيحيّة ، ولكن كرهاً للإسلام ، فالذي يَتَنَصَّر من غير المسلمين ، يكون ولاؤه للدولة الاستعمارية التي نصّرته، والذي يعتنق الإسلام يكون ولاؤه للعرب والمسلمين الذين يحاربون الصهيونية ويطمعون في إنقاذ الأرض المقدسة منها.

ووسائل الإرساليات التبشيرية لاستقطاب مَنْ حولها من الناس هي المدرسة والمعهد والجامعة ، والطبيب والدواء ، والمستشفى ، والطعام والكساء .

وقد كان لذلك كلِّه تأثير هائل في تنصير غير المسلمين والمسلمين أيضاً، وحسبنا ان نعلم أنّ لقسم من الإرساليات التبشيريّة مطارات خاصة بها وطائرات،بالإضافة إلى وسائط النقل الأخرى ، وتحت تصرفها أموال طائلة وطاقات مادية ومعنوية أخرى .

كما أنّ المبشرين مدرّبون تدريباً عالياًومتعلّمون ،ويحسنون اللُّغات المحليّة ومستعدون للعمل في المناطق النائية البعيدة عن الحضارة والعمران في أقسى الظروف الجوية والأحوال الأمنية .

وقد علمت أنّ قسماً من الإرساليات التبشيرية تدرِّب المرتزقة من الرجال من مختلف الجنسيات على فنون القتال ، بحجة حماية تلك الإرساليات شكلياً ، وليس لذلك أيّ معنى إلاّ السعي الحثيث إلى الانفصال .

إنّ أهمية مكافحة الإرساليات التبشيرية تبلغ إلى حد الرسالة من الناحية الوطنية دفاعاً عن النفس والشعب والوطن ، وقد حدثني رئيس وفد رسمي تجوّل في أقطار أفريقيّة الوسطى ، أنّ المسلمين وحدهم هم الذين احتفوا بالوفد

واستقبلوه والتفوا حوله ، وهم وحدهم يتبنّون الدفاع عن القضايا العربية وعلى رأسها قضية فلسطين .

فإذا لم نغضب لديننا الذي يحاول المبشرون أن ينصِّروا المسلمين كما هو الحال في أندونسيا وفي كثير من الدول الأفريقية ، فلنغضب من أجل قضايا العرب المصيريّة وقضية فلسطين .

لقد عقد مؤتمر للحوار بين المسلمين والمسيحيين عام ١٩٧٥م في مدينة طرابلس الليبيّة ، وكان يتولّى الحوار اثنا عشر عالماً من المسلمين واثنا عشر عالماً من المسيحيين ، وكان بين العلماء المسيحيين اثنان من العلماء ارتقيا إلى درجة عالية في الكهنوت المسيحي وأصلهما مسلمان .

وهناك رئيس جمهورية إفريقية هو ليوبولد سنغور ، كل أهله مسلمون حتى اليوم وهو وحده تنصّر منذ كان طفلاً ، حيث احتضنته إرسالية تبشيرية وعمره ست سنوات ، فنصّرته ورعت تربيته حتى أصبح رئيساً للجمهورية !

واستطاعت إرسالية تبشيرية تنصير ولد من أولاد داعية إسلامي في إحدى دول غربيّ إفريقية !

على العرب والمسلمين أن يقضوا على الإرساليات التبشيرية في بلادهم ، ليضمنوا أمن بلادهم الداخلي ، فالتساهل مع عملاء الاستعمار وأذنابه ليس تساهلاً بل ضعفاً ، وإلاّ فكيف نعلِّل إنشاء حتى محطات إذاعة خاصة للمبشرين ، تبث سمومها في قسم من البلاد العربية والإسلاميّة ، وتناهض الدين الحنيف بالبدع والأراجيف ؟

أهذا يسمى تساهلاً ، وهل تسمح للعرب والمسلمين بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية ان يُقيموا محطة إذاعيّة في بلادها ، تشتم فيها المسيحية والمسيحيين ؟

وكيف تسكت الدول العربية والإسلامية على بقاء مخلفات الاستعمار بعد أن استقلّت هذه الدول وذهب الاستعمار ؟

وتحدثنا عن غياب شريعة اللّه في البلاد العربية والإسلامية ، لأن المستعمِر فرض قوانينه الوضعيّة على البلاد المستعمَرة ، تلك القوانين التي أباحت الفسق والفجور والفحشاء والخمر والربا والميسر وحلّلت ما حرّم اللّه .

ولم يرض آباؤ نا عن تلك القوانين ، وكان فرضها سبباً من أهم أسباب ثورات العرب والمسلمين على الاستعمار والمستعمرين !

ومضى الاستعمار ، وبقيت قوانينه في بلادنا بعد الاستقلال ، دون أن نبذل جهداً للتخلّص منها ، إذا لم أقل أننا بذلنا جهداً لبقائها بعد أن فرضنا قوانين جديدة لم يجرؤ المستعمِر في أقسى أيامه السُّود أن يفرضها في بلاد العرب والمسلمين .

إنّ فجور القانون الوضعي يبيح للمتزوج أن يعاشر غير زوجته معاشرة الأزواج ، فإذا أحيل على القضاء ودفع بأن التي يعاشرها زوجته الثانية عوقب بموجب القانون ، وإذا دفع بأنها خليلته برّأه القانون ، أي أنّ هذا القانون يعاقب على الزواج الشرعي بزوجة ثانية ، ولا يعاقب على الزنا !!

وقد تفتقت عبقرية رئيس من رؤساء الدول العربية والإسلامية عن الإفتاء بتحريم الصوم في رمضان !

وتفتقت عبقرية رئيس آخر عن تحريم الخوض في المساجد بأمور الدنيا والاقتصار على أمور الآخرة فحسب !

تلك لمحات من ثمرات الاستقلال في المجال التشريعي .

أما المُثُل العليا ، فقد سحقت سحقاً في أيام الاحتلال وأيام الاستقلال على حدٍ سواء .

وبذور الشر التي غرسها الاستعمار في محاربة المثل العليا الإسلامية ، أثمرت ما نراه من إنحلال وتهتّك في أيام الاستقلال .

وربما نفخر في أيام الاستقلال بالمنجزات المادية ، وهذا خير بدون

شك ، ولكنّ الناحية الروحيّة بقيت مهملة حتى اليوم .

وكان الأمل أن تولي الحكومات بعد استقلال بلادها الناحية الروحية ، الحرص نفسه الذي أولته للناحية الماديّة ، لتبني شعباً لا يغلب أبداً ، ولكنها وجهت كل جهودها إلى المادة وحدها وتركت الناحية الروحيّة مهملة على أقل تقدير .

وما نجده من نشاط ديني ، هو من ثمرات الأشخاص لا من ثمرات الحكومات .

إنّ المسجد اليوم يخرِّج الموظفين ، والعرب والمسلمون بحاجة إلى علماء دين ، ففي مصر بلد الأزهر الشريف يفتقر أكثر من عشرين ألف مسجد إلى علماء الدين .

وما يقال عن الأزهر يقال عن : القرويين والزيتونة ومساجد المسلمين .

فهل خبا نور المسجد بعد حربه من الاستعمار وعقوقه من الاستقلال ؟!

إنه لا يزال يبعث النور ، وقد لفظ الاستعمار أنفاسه وبقي المسجد ، وسيلفظ أنفاسه كل مَنْ يصاول رسالة المسجد ، لأنها رسالة اللّه .

وما دام القرآن يُتلى صباح مساء ، فالمسجد بخير إن شاء اللّه .

***

التربية والتعليم

في ظل الاحتلال والاستقلال

التربيـة والتعـليم في عهـدِ الاحتـلال

عمل كثير من الضباط العرب في الجيش العثماني ، وتخرّجوا في الكليات العسكرية العثمانية ، ولكنّ أكثرهم آثروا البقاء في الأقطار العربيّة بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها (١٩١٤ ـ ١٩١٨)، وخسرت الدولة العثمانية الحرب .

وكان يوم ٦ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢١ هو يوم مولد الجيش العراقي الحديث ، وكان الضباط العراقيون الذين تخرجوا في الكلية العسكرية بإسلام بول(إسطنبول) وبقوا في العراق قد فقدوا عملهم في الجيش العثماني وأصبحوا بدون عمل ، فاستدعى القائمون على تأسيس الجيش العراقي قسماً من أولئك الضباط للمساهمة في بناء الجيش العراقي الوليد ، فلبّوا الدعوة وبدأوا عملهم في الجيش الجديد .

ولم يكن هؤلاء الضباط يخفون نقمتهم على المستعمِر البريطاني ، وكانوا يلقنون الضباط الأحداث والمراتب والجنود كره المستعمِر ونقمتهم عليه ، مما استثار غضب المستعمِر ، فحاول التخلّص منهم بالتقاعد أو بالنقل إلى الوظائف المدنيّة .

وقد كتب المرحوم الفريق الركن طه الهاشمي رئيس أركان الجيش الأسبق في الجزء الأول من مذكراته ، أنّ مسؤولاً بريطانياً كبيراً قصد السفارة البريطانية في بغداد ، وتذمّر من الضباط في الجيش ، بحجّة أنهم يربّون الأحداث من الضباط والمراتب والجنود على كره الاستعمار، ويعلّمونهم الحقد على

المستعمرين ، مما سيؤدي إلى صعوبة السيطرة على الجيش في الحاضر والمستقبل .

وكان هذا البريطاني يحدِّث الست (بيل) ،وهي مسؤولة كبيرة في السفارة البريطانية ببغداد في حينه ، فقالت له ـ كما يروي الهاشمي في مذكراته ـ: « لقد أعددنا مناهج تربوية لتنشئة أجيال كما نريد لا كما يريد الضباط العرب الذين خدموا في الجيش العثماني ، ولن يستطيع هؤلاء الضباط ولا أمثالهم أن يؤثِّروا في تلك الأجيال تأثيراً يحرفها عن طريقنا أو يجعلها تحيد عنه ، فاطمئن ولا تقلق فقد أعددنا لكل شيءٍ عدّته » .

ومناهج التربية الاستعمارية التي تجعل الشعوب المستَعْمَرة تسلك الطريق الذي رسمه الاستعمار لها ، عبارة عن مناهج تشلّ قدرة تلك الشعوب على الانطلاق في مجال (الهجوم) للاستيلاء على بلاد أخرى ، وعلى الانطلاق في مجال (الدفاع) للتخلّص من الاستعمار ومن الاعتداءات الخارجيّة الأخرى ، وعلى الانطلاق في (الثقة) بالنفس لمجرّد التفكير في استعادة حقوقها المغتصبة .

بل تحاول تلك المناهج أن تذهب إلى مدى أبعد ، هو (انبِهار) الشعوب المغلوبة على أمرها بالعدو المستعمِر ، إلى درجة اعتقادها بأنّ المستعمِر قوة لا تُقْهر ، وحضارته أعظم الحضارات ، ورجاله أعظم الرجال ، وتاريخه أصحّ التواريخ ، وعلماءه أبرز العلماء ، ولغته أحسن اللغات ، وصناعته أتقن الصناعات ، وفنّه أرقى الفنون ، وأدبه أبلغ الآداب ، وأسلوبه الحياتي خير الأساليب .

ونتيجة لذلك يصبح المتكلِّم بلغة المستعمِر هو وحده المتحضِّر ، والمتخرِّج في جامعاته هو وحده المتعلِّم حقاً ، الذي إذا نطق تدفَق العلم منه تدفقاً !

ويقابل ذلك أنّ تلك المناهج تحاول أن تربي المستعمَر على (الاستخذاء) الكامل بالنسبة للشعوب المغلوبة على أمرها، إلى درجة اعتقادها بأنّ قوتها عاجزة ، وحضارتها تافهة ، ورجالها ضعفاء ، وتاريخها مكذوب ، وعلماءها

أدعياء ، ولغتها ميتة ، وصناعتها متخلِّفة ، وفنهـا طفيف ، وأدبهـا كسيح ، وأسلوبها في الحياة مُخْجل !!

(الانبهار) بالمستعمِر ، يقابله (الاستخذاء) في المستعمَر !!

بل قد يبلغ (الاستخذاء) في قسم من الشعوب ، أو في قسم من أفرادها ، حداً يصل إلى الاعتقاد بأنّ المستعمِر جاء يحمل رسالة الحضـارة إلى الشعـوب الضعيفة المتخلِّفة ، وأنّ الحياة بدون الاستعمار مستحيلة ، لأنّـه المدافـع عن الكيان والحامي للبلاد !

تلك هي زبدة مناهج المستعمِر التربويّة بالنسبة للشعـوب المغلوبـة على أمرها ، وهي التي وضعت في مجال التطبيق العملي للتربية والتعليم في البلاد العربية والإسلامية كافة بدون استثناء .

وقد نجحت تلك المناهج في كثير من الدول العربية والإسـلامية ، فلا يزال قسم من المتعلمين يرطن بدون مناسبة بلغة المستعمِر ليثبت أنه متحضرٌ ، ولا يزال المتعلِّـم في جامعـات المستعمِـر لا يمـلّ من تكرار : « لما كنـتُ في جامعة . . . » ليثبت أنه متفوِّق في علمه . . .

ومن آثار المناهج الاستعمارية في مجـال التـربية والتعليم ، أنّ قسماً من الشعوب العربية لا تزال حتى اليوم بعد استقلالها لديها (مـركّب نقص) تجـاه المستعمِر ، بقدر ما لديها (مركب عظمة) تجاه الشعوب العربية الأخرى .

وقد يجتمع عربيان أو أكثر من الذين يتكلّمون لغة المستعمِر في بلدهم أو في بلد عربي آخر ، فلا يتكلّمان إلاّ بلغة المستعمِر ليلفتوا إليهم الأنظار ، ولينظر إليهم الذين يسمعون رطانتهم نظر احترام وتقدير .

ومن المفاخر للأبوين أنهما تخرجا في مدرسة أجنبية ، وأنّ ذريتهما من بنين وبنات يتلقون العلم في مدارس أجنبية مقرها في بلدهما العربيّ .

بل من دلائل إثبات انفتاح الأبوين ، أنّ ذريتهما من بنين وبنات يتلقون العلم في مدارس أجنبية مختلطة .

وقد قرأت مرة في مجلة عربية ، تصريحات لزوجة رئيس دولـة عربيّة ، تفخر بأنّ ثيابها من أقمشة أجنبية صُنعت في عاصمة دولة مستَعمِرة ، وأنها لم تلبس في حياتها ثياباً من قماش صنع في بلد عربي ولا أعدّه خياط عربي .

وقرأت مرّة في صحيفة عربية ، أنّ مسابقة للرقص المختلط بين الشباب والشابات جرت في بلد عربي إسلامي ، حضرها آباء وأُمهـات المتسابقـين ، وكانت الجوائز فيها عبارة عن نوع من أنواع الخمر الأجنبي !

وكان إلى جانب وصف تلك الحفلة الداعرة صورة للأب والأم يحتضنان ابنتهما المراهقة التي يبلـغ عمرهـا ست عشرة سنـة ! وهما فرحـان مسروران فخوران !

وكثيراً ما تنصتُ إلى حديث قسم من الذين درسوا في الخارج أو زاروا بلاد المستعمِر أياماً معدودات ، فيستعملون كلمات أجنبية من لغة المستعمِر في كلامهم ، فيقولون : « إسمها في اللغـة الأجنبية الفـلانية (كذا) ، ولا أذكر اسمها العربي » ، وقد يكون الاسم العربي شائعاً إلى أبعد الحـدود معروفـاً حتى من الأميين ، ولكنّ الذين يفعلون ذلك يريدون أن يثبتوا أنهم تعلّموا في بلاد المستعمِر أو (تعمّدوا) في مياهه على الأقل !

ودأبتُ على ألا أسكت عن مثل أولئك النفر من المتفرنجين ، وقد ذهلتُ حـين نسي أحدهـم كلمـة (الحليب) العـربية واستعمـل عوضهـا الكلمـة الإنكليزية ، فسألته : « هل درست في إنكلترا » ، فقال : « كلا ، ولكننـي سافرت مع أخي المريض إلى لندن » ، وازداد ذهولي حين علمتُ أنه بقي في تلك المدينة أسبوعين !! وحينذاك تذكّرت قصة الرجل الحلبي الذي غادر بلده مدينة (حَلَبَ) في الشقيقة سوريّة إلى باريس في زيارة خاطفة لم تستغرق أكثر من أسبوع ، فلما عاد أدراجه ، تظاهر بأنه نسي حتى اسم حارته ، لأنه كان يسأل كلّ من يصادفه : « فين حارتنا ؟! » .

تلك هي أمثلة عابرة إن دلّت على شيءٍ فإنما تدلّ على (انبهار) المستعمَر بكل شيءٍ يمتّ بصلة إلى المستَعْمِر ، مما يجعله عاجزاً عن مقاومة المستعمِـر ،

مستخذياً له ، يائساً من جدوى مقاومته ، هذا إذا لم يصل إلى مرحلة الاعتقاد بأنّ المستعمِر جاء هبة من الهبات له ، لتحضيره وتمدينه والدفاع عنه .

وإذا كانت تلك المناهج الاستعمارِيّة وضعت للانبهار بالمستعمِر من جهة والاستخذاء له من جهة أخرى ، فإنها وضعت بالنسبة للشعوب الإسلامية بعامة وللشعب العربي بخاصة للقضاء المبرم على كل مقوِّماته ، واقتلاعه من جذوره التاريخيّة بحيث يستخذي استخذاءً كاملاً للمستعمِر ويرضخ لرغباته ويحقِّق له أهدافه . . ذلك لأن المستعمِر لا يخشى شيئاً خشيته للإسلام الصحيح الذي يجعل من المسلم الحق طوداً شامخاً ، لا يستخذي للمستعمِر ويقاوم الاستعمار بما له وروحه إلى آخر نَفَس ، ويعتبر نتيجة جهاده إحدى الحسنيين : الشهادة أو النصر . .

وهناك مقالات وبحوث ومؤلفات قديمة وحديثة لمفكرين من الغرب ، حذّروا قومهم تحذيراً سافراً وصارماً أيضاً من خطر يقظة المسلمين ـ وبخاصة العرب ـ ، وعودتهم إلى التمسك بأهداب دينهم الحنيف .

ولعلّ أحدث ما قرأته بهذا الصدد ما كتبه أحدهم [١] فقال : « ومنذ أن جمع محمد أتباعه في مطلع القرن السّابع الميلادي وبدأ أول الانتشار العربي ، أصبح على العالم الغربي أن يحسب حساب الإسلام كقوّة دائمة صلبة تواجهه عبر البحر الأبيض المتوسط . إنّ قوى الغرب المسيحية كانت تواجه العالم العربي على مدى ثلاثمائة وألف سنة في نهضته وانهياره »[٢] .

وكانت تلك الكلمات لوزير بريطاني لا يزال على قيد الحياة !

وأتساءل : لو أنّ عربياً مسلماً ، كتب في هذه الأيام ، مثل هذا الكلام : (المسيحية) ـ (الإسلام) ـ (العالم العربي) ، بهذا الأسلوب المتعصب المتهافت ، فماذا كنا نقول فيه ؟!

---

(١) هو الوزير البريطاني انتوني ناتنك .

(٢) مقدمة كتاب : العرب ، للوزير البريطاني انتوني ناتنك .

إنه لن يسلم حتى من إخوانه العرب المسلمين ، وأقلّ ما سيتهم به : إنه (رجعي) . . . ! . . .

لقد تيقّن الاستعمار ـ وهو على حق ـ بأنّ الإسلام هو روح المسلم وروح العربي ، لذلك حاول انتزاع روحه ليبقى العربي والمسلم المستعمَر جثة هامدة بدون حراك .

وقد دلّت تجارب المبشرين الذين مهدوا للغزو المسلّح ، استحالة تنصير المسلمين ، واكتشفوا أنّ الهجوم السّافر على الإسلام يستفز عناصر المقاومة الإسلامية ، فتفجر انفجاراً مروِّعاً .

لذلك نصحوا أسيادهم المستعمِرين ، بأن يركِّزوا على استعمار العقول ، وبهذا الاستعمار الفكري حاول الاستعمار إعادة ترتيب عقل المسلم بحيث يفكِّر منطلقاً من مقدّمات صليبيّة دون أن يخلع دينه ، ولا حاجة لتعميده بالماء المقدّس ، لأنه عُمِّد بالفكر غير المقدس .

وإذا تشرّب المسلم طقوس الحضارة الغربية ـ وهي حضارة مسيحيّة في سداهاولحمتها ـ، واطمأنّ إليها ، بل أيقن بتفوقها على حضارته ، لا مجرّد التفوق المادي ، بل الفكري والروحي أيضاً ، انهارت مقاومته ، وأصبح كالمدينة المفتوحة عُنوة ، مستباحة لكل طامع وناهب ومقتحم .

وما أسخف أن نتهم بمعاداة التقدم العلمي والصناعي الغربي ، بالعكس . . . إنّ ما نعنيه بالاستعمار الفكري هو أن نؤمن بأنّ عدوّنا الألد هو ولي نعمتنا . . . وأن يَنشأ جيل يؤمن بأنه يدين حتى بالحرّية للغرب! كلاّ ، إنه فقد الحرّية بسبب الاستعمار الغربي الذي احتلّ بلادة وقضى على حريته !!!

إنني أريد أن يقتبس العرب والمسلمون من الحضارة الغربية اللباب دون القشور ، العلم الذي ينفع ويمكث في الأرض دون المظاهر التي تضر وتصبح غُثاء كغثاء السيل .

أريد أن يقتبس العرب والمسلمون ما يبقي عليهم أصالتهم العريقة من

الحضارة الغربية ،لا ما يجتثهم اجتثاثاً من جذورهم التاريخيّة .

وقد انتبه المؤرخ ابن خلدون إلى أهمية الدين للعرب ، فقال : « إن العرب لا يحصل لهم الملك إلاّ بصبغة دينيَّة من نُبوءة أو ولاية أو أثر عظيم » [1] .

وتاريخ العرب كله خير دليل على ذلك .

أما مناهج التربية والتعليم الاستعمارية فقد استوردت القشور من الحضارة الغربية دون اللُّباب ، وما يضرّ لا ما ينفع ، وكان هدفها الحيوي من ذلك هو انتزاع محتوى الدين الذي يؤجج الجهاد ويضرم المقاومة ويعادي الاستعمار ، ليبقى الدين دون محتواه (عادة) لا (عبادة) ، ومظهراً لا مخبراً ، وداخل المسجد لا خارجه .

وتضافرت جهود الصهيونية والاستعمار ـ وبخاصة في البلاد العربية ـ ، لانتزاع سر مجد العرب وعزهم : الدين الحركيّ ، ليصبح للصهيونيّ هامة وقامة وصولجان وكرامة ، ولتقوم لهم في الأرض دولة ، على أشلاء العرب الذين لا حياة لهم ، لأنهم هجروا دينهم الذي قادهم إلى المجد .

ففي سنة ١٨٩٧ الميلادية ، عقد المؤتمر الصهيونيّ الأول في (بازل) بسويسرا ، وكان من مقررات هذا المؤتمر السرية إحياء التوراة لغة وشريعة وعقيدة .

ورصدت الصهيونية العالميّة لتحقيق هذا الهدف ملايين الجنيهات الذهبيّة كما ذكر (هرتزل) في مذكراته المنشورة ، لإحياء الدين اليهودي وغرسه في يهود عقيدة وشريعة ، ولإحياء اللغة العبريّة الميتة لتكون لغة قوميّة ليهود .

في هذا الوقت بالذات وبتأثير المال الصهيوني ، ظهرت أصوات غريبة ناشزة مريبة في أوروبا وفي البلاد المستعمَرة ، تشكِّك في القرآن لغة وعقيدة

---

(١) انظر التفاصيل في مقدمة ابن خلدون (١/ ٢٦٦) ـ بيروت ـ ١٩٦٧ .

وتشريعاً ومُثُلاً عليا ، ولكنّ هذه الأصوات قوبلت بالرّفض المطلق من العرب والمسلمين .

وفي سنة ١٩١٧ الميلادية ، صدر وعد بلفور الذي عزّز الأطماع الصهيونية التوسعية الاستيطانية وبعث آمالها ، فاشتدت عزائم الصهيونية العالمية والاستعمار على تحقيق أهدافهما التخريبية في الوطن العربي والبلاد الإسلامية الأخرى .

في هذا الوقت بالذات ، ظهرت أصوات عربية ناشزة مريبة تردِّد دعوة الغربيين من صهاينة واستعماريين إلى التخاطب والكتابة والتدريس باللهجات العامية تارة ،وتردِّد دعوتهم إلى كتابة العربية بالأحرف اللاتينية ، وتتّهم العربية بأنها لا تصلح لغة للعلوم والفنون ، وبأنها لغة الماضي السحيق التي لا تصلح للعصر الحاضر ، وهدف كل تلك الادعاءات والدعوات أن يصبح هذا القرآن مهجوراً ، وأن تصبح العربية الفصحى التي تربط العرب من المحيط إلى الخليج بإخوانهم المسلمين من المحيط إلى المحيط ، لغة المقابر والكهوف كما عبّر عنها أحد المريبين من العرب غير المسلمين مع الأسف الشديد !

وأتساءل : هل كانت صدفة من الصدف أن تطرح فكرة بعث التوراة لغة وعقيدة وتشريعاً وتوضع في مجال التطبيق العملي ، في نفس الوقت الذي تطرح فيه فكرة إماتة القرآن الكريم لغة وعقيدة وتشريعاً ومُثُلاً عُليا ؟

إنّ الذين يدَّعون أنّ هذا التوقيت : إحياء التوراة من جهة ، وإماتة القرآن من جهة أخرى ، صدفة من الصّدف ، لا بدّ أن يكونوا قد ألغوا عقولهم .

والذين يُصَدِّقون هذا الادعاء لا بدَّ أن يكونوا من السذاجة بمكان ، أو من المغرّر بهم أو الجهلاء أو من العملاء .

إنّ وراء محاولة إماتة القرآن الكريم لغة وعقيدة وتشريعاً ومُثُلاً عليا الاستعمار ، ووسيلته نفوذه وعملاؤه من عرب ومسلمين وأجانب

والمبشرون ؛ والصهيونية العالمية ، ووسيلتها دولة العدو الصهيوني والمال الحرام والماسونية بشتى أسمائها وشعاراتها وأجهزة الإعلام ، فلا عجب من قلب الحقائق ومحاولة إبراز كل من يصوِّب سهامه على العربية لغةً والإسلام ديناً ، وبالعكس محاولة حجب كل من يدافع عن العربية لغة والإسلام ديناً .

لقد اكتشفت أنّ الذين دعوا إلى العامية وإلى الحروف اللاتينية من الماسونيين ، وأنّ الذين رفعوا ذكرهم عالياً بين الناس عرباً ومسلمين وأجانب هم الاستعمار والماسونية .

وقد ترجم الصهاينة آثارهم إلى العبرية ، وصرّح الأحياء منهم بعد أن حصل اتصال مباشر بينهم وبين قسم من الصهاينة : أنّ الأدباء الصهاينة وحدهم استطاعوا فهمنا . . . كما ذكر أحدهم قائلاً : صلتي بكم - ويريد الصهاينة - قديمة !!

وكتب أحد الكتاب العرب عن الأدباء العرب الذين ترجمت آثارهم إلى العبريّة ، ولو كان هذا الكاتب مخلصاً لذكر : لماذا ترجم الصهاينة آثار هؤلاء ولم يترجموا لغيرهم من أدباء العرب ؟

والجواب على ذلك ، أنّ الذين ترجم لهم الصهاينة إما أن يكونوا من الماسونيين ، أو أنهم هادنوا الصهيونية ولم يهاجموها بكلمة مكتوبة واحدة .

وإلاّ لماذا لم يترجموا إلى العبرية كتاباً واحداً من آثار المرحوم عباس العقاد ؟

والجواب : لأنه ليس ماسونياً ولا هادن الصهيونية وهاجم الصهاينة .

إنّ أصابع الاستعمار والصهيونية والماسونية وراء أولئك الإمعات الخونة الذين حاولوا أن يطعنوا لغتهم من الخلف ، فأسبغت عليهم الماسونية والصهيونية والاستعمار نعوتاً كاذبة ومالاً حراماً ، وقد بدأ العرب يكتشفون سر شهرتهم ، وسيفضح اللّه اليوم أو غداً كل مَنْ أساء إلى دينه ولغته من قريب أو بعيد ، على رغم أنف أعداء العرب والمسلمين .

هؤلاء الذين استكانوا للاستعمار والصهيونية والماسونية ، لم يدخلوا في حياتهم مسجداً للصلاة ، والمسجد ينفي عنه الخبث كما ينفي الكير الخبث عن الحديد .

وحين تُوفي أحدهم ، حمله أهله إلى المسجد للصّلاة عليه ، فعلّق رجل يعرف الميت بقوله : « هذه أول مرة يدخل فيها المسجد » ، وقال آخر : « لماذا أحضرتموه إلى المسجد ؟ خذوه إلى الكنيسة » .

ولعلّ أطرف مناقشة جرت بين المرحوم الشيخ عبد العزيز البشري وعبد العزيز فهمي الذي تولّى الدعوة إلى كتابة العربية بالأحرف اللاتينية ، فكرمته مصر بإطلاق اسمه على أكبر شارع في ضاحية مصر الجديدة بالقاهرة ، وعلى القطار المحلي الذي ينطلق من ساحة التحرير بالقاهرة إلى نهاية شارع المنتزه بمصر الجديدة !!

قال الشيخ عبد العزيز البشري لعبد العزيز فهمي : « ولكن لماذا تدعو إلى كتابة العربية بالأحرف اللاتينية ؟! » ، فقال : « أريد أن أُعَمِّمَها !! » ، فقال البشري : « إنك تريد أن تُبَرْنِطَها لا أن تُعَمِّمَها » .

لقد كانت مناهج التربية والتعليم الاستعمارية ، تهدف إلى تخريج موظفين ، قادرين على القراءة والكتابة فحسب ، ولكنهم يجهلون علوم العربية ويعتقدون أنّ إتقانها مستحيل لأنها لغة صعبة لا تصلح للعلم ، وهي لغة متخلِّفة تقود الذين يقتصرون على تعلمها وحدها إلى التخلّف ، ولا يكون المرء مثقفاً حقاً إلاّ إذا تجاوزها إلى غيرها من اللغات الحية .

وقد فرض المستعمِر لغته على التلاميذ والطلاّب ، وزيّن لهم إتقانها بحوافز مادية ومعنوية .

وكانت تلك المناهج تهدف إلى التشكيك بالعقيدة الإسلامية ، وتردِّد الزَّعم بأنّ الدين يناقض العلم !! دون أن تذكر أي دين يناقض العلم ! أهو الدين الإسلامي ، أم غيره !!

وهذا الزعم قاله أوربيون عن دين غير الدين الإسلامي الذي يأمر بالعلم وينهى عن الجهل ، ويعتبر العلم عبادة من أجلِّ العبادات ، ومع ذلك كانت مناهج المستعمِر تردِّد ما زعمه الغربيون عن دينهم ، دون أن تُنبِّه إلى أنّ هذا الزعم لا ينطبق على الإسلام . كما أنّ المستعمِر أغدق على الموظف المدني وقتّر على الموظف الديني ، فلجأ الآباء لتعليم أبنائهم إلى المدارس المدنية ، ليعيشوا بعد تخرجهم فيها عيشاً رغيداً ، وكفّوا عن إلحاق أبنائهم بالمدارس الدينية ، حتى لا يموتوا جوعاً ـ كما يقولون ـ بعد تخرجهم فيها .

كما أنّ تلك المناهج أغفلت عمداً درس الدين، أوجعلت منه درساً هامشياً ، فكان المتخرج في تلك المدارس ، يجهل تعاليم الدين جملةً وتفصيلاً .

وقد كان في سجون قاسم العراق سنة **١٩٥٩** رجل مستقيم دمث ، ولكنه لا يصلي ، فلما فاتحته بوجوب أداء الصّلاة أطرق رأسه حياءً واحمرّ وجهه وقال : « لا أعرف أصلي » . وقد كان الرجل على درجة عالية من الثقافة ، وأبوه شهيد من شهداء الحرب العالمية الأولى ، ولكنه تعلّم في مدارس لا تعلِّم الدين بل تهاجمه سراً وعلانية وتضطهده ما شاء لها الاضطهاد .

كما عمل الاستعمار داخل المدارس وخارجها على إدخال قوانينه الوضعيّة وإبعاد شريعة اللّه ، وطعن المُثُل العُليا الإسلامية في الصميم .

لقد كان التلميذ والطالب ، الذي يقتصر على تلقي ما في مناهج التربية والتعليم الاستعمارية ، يتخرج وهو يجهل لغته ويكرهها ويحقد عليها ، ويجهل أبسط تعاليم الدين الحنيف ويتشكّك فيها ، ولا يخجل من عقوق لغته ودينه ، بل قد يفخر بهذا العقوق !

في عهد الاستقلال

حدّثني المرحوم الشيخ أمجد الزّهاوي في أواخر سنة ١٩٦٣ الميلادية ، أنه راجع أحد وزراء التربية والتعليم في العراق ، خلال الخمسينات من القرن العشرين ، على رأس وفد من علماء بغداد ، يستحثّه على تعليم العربية والدين في المدارس بحرص وأمانة و إتقان ، وكان الوزير يجلس على كرسي وثير دوّار ، كالكراسي التي يستعملها الحلاقون لزبائنهم ، وكان يستدير ذات اليمين طوراً وذات الشمال طوراً بكرسيه الوثير ، فقال الوزير : « ألا تعلمُ أنّ الدولة علمانية ؟! » .

وأهمل التعليم الديني في العراق وفي غيره من الدول العربية والإسلامية ، فحدث فراغ في أدمغة التلاميذ والطلاّب ، وكل فراغ لا يبقى فراغاً ، خاصة إذا كان هذا الفراغ في الأدمغة ، فجرى ملؤه بالمبادىء الوافدة الأخرى والعقائد الغريبة المختلفة ، وانجرف أبناؤنا نحو اليمين أو نحو الوسط أو نحو اليسار تبعاً للمبادىء والعقائد الجديدة التي اعتنقوها ، وأصبح أبناؤنا بإرادتنا بعد غياب الدين عن عقولهم وتوجيههم ،نهباً للغزاة الغاصبين الذين لا يريدون للعرب والمسلمين خيراً ، لأنهم من صفوف الأعداء لا من صفوف الأصدقاء .

وطالما سمعت مَنْ يتنهّد على الأيام الماضية ، فأقول له ما أعتقده : « إنّ تلك الغيوم هي التي جاءت بهذا المطر » .

وإساءة المسؤولين عن التربية والتعليم في الأيام المنصرمة من عهد

الاستقلال ، هي التي أدّت إلى ما أدّت إليه الأمور اليوم في الوطن العربيّ والبلاد الإسلامية ، ما في ذلك أيّ شك .

لقد استقدم إلى العراق في عهد الاستقلال رجل ماسوني يتنكّر للعربية والدين : يتنكّر للعربية لأنه لا يحسن نطقها إلاّ برطانة تركية ، ولكنه يحمل شعار القومية العربية فيكذِّبه لسانه الأعوج وتصرّفه الذميم ، ويتنكّر للدين ، لأنه يجهل تعاليمه ولا يلتزم بها ويعادي الذين يلتزمون بها .

وقد استبعد من المناهج كلّ تعليم جديّ للعربية ، وجعل درس الدين درساً ثانوياً !

وحدثني المرحوم الشاعر ناجي القشطيني عن هذا الماسوني المريب ، فقال : « أنشأ مكتبة ضخمة في داره ، ودعا لرؤيتها قسماً من العلماء والأدباء . وتجوّلت في المكتبة فلم أجد فيها كتباً في علوم الدين ، ولم أجد نسخة من القرآن الكريم ، فقلت له : المكتبة جيدة ، ولكن ينقصها نسخة من القرآن الكريم ، فقال : لا أسمح بدخول الأساطير في مكتبتي » .

وحدثني أيضاً قائلاً : « كلّفت وزارة التربية والتعليم وكانت يومها تُدعى وزارة المعارف ، الشاعر معروف الرّصافي لنظم قصيدة تكون نشيداً للمدارس . ونظم الرصافي قصيدته وقدّمها للمسؤولين ، فكلفوا مَنْ يُلحنها ، وعهدت إلى طالبات مدرسة للمعلمات في بغداد لإنشادها . ودُعي الرصافي وبعض الأدباء إلى دار ذلك المسؤول في التربية والتعليم ، ليستمعوا النشيد من الطالبات ، وقبل أن يُنشِدْن وُزِّعت عليهنَ كؤوس الخمر الأجنبي كما وزِّعت على المدعويين ، فاحتجّ الرصافيّ على توزيع الخمرة على الطالبات الحاسرات قائلاً : لم تبق موبقة دون أن أرتكبها ، ولكنني أرفض أن تعملوا على إسقاط بنات وطني بهذا الشكل وهذه الصورة ، ثم غادر الدار غاضباً » .

ولعلّ هذا الخبر الذي سمعته من ثقة لا أتهمه ولا يتهمه غيري بالكذب ، أول خبر خيرٍ أسمعه عن الرصافي من الناحية الأخلاقيّة ، والمهم أنّ الرصافي بما

كان عليه من انحلال خلقي بلـغ به المدى ، رفض تصرفـات ذلك الماسونـي المريب التخـريبية ، فكيف الحـال بالملتزمـين أخـلاقياً من أصحـاب الخلـق الكريم !

وقد كان هذا الدعيّ التافه يقيم الحفلات المختلطة الداعرة في بيتـه وفي الفنادق ، وكان يقيم حفلة سنوية في أكبر فندق من فنادق بغداد ، يدعو إليها المتفتّحين والمنفتّحات من الناحية الأخلاقيّة،والذين لا شهود لهـم على تمدنهـم وثقافتهم غير احتساء الخمر والرقص والتساهل بالأعراض . وكان هذا الداعي لهذه الحفلة السنويّة الداعرة بمناسبـة عيد ميلاد السيد المسيح عليه السّـلام ، يُسرف في تقديم الخمر وفي تشجيع المدعوين على احتسائـه وعلى الـرقص ، ولكي يثبت جذوره العريقة في المدنية والثقافة ، يبادر إلى التساهـل علنـاً في عرضه ليغري الآخرين بالتساهل !

ذلك نموذج واحد من قادة الفكر في عهد الاستقلال ، لعله يقيم الدليل على الاتجاه التربوي والتعليمي السائد في عهد الاستقلال ليس في العراق وحده بل في سائر الأقطار العربيةوالإسلامية.

وقد أحيل هذا الرجل على التقاعد بعد بلوغه السن القانوني ، ولـكن الحفلات كانت تقام في كل وطن عربي يقصـده ، كما انهالـت عليه دعـوات الجامعات العربية لإلقاء محاضرات فيها ، وانهالت عليه الأوسمة العربية من أرفع الدرجات ، وصدرت عنه البحوث والدراسات ، فلما توفي رثاه مَنْ يعرفه حق المعرفة ويعرف اتجاهاته التخريبية لمصلحة الاستعمار والماسونية ، ويستنكر تلك الاتجاهات سراً، أوحين يكون وحده يخاطب نفسه ،أوحين يكون داخـل الفراش،أوحين يختلي بامرأته يجاذبها أطراف الحديث . وقد اعترضت على أحد هؤلاء ، فقال لي : « الجميع يثنون عليه ، ولا أستطيع مخالفـة الإجمـاع » ، وهكذا سيطرت حتى على المخلصين روح القطيع .

وقد تذمّرنا من مناهـج التـربية والتعليم الاسـتعمارية ، لعـدم اهتمامهـا الواضح باللغة العربية أولاً ، وبالعقيدة الإسلامية ثانياً ، وبالشريعة الإسلامية

ثالثاً، وبالمُثل العليا العربيةوالإسلامية رابعاً وأخيراً .

فهل أكملت الدولة المستقلَّة نواقص مناهج التعليم والتربية الاستعمارية وقضت عليها قضاءً مبرماً ؟

وبتعبير آخر ، فإنّ العرب والمسلمين تخلّصوا من الاستعمار العسكري والسياسي والاستعمار الاقتصادي ، بشكل أو بآخر ، فهل تخلّصوا من الاستعمار الفكري ؟

لقد سالت دماء زكية من الشهداء الذين بذلوا نفوسهم رخيصة من أجل الاستقلال العسكري والسياسي والاقتصادي ، ولكن لم يبذل شيء يذكر من أجل الاستقلال الفكري ، بل لعَلنا بذلنا الجهد بقدر ما بذله المستعمِر في أيامه وأكثر من أجل توطيد أركان الاستعمار الفكري ،وترسيخه في مناهج التعليم والتربية التي وضعناها بعد الاستقلال .

ولو أنّ هيئة من الباحثين دقَقت في مناهج التربية والتعليم الاستعمارية تدقيقاً مستفيضاً ، ثمّ دقّقت في مناهج التربية والتعليم الاستقلالية تدقيقاً مستفيضاً أيضاً ، وركّزت في تدقيقها على ناحيتي اللّغة العربية والدين بخاصة ، لوجدت أنّ المنهجين متطابَقان تطابقاً متكاملاً ، وقد تجد أنّ المنهج الاستعماري أرحم من ناحية وأقوم من ناحية أخرى مما تجده في المنهج الاستقلالي !!!

بل قد تجد أنّ المنهج الاستقلالي أشدّ عداوة للعربية والدين وأكثر ضراوة من المنهج الاستعماري !!!

ولذلك أسباب كثيرة ، لعلّ أهمها : أنّ المسؤولين الكبار يعتقدون أننا نحسن صنعاً ، إذا نقلنا الحضارة الغربية كاملة بما فيها من خير وشر .

كما أنّ الذين أعدوا المناهج الاستقلالية ،استنسخواالمناهج الاستعمارية نصاً وروحاً ، وكان الواجب يقضي عليهم أن ينسخوها .

وهؤلاء كلّهم أو أكثرهم من الذين تخرجوا في جامعات الغرب ، فهم

يصالحون المناهج الاستعمارية لأنهم يعرفونها ، ويعادون مناهج العربية والدين التي تناسب الاستقلال لأنهم يجهلونها .

ومن الأسباب، أنّ الذين درّسوا الدين واللغة في عهد الاحتلال، كانوا أحسن وأعلم مادياً ومعنوياً من الذين درّسوا هاتين المادتين في عهد الاستقلال ، لأنّ الأولين تخرّجوا في مدارس برعاية دولة إسلاميّة ، بينما تخرج الآخرون في مدارس استعمارية، لذلك كان الأولون أكثر علماً وأعلى معنويات من الآخرين . وكان من نتائج ذلك ، أن خريجي عهد الاحتلال كانوا أحسن من الناحية (النوعية) أو الناحية (الكيفيّة) ، وأن خريجي عهد الاستقلال أكثر من الناحية (الكميّة) .

ومن الإنصاف أن نذكر ، أنّ الأساتذة الذين تخرجوا في جامعات الغرب في أيام الاحتلال ، أفضل بكثير من الناحية (النوعية) من الأساتذة الذين تخرجوا في جامعات الغرب فى أيام الاستقلال ، لأنّ الأولين سافروا إلى الغرب بعد دراستهم في المسجد : الأزهر أو القرويين أو الزيتونة أو النجف أو الموصل ، وكان خريجو المسجد يتقنون العربية والدين . وفي جامعات الغرب أضافوا معلومات وعلوماً جديدة إلى معلوماتهم وعلومهم القديمة . أما الآخرون فقد سافروا إلى الغرب بعد تخرجهم في المدارس الثانوية العامة التي لا تعلِّم العربية إلاّ بقدر معلوم ولا تعلِّم الدين ، فتعلّموا في الغرب معلومات وعلوماً جديدة ولكنها تُعتبر مكملة لمعلوماتهم وعلومهم التي تلقوها في بلدهم ، فلما عادوا إلى بلدهم أساتذة ، كانت معلوماتهم في اللغة والدين صفراً على اليسار !

يضاف إلى كل ذلك ، محاولات الاستعمار القديم الخفية لاسترجاع شيء مما فقده ، في محاولة للعودة من النافذة بعد أن خرج من الباب . كما يضاف إليها محاولات الصهيونية تفرقة الشعب العربي والأمة الإسلامية وانتزاع عقيدتها، ليسهل عليها السيطرة على جزء من بلاد العرب إلى الأبد، وتوسيع هذا الجزء بالتدريج ليشمل من : النيل إلى الفرات .

ولا يستطيع أحد الادعاء بأنّ عملاء الاستعمار القديم اقتلعوا من

جذورهم في الوطن العربي والبلاد الإسلامية كافة ، كما لا يستطيع أحد الادعاء بأنّ الماسونية قد انتهى أمرها في تلك الأصقاع ، فمن المعروف أنّ هناك زعماء وقادة وسياسيين وأساتذة في الوطن العربي والبلاد الإسلامية،لا يزال ارتباطهم العضوي بالماسونية وثيقاً بشكل علني في قسم منهم،وبشكل مستور في قسم آخر ، وما الماسونية إلاّ الصهيونية ، أو هي أشد خطراً على العرب والمسلمين من الصهيونية بالذات ، لأنّ مصاولة العدو الظاهر أسهل من مصاولة العدو الخفي ، ولأنّ العدو الداخلي أشد مضاضة من العدو الخارجي .

وهناك أسباب أخرى قد لا أعرف بعضها أو قد لا أتذكره، ولكن سردها يطول ، وقد يخرجنا عن منهج ما نريد ذكره في هذا المكان .

والخلاصة ، أنّ المناهج اللّغوية والدينية في عهد الاستقلال ، لم تتطوّر إلى الأفضل عما كانت عليه في عهد الاحتلال ،بل تقتضيني الأمانة والصراحة ، أن أقول : إنها تطوّرت إلى الأسوأ لا إلى الأفضل ـ مع الأسف الشديد ـ . .

لقد أسرفنا في إرسال البعثات التعليمية إلى الدول الأجنبية ، وإذا كان هناك ما يسوِّغ إرسال البعثات لتعلّم العلوم العامة والعلوم التطبيقيّة ، فما المسوِّغ لإرسالها لتعلّم اللغة العربية والتاريخ الإسلامي ؟!

إنّ أكثر الذين تلقّوا العلم في الغرب ، وبخاصة العربية والتاريخ ، تلقّوا العلم على أساتذة صهاينة ومبشرين وجواسيس ، وأشرف أمثال هؤلاء الأساتذة الأجانب على رسائل الطلاّب العرب والمسلمين ، وقد نال قسم منهم شهاداتهم برسائل هدامة مثل : التناقض في القرآن الكريم ، وسفورزا اليهودي !!

وقد رأيت عدداً غير قليل من هؤلاء الأساتذة الأجانب في مناسبات عديدة ، كالمؤتمرات اللغوية ، والمؤتمرات الدينية ، فلم أجد منهم من يتقن النطق بالعربية كأبناء العرب ، ولم أجد منهم من يقدِّر التاريخ الإسلامي حق قدره .

وقد جرت مساجلات أدبية بين المرحومين عباس محمود العقّاد وزكي مبارك ، فذكر زكي مبارك أنه تخرّج في العربية على المسيو فلان ، فرد عليه العقاد : إنه لا يمنح المسيو فلاناً الشهادة الابتدائية في العربية ، فكيف يمنح هو شهادة الدكتوراه للطلاب العرب !

وقد نبعث طلابنا بعد تخرجهم في الثانوية العامة وهم في سن المراهقة ، وقد نزل أكثرهم إلى مستوى الخادمات أخلاقياً . . . ولا أزيد !

وعاد هؤلاء المستغربون من العرب والمسلمين إلى بلادهم لينفثوا ما تلقّوه من سموم في المعاهد والجامعات ، وكل مصادرهم وثقافتهم أجنبية ، وكل عملهم ترجمة أفكار الأجانب من مصادرهم ، لأنه لا أسس ثقافية لديهم من المصادر العربية والإسلامية ، فلا عجب أن يعلّموا طلابهم ما يناقض الحق والواقع والتاريخ .

وقد قرأت بحثاً لأستاذ عربي في التاريخ ، عن مؤرخ عربي مشهور ، كان مؤرخاً ومحدِّثاً وفقيهاً ومفسراً ، فأذهلني أنّ كل مصادره أجنبية . وسألت هذا الأستاذ الألمعي : ألم تقرأ كتاب : ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي ؟ فازداد ذهولي لأنه صرح بأنه لم يسمع بهذا الكتاب ، مع أنه من أشهر الكتب العربية في مجال علم الرجال .

وقد استفتت مجلة (اللسان العربي) التي تصدر في المغرب ، نخبة من العلماء العرب قبل سنوات ، وكان مجمل استفتائها هل تصلح العربية الفصحى للعلم ؟

وقرأت أجوبة العلماء كافة بإمعان، فسمعت عجباً غاية العجب ، فقد كان جواب الأكثرية : أنّ العربية الفصحى لا تصلح للعلم .

وصادفت أحد الذين أجابوا مثل هذا الجواب ، فلما ناقشته علمتُ أنه لم يطّلع على كتاب المخصّص لابن سيده ، وهو كتاب مشهور جداً .

وأشهد أنّ العربية الفصحى تصلح لغة للعلم ، فقد أعددنا المعجم

العسكريّ الموحّد بأربعة مجلدات : إنكليزي - عربي ، وفرنسي - عربي ، وعربي إنكليزي ، وعربي - فرنسي ، ومن المعلوم أنّ المصطلحات العسكرية لها صلة وثيقة بأكثر من ستين علماً ، منها الطب والهندسة والكيمياء والفيزياء والهندسة الكهربائية الآلية . . . الخ . . . . فاستطاعت لغة القرآن الكريم استيعاب كل تلك المصطلحات بكفاية متميزة ، ولكن الجهل المطبق وآثار الاستعمار الفكري البغيض ، وترديد مزاعم أعداء العربية الفصحى من الأجانب ، هي التي تجعل المستغربين من العرب والمسلمين ، يجيبون : أنّ الفصحى لا تصلح للعلم !!

وقد طالعت محاضرات ألقاها أستاذ جامعي في التاريخ ، ذكر فيها اسم أحد قادة الفتح الإسلامي وهو قطبة بن قتادة السَدوسي[1]، فاتح (الخُرَيْبَة) [2]، زاعماً أنه لا يدري أكان مسيحياً أم مرتداً ، إلى غير هذا الدس اللئيم الذي نقله نقلاً عن تخرصات أستاذه الجاسوس المبشِّر حرفاً بحرف، ثم نسب ما نقله إلى نفسه ، دون أن يعرف خطأ هذه المعلومات الفاحش ، لأنّ هذا القائد كان من قادة عمر بن الخطّاب رضي اللّه عنه ، وكان عمر لا يولي إلاّ الصحابة ، ولا يولي مرتداً ، فكيف يولي مسيحياً على جيش من جيوش المسلمين يضم بين صفوفه قسماً من صحابة رسول اللّه ﷺ ، وهذه المعلومات يعرفها صبي مستجد في التاريخ ، فكيف لا يعرفها أستاذ جامعي ، ومع ذلك تسند إليه مهمة إعادة كتابة التاريخ ومهمة إحياء التراث العربي الإسلامي ، مع أنه فرخ صغير من فراخ المستشرقين ، ويردّد علناً : أنّ التراث الإسلامي (أفاقيّات) وأنّ التاريخ الإسلامي ((أفاقيّات)) !!

- هكذا التعليم وإلاّ فلا !!!

لا عجب أن ينهار التعليم في المعاهد والجامعات ، وأن يتنكر أكثر أساتذتها والمتخرجين فيها لمبادىء الدين الحنيف وللتاريخ الإسلامي والتراث

---

(١) انظر ترجمته في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٤١٤ - ٤٢٠)

(٢) الخريبة : البصرة .

العربي الإسلامي ، لاعتقادهم أنّ هذا التنكر (تقدميّة) وأنّ التمسك بالدين والاعتزاز بالتاريخ والتراث (رجعيّة) .

ولا عجب أن يغمز أكثر الأساتذة والمتخرجين من الفصحى ، والدين والتاريخ والعلم بمناسبة وبغير مناسبة .

ولا عجب أن يدرِّس أكثر هؤلاء الفصحى والدين والتاريخ والتراث بأفكار معادية للعرب والمسلمين، ومعادية للغة القرآن الكريم والإسلام وتاريخه المجيد وتراثه العريق .

إني أُطالب بوضع حد حاسم لهذا الانهيار ، فقد أصبحنا نتقدم إلى الوراء .

والحلول الناجعة لهذه المعضلات معروفة ، ولكن غير المعروف هو لماذا لا نُقْدِم على معالجتها فوراً بعد أن أصبح أمرنا بأيدينا وأصبحنا أحراراً في قراراتنا ، لأننا أحرزنا الاستقلال .

ولا بدّ أن أُذكِّر بمزية : أمانة العلماء .

لقد أدركت عالماً في (الموصل) ، توفِّي عليه رحمة اللّه في الثلاثينات من هذا القرن ، درس عليه وعلى غيره ولده نحو عشرين سنة ، ولكنه لم يؤجِّزه ! ولجأ الولد إلى أصدقاء والده ليكلِّموه في أمر ابنه الذي لم يؤجَّز، فقال الوالد : « إذا أجزّته ، فمن أي مسلك أهرب من غضب اللّه ! إنّ العلم أمانة ، ولا قِبَل لي بالخيانة » .

وعشت حتى رأيتُ أُستاذاً مشرفاً على رسالة لنيل شهادة (الدكتوراه) ، يكتب لطالبه تلك الرسالة في شقة طالبه ، والطالب يستحثّه على السرعة ويلومه على التأخير . وحان وقت تناول طعام الغداء ، فتناوله الطالب وأستاذه وزوجة الأستاذ وبناته الثلاث وولداه ، وكان الطالب محاطاً بهالة من رعاية عائلة الأستاذ تجلّ عن الوصف ، وعلمت أنّ الطالب يقدِّم لأستاذه هدايا عبارة عن حقائب كبيرة غاصة بالأقمشة الفاخرة والأدوية وأجهزة المذياع ، وقد

شهدت مناقشة تلك الرسالة التي أعدّها الأستاذ وناقشها الأستاذ ، فمنح الطالب درجة الشرف الأولى !!

وجاءني صحفيّ بعد مناقشة تلك الرسالة ، فحاولت التخلّص منه دون جدوى ، فأمليت عليه مقالاً عنوانه (الغش)،وذكرت قصة الطالب والأستاذ والرسالة التي كتبها الأستاذ ونسبها للطالب . وكنت أعتقد حين أمليت هذا المقال على الصحفي ، أنه سيعرضه على رئيس التحرير فلا يوافق على نشره ، لأن المعلومات الواردة فيه خطيرة ، وهذه أحسن وسيلة للتخلص من الصحفي بعد أن أخفقت معه الوسائل الأخرى ، ولكنني فوجئت بنشر المقال ، وكان له صدى عميق في نفوس القراء وبخاصة الأساتذة منهم . وتوقعت استدعائي من المسؤولين عن التعليم العالي في ذلك البلد ، لاستجوابي عن تفاصيل قصة الأستاذ والطالب ، ولكن خاب ما توقعته ، فلم يحرك أحد ساكناً !

أهكذا تكون أمانة العلماء ؟!

والآن نعود إلى انحطاط المستوى التعليمي للغة العربية الفصحى ، والحديث عن ذلك ذو شجون .

أولادنا الذين يتخرّجون في الجامعة ، لا يكاد خطّهم يُقْرأ ، وإذا كتبوا سطراً واحداً ، فلا بد أن تكون فيه أخطاء إملائية وأخطاء لغوية .

وأكاد أجزم أنّ خريجي المدارس الابتدائية كانوا أحسن حظاً وأقلّ في أخطائهم الإملائية واللغوية من خريجي الجامعة اليوم .

فإذا قرأت الصحف اليومية والمجلاّت ، فإنك تُصدم بضعف أساليبها الكتابية وكثرة أخطائها الإملائية واللغوية .

ويبدو أن كُتّاب الصحف والمجلاّت وحتى الكتب الأدبية شعراً ونثراً ، مغرمون بالمصطلحات الأجنبية ، ليثبتوا صلة ثقافتهم بالفكر الأجنبي ،

دون أن يكلِّفوا أنفسهم مشقة استعمال ما يقابل تلك المصطلحات في اللغة العربية الفصحى .

والمفروض أنّ المذيعين والمذيعات في الإذاعة المسموعة والإذاعة المرئية من خريجي كليات الآداب ، ولكنك لن تجد مذيعة أو مذيعاً يهتم بالنطق العربي الأصيل .

ولا أدري هل يجري اختيار المذيعين والمذيعات لجمال الصوت أم لجمال الصورة ، أم لكليهما ، والمفروض أنّ إتقان اللغة العربية الفصحى هو الحكم الفصل في الاختيار .

والحق أن المذيعين والمذيعات في البلاد العربية والإسلامية ، وبخاصة في الإذاعة المرئية ، يتميّزون بالرشاقة والجمال ، وهذا لا يكفي أبداً ، بل التميّز بالدقة اللغوية هو المطلوب ، كما هو الحال لدى الأجانب ، فقد رأيت مذيعات أجنبيات هنّ أقرب إلى الدمامة ولكنهنّ يتميزن بضبط اللغة ورشاقة الإلقاء .

وقد كنت في زيارة صديق من العلماء ، فعرض لرأي من الآراء ، وارد في أحد الكتب ، ولما أحضر الكتاب سألت (دكتوراً) من خريجي الأزهر أن يقرأ ما ورد فيه ، لأن نظارتي التي تعينني على القراءة لم تكن معي ، فهالني أن أجد الدكتور الأزهري لا يُحسن النطق السليم بالعربية وتشيع في قراءته الأخطاء اللغوية الفاحشة !

كلّ ذلك إن دلّ على شيءٍ ، فإنما يدل على إهمال تدريس اللغة العربية تدريساً متكاملاً في المدارس والمعاهد والجامعات .

وقد لجأ أكثر الشعراء إلى الشعر الحر ، باعتبار أنّ الشعر الموزون المقفّى طراز قديم والشعر الحر هو الجديد ، ولكل جديد لذّة كما يقول المثل العربي المشهور .

ولكنّ الذي يقرأ الشعر الحر ، يجده يتميّز بركاكة الأسلوب ، وضعف المعاني ، وكثرة الألفاظ الأجنبية الشائعة فيه ، وعدم التزامه بضوابط اللغة صرفاً ونحواً .

وقد دأبت على قراءة هذا الشعر ، فغابت عني معاني أكثره ، كأنّ المعنى في قلب الشاعر لا يريد أن يبوح به إلى القرّاء .

وتذكّرت مناقشة جرت في أحد سجون قاسم العراق ، فذكرتُ أنّ كلّ مَنْ هبّ ودبّ يستطيع أن يكون شاعراً حراً ، ولكن ليس كل مَن هبّ يستطيع أن يكون شاعراً يصوغ الشِّعر الموزون المقفّى .

ولكني أُثبت ما ذكرته عملياً طلبت من أحدهم أن يحضر ورقة وقلماً ، ثم أمليت عليه شعراً حراً ، بدون معنى ولا هدف ، وقد استغرق إملائي عشر دقائق فقط ، ثم أوردت القصيدة إلى صحيفة في بغداد بدون ذكر ناظمها ، وفي اليوم التالي وجدت القصيدة منشورة في الصفحة الأولى محاطة بإطار خطيٍّ جميل ، ومقدّمة تقديماً رائعاً ، يصف الشاعر بالعبقرية ويصف الشعر بالروعة والجمال .

وأشهد أنني كنت متعمِّداً ألا يكون للقصيدة أي معنى ، وأن الحاضرين عند إملائها لن يفهموا حرفاً واحداً ، فكيف إذاً فهمها المحرر الأدبي في الصحيفة الذائعة الصيت،الواسعة الانتشار ، وكيف أقدم على نشرها مُهَلِّلاً مكبِّراً !!

ولكي أستكمل الصورة بالنسبة للمعتقلين الذين أتْعبوا أنفسهم في المناقشة ، بعثت قصيدة وهم شهود،من الشعر الموزون المقفى ، نظمها شاعر مجيد من المعتقلين ولم ينشرها ، دون ذكر اسمه حتى لا تمتنع الصحيفة (الوطنية) عن نشر قصيدة معتقل تهمته التآمر والخيانة . . وكانت القصيدة متينة الصياغة ، غزيرة المعاني قوية المباني ، تصف شروق الشمس وصفاً أخّاذاً .

وانتظر المعتقلون يوماً وأياماً وشهراً وأشهراً ، دون أن تنشر القصيدة !

ولا أدري هل المبادرة بنشر الشعر الحر المتهافت ، والإحجام عن نشر الشعر الموزون المقفّى سببه الجهل المطبق ، أم هناك أسباب أخرى !!

ولكل إنسان رأي ، وهو حرٌ في إبداء الرأي الـذي يعتقـد ، وأرى الشعر الموزون المقفى هو الدعامة الثانية لحفظ العربية الفصحـى ، والدعامـة الأولى لحفظها هو القرآن الكريم ، لأن القرآن هو كتاب العربية الأول كما هو كتاب الإسلام الأول ، والقرآن يتلى صباح مسـاء في كل مكان ، وبالإمـكان حفظه عن ظهر قلب كلّه أو بعضه ، كما أنّ الشعر الموزون المقفّى يمكن حفظه بسهولة ويسر ، فهو من سدنة العربية الفصحى ، أما الشعر الحر ، فلا يمكن حفظه حتى من قائله ، فالقضاء على الشعر العربي الأصيل قضاء على الدعامة الثانية لحفظ العربية الفصحى ، وهذه اللغة قد خطط الاستعمار والصهيونية للقضاء عليها عاجلاً أو آجلاً ! !

فإذا استطاع أنصـار الشعـر الحـر ، تعليل انتصارهـم له بسبـب أو بآخر ، فلن يستطيع أحد أن يخفي نياته التخريبية بالنسبة للقـرآن الـكريم ، وستبقى العربية الفصحى بإذن اللّه ما بقي القرآن .

وبهذه المناسبة ، فلا بد لي من التحذير ، بأنّ أعداء العرب والمسلمين يستهدفون القرآن بالذات ، ولن يقرّ لهم قرار إلاّ بإلحـاق الضرر به ، حتـى يقطعوا أقوى رابط يجمع العرب والمسلمين ، وهو رابطـة العـربية الفصحـى ورابطة الدين الحنيف .

وقد زرت المغرب سنة ١٩٧٦ الميلادية ، ولولا العربية الفصحى لما استطعت التفاهم مع سكانها العرب المسلمين ، لأنني لا أفهم لهجتهم العاميّة الدارجة ، ولا يفهمون لهجتي العامية الدارجة ، فكانت الفصحى هي صلـة الوصل بين الطرفين .

وإذا ماتت الدعوة إلى كتابة العربية بالأحرف اللاتينية ، ليصبح هذا القرآن مهجوراً ، فإنهم يحاولـون تبـديل الأرقـام العـربية السائـدة في المشرق العربي ، باعتبار أنّ الأرقام السائدة في الغرب والمغـرب العربـي هي الأرقـام العربية الأصيلة ، بحجة أنّ الأجانب يطلقون عليها : الأرقام العربية .

وقد بدأ قسم من المجلات والصحف الصادرة في المشرق العربي يرقِّم بالأرقام المستعملة في الغرب إلى جانب الأحرف اللاتينية ، والواقع أنّ الأرقام المستعملة حالياً في المشرق العربي هي الأرقام العربية الأصيلة ، وترقيم الكتب القديمة المخطوطة خير دليل .

وهذه المحاولة لها صلة وثيقة بالدعوة إلى الكتابة بالحروف اللاّتينية ، والداعون إليها يطبِّقون مبدأ: ما لا يُدْرك كلّه ، لا يترك جُلّه

كما أنّ هناك دعوات مريبة تظهر بين مدة وأخرى ، منها : الدعوة إلى طبع القرآن حسب تاريخ النزول ، والدعوة إلى كتابة القرآن وطبعه حسب المواضيع ، والدعوة إلى طبع القرآن بالأسلوب الإملائي الجديد بحجة تبسيط قراءته ، فمن المستحيل قراءة القرآن قراءة صحيحة إلاّ على مقرىء قدير .

فكل هذه الدعوات المريبة يجب أن تحبط وتقبر فوراً، فالقرآن يجب أن يبقى بخط مصحف عثمان ، وكما رتّبه رسول الله ﷺ وعلّمه أصحابه عليهم رضوان الله ، لأنّ كل تغيير يفتح المجال للتحريف البسيط أولاً ، ثم يتّسع الخرق على الراقع .

وصدق الله العظيم : ﴿إنا نحن نَزّلنا الذكرَ وإنَّا له لحافظون﴾ [1] .

وليس كالخط العربي في جماله ، حتى لقد ظنه الذين لا يحسنون القراءة العربية زخرفة من أجمل الزخارف ، وفي متحف البابوات في الفاتيكان ، طيلسان أحد البابوات ، مُطَرّز بآية الكرسي بالخط العربي الجميل .

ولكن بعض الدعوات المريبة ابتكرت الأحرف المتقطعة التي تشابه الأحرف العبرية تماماً، وأخذت بعض الصحف والمجلات العربية تكتب العناوين بهذا الخط ذي الأحرف المتقطعة العبرية غير مكترثة بتحذير الحريصين على الخط العربي الجميل .

---

(١) الآية الكريمة من سورة الحجر (١٥ : ٩) .

إني أحذر أصحاب تلك الصحف والمجلاّت، من الوقوع في حبائل العدو الصهيوني بحسن نيّة،فإذا كانوا عرباً ومسلمين حقاً فليقلعوا عن اقتباس الأحرف المتقطعة العبرية، وإلاّ فسيثبت التاريخ أنهم عملاء لهذا العدو.

وقبل أن ننتهي من موضوع : التهاون باللّغة العربية الفصحى في عهد الاستقلال، لابد لي من التنبيه إلى الدعوة للعامية، وهي دعوة مريبة معروفة الأهداف ، وقد سبق الحديث عنها بإيجاز.

وقد دعا إليها الأجانب في بادىء الأمر، ثم دعا إليها بعض العرب غير المسلمين،وبعض العرب المسلمين الذين لم يتوجهوا طيلة حياتهم بالصّلاة إلى الله .

والذي أريد أن أنبِّه عليه اليوم ، هو ما نسمعه ونراه من إقبال زعماء العرب على إلقاء خطبهم باللهجة العامية، بحجة أنهم يريدون أن تكون خطبهم شعبية، يعيها الشعب كله لا فرق بين متعلِّم وأُمّي.

وهذه الحجّة ليست صادقة، لأنّ أبناء الشعب يصغون بلهفة وشوق إلى تلاوة الذكر الحكيم، وهم يفهمون ما يصغون إليه، مع أنّ أسلوب القرآن الكريم قمة الأسلوب العربي البليغ

ولا أظنّ الزعيم العربي يتكلّم بأسلوب رفيع يشابه أو يقارب الأسلوب القرآني أو يقارن به، إلاّ كما تقارن نجوم السماء برمال الصحراء!

واعتياد الزعماء العرب اللّهجة العامية، يجعل رعيتهم تقلِّدهم ، لأنّ الناس على دين ملوكهم، وفي ذلك ما فيه من خطر جسيم.

وآمل أن يقلع الزعماء العرب عن إلقاء خطبهم باللهجة العامية، وهذا ما يأمله كل حريص على لغة القرآن.

ومن الواجب أن أنبِّه المعلمين في مدارسهم، فهم القدوة الحسنة لتلاميذهم وأنبِّه الأساتذة في معاهدهم وكلياتهم، فهم الأسوة الحسنة لطلابهم، أن يحرصوا على إلقاء دروسهم ومحاضراتهم بالعربية الفصحى ، وبخاصة

دروس ومحاضرات اللغة والـدين، وسيجـدون أنهـم سيؤثـرون في التـلاميذ والطلاب الذين سيقتدون بهم، وبذلك يسلكون أول الطريق لإتقان العربية الفصحى كتابة وقراءة وفهماً.

لقد كانت مصلحة المستعمِر ومن ورائه الصهيونية العالمية في تخريب العربية الفصحى، فما مصلحة أبناء البلد من العرب والمسلمين في تخريب لغة القرآن؟!

لقد كان التخريب متعمداً في أيام الاحتلال، فلماذا بقي التخـريب المتعمد في أيام الاستقلال؟!

أطرح هذا السؤال على المسؤولين كباراً وصغـاراً في البـلاد العـربية والإسلامية، لعلني أسمع منهم مَنْ يجيب!

ونعود إلى الناحية الدينية، فهي أساس التربية السليمة وعماد التوجيه السليم، لأنّ الدين الإسلامـي لا يخـرج عن نطـاق الـمُثـل العليا، وصـدق صاحب الخلق العظيم عليه أفضل الصّلاة وأزكى التسليم الذي قال: «ما من شيء يوضع في ميزان العبد أثقل من حُسْن الخلق، وإنّ صاحب حُسْن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصّوم والصّلاة».

لقد عادى المستعمِر في عهد الاحتلال الدين، وكانت مصلحتـه في هذا العداء، فما موقف العرب والمسلمين من الدين في عهد الاستقلال؟!

لا اهتمام في الدين أبداً كما كان الأمر في أيام الاحتلال سواء كان ذلك في المدارس أو المعاهد أو الجامعات، ولا يزال درس الدين في المدارس درسـاً ثانوياً ـ هذا إذا جرى وضع هذا الدرس في المناهج ـ، لأنّ كثـيراً من الـدول العربية والإسلامية لم تكلِّف نفسها حتـى بإدراج درس الـدين مع الـدروس الأخرى، مع أنّ المدارس الأجنبية في الغرب تهتمّ أعظم الإهتمام بدرس الدين.

والمُثلُ العليا الإسلامية تحطّم تحطيما، وما نراه في تصرفـات الشبـاب والشابات من انحراف مكشوف خير دليل.

وقد ذكرتُ سابقاً أنّ الـخَيَالة (السينما) المصريّة أسسها الصهاينة وأنّ ممثليها الرواد من الماسون.

وقد أصبحت الرقوق (الأفلام) الجديدة التي تعرض أكثر إباحيّة من الرقوق القديمة، وكل رَقٍ عربي أصبح يعتمد على الرقص الداعر،واحتساء الخمر والمقامرة والتدخين والسقوط في الخيانة الزوجية والسرقة والاختلاس والتزوير.

وقد عُرض رق عربي في الإذاعة المرئية يحرِّض فيه والد ابنته الجميلة على البغاء.

وقد أصبحت صناعة الخيالة تحسب حساب ما يدرّه شباك التذاكر، وكلما كان الرَقّ فاسقاً داعراً درّ أرباحاً طائلة وأقبل عليه الشباب والشابات بدون حساب.

وأصبح المذياع المرئي في كل دار تقريباً، تعرض فيه أشدّ الرقوق تفسخاً وانحلالاً، وبذلك أشعنا على أوسع نطاق أسباب التفسخ والانحلال.

وقد شجّعت الدول العربية والإسلامية الفنون، واهتمت بالغ الاهتمام بالفرق الراقصة الشعبية، وأقامت الاحتفالات الباذخة للترفيه عن شعوبها بهذه الفرق الشعبية الراقصة، وأوفدتها إلى الخارج لتتجوّل في الأقطار العربية والدول الإسلامية والدول الأجنبية شرقاً وغرباً.

وفي كل يوم تقرأ في الصحف والمجلات أخبار الفرق الشعبية الراقصة في تنقلها عبر القارات الخمس، ومع أخبارها تصاوير الراقصات الجميلات يعرضن أفخاذهن وسيقانهن: هنّ فخورات بحسنهن، والعرب والمسلمون فخورون بإنجازاتهنّ!

وقد رأيت فرقة راقصة شعبية في الإذاعة المرئية وأنا أكتب هذا الكلام، فرأيت الرجال بالملابس العربية الأصيلة بيدهم السيوف،ولكن هؤلاء العرب شغلوا بالرقص لا بالجهاد وكانت السيوف من آلات الرقص لا من آلات القتال.

وعدت إلى مكتبي لأكتب هذه الكلمات وأنا في أشد حالات الخجل من الله ورسوله ومن تاريخ العرب العريق.

أحقاً أصبح العرب والمسلمون لا يفخرون بالنصر اليوم؟ .فقد شغلهم الفخر بجمال بناتهم وعرض أفخاذهن وسيقانهن عن متطلبات الجهاد والنصر.

واأسفاه....

وربما يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض: إنّ العالم كلّه يفخر بالرقص الشعبي وبالراقصات الجميلات....

وأقول: وما لنا ولغيرنا، فنحن عرب نعتز بالعرض المصان ونموت شهداء لصيانته، ونحن مسلمون نقدس العِرض ونبتعد عن الفحشاء.

بعد فتح مكة، أمر النبيّ ﷺ بجمع النساء، ثم وعظهنّ وقرأ عليهن قول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ يا أيها النبيّ إذا جآءك المؤمناتُ يُبايِعْنَكَ علَى أن لايُشرِكْنَ بالله شيئاً ولا يَسرِقْنَ ولا يَزْنِينَ ولا يَقْتُلنَ أولادَهُنَّ ولا يأتِينَ بِبُهتانٍ يَفْتَرينهُ بين أيديهنَّ وأرْجُلِهنَّ ولا يَعْصِينَكَ في مَعْروفٍ، فَبايعْهُنَّ واستَغْفِرِ لَهُنَّ الله، إنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١)، فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿ولا يَزْنِينَ﴾ قالت له إحداهن: «أوتَزني الحُرَّة يا رسول الله!؟»، وهي امرأة جاهلية لم تُسلم بعد أو أسلمت حديثاً.

العربية الحرّة لا تزني حتى في أيام الجاهلية، والعربية المسلمة إذا تهدّد عرضها صرخت: «وامعتصماه!» فيلبي المعتصم نداءها فوراً.

والمشكلة الكبرى التي تهدِّد مصير العرب بخاصة هي مشكلة العدو الصهيوني، الذي احتل فلسطين وسيناء وقطاع غزة والضفة الغربية للأردن بما فيها القدس وهضبة الجولان، ولن يتخلى عن الأرض العربية المحتلة إلا بالجهاد.

---

(١) الآية الكريمة من سورة الممتحنة (٦٠ : ١٢)

والجهاد يقتضينا أن نعمق الإعتزاز بالعِرض لا أن نشيع الاستهانة به، وأن نقضي على عوامل التفسّخ والانحلال لا أن نشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وأن نتمسك بمُثُلنا العُليا لا أن نحاربها.

إن المنحلّ والمتفسِّخ لا يقاتل أبداً كما يقاتل الرجال، ولا ينتصر أبداً على عدوٍ من الأعداء.

إنه منصرف إلى متعته، وصاحب المتعة جبان.

وربما يقول قائل: تبدّلت الدنيا، والأجانب تركوا القِيَم جانباً، ولسنا أفضل منهم!

إنّ الذين يدّعون هذا الادعاء، لا يعرفون الأجانب حقّ المعرفة، حتى ولو قضوا بين أظهرهم ردحاً طويلاً من الزمن، لأنهم قضوا أوقاتهم مع سفلة الأجانب لا مع أشرافهم. ولو أنهم اختلطوا بالأشراف منهم، الذين يسيرّون أممهم، لوجدوهم محافظين على القيم محافظة صارمة إلى أبعد الحدود.

إن كنائسهم في كل مكان، في المدرسة والمعهد والجامعة والحقل والمصنع، وهم يصحبون حتى أطفالهم الصغار إليها، ولايشاهد أطفالهم رقاً من الرقوق، إلا بعد أن يراه أحد الأبوين ليتأكد من صلاحيته لمشاهدة الأطفال.

إنهم متعصبون لدينهم أشد التعصب، وقد سأل صحفي المشير مونتغومري في أيامه الأخيرة: «لو عادت أيامك الماضية فماذا كنت تتمنى أن تكون؟!!»، فأجاب المشير: «كنت أتمنى أن أكون قسيساً».

وقد تحدّث في كتابه: «السبيل إلى القيادة» حديثاً دينياً رائعاً، لو تحدّث عربي مسلم بعشر معشاره لاتهم بالرجعية والتخلّف والتعصب.... إلى غير ذلك من النعوت [1].

وقد يدّعي أحدهم بأنّ التيار جارف لا يمكن الوقوف أمامه ولا صدّه.

---

(١) انظر مختصر أقوال المشير مونتغومري الدينية في كتابنا: بين العقيدة والقيادة (٤٩ ـ ٧٢)

والواقع أنّ بالأمكان الوقوف أمام تيار الانحلال والتفسخ الجارف في البلاد العربية والإسلامية،وبالإمكان صدّه وإيقافه عند حدّه بكل سهولة بالنسبة للرجل الحريص على أبناء بلده ومُثُله العليا، لا بالنسبة لأشباه الرجال الذين لا يهمهم أن يكسروا إناء العسل ليلطعوا منه لطعة واحدة، ولا بأس أن يتبدّد سائره في التراب.

وقد جرّبت الوقوف أمام التيار الجارف وصدّه وإيقافه عند حدّه، فنجحت في هذا المجال أعظم النجاح.

فقد حدث عام ١٩٦٤ م أن تولّيت منصب وزارة التربية والتعليم وكالة بعد سفر الوزير أصالة إلى الخارج.

وجاءتني جملة دعوات من المدارس لحضور الحفلات الربيعية، التي كان على الوزير حضورها تشجيعاً وتقويماً للفعاليات المدرسية وتقديم الجوائز.

ولبّيت أوّل دعوة، وقد رافقني مدير الفنون العام في الوزارة، فرأيت فعاليات يندى لها الجبين، لأنها مقتصرة على الرقص الدّاعر بالثياب الفاضحة والأغاني الماجنة.

وامتعضت امتعاضاً واضحاً لم يكن بالإمكان إخفاؤه، فغادرت الحفلة على عجل دون شكر القائمين عليها ولا توديعهم.

ولحقني أحدهم بدفتر الزيارات التي يسجِّل فيه الزائرون انطباعاتهم، فأخذت الدفتر وسجلت فيه هذه الكلمات: «نريد أمهات صالحات .... لا راقصات!»، ثم مضيت لا ألوي على شيء.

وفي اليوم التالي لبّيت دعوة ثانية في مدرسة أخرى، فإذا بمنهج الحفلة قد انقلب رأساً على عقب، فجرى تمثيل بطولات عربية وإسلامية، مع فعاليات مدرسية ذات طابع جدي.

هكذا بين عشيّة وضحاها، تبدّل الحال غير الحال.

وقد بلغ الاختلاط بين الجنسين في المدارس والمعاهد والجامعات المدى، وفاحت الروائح الكريهة من فضائح شاع أمرها وما خفي كان أعظم، فلا بد من معالجة الأمور ووضع حد لكل انحراف.

قبل ثلاث سنوات أجرت صحيفة عربية استفتاء داخل إحدى الجامعات العربيّة مؤداه: هل يُقْبِل الطلاّب على الزواج بالطالبات الزميلات؟

وكان جواب خمسة وتسعين بالمئة من الطلاب: لا!

وعلى الفتيات المستهترات أن يفهمن نتيجة هذا الاستفتاء، فالطالب غير الملتزم بتعاليم الدين الحنيف يرحِّب بصداقة كل فتاة، ولكنه يرفض الزواج بكل فتاة.

وهناك في إنكلترا كلية طب للفتيات فقط، لا يدخلها الفتيان، فلماذا نبقى نقتبس من الأجنبي ما يضرّ ولا نقتبس منه ما يفيد؟ .

إنّ أقدس واجب للمرأة هو تربية الأطفال، فإذا غاب الوالد عن الدار وغابت الأم أيضاً في العمل أو الوظيفة، فمن سيقوم على تربية الأطفال؟

وأخشى ما أخشاه أن تصبح تربية الأجيال القادمة ما يمكن أن نطلق عليه: أجيال تربية الخدم أو أجيال الخدم!

والحجة التي تقدّم لتسويغ عمل المرأة في مجال أعمال الرجل هي: أنّ المرأة نصف المجتمع، فلا ينبغي أن يبقى هذا النصف عاطلاً.

وهذه حجّة واهية لا يؤمن بها حتى الذي يرددها، فقد ثبت أنّ المرأة لا تنتج إنتاج الرجل، وأنّ إجازاتها أكثر من الرجل، وأنّ المرأة إذا تزوّجت قلّ إنتاجها... الخ...

ولكن، هل أصبح العمل بدرجة من الضخامة بحيث استنفد طاقات القادرين على العمل من الرجال كافة، حتى يُلجأ إلى المرأة لتنهض بقسطها من العمل!؟

ولنضرب مثلاً بالموظفين، فهناك تضخّم في أعدادهم لا يتناسب تناسباً طردياً مع إنتاجهم، بل يتناسب تناسباً عكسياً.

الدائرة التي تحتاج إلى خمسة موظفين فيها خمسون موظفاً، فكم من هؤلاء يعمل في تصريف واجباته الوظيفية كما يعمل الموظف الحريص النزيه؟!

وقد مضى عليّ وقت غير قصير وأنا بعيد عن الوظائف الحكومية وعن الدوائر الحكومية أيضاً، ولكنني اضطررت إلى استصحاب صديق عربي إلى مكتبه بعد أن سعيت له أن يوظّف.

وتسلّم الصديق وظيفته الرفيعة، وانخرط في زمرة أنداده الذين يشغلون طابقاً ضخماً من طوابق الوزارة، وأمضى الصديق في عمله مع أقرانه خمسة أشهر، لم يعمل فيها ولم يعمل أقرانه، ما يساوي فلساً واحداً.

والخلاصة، أنّ عدد الموظفين أكثر من العمل المطلوب إنجازه، وأكثر الموظفين لا يعملون، فلو اقتصر العمل الوظيفي على الرجال دون النساء، وطولب كل موظف بأداء واجبه كاملاً، وقُلِّص عدد الموظفين ليناسب عددهم العمل المطلوب، لانصرف النساء إلى تربية الأطفال، ولأدّوا في إعداد الأجيال القادمة أجلّ الخدمات.

إنّ تضخم عدد الموظفين بالنسبة للأعمال المطلوبة، ما هو إلاّ بطالة مقنّعة، والخاسر الوحيد هو الوطن والأجيال القادمة.

ولا بأس أن يعمل النساء في مجال الطبابة والتعليم، فذلك هو مجالهنّ الذي خلقن من أجله بعد تربية الأطفال.

وستكتشف المرأة العربية المسلمة، أنها خدعت أعظم خدعة صادفتها بنات جنسها العربيات المسلمات، حين أغراها الرجل باسم تحرر المرأة وانطلاقها وتطويرها، إلى آخره من الشعارات البراقة، فتولّت العمل في كنس الشوارع وغسل السيارات والخدمة في الفنادق والنوادي والملاهي والحانات،

والعمل في وظائف الدولة في غير مجالها ، في الوقت الذي تَتْرك أطفالها يتضورون جوعاً ويصرخون ولا مجيب.

ولا بد أن أذكر هنا، أنّ المدارس والمعاهد والكليات الدينية في عهد الاستقلال، طوِّرت مناهجها وجُعلت تحت إشراف وزارة التربية والتعليم ووزارة التعليم العالي، ففقدت استقلالها وأصبح المعلمون والمدرسون والأساتذة فيها موظفين كسائر الموظفين الآخرين في النقل والترقية والفصل والإحالة على التقاعد والتعيين، وبهذا أصبحوا مقيدين، لا يقولون ما يجب أن يقولوا، بل يقولون ما تحب الدولة أن يقولوا !!!

وقد رأيت معلمين ومدرسين وأساتذة في المدارس والمعاهد والجامعات الدينية، غير ملتزمين بتعاليم الدين الحنيف، فلا يصلّون مثلاً، ورأيت منهم مَن يعتبر الدين أفيون الشعوب.

كل هذه التدابير التي ليست في مصلحة الدين، جعلت تلك المدارس والمعاهد والجامعات تخرِّج موظفين حكوميين، لا أئمة وخطباء وعلماء دين، مما أدى إلى خلوّ كثير من بيوت الله من علماء الدين.

كما أن الخريجين في تلك المدارس والمعاهد والكليات، أصبحوا ضعفاء في العلوم الدينية إلى حدٍ مخيف!

وقد فقدت أكبر الجامعات الدينية في الوطن العربي والبلاد الإسلامية محتواها الذي أُسِّست من أجله، فلا عجب أن تجد أكثر الذين يدرسون فيها والذي يدرّسون لا يصلّون ولا يلتزمون بتعاليم الدين الحنيف.

وأُلغيت الجامعات الإسلامية في قسم من الدول العربية والإسلامية!!!

إنّ العرب والمسلمين اليوم هم في معركة حياة أو موت، معركة مصيرية بينهم وبين العدو الصهيوني العنصريّ الحاقد.

وهم بحاجة اليوم إلى قادة عسكريين أفذاذ كخالد بن الوليد وسعد بن

أبي وقّاص والمثنى بن حارثة الشيباني وموسى بن نُصير وطارق بن زياد، ليقودوا العرب والمسلمين إلى النصر، قادةقادرين ،لا ليقودوها إلى الاستسلام والهزيمة كما يفعل القادة المرتزقة الذين يخشون على مرتباتهم ومناصبهم أكثر من خشيتهم على مصائر أممهم وشعوبهم.

ولكن العرب والمسلمين اليوم أكثر حاجة إلى العلماء العاملين المخلصين،المحافظين على كرامة العلم والعلماء كالأئمة الأربعة المجتهدين في الدين: أبي حنيفة ومالك وابن حنبل والشافعي ،وكالعز بن عبد السّلام وابن تيمية وأبي الحسن الشاذلي، المجاهدين في سبيل الله، الصادحين بالحق لا يخافون لومة لائم.

ونِعْمَ الأمراء على أبواب العلماء، وبئس العلماء على أبواب الأمراء.

إنّ قادة الجيش لا ينتصرون نصراً يبقى على الدهر ما لم يمهِّد لهم قادة الروح، والتاريخ لم يكتب صفحات من نور لخالد بن الوليد، لو لم يمهِّد له الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام.

وكل قائد منتصر في التاريخ العربي الإسلامي، وراءه قائد عظيم من قادة الروح وهم العلماءالمجاهدون، فليعلم هذه الحقيقة مَنْ يجهلها أو يتجاهلها من القادة وأصحاب السُّلطان.

فمن مصلحة الحكم الوطني أن يدعم المدارس والمعاهد والكليات الدينية لتخرِّج علماء دين متميزين، ومن مصلحة الاستعمار والعدو الصهيوني وكلِّ عدوٍ للعرب والمسلمين تخريبها ووضع العراقيل في سبيلها.

ويُخيّل إليّ أن مخططاً رهيباً وضع لتحطيم علماء الدين بخاصة والعلماء كافة بعامة، يستهدف إلى جانب رجال العلم كلّ الطيبين الأخيار من العرب والمسلمين.

وهذا المخطط لمصلحة العدو الصهيوني والاستعمار القديم والحديث وأعداء العرب والمسلمين كافة.

أذكر بهذه المناسبة أنني شهدت تشييع جنازة المرحوم الشيخ محيي الدين عبد الحميد في القاهره، ومن الأقدار العجيبة أن أحد الفنانين توفي في نفس اليوم الذي مات فيه الشيخ محيي الدين عبد الحميد، وكان سرادقا الراحِلَين مُتَجَاوِرَيْن، فكان في سرادق الشيخ أقلّ من عشرة أشخاص، وكان سرادق الفنان يموج بالآلاف.

وشيعَ جثمان الشيخ عدد قليل من الناس، وشيع جثمان الفنان أكثر من عشرة آلاف.

وكان الشيخ في حياته المباركة من أكبر علماء الدين واللغة، وقد حقّق كثيراً من التراث العربي الإسلامي، وخدم العربية والإسلام خدمة باقية لمدة خمسين عاماً.

أما الفنان فقد أفنى هو الآخر خمسين سنة من عمره في إفساد الأخلاق وتشجيع التخنّث والانحلال.

أهكذا يجازي العرب والمسلمون مَن يخدم العربية والإسلام خدمة صادقة بالعقوق والإهمال، ويكرِّمون مَنْ ازدرى العربية وحطّم الخلق الكريم كما يُكرَّم الأبطال والفاتحون !؟

أهذه أمة تنشيء الحياة وتبني !!!

ولكنّ الذنب ذنب المسؤولين في الدولة عن الإعلام وعن التخطيط العام للدولة، لأنك تجد للفنانين والمخربين حصّة الأسد في الإذاعتين المسموعة والمرئية وفي الصحف والمجلاّت: أحاديث صحفيةً، ومقابلات إذاعية، وأخبار مستفيضة عن نشاطاتهم وتحركاتهم، ولا نصيب للعلماء العاملين المخلصين إلاّ كنصيب المتصدِّق بجزء ضئيل من أمواله على الفقراء والمحتاجين.

وقد تقرأ في بعض الأحيان مقالاً في مجلة عربية بمناسبة مرور مدة من الزمن على وفاة العالم فلان ابن فلان، فيظن غير العارفين بأنّ المجلة تكرِّم العلماء بتكريم أحدهم، أما العارفون فيعلمون أنّ المقال تغرير للجهلة من

الناس بالتظاهر بتكريم العلماء، ولكنه في الواقع كذب على العلم والتاريخ وكل القيم المتعارف عليها، لأنّ المقال يتحدّث عن جاسوس أو ديّوث، أو عدو للعربية في ثياب صديق، لأنه يرجع الألفاظ العربية الأصيلة إلى أصل عبريّ أو سرياني... الخ... من هذا الدسّ والهراء.

لقد كان الاستعمار وعملاؤه من الخونة والجواسيس والمبشرين، والعدو الصهيوني وركائزه: الماسونية والبهائية والبابية والقاديانية والأقليات الحاقدة الأخرى، يبذلون المال الكثير والجهد الجهيد، للتنويه بالذين يطعنون العربية لغة والإسلام ديناً، وينشرون المقالات والبحوث والدراسات والمؤلفات عنهم، ويذيعون أسماءهم في الخافقين ويطبعون مؤلفاتهم ويترجمونها ويدعمونهم مادياً ومعنوياً، حتى تصبح الهياكل العفنة قادة الفكر وعلماء الأمة. وتعود إلى آثارهم، فلا تجد ما يستحق بعض هذا التكريم والثناء.

وكان هؤلاء وغيرهم من أعداء العربية والإسلام، منذ عهد التتار والصليبيين، يبذلون الجهد الجهيد لغمط حقوق الذين يخدمون العربية لغة والإسلام ديناً، وتجاهل آثارهم ونشاطهم العلمي، ونشر المقالات والبحوث والدراسات في الطعن فيهم، وإغفال آثارهم القيمة وهم أحياء وبعد موتهم، فلا يعاد نشر ما سبق نشره إلاّ نادراً، ولا ينشر ما لم يسبق نشره أبداً، ولا يترجم أثر من آثارهم مطلقاً.

وتعود إلى آثار هؤلاء العلماء العاملين، فتجدها علماً ينفع الناس، وإذا قارنتها بآثار المحظوظين لدى الاستعمار والصهيونية، تجد البون شاسعاً والفرق عظيماً، فهي زبد يذهب جفاء.

وتتساءل: كيف يمكث الزَّبد في الأرض؟! وكيف يذهب ما ينفع جفاء؟!

والجواب: إنها مصلحة الاستعمار والصهيونية وأعداء العرب

والمسلمين، تصوِّر الزبد بأنه ينفع الناس ويمكث في الأرض، وتصوَّر ما ينفع العرب والمسلمين بأنه زبد يذهب جفاء ولا يمكث في الأرض . . .

وابيضّت عيون المخلصين من العرب والمسلمين، وتساقط منهم (وحدهم) الشهداء، وتحمّلوا أعباء الجهاد بصبر وإيمان، حتى إذا حقّقوا الاستقلال بتضحياتهم وجلدهم وصبرهم وإيمانهم، وآن لهم أن يستريحوا وينعموا بالنصر، وجدوا أنفسهم مضطهدين كما كانوا في أيام الاحتلال، ووجدوا الزبد يمكث في الأرض، ووجدوا ما ينفع الناس يصبح زبداً . . .

أنعزو هذا إلى الصدف؟!! أنعزوه إلى الجهل؟! أم وراء الأكمة ما وراءها!!

وأقولها بصراحة ووضوح: إنّ العربيّ الحق وليس العربي الذي من قوارير، والمسلم الحركي وليس المسلم الجغرافي، كان مضطهداً في أيام الاحتلال ومطارداً، ولا يزال في أيام الاستقلال هو (وحده) من دون سائر الناس مضطهداً مطارداً . !

وطالما سألني يوماً بعد يوم المضطهدون المطاردون: نحن مع مَنْ ؟! فلا أستطيع الجواب أو بتعبير أصح: أعجز عن الجواب.

ولست أكتم هذه الحقيقة، فالرائد لا يكذب أهله، وقد قلتها بكل صراحة لكل من صادفته من القادة والزعماء العرب والمسلمين، فلم أسمع جواباً مقنعاً ولا تعليلاً معقولاً.

إنّ من مصلحة الاستعمار والصهيونية وأعداء العرب والمسلمين، أن تُغْمَط حقوق المدافعين عن العربية لغةً والإسلام ديناً.

ومن مصلحة العرب والمسلمين، ألاّ تُغْمط حقوق المدافعين عن العربية لغةً والإسلام ديناً، لأننا إذا فرّطنا بالعربية وهي لغتنا القومية التي تربط الأواصر وتجمع الشمل وتقود إلى الوحدة، وفرطنا بالإسلام الذي وحّد العرب وجمع شملهم وقادهم إلى الفتح والنصر، فلن يبقى للعرب والمسلمين ما يجمعهم

على كلمة سواء ولا ما يعتزّون به ويفخرون.

وأعداء العرب والمسلمين يستهدفون العربية والإسلام، حتى ينتهي العرب والمسلمون إلى الأبد.

وهذه حقيقة من الحقائق المسلَّم بها، واضحة ظاهرة، وضوح الشمس في رابعة النهار وظاهرة ظهورها.

فلمصلحة مَنْ يقتفي الذين استقلوا خطوات الذين استَعْبَدوا وسائر أعداء العرب والمسلمين!

إنّ أموال العرب في مصارف المستعمرين والصهاينة، وعقول أبناء العرب والمسلمين تهاجر لخدمة المستعمِرين والصهاينة، وأعضاء البعثات العلمية قلّما يعودون إلى أرض الوطن.

وأُحرق المسجد الأقصى، واحتُلّت القدس، واستولى العدو الصهيوني على ستة أمثال ما استولى عليه سنة ١٩٤٨ .

وأصبح العربيّ والمسلم يقضي جزءاً من وقته في بلاد المستعمِر، يبذِّر المال تبذيراً، ويُودِّع عفافه على باب الطائرة التي تقلّه إلى بلاد العدو، ولا يمانع هناك من مصادقة الحسان من بنات المستعمِر وصهيون، على مرأى ومسمع من السفارات العربية والإسلامية التى لا يشغلها غير حديث النساء والسيارات والدعوات والحفلات!

وأهمل العامل واجبه الكامل في العمل، والفلاح لا يستنفد قدرته في الزراعة، والتلميذ والطالب يقضيان وقتاً في استعراض رقوق الإذاعة المسموعة والخيالة أكثر من الوقت الذي يُقضى في المذاكرة، وقلّت أمانة أكثر العلماء، ولم يبقَ من يحرص على كرامة العلم والعلماء غير الأقل من القليل، وتخلّى الناس عن مُثُلهم العليا، وفضّل الكثيرون المنصب والمال على العِرض وتربية الأطفال،

واتجه أكثر الناس إلى المادة وحدها وتخلّوا عن الروح، وتزعزعت أركان العربية الفصحى في وطنها، وأصبح الدين غريباً كما بدأ.

تُرى! هل كان يحدث ما حدث لو عدنا إلى الله حقاً!؟

هذا جزاء ما فرطت أيدينا في جنب الله.

ولكنّ المؤمن لا يقنط ولا ييأس، فلغة القرآن محفوظة بحفظ القرآن، ودين الله يحفظه الله.

ألا ترى كيف يلجأ العرب والمسلمون إلى المسجد، فيكثر روّاده ويزداد الراكعون الساجدون، ويُقْبل العربيّ والمسلم على القرآن تلاوةً ودراسةً وحفظاً، ويقدِّم ماله للفقراء والمساكين وابن السبيل، عند إعراض الدولة عن المسجد وأهله، وعند ابتعاد الحاكمين عن دين الله؟

ألا ترى كيف يهتم العرب والمسلمون بالأعياد الدينية وشهر رمضان، فيقبلون على المشاركة فيها بحماسة وهمّة وانشراح؟

ألا ترى كيف يتضاعف عدد الذين يؤدون الحج والعمرة كل عام؟

هذا هو سر هذا الدين، يقوى في النوازل والنكبات، ويشتد في المصائب والملمات، ويعود حياً شامخاً في الوقت الذي يظن فيه أعداؤه أنه قد انتقل إلى رحمة الله!

عاد قوياً في أيام غزو التتار، الذين اكتسحوا الحاكمين بأمرهم، ولكنّ الدين اكتسحهم، فاعتنق التتار الإسلام.

واشتدّ في أيام الصليبيين، وقد اجتمعت أوروبا على حربه، ولكنهم رُدوا على أعقابهم خائبين.

والتاريخ يحدِّثنا أنّ المساجد تفجّرت بالمصلين، ولم يُر الناس أكثر صلاة ولا أسخى زكاة ولا أشد إقبالاً على أداء فريضة الحج، ولا أعظم حرصاً على الصيام وبعداً عن الموبقات كما كانوا في عهد التتار والصليبيين!

وفي هذا القرن بالذات لم يلمع المسجد كما لمع في أيام الاستعمار، إذ انبعث الثوار من جنباته وصدرت الفتاوى من صحونه، حتى انهار الاستعمار، والعزة لله ولرسوله والمؤمنين.

إن المسجد لا يغالبه جبار إلا غلبه ، فلينظر الذين يحاولون مغالبته قبل فوات الأوان كيف يفعلون؟.

***

التربية والتعليم العسكرية في العهدين

لست بحاجة إلى التنويه بأهمية القوات العسكرية المسلّحة ضباطاً وضباط صف وجنوداً ومراتب أخرى ، لأنّ القوات العسكرية بيدها القوّة الفعلية الضاربة ، وصلاحها جزء كبير من صلاح الأمة كلها ، وفسادها جزء حيوي من فساد بلادها ، ولكنّ صلاحها يقود الأمة إلى الصلاح والإصلاح ، وفسادها يقود البلاد إلى الفساد والإفساد .

ذلك لأنّ القوات العسكرية في واقعها جزء من الأمة وليست الأمة كلها ، ولكنها الجزء القوي بضبطه وتنظيمه وتدريبه وتسليحه وقيادته ، لذلك فهي أهم جزء من أجزاء الأمة ، وتأثيرها في الأمة أكبر وأعظم وأعمق من سائر أجزاء الأمة الأخرى ، حتى ولو كانت القوات العسكرية المسلّحة قليلة العَدَد بالنسبة لأجزاء الأمة الأخرى ، لأنه من المعروف أنّ العَدَد القليل المنظّم أقوى من العدد الكثير غير المنظّم .

ولأهميّة القوّات العسكرية المسلّحة ، ركّز الاستعمار عليها ، لتكون طوع يديه ، تفعل ما يريد وفق مصالحه ، ولا تفعل ما تريد وفق مصالح الأمة .

وكان الهدف الأول من تشكيل القوات المسلحة في بداية عهد الاحتلال للدول العربية والإسلامية المحرومة من القوات العسكرية ، هو المعاونة على توطيد الأمن الداخلي في خارج المدن الرئيسة بخاصة ، لأن الشرطة تتولى هذا الواجب في داخل المدن الرئيسة ، وكان تشكيلها في أول الأمر يهدف إلى تخفيف

واجبات الاستعمار في مصاولة الذين يعكرون صفو الأمن والاستقرار ، حتى يقتصد الاستعمار ما أمكن في استعمال قواته العسكرية المسلّحة للنهوض بواجب الأمن الداخلي ، وحتى لا تتكبّد قواته خسائر في الأموال والأنفس ولا تبذل جهداً بدون مسوّغ .

وكان تركيز الاستعمار على القوات العسكرية المسلّحة التابعة للبلاد المستعمَرة ينصبّ على تربية منتسبيها تربية فاسدة تجعلها كما يقول الشاعر :

إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

وقد ساعدت الاستعمار في تحقيق مهمته الأيدي الخفيفةُ التي تلمس آثارها في التخريب ولا تراها ، كالماسونية ربيبة الصهيونية والخونة والعملاء والذين تهمهم جيوبهم ولا تهمهم قلوبهم من أبناء البلد ومن الآخرين .

كانت الكليّات العسكرية وكليات الأركان والمدارس والمعاهد والكليات العسكرية الأخرى ، تدرّس في مادة : التاريخ العسكري مثلاً ، تاريخ الحرب التي خاضها المستعمِر لاحتلال القطر العربي أو البلد الإسلامي ، الذي تدرّس فيه مادة التاريخ العسكري ، كما تدرّس في تلك المادة تاريخ حياة القادة الذين استعمروا تلك الأقطار أو البلاد ، كما يُدرس تاريخ الحرب وسيرُ قادتها المستعمِرين ، بأسلوب يجعل التلاميذ والطلاّب العسكريين يؤمنون بتفوُّق المستعمِر تَفوّقاً ساحقاً على المستعمَر ، وأنه ليس بالإمكان مجاراته أو محاذاته إلاّ بالاقتداء به منهاجاً وتصرّفاً .

وبكلام آخر ، يدرّس تاريخ حرب المستعمِر وتاريخ قادة المستعمِر بشكل يجعل التلميذ والطالب العربيّ والمسلم (مبهوراً) بقدرات الاستعمار وطاقاته : المادية ومنها البشرية رجالاً وقادة ، والمعنوية لسحق معنويات العسكريين العرب والمسلمين .

وما يقال عن مادة : التاريخ العسكري ، يمكن أن يقال عن مواد الدراسة الأخرى .

وقد كان يدرّس في مادة : التاريخ العسكري ، في الكلية العسكرية العراقية : تاريخ حرب العراق ، وتاريخ حرب فلسطين ، أي تاريخ الحرب لاحتلال الجيش البريطاني للعراق ، وتاريخ الحرب لاحتلال الجيش البريطاني لفلسطين !! وكان يدرّس سيرة (الجنرال مود) و (الجنرال اللّنْبي) والقادة الآخرين الذين كانوا بإمرتهما من البريطانيين .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، أصبح تاريخ حرب شمالي إفريقية ، والإنزال في نورماندي ، وتاريخ قادة حرب شمالي إفريقية والإنزال من الإنكليز والأمريكان يدرّس في مادة : التاريخ العسكري ، الذي يتعلّمه طلاّب الكلية العسكرية وكلية الأركان العراقيّة ، بالإضافة إلى تاريخ حرب العراق ، وتاريخ حرب فلسطين .

وهذه المواد القديمة والجديدة ، حديث غزليّ مكشوف بالاستعمار والمستعمِرين ، وتحطيم عمليّ واضح لمعنويات المسْتَعْبَدين .

ونتيجة لمثل هذه التربية وهذا التعليم ، يتخرّج الطلاب العسكريون العرب ، وهم يعرفون عن القادة البريطانيين والفرنسيين والطليان ، أكثر مما يعرفونه عن الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام،وعن خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني وقُتَيْبَة بن مُسْلم الباهِليّ ومحمد بن القاسم الثقفيّ وموسى بن نُصَيْر وطارق بن زياد !

وكان أكثر المتخرجين في الكليات العسكرية وكليات الأركان العربية والإسلاميّة يجهلون حتى أسماء قادة الفتح الإسلامي ، وحتى أسماء المعارك الحاسمة التي انتصر فيها العرب والمسلمون ، ومن الأشياء الاعتيادية المألوفة أن تسأل الضابط العربيّ المسلم عن اسم القائد العربيّ المسلم الذي فتح مدينته ونشر فيها العربيةَ لغةً والإسلام ديناً ، فلا يعرف الضابط لهذا السؤال جواباً!

كما يدرّس في الكليات العسكرية وكليات الأركان والمدارس والمعاهد والكليات العربية الأخرى كافة ، الفكر الغربيّ بالنسبة للسّائرين ضمن الفلك الغربي ، والفكر الشرقيّ بالنسبة للسّائرين ضمن الفلك الشرقيّ ، والفكر

الغربي مخلوطاً بالفكر الشرقيّ بالنسبةللسائرين في الفلك الغربي،ثم انقلبوا عليه فأصبحوا من السائرين ضمن الفلك الشرقي،أوبالعكس بالنسبة للذين ساروا في ركب الفلك الشرقي ثم طلّقوه وعادوا أدراجهم ، فاختلط عليهم الحابل بالنّابل وتشوّش فكرهم فلم يعودوا يعرفون الرأس من الذّنب . وكلّ هذه الأفكار الغربية والشرقية تخصّ درس السَّوْق (الاستراتيجيّة) ودرس التعبئة (التكتيك) والتَّحْصين والتدريب على الأسلحة المختلفة .

وقد تكون الأفكار الغربية والأفكار الشرقية لا تلائم الطبيعة العربية والإسلامية ، وقد تكون على طرفي نقيض من هذه الطبيعة .

وكمثال على هذا التفكير الذي لا يلائم الطبيعة العربية مثلاً ، فإن الفكر الغربي في التعبئة غالباً ما يتّفق مع مبدأ : أفواه نارية غزيرة تدكّ موضع العدو دكّاً ، وقوات صغيرة نسبياً لاحتلال الموضع .

أما الفكر الشرقي ، فعلى النقيض غالباً ، فهو على الأكثر الأعم يتّفق مع مبدأ : قوات ضخمة وأفواه نارية قليلة ، أو قوّات ضخمة ، وأفواه نارية غزيرة إذا تيسّرت غزارة الأفواه النارية .

ومعنى ذلك ، أنّ اعتماد الفكر الغربي بالدرجة الأولى يكون على غزارة نيران الأسلحة من الأرض والجو والبحر ، لأنّ دول الغرب دول صناعية غنية ، فهي تضحي بالنار ولا تضحي بالبشر .

واعتماد الفكر الشرقي بالدرجة الأولى يكون على غزارة البشر ، لأنّ دول الشرق كثيفة السكّان ، فهي تضحي بالبشر ولا تضحي بالنار ، إلاّ إذا تيسرت لديهم الأسلحة الغزيرة ، فيضحّون بالبشر كما يضحّون بالنار .

والحق ، أنّ الأفكار الغربية لا تلائم العرب ، لأنهم يستوردون أسلحتهم ، فلا يستطيعون التضحية بالنار دون حساب .

كما أنّ الأفكار الشرقية لا تلائم العَرب ، لأنّ اللّه سبحانه وتعالى كرّم بني آدم ، فلا يجوز إزهاق الروح إلا بحقها .

كما أنّ الدول العربية ليست دولاً صناعية ولم تصبح دولاً تطبق العلوم التطبيقية في صناعتها وزراعتها .

وهي ليست غزيرة السُكّان كالصين مثلاً التي يسكنها ألف مليون نسمة ولا كالاتحاد السوفياتي في تعداد السكّان .

بل إنّ الفكر السَّوقي والتعبوي قد لا يناسب جميع الدول العربية ، فما يناسب ليبيا بنفوسها القليلة وأرضها الشاسعة لا يناسب مصر بنفوسها الكثيرة نسبياً وأرضها القليلة بالنسبة لتعداد نفوسها .

والمهم أنّ الفكر العسكري العربي والإسلامي ، غائب عن مدارس ومعاهد وكليات العرب والمسلمين العسكرية وبالتالي غائب عن قواتها العسكرية المسلّحة .

وخلاصة الفكر العربي والإسلامي في السّوق والتعبئة ، الحرص الشديد على الأرواح البشرية ، والالتزام الصارم بعدم الاعتداء ، والسّلام هو القاعدة و الحرب هي الاستثناء ، والاحترام البالغ للعهود والمواثيق .

فإذا نشبت الحرب ، استخدمنا طاقاتنا المادية : البشرية ، والأسلحة ، بشكل متوازن لا إفراط فيه ولا تفريط ، فلانطهِّرساحات الألغام بالبشر ، كما فعل الشرقيون ، ولا ننفق الملايين من أجل تل من التلال أو موقع من المواقع ، كما فعل الغربيون .

والجهاد فرضُ عَيْنِيّ على كل مسلم ما دام العدو قد احتلّ شبراً واحداً من أرض المسلمين ، ولا سلام ما دام العدو في أرض المسلمين ، وسلام الإسلام سلام الأقوياء ، فإذا قدرتَ على العدو وجنح للسّلم فاجنح لها وتوكّل على اللّه ، فالسّلام الإسلامي سلام الأقوياء لا سلام الضعفاء ، والجنوح إليه من موطن القوّة لا من موطن الضعف .

هذا هو الفكر العسكريّ الإسلامي الغائب عن الجيوش العربية والإسلامية كافة ، ومن المعلوم أنّ الإسلام كُلّ لا يتجزّأ ، والفكر العسكري

جزء متمم لمبادىء الإسلام ، فلا ينبغي أن يغيب عن التطبييق !

ما هو موقف الإسلام من : شروط التجنيد ، والتعبئة ، التولي عند الزحف ، عقاب المتخلفين ، الكتمان ، الحرب الإجماعية ، الشهداء ، القضايا الإدارية ، الوفاء بالوعود والمواثيق ، السّلام ، الجهاد ، كل ذلك يجهله الضباط العرب والمسلمون إلاّ من رحم اللّه ، وهم أندر من الصَّديق الصَّدوق في هذه الأيام .

أما التدريب العسكريّ الذي فرضه المستعمِر ، فهو تدريب غربي ، فلما استقلّ العرب والمسلمون أدخل قسم منهم التدريب الشرقي وخاصم التدريب الغربي ، ثم عاد إلى التدريب الغربي بعد أن خاصم التدريب الشرقي ، أو خلط الشرقي بالغربي ، فأصبح تدريبهم كالغراب الذي أراد أن يقلّد العصفور في مِشْيَته ، فبذل جهده في التقليد دون جدوى ، وأخيراً نسي مشيته الأصلية ولم ينجح في تقليد مشية العصفور ، وكان نسيانه بعدما بذله من تعب في المشيتين .

أما التدريب العسكري النّابع من فكرنا وطبيعتنا عرباً مسلمين ، فلا دخل له في تدريب العرب والمسلمين .

وما يقال عن التدريب ، يقال عن التنظيم والتسليح .

وكمثال على التدريب العسكري ، فإنّ التدريب على رمي الأسلحة لمنتسبي الجيش من أهم التدريبات العسكرية ، لأنه يعتبر بحق ثمرتها .

والأسلوب الغربي والشرقي في هذا التدريب ، أسلوب آلي لا دخل للنخوة العربية والعواطف فيه ، وكل ما يحدث هو أنّ الرامي يأخذ موضعه في ميدان الرمي ثم يصوِّب ويرمي على هدفه ، وفي درئية ميدان الرمي مسؤول يسجّل للرامي العلامات التي يستحقها .

وحضرت ميدان الرمي ذات يوم ، ووقفت على أحد الجنود وهو يرمي ، فلم أجد في هدفه إطلاقة واحدة ، فَسُجِّلتْ له علامة الصِّفْر ، وانتهى أمره

بالإخفاق في اختبار الرمي .

وكان بالإمكان أن يمضي هذا الجندي إلى سبيله غير مكترث بالأمر ، ولكنني استوقفته ، وسألته عن قبيلته وعشيرته وقريته واسم مختار قريته ، فاستغرب الجندي من أسئلتي كما استغرب غيره من الحاضرين .

ولكنني قلت للجندي : سأكتب رسالة لمختار قريتك ، أخبره فيها بأنك أحرزت صفراً في الرمي ،وسأطلب منه ألا يزوجك أحدٌ من القرية ، لأنك سوّدت وجه عشيرتك وقبيلتك !

وكأنّ الجندي العربي الأصيل أصيب بصدمة كهربائية عنيفة هزته هزاً ، فأجهش في البكاء ، ثم أخذ يتوسّل إليّ أن أمنحه فرصة أخرى للرمي ، فإذا لم يبيِّض الوجه ـ كما عبّر هو ـ فسيهيم على وجهه ولا يعود إلى قريته وأهله أبداً .

وكنت أتوقع منه هذا الرجاء ، فمنحته فرصة جديدة للرمي ، فإذا به يصيب الهدف إصابات دقيقة كأحسن هدّاف . ونهض بعد الرمي يردّد الأهازيج ، ويقول لأفراد قبيلته من الجنود : « تعالوا شوفوا رجّالكم !! » ، يهزج بهذه الكلمات ملوِّحاً ببندقيته في الهواء .

هذا هو الأسلوب التدريبي الذي يناسب العربيِ : استثارة نخوته ، وعندها يُظْهر الأعاجيب .

أما أن نطبّق عليه الأسلوب التدريبي الغربي أو الشرقي ، وهو أسلوب رتيبٌ آلي ، لا فرق بينه وبين تشغيل أية آلة أخرى ، فلا يجُدي مع العربي .

وكان التدريب والتعليم والتربية العسكرية تترجم من لغة المستعمِر إلى العربية بلغة ركيكة ، تشيع فيها المصطلحات الإنكليزية والفرنسية والإيطالية والتركية ، حسب جنسية الدولة المستعمِرة التي احتلّت البلد العربي الذي يقوم بترجمة كتب المستعمِر تأكيداً وتثبيتاً للاستعمار الفكري البغيض .

ولله الفضل وحده في توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية ، وذلك بصدور أربعة معجمات عسكرية موحّدة هي :

١ ـ المعجم العسكري الموحد (إنكليزي ـ عربي) .

٢ ـ المعجم العسكري الموحد (فرنسي ـ عربي) .

٣ ـ المعجم العسكري الموحد (عربي ـ إنكليزي) .

٤ ـ المعجم العسكري الموحد (عربي ـ فرنسي) .

فالتزم بها قسم من الدول العربية ، وفضّلت دول عربية أخرى لغة المستعمِر على لغة القرآن الكريم !

ولكنّ أفظع أساليب التربية والتعليم والتدريب الدخيلة الاستعمارية على فظاعتها البالغة كلها ، هو السلوك اللاأخلاقيّ الذي فرضه المستعمِر الغربي والشرقي والاستعمار القديم والجديد على العسكريين العرب والمسلمين فرضاً ، وحرص على الأخذ به وتطبيقه وإشاعته والحثّ عليه .

فقد أشاع هذا المستعمِر ، أنّ الدين والعسكرية على طرفي نقيض ، وأنّ التمسك بالدين يؤدي إلى التخلّف ، وأنّ العسكريّ ـ ضابطاً أو جندياً ـ المتمسك بدينه إنسان لا يمكن أن ينجح في مسلكه العسكري ، وعليه إما أن يتخلّى عن دينه ، أو يتخلّى عن عسكريته .

وأنّ من صفات العسكري المتميّز ، أن يكون فاسقاً فاجراً ، يعاقر الخمرة ، ويدمن القمار ، ويغشى الملاهي ، ويجيد الرقص ، ويمارس الرهان على الخيل ، وتكون له صديقة أو صديقات من الغيد الحسان .

وللتاريخ ، إنّ صورة التربية العسكرية التي فرضها المستعمِر ، بقيت كما هي عليه في أيام الاستقلال .

وكان في الجيوش العربية والإسلامية متدينون ، ولكنهم كانوا قليلين ، وقد تحملوا ما تحملوا من أهوال وعَناء ، ليبقوا في مسلكهم العسكري ، وأكثرهم بدأوا حياتهم العسكرية متدينين ثم نكصوا على أعقابهم من هول الضغط الذي عجزوا عن تحمله ، فجرفهم التيار العنيف ، وقسم منهم تخلّوا

عن مسلكهم العسكري ، وأقلّهم ثبتوا على عقيدتهم وتحلوا بالصبر الجميل .

وسأتحدث عن تجربتي الشخصية في هذا المجال .

فقد جاءني صديق صاحبني منذ الصغر ، للتهنئة بقبولي طالباً في الكلية العسكرية ونصحني أن أترك الصّلاة وأتخلى عن واجباتي الدينية كلّها ، حتى أستطيع النجاح طالباً في الكلية العسكرية وضابطاً بعد التخرج فيها .

والتحقتُ بالكلية العسكرية ، فكان الذين يؤدون الصلاة يختفون بصلاتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وكان حمّام الكلية يزوّد بالماء الحار مرة واحدة أو مرتين في الأسبوع ، وكان الطلاّب في ريعان الشباب ، وكان عليهم الاستحمام بالماء البارد في الشتاء ، ليزيلوا عنهم آثار الاستحلام .

وبُذلتْ جهود مضنية في الأيام الأولى من شهر رمضان ، كالهرولة إلى مسافات شاسعة ، وعدم إعداد طعام الإفطار والسحور ، لإجبار الطلاّب الصائمين على الإفطار .

وكان الطالب المُصَلّي إذا أخطأ كما يخطىء غيره في التدريب، يشنّع عليه بكلمات نابية ، لعلَّ أخفّها : هنا المطلوب إتقان التدريب لا إتقان الصّلاة !

وتخرّجت في الكليّة ، والتحقت بكتيبة الخيّالة الثالثة في مدينة (الموصل) شمالي العراق ، فسألني قائد السرية التي انتسبت إليها ، في أول لقائي به وأول يوم رأيته فيه وتعرفت إليه : « هل تعاقر الخمر ؟ هل تلعب الميسر ؟ هل تغازل الغيد الحسان ؟ »

وتكرر جوابي على أسئلته المتعاقبة بالنفي ، فظهرت على وجهه بوادر خيبة الأمل ، وندب حظّه العاثر لالتحاقي ضابطاً في سريته ، ثم عبس وتولّى وهو يقول : « لماذا أصبحت ضابطاً إذاً ؟ ولماذا اخترت سلاح الفرسان ؟ ! ولماذا تعيش ؟ ! الأفضل لك أن تموت » .

ومضى قائد السرية ، لا يلقى أحداً إلاّ ويحدثه عن مصيبته بي ويشنّع على سلوكي النابي !!

وكان هذا أول درس تلقّيته في بداية حياتي العملية من قائد سريتي ، ثم توالت عليّ الدروس المماثلة كاللّحن المكرّر يعاد على مسامعي صباح مساء ، واللّحن المكرّر يُسأم ويُمَلّ إذا كان مريحاً ، فكيف إذا كان ناشزاً؟!

ولم أباغت بما سمعته من قائد سريّتي ، فقد تكاثرت على مسامعي تجارب المجربين ونصائحهم منذ اعتزمت الالتحاق بالكلية العسكرية : أنْ أبتعد عن تعاليم الدين الحنيف ، وأن أُكيّف نفسي لتلائم مناخ العسكريين .

وبعد تخرّجي ضابطاً في الكلية العسكرية سنة ١٩٣٨ الميلادية ، التحقت بمدرسة الخيالة في بغداد ، فانهالتْ عليّ الدعوات الشخصية والرسمية التي يسيل الخمر فيها أنهاراً ، وانهالت معها عليّ النصائح والانتقادات لاعتذاري عن تلبية تلك الدعوات ، وكان هذا الاعتذار يقابل بالاستنكار الشديد والسخط المرير .

ولكنني كنت أتلقى النصح والنقد تارة والاستنكار والسخط تارة أخرى من لداتي الذين لم يتجاوزوا العشرين وهم شباب في مثل عمر الورد ، لا ينقصهم المال والفراغ ، ولم أكن أتوقع أبداً أن أسمع النقد وألمس الاستنكار والسخط بل الاشمئزاز من قائد سريتي الذي تجاوز الأربعين من عمره ، وأمضى في خدمته العسكرية ما يزيد على العشرين عاماً!!

وشاء القدر ألاّ يطول استغرابي من تصرّف قائد سريتي ، لأنني وجدتُ تصرف قائد كتيبتي نحوي ، ـ وهو الذي جاوز الخمسين من عمره وقارب الستين ، وكان ضابطاً مخضرماً قضى شطراً كبيراً من خدمته العسكرية في الجيش العثماني ، وشهد الحرب العالمية الأولى ـ لا يختلف في شيء عن تصرف قائد السرية نحوي : كلاهما يأمر بالمنكر ، وينهى عن المعروف .

وكان من تقاليد الجيش أن تولم الوحدات العسكرية لضباطها الجدد الذين يلتحقون بها وليمة رسمية ، تطلق عليها : « وليمة التعارف والاستقبال » ، تقدم فيها أنواع الخمور بلا حدود مع ما لذّ وطاب من الأطعمة الشهيّة ، وقد يصاحب كل ذلك الرقص الشرقي والغربيّ على أنغام الموسيقى زيادة في الحفاوة والتكريم .

واستدعاني قائد سريتي قبيل انتهاء الدوام الرسمي ، وأعاد على ذهني أخبار وليمة الكتيبة للتعارف و الاستقبال في دار الضباط مساء ، وأبلغني أن الوليمة ستقام من أجلي وأجل خمسة ضباط أحداث آخرين التحقوا معي بالكتيبة، وهم زملائي في الكلية العسكرية ومدرسة الخيالة ،!فلا بدّ من تلبية الدعوة ، لأنّ التخلّف عنها إهانة لشرف قائد الكتيبة والكتيبة !

وقبل أن يسمح لي قائد سريتي بالانصراف ، غمز بطرف عينيه وهو يبتسم ابتسامة الواثق بنفسه وبكلامه وهو يقول : « لعلّك تراجع نفسك هذا اليوم ، ولعلني أهديك إلى سر الحياة هذه الليلة » .

وشهدت الحفلة مع زملائي في الوقت الموعود ، وكنت عازماً على التخلف ولكنّ زملائي أحاطوني في داري وأخذوني أخذاً إلى دار الضباط ، وكان هؤلاء الزملاء قد طوّقوني في تلك الدار خوفاً من تهرّبي خلسة .

وقدم قائد الكتيبة يتبختر ، فاستقبله الضباط وقوفاً ، ثم قدّم إليه قادة السرايا ضباطهم الجدد ، وجاء دوري فقدّمني قائد سريتي قائلاً عني : « الملازم . . . ضابط خام ، يدّعي أنه لم يذق طعم الخمر في حياته » ، وكان كلامه مزيجاً من الاستفزاز والتهكم والاستغراب .

وقال قائد الكتيبة : « كيف يكون في سلاح الفرسان ولا يعاقر الخمر ؟ ! هذا غير معقول » .

وتحرّج موقفي ، وتجمع الضباط من حولي ، يرجونني بإلحاح ، ويطالبونني بإلحاف ، وجاءني قائد الكتيبة وقد أترع كأساً بالخمر ، يحملها

بيده ، وقدّمها إليّ ، آمراً ، أن أبدأ صفحة جديدة في حياتي ، بشرب المدام ، وأن أتخلّى عن تزمّتي ، لأصبح ضابطاً حقاً . . . ثم أقسم بشرفه العسكريّ أن أفعل ما أمرني به . . . وأقسم قائد سريتي هو الآخر متطوعاً ، ألاّ أردّ كأس القائد الهمام !

وكان اللّيل البهيم قد أرخى سدوله ، وكانت السماء صافية تتلألأ بالنجوم ، وكانت أمواه (دجلة) تعكس على صفحاتها أنوار النجوم ، فتزيدها بهاء ورونقاً ونوراً .

وكان قائد الكتيبة برتبة (عقيد) ، يحمل على كتفيه رتبته العسكرية ، وهي بحساب النجوم اثنتا عشرة نجمة ، وعلى كل كتف تاج يعادل أربع نجوم ، ونجمتان أسفل التاج ، فيكون على كل كتف ست نجوم ، وعلى الكتفين اثنتا عشرة نجمة .

ويومها قلت له : « إنني أطيعك في تنفيذ أوامرك العسكرية ، وأطيع اللّه في تنفيذ أوامره الدينيّة ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . . . إنك تحمل على كتفيك اثنتي عشرة نجمة ، فانظر إلى سماء اللّه لترى كم تحمل من نجوم » .

وبهت القائد ، وأخذ يردّد : « السّماء . . ! السّماء . . ! نجوم السماء . . . ! ؟ ثم أشاح بوجهه عني ، ومضى غضبان أسفاً وهو يقول : « هذا الضابط لا يفيدنا . . . لا يفيدنا أبداً» .

ويومئذ شعرت شعوراً راسخاً ، بأنّ موقفي ليس مصاولة بين إرادتي وإرادة القائد ، ولكنها بين إرادة القائد بشراً ، وإرادة اللّه خالق البشر !

وجلست وحيداً أتأمّل نجوم السماء ، وأستشعر عظمة خالق السّماء ، وجلس الضباط جميعاً ، ترتفع ضحكاتهم إلى عنان السّماء .

لقد كان الاعتقاد السّائد بين أكثر الضباط وهم في الخدمة ، أنّ التدين تخلّف وجمود ، وأنّ التقوى بلادة وتواكل .

وكان دليلهم على إثبات هذا الاعتقاد ، أقوال المستعمِرين والمبشرين وعملائهم وأذنابهم ، وأمثلة من متدينين عاجزين متخلّفين ، ليس للدين صلَة في عجزهم وتخلّفهم ، ولكنهم عجزوا عن أعباء الحياة وتخلّفوا عن أقرانهم ، فلجأوا إلى الدين يتظاهرون به ويمعنون بهذا التظاهر ، لأنهم لم يجدوا ما يلجأون إليه ، فظنّ الجهلاء الأغبياء أنّ الدين سبب عجزهم وتخلّفهم ، والدين منهما براء .

وصمّمت وأنا أتأمل النجوم ، أن أُثبتَ أنّ كل تلك المفاهيم وغيرها من الدس السخيف على الدين والمتدينين مفاهيم خاطئة سخيفة ، وأنّ الضابط المتدين حريّ بالتفوق وأهل له ، وأنّ الدين يستثير الهمم والعزائم ، فعزمت ألاّ أرضى بالنجاح وحده ولا أقتنع به ، بل أحقّق التفوق في النجاح ولا أقبل بغيره . وكان سبيلي إلى تحقيق هدفي هو العمل الدائب وإتقانه ، والحرص الشديد على الواجب وإحسانه ، واستيعاب العلوم العسكرية وفلسفتها ، والسّهر على تدريب الجنود وتربيتهم وتعليمهم ، والسعي في حلّ مشاكلهم الرسمية والشخصية ، حتى أصبح رعيلي [1] رعيلاً نموذجياً يُسْعى إليه في داخل السرية والكتيبة ، ويزوره القاصدون من سائر الوحدات ، ويعرضه قائد السرية وقائد الكتيبة للزوار من مقر الجيش والأجانب ، ويحوز قصب السبق تدريباً وتهذيباً وتعلماً ، وتربية وضبطاً ونظاماً وتجهيزاً ، على سائر رعائل الكتيبة .

كنت أحضر إلى الثُكْنَة قبل شروق الشمس، وكنت أغادرها في الهزيع الأول من الليل في الأيام العادية وأبات في الثكنة في أيام التفتيش، وكنت أقضي وقتي كلّه متعلماً ومعلّماً ، ومتدرّباً ، ومُدَرّباً، وكان من الأمور الاعتيادية، أن يصدح بوق النهوض وأنا في الثُكنة، فيجدني جنودي منتصب القامة في قاعة نومهم، فشاع بين الضباط أنني أصلي الفجر حاضراً في الثكنة

(١) الرعيل في سلاح الفرسان : فصيلة من سلاح المشاة ، مؤلفة من نحو اثنين وثلاثين ضابط صف وجندياً بقيادة ضابط برتبة ملازم . والرعيل من الخيالة يطلق عليه فصيلة في المشاة .

ولا أغادرها إلّا بعد أداء صلاة العشاء.

وكان الضباط يردّدون هذا الكلام بشكل نكتة تستدعي الابتسام، ولو أنها كانت تقريراً للواقع الذي أعيشه وأحياه.

بهذا الجهد الجهيد والدأب المتواصل، استطعت تكذيب ما أُلصق بالمتدينين ظلماً وعدواناً، واستطعت الاستحواذ على ثقة قادتي وجنودي وحبهم وتقديرهم، كما استطعت تسلّم مناصب عسكرية أعلى من رتبتي العسكرية لا يحلم بها زملائي في الرتبة والقِدَم.

ونُقلت من كتيبتي إلى منصب ضابط ركن في مقر لواء الخيّالة الذي كان مقره في العاصمة بغداد، وكان قائد اللواء قليل الاختلاط بالضباط، يعرفهم بأعمالهم لا باتصاله الشخصي بهم.

وكان حسب العادة مقامراً سكّيراً لا يكاد يصحو من أثر الخمر.

وجاء موسم كتابة التقارير السرّيّة السنوية، والقادة يكتبون كلّ عام تقريراً سرِيّاً عن ضباطهم، يقوّمون خطياً فيها أعمال الضباط ونشاطهم ومزاياهم العسكرية وسلوكهم الشخصي، واستناداً على تلك التقارير يُرقّى الضابط إذا جاء موعد ترقيته إذا كانت تقاريره مشجّعة، أو يحرم من الترقية إذا كانت تقاريره مثبِّطة.

وجاءني مقدَّم اللواء - وهو رئيس ضبّاط ركن اللواء - ضاحكاً ومعه التقرير السنوي السري الذي خطّه عني قائد اللواء، فإذا بالقائد قد سجّل إزاء فقرة: «هل يشرب الخمر؟» في التقرير: «نعم يشربها بالمناسبات».

ونبّهت القائد بأنني لم أذق طعم الخمر أبداً في حياتي، فقال مستغرباً محتجاً: «كيف لا تشربها وأنت من خيرة الضباط؟!».

ودار الزمان دورته، وتخرّجت في كلية الأركان، وشهدت عشرات الدورات العسكرية داخل العراق وخارجه، وشاركت في حرب فلسطين ضابط ركن اللواء المرابط في مدينة (جِنِينْ)، أطلق الله أسرها من يد العدو

الصهيوني وأعاد إليها حريتها وكرامتها، وأصبحت من المعروفين على نطاق الجيش العراقي، فرشحت نفسي معتمداً لدار الضباط في الموصل الحدباء.

ونجحت قائمتي في الانتخابات نجاحاً ساحقاً، فتنكرّت لمقصف الدار تنكراً مشكوفاً وأهملته إهمالاً متعمداً، وأقمتُ مسجداً فيه للصلاة مستفيداً من أحد غرف الدار.

وكان في مدخل الدار سجل للمقترحات، يتقدّم خطياً في السجل مَنْ يشاء من الضباط بمقترحاته حين يشاء.

وفي يوم من الأيام، كتب ضابط من الضباط في سجل المقترحات: «ينقص الدار في وضعها الحالي مقرىء للقرآن الكريم»، وقد أراد بهذا الاقتراح الاحتجاج بصورة مهذّبة على إهمال مقصف الدار والاحتفاء بمسجده!

وأخيراً أُقيلت لجنة الدار التي كانت برئاستي قبل انتهاء مدتها المقررة وهي سنة واحدة، وكان إقالة اللجنة من قائد موقع الموصل العسكريّ، وعُيِّنت لجنة جديدة للدار تعييناً، فعاد الكأس والوتر، وعادت للمقصف أيام العز بعد أن عانى الأَمَرَّيْن في أيامي.

ولست بصدد سرد ما عانيته من عَنَتٍ شديد في حياتي العسكرية لتمسكي بتعاليم الدين الحنيف، فكل متدين في الجيش لاقى ما لاقيته وأكثر!!

ولكنني بصدد إبراز أمثلة حيّة ملموسة، تكشف عن واقع مرير.

والذي عانيته عاناه غيري من ضباط الجيوش العربية الأخرى والإسلامية، فثبت قسم على مبادئه، وانهار قسم آخر أمام التيار الجارف العتيد.

إنّ الضابط المتديِّن لا يجد الطريق أمامه ممهّداً للنجاح في حياته العسكرية، أما الضابط غير المتديِّن، فيجد الطريق أمامه مفتوحاً ممهّداً.

والضابط المتديِّن عليه أن (يبهر) الآخرين بعلمه وجهده وسلوكه،

وعليه أن يحاسب نفسه حساباً عسيراً على كل عملٍ يعمله ، حتى لا تؤخذ عليه (هفوة) صغيرة عابرة ، فتضخّم عليه وتصبح وصمة في سجله .

والضابط غير المتدين لا يحاسبه أحد بل هو يحاسب غيره على هفوات مزعومة ، لأنّ المجتمع العسكري يتغاضى عن سيئاته ! وقد يعتبرها حسنات .

وعلى كل حال ، فالضابط المتدين كالثوب الأبيض الناصع البياض ، والضابط المستهتر كالثوب الأسود الحالك السواد ، والنكتة السوداء في الثوب الأبيض ، ليست كالنكتة السوداء في الثوب الأسود .

لقد كان في كلّ وحدة من الوحدات العسكرية مقصف للخمور إلى جانب مطعم الضباط ، وكان في كل نادٍ من نوادي الضباط مقصف للخمور ، وكانت الحفلات الخليعة الداعرة تقام لأتفه الأسباب وتراق فيها أنهار من الخمر وتقترف فيها المحرمات .

وكان أكثر الضباط كأبي نؤاس الذي تاب عن الخمر توبة نصوحاً إلاّ إذا كان في ظروف نفسية خاصة ، فكان إذا حزن شرب الخمرة متعللاً بحزنه ، وإذا فرح شربها متعللاً بفرحه ، وهكذا كان الضباط يشربونها بالمناسبة وبدونها في كل وقت وفي كل مكان .

وقد نقل إلينا في يوم من أيام سنة ١٩٤٣ الميلادية قائد همام ، شعر أنّ كل شيءٍ في قيادته كامل وتام ، وليس في الواقع في قيادته غير الرجال المسلحين بالبنادق والسيوف والرماح ، بدون وسائط نقلية عسكرية وبدون إسكان مريح ، ولكنه قرّر أن يتعلّم الضباط الرقص الغربي على الإيقاع الغربي والجاز ، فأصدر أوامره الجازمة الصارمة الحازمة بتدريب الضباط على الرقص ، واستقدم المدربين من الفنانين والفنانات !!

والله وحده يعلم ما عانيته وعاناه أمثالي في سبيل التهرب من هذا التدريب .

ولست أنسى أبداً أيام شهر مايس (مايو) سنة ١٩٤١ الميلادية ، يوم كان الجيش العراقي مشتبكاً بالإنكليز في حرب طاحنة ضروس أيام ثورة العراق بقيادة رشيد عالي الكيلاني رحمه الله ، وصلاح الدين الصباغ ومحمود سلمان وفهمي سعيد وكامل شبيب ويونس السبعاوي عليهم رحمة الله ، وكان الضباط المتدينون يستقتلون دفاعاً عن وطنهم ، وكان الضباط المستهترون يلعنون الحرب والوطن لأنهم حرموا من مباذلهم ، وكان أحد الضباط يحبّ راقصة من الراقصات ، فكان يصيح بأعلى صوته : « عيوني فلانة . . . أين أنت الآن ؟! » ، ثم ينهمر الدمع من عينيه !

وكُلِّف هذا الضابط بواجب قتالي في يوم من الأيام ، فاصفر وجهه اصفرار الموت ، وتمارض ثمَّ راجع المستشفى وحصل على استراحة لمدة يومين . وحين خلا هذا المخنّث إلى كأسه وأقرانه ، أظهر أنه متمارض وليس مريضاً ، لأنه كما قال : « من أجل ماذا أموت وأترك فلانة في أحضان فلان وفلان ! » .

تلك لمحات من التربية اللاأخلاقية التي فرضَها المستعمِر على الضباط العرب والمسلمين .

فهل يستغرب عاقل واحد بعد ذلك من انتصار مليونين ونصف المليون صهيوني على العرب وتعدادهم مئة وخمسون مليوناً ؟

ومضى الاستعمار وجاء الاستقلال ، فلم تتغيرَّ تربية الضباط بخاصة والعسكريين بعامة ، بل زادت تربيتهم الاستعمارية سوءاً على سوء .

لقد كان في سجون قاسم العراق ومعتقلاته عدد كبير من الضباط ، كلهم عرب خُلّص ومسلمون حركيون ، وكانوا يقيمون شعائر الصّلاة ويتلون القرآن وكتب الدين علناً بالرغم من عداء حراسهم والموكلين بهم لهذا الاتجاه .

فهل من الصدف اعتقال وسجن و إعدام وسحل الضباط المتدينين العرب المسلمين ،دون غيرهم من منتسبي الأديان والقوميات الذين تولوا قيادة الجيش

ومناصبه العليا حين خلا الجو لهم ، وكانوا في أوج شماتتهم بالضباط العرب المسلمين ؟!

إن الضابط المتدين غريب بين أقرانه بكل ما في الكلمة من معنى .

وقد كان الضباط حين يجدون ضابطاً لامعاً لا يُشقّ له غبار في معلوماته العسكرية وسلوكه وشخصيته ، ولكنه متمسك بالخلق الكريم والدين ، يتساءلون فيما بينهم : كيف يمكن أن يكون الضابط لامعاً ومتديناً في آن واحد !! كيف استطاع أن يجمع بين النقيضين !!

هكذا أدخل الاستعمار في أدمغة هؤلاء المساكين المنحرفين من الضباط هذه الفرية الظالمة واللاّمعقولة وغير المنطقية .

وتسأل هؤلاء المغرّر بهم كلّ التغرير : هل يحارب الدين العلمَ؟ هل يدعو الإسلام إلى الجهل ؟ ماذا تعيبون على الإسلام منهجاً للحياة وسبيلاً للفضيلة والخير ؟

لماذا إذاً التنكر للدين ؟ ولمصلحة مَنْ هذا التنكّر ؟

وفي يوم من الأيام ، سألت أحد هؤلاء : ماذا تعرف عن العسكرية الإسلامية ؟ فأجاب بكل بساطة : لم أُدَرَّس هذا الموضوع في الكلية العسكرية وكلية الأركان !

إنّ الأيدي الخفية التي لا تريد الخير للعرب والمسلمين هي التي عملت وتعمل على إشاعة المفاهيم الخاطئة الهدامة عن الدين والمتدينين من العسكريين ، حتى لا تقوم قائمة للعرب والمسلمين ، وحتى يُرسِّخ العدو الصهيوني أقدامه في الأرض العربية المقدسة : فلسطين ، وسيناء وقطاع غزة وهضبة الجولان وغربيّ الأردن ، وحتى يقتطع بلاد العرب جزءاً جزءاً بالتدريج فلا يقاومه أحد أو يلقى مقاومة لا تذكر ، كما حدث في حرب عام ١٩٦٧ ، إذا احتل الصهاينة القدس يوم ٦ حزيران (يونيو) من ذلك العام ، دون خسائر تذكر من العرب المدافعين عن تلك المدينة المقدّسة ، بينما سقط في الدفاع عنها

سبعون ألف شهيد مسلم عند احتلالها أيام الحروب الصليبية من الصليبيين !

ولم ينتصر قائد عربي مسلم في أيام الفتح الإسلامي وبعده حتى اليوم إلاَّ إذا كان متديناً إلى أبعد الحدود .

الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام الذي وحّد جزيرة العرب لأول مرة في التاريخ وأسس الجيش الإسلامي ، هو نبيّ المسلمين وسيد المنتصرين .

وقادة الفتح الاسلامي العظيم كلهّم من صحابة رسول الله ﷺ ومن التابعين عليهم رضوان الله .

وقد أحصيت عدد القادة الفاتحين ، فكانوا (٢٥٦) قائداً عربياً مسلماً ، منهم (٢١٦) من صحابة رسول الله ﷺ ، و(٤٠) من التابعين .

وكل القادة المنتصرين بعد الفتح الإسلامي كانوا على جانب عظيم من الالتزام بتعاليم الدين الحنيف .

ولم ينتصر قائد ملوّث جنسياً أو جيبياً ، ليس من العرب المسلمين حسب ، بل من غيرهم أيضاً .

فمن أين جاء المستعمِر بفرية التناقض بين الدين والعسكرية ، وإذا كان من مصلحة المستعمِر والصهاينة نشر هذه الفرية ، فما مصلحة العرب والمسلمين في نشرها وترديدها ؟

إلاّ أنّ التخلّي عن العقيدة والتنكر للقيم الدينية، لا يقتصران على الضباط وحدهم ، بل شملت أكثر الموظفين المدنيين وأغلب الناس ، وصدق الله العظيم : ﴿ وقليلٌ من عِبَادِيَ الشَّكُور ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ وما أَكْثَرُ النَّاس ولو حَرَصْتَ بمؤمنين ﴾[2] .

ولكنّ نسبة المقبلين على المحرّمات المدبرين عن الدين من الضباط ، أكثر

---

(١) الآية الكريمة من سورة سبأ (٣٤ : ١٣) . (٢) الآية الكريمة من سورة يوسف (١٢ : ١٠٣) .

من نسبتهم في الموظفين المدنيين وأصناف النَّاس الآخرين .

كما أنّ أهمية الضباط باعتبارهم قادة الحاضر والمستقبل ، خاصة في الأيام الحاسمة المصيريّة وهي أيام الحروب ، أكثر من أهمية غيرهم من الناس [1] .

ومن تصاريف القدر ، أنني خططت لأن اختتم هذه الدراسة عن : التربية والتعليم العسكري بكلمة موجزة عن غياب الجهاد، وبخاصة في هذه الأيام التي يرفض فيها العدو الصهيوني الانسحاب من البلاد العربية التي احتلها في حرب سنة ١٩٦٧ الميلادية ، فأصبح الجهاد فرضاً عَيْنياً على كل قادر على حمل السِّلاح من العرب والمسلمين ، فاللغة الوحيدة التي يفهمها العدو الصهيوني هي لغة الحرب أما السّلام فهو لا يؤمن به ولا يريده ولا يسعى إليه ولا يطيقه .

في هذه الأيام الخطيرة الحاسمة ، يغيب الجهاد عن العرب والمسلمين ، فلا أحد يدعو إليه ، ولا أحد يستعد له ، ولا أحد يحدِّث نفسه به !

وكنت قد ألقيت بحثاً في مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية الذي عقد في القاهرة سنة ١٩٦٨ الميلادية بعنوان : إرادة القتال في الجهاد الإسلامي ، فاستوعبت مقررات المؤتمر كل ما جاء في هذا البحث والحمد لله . وحين تليت مقررات المؤتمر في اليوم الأخير من انعقاده ، اعترض أحد الحاضرين على كلمة : (جهاد) ، قائلاً : « إنها تستفز الغربيين ، فاقترح شطبها من المقررات وإدخال كلمة : (دفاع) ، وهي كلمة يستسيغها الغربيون ! » .

وتوليّت الرد عليه ، فقلت له فيما قلته : « القرآن الكريم ذكر كلمة : (الجهاد) عدة مرات ، فهل نشطبها من القرآن الكريم ؟! وقد كنت أعلم أن المسلمين تركوا الجهاد فذلوا ، وما كنت أعرف أننا نريد أن نترك حتى كلمة : (الجهاد) . » .

وهكذا بقيت هذه الكلمة في صلب مقررات المؤتمر ، وهي مطبوعة متيسرة في كل مكان .

---

(١) أنظر التفاصيل في كتابنا : بين العقيدة والقيادة (٢٣ ـ ٤٠) .

ولكنني لاحظت أنّ الجهاد بمعناه الصحيح : القتال لإعلاء كلمة الله ، لا للمال ، ولا للسمعة ، ولا لأسباب سياسية ، ولا لأمجاد شخصية ، ولا لمغنم من المغانم المادية والمعنوية ، بل للدفاع عن الإسلام ، والدفاع عن أرضه وأعراض المسلمين ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، هذا الجهاد غائب عن العرب والمسلمين غياباً كاملاً ، كما أن لفظ : الجهاد أصبح غائباً أيضاً ، وحلّت مكانه كلمات أخرى : الكفاح ، النضال . . . وأشباه هذه الكلمات .

وكنت أفكر في كتابة هذه الكلمات لأقول : حرم المسلمون والعرب من النصر الحقيقي، لا من النصر الورقي الذي يكتب كلمات على الورق ولا يصدقها حتى كاتبها ويشمئز منها القراء ، ولا من النصر الكلامي الذي يدبجه الخطيب أو المتكلم في مكان من الأمكنة أو في الإذاعتين المسموعة والمرئية ، فرب كلمات تلعن قائلها ، النصر الحقيقي في معركة من المعارك نُجلي فيها العدو الصهيوني بالسلاح والشهداء عن القدس وعن الأرض المحتلة ، أو ننتصر فيها لإخواننا المسلمين المضطهدين في جميع أركان الأرض : في الفليبين ، في أريتريا ، في بورما . . . هذا النصر الذي يبقى على الدهر ، ويسجله التاريخ ، ويمجد قائده ، ويخلد شهداءه ، ويثني على رجاله ، وهو النصر الذي يرضاه الله ويأمر به ، وإلاّ فهل رأيت نصراً ورقياً أو نصراً كلامياً ، سجّله التاريخ ومجد قائده وخلد شهداءه وأثنى على رجاله ، لأنه كذب لا قائد له غير الشيطان ولا شهداء فيه ولا رجال .

بل إنّ النصر الورقي والكلامي مخدِّر للأمة ، يلهيها عما هي فيه من ذل وخنوع وعار ، وكل الأمم حين تُغلب في الحرب ويُستولى على أجزاء من بلادها ، تحشد كل طاقاتها المادية والمعنوية لكي تجعل من هزيمتها نصراً في المستقبل ، وهذا يتم بدراسة أسباب الهزيمة وإصلاح الأخطاء وإكمال النواقص ، ولا أعرف أمة من الأمم قديماً وحديثاً في كل أدوار التاريخ ، تُهزم في الحرب ثم تدّعي بأنها انتصرت ، وترفض الهزيمة ورقيًا وكلاميًّا ، ثم تسكت عن العدو الجاثم على قلبها ، وتغازله وتناغيه في بعض الأوقات ، ولا تصنع

شيئاً مذكوراً من أجل إحراز النصر وأخذ الثأر والتخلي عن العار .

أليس إدعاء النصر الكاذب تخدير للمغلوب ، وتهدئة لعواطفه الجياشة ، وتمكين للعدو من استثمار النصر ؟!

وكتبت هذه الكلمات ، فتدخّل القدر ، وإذا بصحيفة عربية يومية صادرة في اليوم الذي كُتِبَتْ فيه هذه الكلمات [1] ، تورد تحت عنوان : (محاولات صهيونية سافرة) هذه الكلمات حرفياً : « وفيما يتعلّق بالتربية الدينية يقول التقرير : هناك مأخذ من بين المآخذ التي عثر عليها يتكرّر باستمرار ، وهو حذف مفهوم (الجهاد) أو (الحرب المقدسة) ، ومفهوم شهداء القضايا الشريفة من كافة الكتب » !

وقلت لنفسي : «منع العدو الصهيوني (الجهاد) بالنسبة للعرب والمسلمين المغلوبين على أمرهم في الأرض العربية المحتلة ، ومنع حتى كلمة (الجهاد) ، لأن الجهاد وحده يقرر مصير العدو الصهيوني ، فهو يحمي كيانه بهذا المنع !» ..

فما هو المسوِّغ لمنع (الجهاد) في الأقطار الإسلامية والعربية كافة ، وما هو المسوِّغ لمنع تداول حتى كلمة (الجهاد) في تلك الأقطار ؟ .

---

(١) يوم الجمعة ١٥ محرم الحرام ١٣٩٩ هـ المصادف ١٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٨ .

أثَر المسَجِد في المجَاهِدين

المجـــاهِدُون

كانت جماعة المصلين في مسجد الحي تجتمع فيه للصّـلاة ثلاث مرات : المغرب والعشاء والفجر ، لا يكاد يتخلّف منهم أحد إلاّ إذا كان مريضاً أو على سفر ، وكانوا بعد صلاة الفجر يتفرّقون إلى أعمالهم ، فيؤدون صلاة الظهـر وصلاة العصر في المساجد القريبة من أماكن عملهم ، فلا يبقى في مسجد الحيّ غير الإمام والطاعنـين في السـن الـذين أدّوا واجبهـم في الحياة وآن لهـم أن يستريحوا .

وكانت الدولـة العثمانية مشتبـكة بالقتـال في حرب طاحنـة ضروس مع روسيا القيصرية ، وكان جماعة المسجد يتناقلون أخبار الحرب باهتمام بالغ حين يجتمعـون ، فإذا انتصر العثمانيون فرحـوا واسـتبشروا ، وإذا غُلبـوا حزنـوا وتطيّروا ، وكان الإمـام يَقْنُت بالمصلِّين يدعو للمسلمين بالنصر على أعدائهم ، فيطول قنوته ويرتفع نشيجه ونشيج المقتدين به في أيام الهزيمة .

وكان إمام المسجد في السبعين من عمـره ، فقال لجماعة المصلِّين ، بعد أن ترددّت أخبار اندحار العثمانيين وانسحابهم إلى دَاخل حدود بلادهـم الشمالية المتاخمة للروس : « وجب علينا الجهاد ، فلا بدّ أن نلتحق بإخواننا المقاتلين » .

وتداول السّامعون فيما بينهم ، فقدّم الموسرون ما استطاعوا من أمـوال ومن وسائل الركوب والتجهيزات والمواد التموينية ، فأصبح مسجد الحي بين عشية وضحاها ثُكْنَة ومستودعاً للتجهيزات ومدخراً للمواد التموينية ، وأصبح إمام المسجد قائداً وصاحب بيت المال وأمين المستودع وضابط الإعاشـة وضابط

الرواتب ، يعاونه في مهمته جماعة المصلين .

وبعد ثلاثة أيام عَبَرَ رَكْبُ مجاهدي الحي نهر (دجلة) على جسره الخشبيّ ، يتقدمهم إمام المسجد يحمل الراية الخضراء على جواده الأشهب ، وخلفه المجاهدون على خيولهم وبغالهم ، ومعهم أسلحتهم المتيسرة وتجهيزاتهم وموادهم التموينيّة ونفقاتهم ، فسلكوا طريق الموصل ـ زاخو شمالاً حتى وصلوا إلى ساحة الجهاد ، فمنهم من قضى نحبه في الطريق أو مجاهداً ، ومنهم مَن عاد إلى الموصل بعد أن وضعت الحرب أوزارها .

حدث ذلك سنة ١٣٢٦ الهجرية المصادف سنة ١٩٠٨ الميلادية ، وكان بين المجاهدين تجار كبار جاهدوا بأنفسهم وأموالهم ، فحملوا الفقراء وكسوهم وأطعموهم وأطعموا أهلهم بعد رحيلهم وتركوا مَنْ يرعى أهل الفقراء المجاهدين . وكان بينهم متوسطو الحال ، جاهدوا بأنفسهم وتحملوا نفقاتهم بأنفسهم . وكان بينهم فقراء ، تحمّل عنهم كل ما يحتاجون إليه من نفقة وركوب وسلاح وتجهيز أهل الغِنَى والثراء ، كما كفلوا مَنْ يعيلون وخلفوهم في عيالهم .

وتسامع أهل المدينة بما كان في مسجد الحي في محلة باب البيض التحتاني من مدينة الموصل ، فاقتدى بجماعة مسجد هذا الحي جماعات مساجد الأحياء الأخرى ، وسارت مواكبهم بالتعاقب ، يتعالى تكبيرهم ، ويتردد تسبيحهم ، ويذكرون اللّه كثيراً ، ويشجِّعون القاعدين ، ويستحثّون المترددين ، ويشدّون أزر الناس ، ويرفعون معنويات القوات المسلحة النظامية والجيوش المحاربة في الميدان ، ويدعمون الدولة مادياً ومعنوياً .

وكان أهل المجاهد وأقرباؤه وأصدقاؤه وأصحابه يودعونه فرحين ، ويفخرون به ، فإذا عاد استقبلوه استقبال الأبطال ، وإذا استُشْهِد لم يجزعوا عليه بل ترحَّموا عليه وأطروه إطراء المعْتز الفخور باستشهاده .

وعشت حتى طوَّحت بي الأقدار ، فسكنت شقة متواضعة في بلد عربي

شقيق ، جاراً لأحد الضباط . وكان هذا الضابط يزور أهله ثلاثة أيام من كل شهر ، ويعمل في معسكر سلميّ في ظروف سلمية ، فكان أهله يودعونه بالبكاء والعويل إلى السيارة العسكرية التي تقف إلى جانب العمارة السكنيّة التي تضمّ شقتي وشقة الضابط وغيرها من الشقق ، دون خجل من سائق السيارة العسكري ومن المارة ومن سكّان العمارة ، كأنما يساق ولدهم الضابط إلى الموت !!

وشتان بين توديع المجاهد الذي يذهب إلى الموت في ميدان الجهاد ، وبين توديع الضابط المرتزق الذي يقصد معسكره السلمي في أيام السّلام .

ذلك لأنّ المجاهد هدفه الجنّة أو النصر ، والمرتزق هدفه اللقمة من العيش .

وقد كنْتُ أريد أن يكون عنوان هذا الفصل : أثر المسجد في القوات المسلحة ، أو أثر المسجد في الجيش .

والقوّات المسلحة عبارة عن منتسبي الجيش والشرطة في بعض البلاد ، ومنتسبي الجيش في القوات الأرضية ، والبحرية والجوية في بعض البلاد الأخرى .

والجيش عبارة عن القوات البرية المسلّحة التي تخضع للتنظيم الدائم ، وتنظيمه هرمي تسلسليّ يضم رجالاً مسلّحين ، ويستطيع صدّ المعتدين ، ونقل الحرب إلى خارج البلاد ، وحفظ النظام في الداخل . ويتألف من متطوعين اتخذوا الجندية مهنة لهم في البلاد التي لا تخضع لقوانين التجنيد الإجباري ؛ ومن متطوعين ومكلّفين يقضون مدة من الزمن في الجيش ، ثم يُسَرَّحون لينصرفوا إلى أعمالهم الخاصة ، ويدعون إلى خدمة الاحتياط بين حين وآخر في البلاد التي تخضع لقوانين التجنيد الإجباريّ .

ولكنني آثرت أن يكون العنوان : أثر المسجد في المجاهدين ، لأنه أصدق من العنوانين الأولين بالنسبة لما أريد .

إن المجاهدين هم خريجو المسجد في كل وقت وبكل مكان ، أما منتسبو القوات المسلّحة أو الجيش ، فمنهم مَنْ يرتاد المساجد ، ومنهم مَنْ لا يرتادها أبداً .

كما أنّ منتسبي القوات المسلّحة أو الجيش من المتطوعين الذين اتخذوا الجندية مهنة لهم ومن المكلفين ، قد يكون منهم مجاهدون وقد لا يكون ، وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىءٍ ما نوى ، فمن كانت نيته إعلاء كلمة اللّه ويُقتل ، فهو شهيد .

أما المجاهدون ، الذين تطوّعوا حسبة للّه ، فأمرهم مختلف جداً عن الآخرين .

والجهاد في قولهم : جاهد في سبيل اللّه مجاهدةً وجهاداً ، أي أنه جهد وبذل الوسع في سبيله تعالى .

والجهاد اصطلاح فقهيّ يقصد به البذل في سبيل الدفاع عن الدعوة بالمال والنفس ، وقد وردت كلمة الجهاد ومشتقاتها إحدى وأربعين مرة في القرآن الكريم ، منها سبع مرات في معنى لا يخص الجهاد المعروف ، وأربع وثلاثون مرة في معنى الجهاد المعروف [1] ، وهي تشير إلى الأحكام الخاصة بالجهاد والمجاهدين .

ويعتبر الجهاد بمعناه الفقهي فرض كفاية أو ما نطلق عليه بالمصطلحات العسكرية : (النفير الخاص) إذا قام به بعض المسلمين سقط عن الآخرين ، وهذا في حالة الهجوم على أرض العدو ، وفرض عَينْ أو ما نطلق عليه بالمصطلحات العسكرية (النفير العام) على كل قادر على القتال من المسلمين بالمال والنفس ، في حالة هجوم العدو على أرض المسلمين .

ويكون استنفار المسلمين للقتال على الإمام أو الحاكم المسلم ، وقد أجمع الفقهاء على أنه يجب على أهل كل ثغر من الثغور الإسلامية ، أن يقاتلوا مَنْ

---

(١) أنظر التفاصيل في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - (١٨٢ - ١٨٣) - مطابع دار الشعب - القاهرة .

يليهم من العدو ، فإن عجزوا ساعدهم مَن يليهم وهكذا .

والثغور هي أطراف البلدان التي يُخشى عليها خطر الغزو براً وبحراً ، وأطلق المسلمون كلمة الثغور على المدن الحَصِينَة لا سيما التي كانت تقع بالقرب من حدود الدولة الإسلامية المجاورة لبلاد الفُرْس والروم بخاصة [1] .

ومَنْ قُتِلَ في حرب الجهاد مات شهيداً ، إن كان خروجه للّه ولرسوله ، لا لأغراض دنيوية كالغنائم مثلاً فحسب .

والفرق بين الجنديّ المجاهد والجندي الاعتياديّ ، أنّ الأول يقاتل من أجل دينه ، وأرضه وعرضه ، فهو صاحب عقيدة راسخة ، تؤدي به إلى النصر أو الشهادة ، أما الثاني فيقاتل تنفيذاً لأوامر رؤسائه ، وقد يكون صاحب عقيدة راسخة أو لا عقيدة له .

والمجاهد يتحلّى بالمعنويات العالية التي لا تعرف التخاذل والفرار ، وقد لا يكون غيره كذلك .

قبل معركة (اليرموك) الحاسمة بين المسلمين والروم التي دارت رحاها سنة ثلاث عشرة الهجرية (٦٣٤ م) ، قال رجل من المسلمين لخالد بن الوليد رضي اللّه عنه : « ما أكثر الروم وأقلّ المسلمين » ، وكان الروم متفوقين على المسلمين فعلاً عَدَداً وعُدَداً تفوقاً ساحقاً ، ولكنّ خالداً أجاب ذلك الرجل : « بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنما تكثر الجنود بالنصر ، وتقلّ بالخذلان » .

ومعنى ذلك أنّ القوات المسلّحة والجيوش ليست بعَدَدها وعُدَدها بقدر ما هي بمعنوياتها .

والمقاتلون الذين لا يتحلّون بالمعنويات العالية لا قيمة لهم في الحرب ، والفئة القليلة المنظمة ذات المعنويات العالية تغلب الفئة الكثيرة غير المنظمة ذات المعنويات الواطئة .

---

(١) القاموس الإسلامي - (١/ ٥٣٨) - أحمد عطية الله - القاهرة - ١٩٦٣ .

وقد كان نابليون بونابارت يقول : « قيمة المعنويات بالنسبة إلى القوى المادّية تساوي ثلاثة على واحد » ، أي أنّ المعنويات هي ٧٥٪ والماديات هي ٢٥٪ فقط .

وقد أيّد نابليون في رأيه هذا كبار القادة العسكريين في الماضي والكثير من القادة العسكريين في الوقت الحاضر .

غير أنّ اللواء (فولر) في كتابه : (الأسلحة والتاريخ) خالف نابليون نظراً لابتكار الأسلحة النووية والهيدروجينية ، وللتحسينات الهائلة التي طرأت على القذائف الموجَّهَة وعلى وسائط قذفها وعلى الأقمار الاصطناعية عابرة القارات وغيرها من الأسلحة الهجوميّة المتطوِّرة ، فذكر (فولر) أنّ نسبة المعنويات أصبحت بالنسبة لحرب حديثة ٥٠٪ وللماديات ٥٠٪ أيضاً .

أي أنّ الناحية المعنوية لا تزال ذات قيمة عظيمة ، حتى بعد ظهور الأسلحة الجهنميّة الحديثة ، فالمعنويات كانت ولا تزال وستبقى عاملاً حاسماً من عوامل إحراز النصر .

وفي الحروب القديمة ، أي الحروب التي خاضتها الدول قبل الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ م - ١٩٤٥ م) ، كان الجيش في كل دولة هو المسؤول الأول والأخير عن إحراز النصر . أما في الحروب الحديثة ابتداء من الحرب العالمية الثانية فقد أصبحت الحربُ إجماعيةً - وهي الحرب الشاملة أو الحرب الاعتصابية - تحشد فيها الأمم طاقاتها المادية والمعنوية كافة ، لذلك أصبح الشعب كلّه - لا الجيش وحده - ، مسؤولاً عن إحراز النصر .

إنّ الحرب الإجماعية تقتضي زج كل قادر على حمل السِّلاح في الحرب ، ودعم المحاربين بكل طاقات الشّعب الماديّة والمعنوية ، لذلك كان إعلان الحرب معناه : أن يكون الشعب كلّه - لا قواته المسلّحة وحدها - ، في الصفوف الأمامية ، وبخاصة بعد تطوّر القوّة الجوية واختراع الأسلحة النووية والهيدروجينية ، فقد أصبح كل مكان في البلاد المحاربة ساحة حرب لا تقلّ

أهميةً وخطراً عن الجبهة الأمامية من ميدان القتال .

لذلك أصبحت أهمية المعنويات العالية في الشّعب كأهميتها في الجيش سواء بسواء ، كما أنّ الجيش من الشّعب ، فإذا كانت معنويات الشّعب عالية ، كانت معنويات الجيش عالية أيضاً ، والعكس صحيح .

من هنا تأتي أهميّة المعنويات العالية للشعب كلّه ، وتبرز ضرورة إدامة هذه المعنويات في الشّعب والجيش على حدٍ سواء ، فما هي المعنويات ؟

كان تعريف المعنويات قبل الحرب العالمية الثانية ، بأنها الصفات التي تميِّز الجيش المدرّب المنقاد على أسس الضبط المتين عن العصابات المسلّحة ، وتتجلّى بهذه الصفات الطّاعة القائمة على الحب ، وتنمّي الشجاعة ويظهر الصبر على المشاق ، وتُبدى كل المزايا التي تجعل الجنديّ مطيعاً باسلاً صبوراً .

وهذا التعريف يشمل الجيش وحده كما ترى ، لأنّ الحروب كانت حروب جيوش لا حروب أمم ، كما أصبحت الحروب في الوقت الحاضر .

أما تعريف المعنويات اليوم ، فهو القوى الكامنة في صلب الإنسان ، التي تكسبه القابلية على الاستمرار في العمل ، والتفكير بعزم وشجاعة ، مهما تختلف الظروف والأحوال المحيطة به .

وهذا التعريف يشمل الشّعب كلّه لا الجيش وحده .

و إذا أردنا إيضاح هذا التعريف للمعنويات وتبسيطه ، فيمكن القول بأنّ الفرد في الشّعب ، يجب أن يكون شجاعاً لا يجبن ، عزيزاً لا يهون ، ثابتاً لا يتراجع ، صابراً لا ينهار ، متفائلاً لا يقنط ، مستعداً للتضحية بماله وروحه من أجل مُثُله العُليا .

إنّ المعنويات العالية هي العقيدة الراسخة ، ولكنّ الدين الإسلامي لا يقتصر على بناء الناحية المعنوية في الأمة ، بل يشمل الناحية المادية أيضاً .

والتعاريف الحديثة للمعنويات ، عرفها المسلمون في الصدر الأول

للإسلام ، وسجّلها فقهاء المسلمين في مؤلفاتهم الخاصة بالجهاد ، فهي حديثة بالنسبة لغير المسلمين ، ولكنها قديمة قِدَم الإسلام بالنسبة للمسلمين .

فإذا أقبل العسكريون على نقلها عن الكتب العسكرية الغربية والشرقية ، فإننا نقول لهم : هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا .

كذلك الحرب الإجماعية من بضاعتنا التي ردّت إلينا ، بينما عرفها الغرب في منتصف القرن الرابع عشر الهجري .

ولا بد من تفصيل ذلك بإيجاز شديد ، فإنه قد يفيد العسكريين العرب والمسلمين في معرفة روعة العسكريّة الإسلامية التي تركوها وراء ظهورهم وأهملوا معرفتها واستخدامها في حياتهم العملية ، كما أنّ الحرب الإجماعية هي الجهاد الإسلامي بحذافيره ، ذلك الجهاد الذي بدأ في السنة الأولى الهجرية وجرى تطبيقه عملياً من ذلك التاريخ الموغل في القِدَم !

ومعنى الحرب الإجماعيّة ، أنّ الطاقات الماديّة كلها : بشرية وطبيعيّة ، سلاحاً وعتاداً ، معامل ومصانع ، مزارع وحقولاً ، وسائط نقل وآليات ، مستشفيات وأطباء ، أدوية وعقارات ، ألبسة وتجهيزات ، مخازن ومستودعات ، وغيرها من الطاقات المادية الأخرى التي تفيد المجهود الحربي ، تحشد كلها لإحراز النصر .

وهذا يعني أيضاً ، أنّ الطاقات المعنوية كلها : التوجيه المعنوي ، خطباء المساجد ، أساتذة ومدرسين ، أجهزة إعلام مكتوبة ومسموعة ومرئية ، حرباً نفسية ، مكافحةً للتجسّس ، قضايا الترفيه ، وغيرها من الطاقات المعنوية الأخرى التي تؤثر في المجهود الحربي ، تحشد كلها لإحراز النصر .

وكانت القوّات النظاميّة المسلّحة مسؤولة وحدها عن إحراز النصر ، فأصبح الشعب كله ـ كما ذكرنا سابقاً ـ مسؤولاً عن إحراز هذا النصر .

وكانت أموال الدولة ومصانعها الحربية مسؤولة عن تمويل الجيش النظامي وتسليحه وتجهيزه ، فأصبحت كل أموال الأمة أفراداً وجماعات ، وكل المصانع

الحكومية أو الخاصة ، مسؤولة عن تمويل المقاتلين وتسليحهم وتجهيزهم في الحرب الإجماعيّة .

وحين صدر كتاب : (الأمة في الحرب) الذي ألفه المشير لودندروف رئيس هيئة أركان حرب المشير فون هندنبرغ أعظم قادة ألمانيا القيصرية في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) ، ظنّ الناس - ومنهم العرب والمسلمون - أنّ لودندروف هو أول مَنْ وضع أسس الحرب الإجماعية في التاريخ العسكري ، وسرى هذا الظن في الشرق والغرب بحيث أصبح حقيقة مُسَلّماً بها ، وكان من الذين تلقفوها وصدّقوا بها قادة الجيوش العربية والإسلامية في بلاد العرب وديار الإسلام ، فدرسوا هذا الكتاب القيِّم حقاً وترجموه إلى العربية وإلى اللغات الأخرى ، ودرّسوه في الكليات العسكرية وكليات الأركان والقيادة وكليات الدراسات العسكرية الأخرى .

ولم تطبّق الحرب الإجماعية حديثاً إلاّ خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ م - ١٩٤٥ م) كما جرى في بعض دول الحلفاء كبريطانيا والاتحاد السوفياتي ، وفي بعض دول المحور كألمانيا النازيّة ، كما طبقت هذه الحرب جزئياً في إيطاليا الفاشيّة وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية .

أما قبل الحرب العالمية الثانية ، فلم تطبّق هذه الحرب في أية دولة من دول الغرب أو الشرق !

إن الاعتقاد السائد بين مفكري العالم المعنيين بالدراسات العسكرية ، بأنّ المشير لودندروف ، هو واضع أسس الحرب الإجماعية ، لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة ، وهو محض اختلاق .

كما أنّ الفكرة السائدة ، بأنّ أوّل من طبّقها كاملة أو بصورة غير كاملة ، هي الدول الحديثة في الحرب العالمية الثانية خطأ فاحش لا صلة له بالواقع ولا يمتّ إلى الحقيقة بصلة .

إنّ الإسلام هو الذي وضع أسس الحرب الإجماعية بنص القران الكريم وحديث رسول الله ﷺ .

وقد طبق المسلمون الحرب الإجماعية قبل أربعة عشر قرناً في أيام الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام ، وفي أيام الفتح الإسلامي العظيم بعد التحاق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى سنة إحدى عشرة الهجرية إلى أن توقف مدُّ هذا الفتح سنة مئة الهجريّة .

قال تعالى : ﴿ انْفِروا خِفَافاً وثِقالاً ، وجاهِدوا بأموالِكُمْ وأنْفُسِكُمْ في سَبِيل اللّه ، ذلِكُمْ خَيْرٌ لكم إنْ كنتم تعلمون ﴾ [1] .

وقد جاء في تفسير (الكشاف) للزمخشري ما نصه : [2] « خفافاً في النفور لنشاطكم له ، وثقالاً عنه لمشقته عليكم ، أو خفافاً لقلّة عيالكم وأذيالكم ، وثقالاً لكثرتها ، أو خفافاً من السِّلاح وثقالاً منه ، أو ركباناً ومشاة ، أو شباباً وشيوخاً ، أو مهازيل وسماناً ، أو صِحاحاً ومِراضاً » .

ثم قال الزمخشري: «عن ابن أُم مكْتوم أنه قال لرسول الله ﷺ : أعَليَّ أن أَنْفِر ؟ قال : نعم ، حتى نزل قوله :﴿ليس على الأعمى حرج﴾[3] . وعن ابن عباس قال : نسخت بقوله :﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾[4] . وعن صَفْوان بن عمرو قال : كنت والياً على (حِمْص) فلقيتُ شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه من أهل (دمشق) على راحلته يريد الغزو ، فقلت : يا عم ! لقد أعْذَرَ اللّه إليك ! فرفع حاجبيه وقال : يا ابن أخي ! استنفرنا اللّه خفافاً وثِقالاً ، ألا إنه مَنْ يحبّه اللّه يَبْتَلِهْ ! وعن الزهري قال : خرج سعيد بن المُسَيّب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه ، فقيل له : إنك

---

(١) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ٤١) .

(٢) تفسير الكشاف (٢/ ٣٤) .

(٣) الآية الكريمة من سورة النور (٢٤ : ٦١) .

(٤) الآية الكريمة من سورة (التوبة (٩ : ٩١) .

عليل صاحب ضرر ، فقال : استنفرنا اللّه الخفيف والثقيل ، فإن لم يُمكنّي الحربَ كَثّرتُ السَّواد وحفظتُ المتاع » .

وقال الزمخشري : «﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم﴾، إيجاب للجهاد بهما إن أمكن ، أو بأحدهما على حسب الحال والحاجة » .

وذكر المفسرون في معنى : (خِفَافاً وثِقالاً):الشباب وهم خفاف ، والشيوخ وهم ثقال .

والركبان وهم خفاف ، والمشاة وهم ثقال .

والفقراء وهم خفاف ، والأغنياء وهم ثقال .

والأصحّاء وهم خفاف ، والمعيلونَ وهم ثقال .

وغير المعيلين وهم خفاف ، والمعيلون وهم ثِقال .

فمن يبقى من الأمة ، إذا شهد الجهادَ الشبابُ والشيوخ ، والركبان والمشاة ، والفقراء والأغنياء ، والأصحاء والمرضى ، وغير المعيلين والمعيلون !

ومعنى هذا أنّ (النفير العام) في الجهاد ، وهو ما يطلق عليه الفقهاء : (فَرْض عَين) ، يشمل جميع القادرين على حمل السِّلاح من المسلمين ، ولا يتخلّف مسلم عن الجهاد ، إلاّ إذا سلك سبيل غير المؤمنين ، حيث ينبذه المجتمع الإسلامي ، وينظر إليه نظرة الاحتقار والازدراء .

﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل اللّه﴾، إيضاح لما سبق من الآية الكريمة وهي :﴿انفروا خفافاً وثقالاً ﴾، فكل قادر على حمل السِّلاح يجاهد بنفسه ، وكل قادر على الجهاد بالمال يجاهد بماله ، وكل قادر على الجهاد بماله ونفسه يجاهد بهما معاً .

وهذا هو حشد الطاقات المادية والمعنوية كلها للمجهود الحربيّ .

وقد وردت ثماني آيات في القرآن الكريم [1] ، قرن فيها الجهاد بالأموال

---

(١) أنظر التفاصيل في : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (٦٨٣) .

والأنفس ، وفي كل آية من هذه الآيات ، تسبق كلمة (الأموال) كلمة الأنفس ، لأنَ المال عصب الحرب ، وبالإمكان الاستفادة من الأموال تموينـاً وسلاحاً وتجهيزاً وعتاداً وتنقّلاً وطبابة في الحرب ، وإعداداً للجيش وإعالة لعوائل المجاهدين والشهداء في السّلام .

أما الأحاديث الواردة في الحث على الجهاد ، فكثيرة جداً ، نورد نماذج منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ : جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم » ، والجهاد باللسان هو الحرب الدعائية أو الحرب الإعلامية ، والحرب النفسيّة أيضاً .

وقال ﷺ :« الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»، حثاً على إعداد الخيل للجهاد ، والفرسان سلاح مؤثّر في الحروب الماضية ، وإعدادها جزء من إعداد القوّة .

وقال عليه الصّلاة والسلام : « إنّ اللّه يُدخل بالسَّهم الواحد ثلاثة نفر في الجنّة : صانعه يحتسب في صنعه الخير ، والرامي به ، ومنبله . . . وارموا واركبوا ، وإن ترموا أحبّ إليّ من أن تركبوا ، ومَن ترك الرمي بعدما علمه رغبة عنه ، فإنها نعمة تركها»، أو قال : « كفرها » ، حثّاً على التسلّح والتدريب واستمرارية التدريب .

وعن أبي أمامة الباهِليّ رضي الله عنه، أنّ النبيّ ﷺ قال: «مَنْ لم يَغْزُ ، ولم يجهِّز غازياً ، أو يخلف غازياً في أهله بخير ، أصابه اللّه بقارعة قبل يوم القيامة » ، وهو حث شديد على الجهاد بالأموال والأنفس .

وعن أبي هُريرة رضي الله عنه ، أنّ رسول الله ﷺ قال : « مَنْ مات ولم يَغْزُ ولم يحدِّث نفسه بغزوٍ ، مات على شعبة من النفاق » ، حثاً على الجهاد في سبيل اللّه .

لقد شهد ميادين الجهاد في عهد النبيّ ﷺ شباب صغار لم يبلغوا

الحلم ، وكبار شيوخ ، وأصحاب عاهات مستدامة كالعرج وضعف البصر ، ولا أعلم مسلماً تخلّف عن الجهاد إلاّ بأمر من النبيّ ﷺ ، غير الثلاثة الذين خُلِّفوا عن غزوة (تبوك) ، فقاطعهم المسلمون وهجرهم أهلهم حتى زوجاتهم ، فلما تابوا وأحسنوا التوبة تاب اللّه عليهم ، بعد أن تحملوا الأهوال من مقاطعة المسلمين كافة لهم وأولهم ذوو القربى الأقربون: الزوجات والأشقاء والآباء والأمهات .

وقصّة تخلّف هؤلاء النفر الثلاثة نزل فيها قرآن : ﴿وعلى الثلاثة الذي خُلِّفوا حتى إذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرضُ بما رَحُبَتْ ، وضاقت عليهم أنْفُسُهُمْ ، وظنّوا أن لا مَلْجَأَ من اللّهِ إلاَّ إليه ، ثمّ تاب عليهم لِيَتُوبوا ، إنَّ اللّهَ هو التوّاب الرحيم﴾ [١].

وقد شهد المسلمون معارك الفتح الإسلاميّ العظيم بعد النبيّ ﷺ ، فجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه ، واستشهد منهم كثيرون لا يعدّون ولا يحصون .

وفي معركة (اليمامة) التي قاد المسلمين فيها خالد بن الوليد رضي اللّه عنه ، وقاد فيها المرتدين مُسَيْلَمَة الكذّاب ، استُشهد من القراء فيها - وهم علماء المسلمين - ثلاثمائة في رواية وخمسمائة في رواية أخرى [٢] .

تُرَى ! كم استشهد في هذه المعركة من الصحابة الآخرين ؟! [٣] .

وحين سأل قائد من الروم وقع في الأسر خالدَ بن الوليد رضي اللّه عنه في معركة (اليرموك) الحاسمة عن سر انتصار المسلمين انتصاراً مُبِيناً في كل معركة خاضوها ؟ فقال خالد : « ليس في أصحابي رجل إلاّ ويتمنى أن يموت قبل

---

(١) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ١١٨) .

(٢) الطبري (٢/ ٥١٦) وابن الأثير (٢/ ١٤٠) وانظر كتابنا : خالد بن الوليد المخزومي (١٠٩).

(٣) ذكر الطبري في (٢/ ٥١٢) ، أنهم كانوا ألفاً ومئتي شهيد ، وانظر كتابنا : خالد بن الوليد المخزومي (١٠٩) .

صاحبه ، وليس في أصحابك رجل إلاّ ويتمنّى أن يموت صاحبه قبله » .

حتى النساء قاتلن في صفوف المسلمين في أيام النبيّ ﷺ ، كما فعلت نُسَيْبَة أم عمارة المازنيّة في غزوة (أُحُد) حتى خلصت الجراح إليها ، فسقطت فاقدة الوعي [1] . وكما فعلت خولة بنت الأزور في معارك الفتح الإسلامي العظيم [2] . وقد ركبت ابنة ملحان زوجة عُبَادة بن الصامت البحر [3] ، (أنظر باب غزوة المرأة في البحر الوارد في صحيح البخاري)[4] ، وفي صحيح البخاري : باب غزو النساء وقتالهنّ مع الرجال [5] ، وباب : حمل النساء القرب إلى الناس في الغزو [6] ، وباب مداراة النساء الجرحى في الغزو [7] ، ولا بدّ من وقفة قصيرة عند بحث تجنيد النساء ، فما لا شك فيه أنّ النساء قاتلن في عهد النبي ﷺ وفي عهد الفتح الإسلامي ، ولكن كنّ يخرجن بصحبة أزواجهنّ أو أبنائهن ، ومعنى ذلك أنه لا يجوز خروجهنّ بدون محرم من زوج أو ولد .

كما أنّ المجاهدين يخافون اللّه ويتمسّكون بمُثلهم العليا ، فكان عرض النساء في حصن حصين ، وكان الجار لا ينظر إلى جارته ، بل يموت دفاعاً عن عرضها ، واليوم يتغزل الشاب أول ما يتغزّل ببنت الجار ، كما أنّ خوف اللّه لا يسيطر على قلوب الناس وهم قلّما يلتزمون بالمُثُلُ العليا .

وقد جرى تجنيد الفتيات في قسم من الدول العربية ليعملن غالباً في مجال القضايا الإدارية والطبابة والإسعاف ، ومع ذلك تردّت أخلاقهن تردياً

---

(١) انظر كتابنا : الرسول القائد (١٧١) وانظر الإصابة (٨/ ١٩٨ - ١٩٩) .

(٢) انظر باب غزو المرأة في الصحاح وبخاصة باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال في صحيح الإمام البخاري .

(٣) انظر سيرته التفصيلية في كتابنا : قادة فتح الشام ومصر (٢٥٣ - ٢٦٣) .

(٤) فتح الباري بشرح البخاري (٦/ ٥٧) .

(٥) فتح الباري بشرح البخاري (٦/ ٥٨) .

(٦) فتح الباري بشرح البخاري (٦/ ٥٩) .

(٧) فتح الباري بشرح البخاري (٦/ ٦٠) .

مخجلاً ، كما نصت عليه التقارير الرسمية المعتمدة في تلك الدول .

وشتّان بين الدول الغربية والعدو الصهيوني وبين الدول العربية والإسلامية .

وقد رأيت تدريب الفتيات وهنّ يرتدين الألبسة العسكرية ويتخذن أوضاع الرمي الثلاثة : الوقوف والبروك والانبطاح ، فكانت النظرات الفاجرة تتعقبهنّ في أثناء التدريب ، فإذا خلا المدربون إلى أنفسهم واجتمعوا في الأندية أو في مكان آخر ، أخذوا يعلّقون على ما رأوه وسمعوه من الفتيات تعليقاً غير شريف وغير عفيف . . . ولا أزيد !

وقد جعل الدين الحنيفَ مَنْ يقتل دفاعاً عن عرضه شهيداً ، والذي يحرص على عرضه من الآباء لا يرتاح إلى نظرات المدرِّبين الفاسقة ، وأخشى أن يستشهد في أيام السلام دفاعاً عن عرض ابنته قبل أن تخوض غمار الحرب .

لقد شهد حرب حزيران (يونيو) من سنة ١٩٦٧ بين العرب والعدو الصهيوني ثلاثة بالألف فقط من العرب ، بينما شهدها من الصهاينة أحد عشر بالمئة من تعداد السكان ، والمعقول المنطقيّ أن يزج العرب والمسلمون بكل ما يقدرون عليه من مقاتلين ، وحينذاك يدربون النساء ويزجوهنّ في القتال إذا احتاجوا لقتالهنّ !

أما أن يكون القادرون من الرجال على القتال قاعدين ، ونطالب النساء بالتدريب العسكري والقتال ، فهذا غير منطقيّ ولا معقول .

إنني لا أتفق مع الذين يحشدون الفتيات للتدريب العسكريّ بحجة الاستحضار للحرب .

وعلى هؤلاء أن يحشدوا فتيانهم للتدريب العسكريّ استحضاراً للحرب ، إن كانوا فاعلين أولاً وصادقين ثانياً .

وأخشى ما أخشاه أن يكون حشد الفتيات للتدريب مظاهرة من المظاهرات

الهوائية هزلاً لا جدّ فيه ، إذ لو كانوا حقاً بهذه الدرجة من الحرص على حشد الطاقات البشرية كافة للمجهود الحربي ، لما بقيت الصهيونية في الأرض العربية المحتلة ساعة أو بعض ساعة من الزمان .

أما الجهاد بالمال فقد ذكرنا ما قدّم عثمان بن عفّان للمجهود الحربي ، وما قدم أبو بكر الصدِّيق الذي مات متخلِّلاً بعباءته ، لأنه لم يترك ديناراً ولا داراً .

وحين سار المسلمون لفتح الشام ، خرج أبو بكر الصدِّيق رضي اللّه عنه يودِّع المجاهدين ، فبصر بخباء عظيم حوله ثمانية أفراس ورماح وعُدَة ظاهرة ، فانتهى أبو بكر الصدِّيق رضي اللّه عنه إليه فإذا عِكْرِمة بن أبي جَهْل رضي اللّه عنه ، فسلّم عليه وجزاه خيراً وعرض عليه المعونة ، فقال عكرمة : « لا حاجة لي فيها ، معي ألفا دينار » ، فدعا له بخير[1] .

هكذا كان المجاهد الغني : يترك عمله في بلده ، ويخلِّف أهله ، ويجهِّز نفسه بالسلاح والنبال والركوب والطعام والشراب والمسكن ، ويحمل غيره حسب طاقته من المجاهدين وينفق عليهم وعلى ذويهم .

تلك هي الحرب الإجماعية التي طبقها المسلمون قبل أربعة عشر قرناً ، فأين منها الحرب الإجماعية التي طبقها الأجانب في القرن العشرين !!

ولا بدّ أن نشير هنا، بالإضافة إلى عامل الزمن بالنسبة لتطبيق الحرب الإجماعية في الجهاد الإسلامي وبين تطبيقها من الدول التي طبقتها بعد أربعة عشر قرناً من تطبيق المسلمين لتلك الحرب ، إلى ثلاث ميزات للجهاد الإسلامي هي : أهداف الجهاد في الإسلام ، ونسبة المجاهدين بالنسبة لتعداد المسلمين ، ونسبة الشهداء بالنسبة للمحاربين .

إنّ أهداف الجهاد ، - وهو الحرب الإجماعية في الإسلام - هي : حماية حرية نشر الدعوة الإسلامية ، وحماية المسلمين ، وإقرار السّلام .

---

(١) أسد الغابة (٤/٦) .

والحماية وإقرار السّلام ، يتمّان بالقوّة المؤثرة لا بالكلام ، إذ يحترم العالم الأقوياء ، ولا يحترم الضعفاء .

إنّ الجهاد الإسلامي هو للحماية القوية ، لا يعتدى فيه على أحد ، بينما الحرب الإجماعية الغربية والشرقيّة حرب عدوانية .

أما نسبة المجاهدين في الجهاد إلى تعداد المسلمين ، فهي أربعون بالمئة من تعداد نفوس المسلمين ، باعتبار الباقي وهو ستون بالمئة نساء وأطفال وغير قادرين على حمل السِّلاح وتحمل أعباء الجهاد .

فإذا قارنا هذه النسبة بالنسبة للحرب الإجماعية في الجيوش الأخرى وهي عشرة بالمئة فقط ، وجدنا البون شاسعاً بين الثرى والثُريا !

لقد شهد غزوة فتح مكة المكرمة عشرة آلاف مجاهد ، وهم القادرون على حمل السِّلاح من المهاجرين والأنصار والقبائل الأخرى ، وكان تعداد المسلمين حينذاك خمسة وعشرين ألفاً في منطقة المدينة وما حولها ، أما المسلمون البعيدون ، فلم يستطيعوا حضور الفتح .

أما نسبة الشهداء الذين تساقطوا من الصحابة بخاصة ، فقد كانت جسيمة بالنسبة إلى كل المقاييس والموازين ، إذ كانت نسبة الشهداء إلى القادرين على حمل السِّلاح وتحمل أعباء الجهاد ثمانين بالمئة .

لقد شهد غزوة (اليمامة) ثلاثة عشر ألفاً ، وكانت خسائر المسلمين ألفاً وثلاثمئة من الشهداء ، أي عشرة بالمئة من المجاهدين .

فإذا أحصينا عدد المعارك التي خاضها المسلمون في الغزوات والسرايا على أيام النبيّ ﷺ ، وفي عهد الفتح الإسلامي ، استطعنا أن نقدِّر مبلغ جسامة عدد الشهداء من المجاهدين ، مع العلم أن الشهيد يكون في الطعن والطاعون ، وقد مات في طاعون (عَمْواس) [١] خمسة وعشرون ألفاً [٢] أكثرهم

---

(١) عمواس : كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس ، وهي على أربعة أميال من مدينة (الرملة) على طريق بيت المقدس ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٢٢٥) .

(٢) ابن الأثير (٢/ ٥٦٠).

من صحابة رسول الله ﷺ ، يكفي أن نذكر منهم أبا عُبَيْدَة بن الجرّاح ومُعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان والحارث بن هشام وسُهَيْل بن عمرو ، وعتبة بن سُهَيل [1] ، وخرج الحارث بن هشام في سبعين من أهل بيته ، فرجع منهم أربعة فقط ومات الباقون بالطاعون [2] ، وكان طاعون (عمواس) سنة ثماني عشرة الهجرية [3] (٦٣٩ م)

ولكنّ الجهاد في البلاد الإسلامية والعربية ، أصبح اليوم في بطون كتب الحديث والفقه ، وحديث المجاهدين أصبح في كتب السِّير والتواريخ ، ولم يبق هناك جهاد فعلي ، بل لا نكاد نسمع حتى اسم الجهاد ، فقد استعضنا عنه بكلمات : النضال ، والكفاح ، والحرب !

إنّ المستعمِرين والصهاينة لا يخشون شيئاً خشيتهم للجهاد ، ذلك لأنّ العقيدة الإسلامية في العبادة كلها وفي أركان الإسلام ، تثمر فيما تثمر الجهاد والمجاهدين ، والمجاهدون هم الذين يتطوّعون وينفقون ، ويقاتلون ويستبسلون ، ويتقدّمون ، ولا يهربون ، ويضحّون ويُستشهدون ، ويعطون ولا يأخذون .

وهم يعملون لوجه الله ولا يحبون أن تظهر أعمالهم ، بل يتعمدون إخفاء ما يعملون .

فلماذا نضع القيود على الجهاد والمجاهدين ، ولماذا لا ندع هذه القوّة الكامنة تنطلق دفاعاً عن حقوق العرب والمسلمين المشروعة في فلسطين !!!

إنّ المجاهدين لا يخافون المستعمِر والعدو الصهيوني وكل أعداء العرب والمسلمين خوفهم من الحكّام أبناء وطنهم .

وقد كان للمجاهدين شأن أيّ شأن في محاربة الاستعمار ، وكان لهم صولة

---

(١) ابن الأثير (٢/ ٥٥٨) .

(٢) ابن الأثير (٢/ ٥٦٢) .

(٣) ابن الأثير (٢/ ٥٥٨) .

وجولة في حرب سنة ١٩٤٨ الميلادية بين العرب والعدو الصهيوني على أرض فلسطين ، وأشهد أن شهداءهم حينذاك أكثر من شهداء الجيوش العـربية ، وأن أثرهم في العدو الصهيوني كان بالغاً وكاسحاً ، مع أنّ عددهم كان لا يزيد عن اثنين بالمئة من موجود الجيوش العربية .

ومنذ تلك الحرب ، لم نسمع ذكراً للمجاهدين !

أخوفاً على العدو الصهيوني قضينا على الجهاد وأفنينا المجاهدين ؟!

وإلاّ لماذا ؟؟!!

إنّ المسجد جاهز لتفريخ المجاهدين ، فاتركوه يؤدي رسالته ، وحينذاك ستجدون أين تبقى الصهيونية وتعرفون مصير الصهاينة [١] .

ولكل أجل كتاب ، ﴿ والله غالِبٌ على أَمْرِه ، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [٢] .

---

(١) أنظر كتابنا : التطبيق العملي للجهاد ـ وخاتمة كتابنا : أهداف اسرائيل التوسعية في البلاد العربية .

(٢) الآية الكريمة من سورة يوسف (١٢ : ٢١) .

المَسجِدُ والعَسكريّة

كان بين اثنين وثلاثين ضابطاً في سلاح الفرسان الذي كانت مواضعه الدفاعية في منطقة (أبي غُرَيْب) الواقعة بين مدينتي (بغداد) و (الفَلّوجَة) ضابطان برتبة ملازم يُصَليان ويلتزمان بتعاليم الإسلام ، وكان ذلك في ثورة العراق على الإنكليز في مايس (مايو) من سنة ١٩٤١ .

وقد استُشهد أحدهما وهو المرحوم الشهيد زاهد السيد محمود الذي دفن في (أبي غريب) وقبره معروف يزار .

أما الثاني فجرح جروحاً كثيرة ، فأجريت له ثلاث عمليات جراحية ، ولا تزال الشظايا في جسده حتى اليوم ، وقد نجا من الموت بفضل الله بعد أن يئس الأطباء من شفائه .

وكان عدد الضباط في اللواء العراقي المرابط في مدينة (جنِين) الفلسطينية عام ١٩٤٨ هو خمسة وعشرون ومئة ضابط ، كان من بينهم سبعة ضباط متدينين ، خاضوا معركة (جنين) المشهورة وأنقذوا المدينة وسكانها من الاحتلال الصهيوني مع إخوانهم الآخرين ، ولكنهم برزوا بروزاً عظيماً في القتال وفي قيادة الفدائيين بعد القتال ، لاستعادة القرى المحيطة بمدينة (جنين) ، وكانوا موضع ثقة سكان المدينة وصداقتهم ، لأنهم لم يتلوّثوا جنسياً ولا جيبياً ، وحافظوا على مُثلهم العليا ، وقصدوا فلسطين مُثْقلين بالألبسة والفراش ، وعادوا إلى بلدهم مُتَخَفِّفين حتى من الألبسة والفراش .

ولست أزعم أنهم وحدهم قاتلوا كما يقاتل المجاهدون ، ولكنني أؤكد أنهم تميّزوا على غيرهم في القتال، وكان كل واحد منهم يتمنى أن ينال

الشّهـــادة،ويقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ،بينا يقاتل غيرهم سمعة وحبًّـا للظهــور ونخوة أو عن أحسابهم .

والفرق بين المتدينين وغيرهم ، هو أنّ المتدينين يتمنّون الشهادة ، ولـم أجد غيرهم يتمناها . كما أنّ جميع المتدينين أظهروا شجاعة فائقة في القتال ، وتطوّع الذين كان بالإمكان بقاؤهم بعيداً عن الخطر ، فآثروا الخطر على الأمن وتطوّعوا بإلحاح أن يكونوا في المقدمة عند الاشتباك بالأعداء .

وقـد سمعـت في ثورة العـراق سنـة ١٩٤١ م وفي حرب فلسطـين سنــة ١٩٤٨ م ، القادة الكبار يثنون أعطر الثناء على الضباط المتدينين ، ويصرِّحون علناً بأنهم يتمنون أن يكون جميع ضباطهم متدينين ، وأنهم كانوا يجهلون أثر الدين في إقدام الرجال . ولكنّ هؤلاء القادة ينسون ما قالوه أو يتناسونه في أيام السّـلام ، ويعـودون إلى الطاس والـكأس وإلى إغـراء ضباطهـم بالطـــاس والكأس !

إنّ الضباط المتدينين في الجيوش العربية والإسلامية هم خريجو المسجد ، لأنّ المدارس والمعاهدوالكليات لا تهتم بالدين ولا بدروس الدين ، والمسجد هو الذي غذاهم بالدين وفتح أبصارهم وبصيرتهم على الجهاد ومكانة الشهيد في الإسلام ، فحبّب إليهم الشهادة وزينها في قلوبهم ، وكرّه إليهم التولي يوم الزحف .

وطالما أصغى الطلاّب المتدينون الذين أصبحوا ضباطاً إلى : أنّ المسلمين حين تركوا الجهاد ذلّوا وتداعت عليهم الأُمم ، وهزّهم هزاً عنيفاً حديث النبيّ ﷺ الـذي رواه عبدالله بـن عمر بن الخطّاب رضي الله عنهما والذي جاء فيه : « . . . وإذا تركتم الجهاد سلّط الله عليكم ذلاً ، لا ينزعه عنكم حتـى ترجعوا إلى دينكم » .

وبصراحـة وأمانـة ، أنّ القضية الفلسـطينية هي قضية شرف الإســلام والمسلمين والعرب الذي لوثه الصهاينة تلويثاً لا يغسلـه ويطهِّـره غـير دمـاء الشهداء . وقد كثر الباكون والمتباكون على قضية فلسطين ، ولن أصدِّق مَن يبكيها أو يتباكى عليها إلاّ إذا وجدتهم يبنون في كل ثكنة وكل معسكر ومدرسة

ومعهد وكلية عسكرية وفي كل مؤسسة عسكرية مسجداً ، يقوم عليه علماء مجاهدون مخلصون ، يغرسون الدين في العسكريين غرساً ، ويربّون فيه المجاهدين الذين يتحملون فريضة الجهاد بما فيه من تكاليف البذل والتضحية والفداء .

أما الذين يبكون القضية الفلسطينية أو يتباكون عليها ، وهم في نفس الوقت يحاربون الدين ويهدمون المساجد ، فهم كاذبون في بكائهم وتباكيهم ، لأنّ فلسطين لا ينقذها غير الجهاد والمجاهدين .

لقد عُقد مؤتمر في إحدى الدول العربية حول القضية الفلسطينية ، فصادفت أحد الذين شهدوا المؤتمر في قاعاته وحفلاته ، فذكر لي أنّ المشاركين في المؤتمر يناقشون كيفية إنقاذ فلسطين من الصهاينة وهم يعاقرون الخمر الأجنبي الفاخر ويدخنون الدخائن الأجنبية الفاخرة[1]!! .

ولبيّتُ دعوة من الدعوات التي تقام احتفالاً بمرور عدد من السنين على منظمة من المنظمات ، فما استطعت أن أمكث معهم دقيقة واحدة ، لأنّ المفروض أن يتحلّوا بالطُّهر ، وجدتهم ترقص نساؤهم رقصاً داعراً خليعاً ، ويبدو شبابهم كالفتيات مظهراً ومخبراً ، فقلت لمن حولي : « هؤلاء لن يقاتلوا بالدم والحديد ، ما داموا يقاتلون بالكلام والرقص » ، فأين بقي الطهر ؟!

ونعود إلى آثر المسجد في العسكريين ضباطاً وضباط صفٍ وجنوداً ومراتب أخرى .

إنّ الذي يؤم المسجد ، لا بدّ أن يتوضأ للصّلاة ، وأن يأخذ زينته عند كل مسجد ، فهو إنسان طاهر الجسد ، طاهر الثياب ، والنظافة من الإيمان كما أنها ركن مهم من أركان العسكرية .

وبالإمكان أن يؤدي المسلم صلاته في داره أو مكانه الذي يعمل فيه ، ولكن

---

(١) دخائن : جمع دخينة وهي السيكارة .

النبيّ ﷺ حثّ على صلاة الجماعة في المسجد فقال : «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة »[1] . ومهما قيل في شرح هذا الحديث وبيان حكمته ، فإن ما لم يقله أحد حتى اليوم ، هو حكمته من الناحية العسكرية ، فصلاة الجماعة تخلق روح الجماعة وتشيع التعارف بين المصلين وتقوي أواصر الإلفة والمحبة بينهم ، وكل ذلك من صميم التعاليم العسكرية ، وهي خلق روح الفريق ، فالمجاهد يقاتل مع مَنْ يعرف أفضل مما يقاتل مع مَنْ لا يعرف ، وكذلك الجندي ، فإنه يقاتل برفقة أصحابه أفضل مما يقاتل في محيط لا يعرف أحداً فيه . كما أنّ الروح المعنوية للمقاتل الذي يعمل مع مَنْ يعرف ويثق به ويعرف خواصه ومزاياه ويتبادل المحبة معه ، تكون أرفع من الروح المعنوية للمقاتل الذي يشعر بأنه غريب .

وقد كان الصحابة عليهم رضوان الله يهتمون بصلاة الجماعة كلّ الاهتمام ، حتى أنّ المريض منهم كان يلحق بالجماعة رغم مرضه إذا استطاع ولو اضطر إلى مساعدة رجلين يحملانه ، وكيف لا يهتمون بها ويبادرون إليها ، وقد رأوا النبيّ ﷺ يهتمّ بالجماعة حتى حين اشتدّ به المرض[2] .

كما أنّ صلاة الجماعة : بقيادة إمام ، في صفوف متراصفة متراصّة ، تدريب عسكري من أروع ما يكون على الطاعة والضبط ، إذ لا يستطيع مُؤْتَمّ أن يركع أو يسجد إلاّ بإشارة الإمام ، ولا يستطيع أن يسبق الإمام أو يتأخر عنه ؛ كما أنّه تدريب عسكري على النظام والالتزام به ، فالصفوف متراصفة ومتراصّة ، وخالية من الثغرات ، والله لا ينظر إلى الصف الأعوج ، ورصّ الصفوف من إقامة الصّلاة ، والطاعة والضبط والنظام هي أهم أسس الجندية وأهم مقوّماتها .

---

(١) رواه ابن عمر رضي الله عنه ، ورواه مالك والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

(٢) مكانة الصلاة في الإسلام ـ الشيخ محمد زكريا محمد يحيى الكاندهلوي ـ ترجمة محمد الحسني ـ مطبعة ندوة العلماء في الهند ـ (٥٩ ـ ٦٠) ـ ١٣٩٣ هـ .

والمسلم يتعلّم في المسجد العسكرية في أجلى مظاهرها وأحسن تعاليمها ، ومن المعلوم أن المسجد ليس بأحجاره وجدرانه ، بل بالعلماء العاملين المجاهدين ، فأثر المسجد في العسكرية هو أثر الإسلام فيها ، وفي المسجد يتلقى المسلم تعاليم الدين الحنيف ، وفيه يقوى الإيمان ويرسُخ .

إنّ الإسلام حثّ على (الطّاعة) ، والطّاعة هي الضبط والنظام : ﴿وقالوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير﴾[1] ، وقد وردت (طاع) ومشتقاتها في تسع وعشرين ومئة من آيات الذكر الحكيم [2] .

وأشاع الإسلام معاني الخلق الكريم ، ومنه الصبر الجميل : ﴿ثمّ جاهدوا وصبروا ، إنَّ ربَّك من بعدها لغفور رحيم﴾ [3] ، وقال تعالى : ﴿اصْبروا وصابروا ورابطوا واتّقوا الله﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿والصَّابرين في البأساء والضَّرَّاء وحين البأس﴾[5] .

وقد وردت (صَبَرَ) ومشتقاتها في مئة وثلاث آيات من آيات الذكر الحكيم ، كما جاء في المعجم المفهرس (٣٣٩ - ٤١٠).

والصبر من أهم صفات الجندي المتميِّز ، لأنّ الحرب كلها صعوبات ومشقات ومشاكل ، لا يقوى على تحملها إلاَّ الصبور .

وقديماً قالوا : الحربُ صبرُ ساعةٍ .

وغرس الإسلام روح الشجاعة والإقدام : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لَقِيتُمُ الذين كفروا زَحْفاً فلا تُوَلّوهُمُ الأدبار . ومَنْ يُوَلِّهِمْ يومئذٍ دُبُرَهُ إلاّ مُتَحَرِّفاً

(١) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢/ ٢٨٥)

(٢) انظر التفاصيل في المعجم المفهرس (٤٢٦ - ٤٣١) .

(٣) الآية الكريمة من سورة النحل (١٦ : ١١٠).

(٤) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣ : ٢٠٠) .

(٥) الآية الكريمة من سورة البقرة (٣ : ١٧٧) .

لقتالٍ أو مُتَحَيزاً إلى فئة ، فقد باءَ بغضب من الله ، ومأْواه جَهَنَّمُ وبِئْس المصير﴾[1] .

والتولّي يوم الزحف من الكبائر ، كما نصّ على ذلك حديث رسول الله ﷺ .

وأمر الإسلام بالثبات في ميدان القتال : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لَقِيتُمْ فِئَةً فاثْبُتوا﴾[2] .

ودعا الإسلام إلى الجهاد بالأموال والأنفس لإعلاء كلمة الله : ﴿إنما المؤ منون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصَّادقون﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿انْفِروا خِفافاً وثِقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾[4] .

وبيَّن الإسلام أنّ المصلحة العليا للمسلمين ، لا بدّ أن تكون لها الأسبقيّة على كل شيءٍ في الدنيا : ﴿قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشون كسادَها ومساكنُ تَرْضَونها ، أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله ، فتَربَّصوا حتى يأتِيَ الله بأمره ، واللهُ لا يَهْدي القوم الفاسقين﴾[5] .

وجعل الإسلام مقام الشهداء من أعظم المقامات : ﴿فأُولَئك مع الذين أَنْعَمَ اللهُ عليهم من النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِين والشهداء والصالحين﴾[6] . وقال تعالى : ﴿ولا تقولوا لمن يُقْتَل في سبيل الله أمواتٌ بل أَحياءٌ ولكن لا

---

(١) الآيتان الكريمتان من سورة الأنفال (٨ : ١٥ ـ ١٦) .

(٢) الآية الكريمة من سورة الأنفال (٨ : ٤٥) .

(٣) الآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٩ : ١٥) .

(٤) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ٤١) .

(٥) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ٢٤) .

(٦) الآية الكريمة من سورة النساء (٤ : ٦٩)

تَشْعُرون﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ ومَنْ يُقَاتِلْ في سبيل الله فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾[2] .

وبقاء الشهداء أحياء عند الله ، ومكافأة الله للشهداء بالحياة المستمرة الباقية ، لم يُسْبَقْ بها الإسلام من دين قديم أو عقيدة جديدة ، وهذه المكافأة تحثّ المجاهدين على الاستقتال وإحراز النصر .

كما أنّ الإسلام يصاول الحرب النفسيّة التي تستهدف القضاء على الطاقات المعنويّة للإنسان ، ليستسلم ويرضخ للأعداء.

ولعلّ أهم أهداف الحرب النفسيّة التي تستهدف القضاء على الطاقات المعنوية هي : التخويف من الموت ، والفقر ، ومن القوّة الضاربة للمنتصر ، ومحاولة جعل النصر حاسمًا، والدعوة إلى الاستسلام ، وبثّ الإشاعات والأراجيف ، وإشاعة الاستعمار الفكريّ بالغزو الحضاري ، وإشاعة اليأس والقنوط .

المؤمن حقاً لا يخشى الموت :﴿فإذا جاء أجلُهم ، لا يَسْتَأْخِرون ساعةً ولا يَسْتَقْدِمون﴾ [3] . وقال تعالى : ﴿وما كان لنفسٍ أن تموتَ إلاَّ بإذنِ الله﴾ [4] . وقال تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تكونوا يُدْرِكْكُمُ الموتُ ولو كنتم في بُروج مُشَيَّدة﴾[5] . وقال تعالى : ﴿ قل لو كُنْتُم في بِيوتكُم لَبَرَزَ الذين كُتِبَ عليهم القَتل﴾ [6] .

إنّ المؤمن حقاً يعتقد اعتقاداً راسخاً بأنّ الآجال بيد الله سبحانه وتعالى ، وما أصدق قولة خالد بن الوليد رضي الله عنه : « ما في جسمي شبر إلاَّ وفيه

---

(١) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ١٥٤) .

(٢) الآية الكريمة من سورة النساء (٤ : ٧٤) .

(٣) الآية الكريمة من سورة الأعراف (٧ : ٣٤) ومن سورة النحل (١٦ : ٦١) .

(٤) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣ : ١٤٥) .

(٥) الآية الكريمة من سورة النساء (٤ : ٧٨) .

(٦) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣ : ١٥٤)

طعنة رمح أو سيف ، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » .

والمؤمن حقاً لا يخاف الفقر ، لأنه يعتقد اعتقاداً راسخاً ، بأن الأرزاق بيد الله سبحانه وتعالى : ﴿والله يَرْزُقُ مَنْ يشاءُ بغير حساب﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ الله يجعل له مُخْرَجاً ويَرْزُقْه من حيثُ لا يَحْتَسِب ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ فآواكُمْ وأيَّدَكُم بِنَصرِهِ ورزقكم من الطَّيِّبات لعلكم تَشْكُرُون ﴾ (٣) .

والمؤمن حقاً لا يخشى قوّات العدو الضّاربة ، فما انتصر المسلمون في أيام الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام وفي أيام الفتح الإسلامي العظيم بعَدَد أو عُدَّة ، بل كان انتصارهم انتصار عقيدة ، قال تعالى : ﴿ قال الذين يظنّون أنهم ملاقوا الله ، كم من فئة قليلة غَلَبَتْ فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبيّ حرِّضِ المؤمنينَ على القتال ، إن يكُنْ منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يَفْقَهون ﴾ (٥) .

والمؤمن حقاً لا يُقِرّ بانتصار أحد عليه ما دام في حماية عقيدته ، لذلك يعتقد أنّ انتصار العدو في معركة من المعارك قد يدوم ساعة ولكنه لا يدوم إلى قيام الساعة : ﴿ إنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فقد مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وتلك الأيَّامُ نُداوِلُها

---

(١) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ٢١٢) .

(٢) الآية الكريمة من سررة الطلاق (١٥ : ٢٠) .

(٣) الآية الكريمة من سورة الأنفال (٨ : ٢٦) .

(٤) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ٢٤٩) .

(٥) الآية الكريمة من سورة الأنفال (٨ : ٦٥) .

بين الناس ، ولِيَعْلَمَ اللهُ الذين آمنوا ويَتَّخِذَ منكم شُهداء ، والله لا يُحِبُّ الظَّالمين﴾[١] .

والمؤمن حقاً لا يستسلم بعد هزيمتهُ ، لأنه يعلم بأنّ بعد العُسر يُسراً : ﴿ولله العِزَّةُ ولرسوله وللمؤمنين ، ولكنَّ المنافقين لا يَعْلمون﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ ولا يَحْزُنْكَ قولُهم ، إنّ العِزَّةَ لله جميعاً هو السَّميعُ العليم﴾[٣] .

والمؤمن حقاً لا يصدِّق الإشاعات والأراجيف : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنْ جاءكم فاسِقٌ بنبأٍ فَتَبَيَّنوا أن تُصِيبُوا قَوْماً بجهالةٍ فَتُصْبِحُوا على ما فعلتم نادمين﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿لئن لم يَنْتَهِ المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ والمُرْجِفون في المدينة لنُغْرِيَنَّكَ بهم ثُمَّ لا يُجاورونَكَ فيها إلاَّ قليلاً﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿وإذا جاءهم أَمْرٌ من الأَمْنِ أو الخَوْفِ أذاعوا به ، ولو ردّوه إلى الرَّسولِ وإلى أولي الأمر منهم ، لَعَلِمَهُ الذين يَسْتَنْبِطُونَهُ منهم ، ولولا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إلاَّ قليلاً﴾[٦] .

والمؤمِنُ حقاً يُقاوم الاستعمار الفكري ويصاول الغزو الحضاريّ ، لأنّ له من مقوِّمات دينه وتراث حضارته ، ما يصونه من تيارات المبادىء الوافدة التي تخالف دينه وتناقض تقاليده وتذيب شخصيته وتمحو آثاره من الوجود : ﴿قل يا أيُّها الكافرون لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُون . ولا أنتم عابدون ما أَعْبُدُ . ولا أنا عابدٌ ما عَبَدْتُمْ . ولا أَنْتُمْ عابِدونَ ما أَعْبُدُ . لكم دِينُكُمْ ولِيَ دِينِ﴾[٧] .

---

(١) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣ : ١٤٠) .
(٢) الآية الكريمة من سورة المنافقين (٨٣ : ٨٠) .
(٣) الآية الكريمة من سورة يونس (١٠ : ٦٥)
(٤) الآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٩ : ٦٠) .
(٥) الاية الكريمة من سورة الأحزاب (٣٢ : ٦٠) .
(٦) الاية الكريمة من سورة النساء (٤ : ٨٣) .
(٧) الآيات الكريمات من سورة الكافرون (١٠٩ : ١ ـ ٦) .

والمؤمن حقاً لا يقنط أبداً ولا ييأس من نصر الله ورحمته : ﴿ قُلْ يا عِبَادِي الَّذين أسرفوا على أَنْفُسِهِم لا تَقْنَطُوا من رحمة الله ، إنّ الله يَغْفِرُ الذُّنوبَ جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [1] .

وقال تعالى : ﴿ قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ من رحمةِ رَبِّهِ إلاَّ الضَّالون ﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿ وإنْ تُصِبْهُم سيِّئةٌ بما قَدَّمَتْ أَيْديهِم إذَا هُمْ يَقْنَطُون ﴾ [3] .

وقال تعالى : ﴿ وإنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فيؤوس قَنُوط ﴾ [4] .

ولكنّ القول بأنّ الحوافز الروحيّة وحدها هي التي تؤجِّج إرادة الجهاد في المؤمن الحق لا يُغني عن كل قول .

والواقع أنّ في الإسلام حوافز (مادية) لا تقلّ أهمية عن أهمية الحوافز (الروحيّة) تعمل جنباً لجنب لترصين إرادة الجهاد في نفوس المسلمين وعقولهم معاً .

ومن أهم الحوافز المادية ، عدم الاستهانة بالعدو أولاً ، والإعداد العسكري تدريباً وتسليحاً وتنظيماً وتجهيزاً وقيادة ثانياً .

لقد استهان المسلمون بعدوِّهم يوم (حُنَيْنْ) ، فغُلبوا على أمرهم في الصفحة الأولى من صفحات ذلك اليوم العصيب : ﴿ ويومَ حُنَينٍ إذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فلم تُغْنِ عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرضُ بما رَحُبَت ثمّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِين ﴾ [5] .

والحذر واليقظة من مظاهر عدم الاستهانة بالعدو : ﴿ وَلْيُنْذِروا قومَهُم إذا

---

(١) الآية الكريمة من سورة الزمر (٣٩ : ٥٣) .
(٢) الآية الكريمة من سورة الحجر (٤٥ : ٥٦) .
(٣) الآية الكريمة من سورة الروم (٣٠ : ٣٦) .
(٤) الآية الكريمة من سورة فصّلت (٤١ : ٤٩) .
(٥) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ٢٥) .

رَجعوا إليهم لعلَّهم يحذَرون﴾ [1] .

وقال تعالى : ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عليهم هُمُ العدوُّ فاحْذَرْهم﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿وأطيعوا اللهَ وأَطَيعوا الرَّسولَ واحْذَروا﴾ [3] .

وقال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فانْفِروا ثُباتٍ أو انْفِروا جميعاً﴾ [4] .

وقال تعالى : ﴿فَلْيُصَلُّوا معكَ ولْيَأْخُذُوا حِذْرَهم وأَسْلِحَتَهم ، ودّ الذين كفروا لو تَغْفُلونَ عن أَسْلِحَتِكُم وأَمْتِعَتِكُمْ ، فيميلون عليكم مَيْلَةً واحِدَةً﴾ [5] .

إنّ الاستهانة بالعدو تؤدي حتماً إلى الاندحار ، وما أصدق المثل العربيّ القائل : « إذا كان عدوّك نَمْلَةً ، فلا تَنَمْ له » .

والإعداد الحربيّ إعداداً متكاملاً يرفع المعنويات ويقوّي الثِّقة بالنفس ، ويؤدي إلى النصر : ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ، تُرْهِبون به عدوَّ الله وعدوَّكم وآخرين من دونِهم لا تعلمونهم ، الله يَعْلَمُهُمْ ، وما تنفِقُوا من شيءٍ في سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تُظْلَمون﴾ [6] .

وقال تعالى : ﴿وأنزلنا الحديدَ فيه بَأْسٌ شديدٌ ومنافِعُ للناس﴾ [7] .

تلك هي لمحات من الحوافز المعنوية والماديّة في الإسلام ، ليجعل من الأمة الإسلاميّة التي تعمل بتعاليمه أُمة لا تُقْهَر أبداً .

---

(١) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ٥٣) .

(٢) الآية الكريمة من سورة المنافقون (٦٣ : ٤) .

(٣) الآية الكريمة من سورة المائدة (٥ : ٩٢) .

(٤) الآية الكريمة من سورة النساء (٤ : ٧١) .

(٥) الاية الكريمة من سورة النساء (٤ : ١٠٢) .

(٦) الآية الكريمة من سورة الأنفال (٨ : ٦٠) .

(٧) الآية الكريمة من سورة الحديد (٥٧ : ٢٥) .

ذلك لأن الإسلام بتعاليمه السَّمحة الرضيّة ، جعل من المسلم الحق ، مطيعاً لا يعصي ، مُقبلاً لا يفرّ ، صابراً لا يتخاذل ، شجاعاً لا يجبن ، مقداماً لا يتردّد ، ثابتاً لا يتزعزع ، مجاهداً لا يتخلّف ، مؤمناً بمُثل عليا ، مضحياً من أجلها بالمال والروح ، يخوض حرباً عادلة لإحقاق الحق وإزهاق الباطل .

لا يخاف الموت ، ولا يخشى الفقر ، ولا يهاب قوّة في الأرض ، يُسالم ولا يستسلم ، لا تضعف من عزيمته الأراجيف ، ولا تضعضع من همته الإشاعات ، ولا يستكين للاستعمار الفكريّ ، ويقاوم الغزو الحضاري ، ولا يقنط ولا ييأس من رحمة اللّه .

هذا المسلم الحق ، يقظ أشد ما تكون اليقظة ، حذر أعظم ما يكون الحذر ، يتأهب لعدوِّه ويُعِدّ العُدّة للقائه ، ولا يستهين بعدوٍ في السِّلم ولا في الحرب

وهذا ما يفسِّر لنا سر انتصار المسلمين الأولين ، لأنّ شعارهم كان : ﴿قل هل تَرَبَّصُونَ بنا إلاّ إحْدَى الحُسْنَيَين﴾[1] : النّصر أو الشهادة .

ولأنّ المسلمين كانوا يحرصون على الموت حرص غيرهم على الحياة : ﴿الذين قال لهم الناسُ : إنّ الناسَ قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حَسْبُنَا اللّهُ ونِعْمَ الوكيلُ ، فانقلبوا بنِعْمَةٍ من اللهِ وفَضْلٍ لم يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، واتَّبَعوا رضوان اللّهِ ، واللّهُ ذو فَضْلٍ عظيم﴾[2] .

وأشهد أنني لم أقرأ ، حتى في كتب التعبئة [3] وسَوْق [4] الجيش ، القديمة منها والحديثة ، أوضح تعبيراً وأدقّ تعريفاً وأكثر شمولاً . مما جاء في القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة ، تعريفاً للمجاهد الصلب والمقاتل الرهيب .

---

(١) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ٥٢) .

(٢) الآيتان الكريمتان من سورة آل عمران (٣ : ١٧٣ - ١٧٤) .

(٣) قل تعبئة ولا تقل تكتيك .

(٤) قل سَوْق ولا تقل استراتيجية .

بل لا يقتصر معناها على المجاهد المثالي وحده ، بل يشمل تعريف : المعنويات العالية أيضاً ، ومصاولة الحرب النفسية بكل أشكالها .

تلك هي عظمة القرآن العظيم حتى في المجالات العسكرية ، ولكن يا ليت قومي يعلمون !

إنّ المسلم عسكرياً كان أو مدنياً ، يتعلّم العسكريّة الإسلامية في المسجد ، ولا يقتصر تعليمه على ما ذكرته ، بل يشمل آفاقاً كثيرة أخرى : كقتال المسلمين للمسلمين وقتال المسلمين لغير المسلمين ، وشروط القتال في الإسلام ، وتنظيم القتال في الإسلام ، وشروط الإعفاء من الجندية ، وإعلان الحرب على العدو ، وأساليب القتال ، وقضايا الضبط والكتمان ، والهدنة والصلح في الإسلام ، ومعاملة الأسرى ، والعهود والمواثيق ، والنّفير الإسلامي ، ومواضيع غيرها [1] .

إنّ دور المسجد في العسكريّة الإسلامية لا يقتصر على غرس هذه المُثُل العليا العسكرية في عقل المسلم الحق ونفسه ، بل إنّ روح المسجد الذي يتّسم بذكر اللّه تعالى ، يجعل القلوبَ تطمئن والنفوس تهدأ اتجاهاً إلى العمل الصالح خدمة للإسلام .

أما الإيمان بالقضاء والقدر إيماناً راسخاً ، فإنه يجعل المؤمن حقاً يقاتل دون أن يخشى أحداً ولا شيئاً ، لأنه يعلم أنّ عمره لا يزيد ولا ينقص ، ومَنْ لم يمت بالسيف مات بغيره ، مع الفارق العظيم ، وهو أنّ الذي يموت بالسيف شهيد ، والذي يموت على فراشه غير شهيد ، وفضل الشهيد على غير الشهيد فضل عظيم .

والمسجد لا يقتصر على التعليم العسكري والتدريب ، بل يعلِّم المسلم القراءة والكتابة والحساب وتلاوة القرآن الكريم وعلومه ، ودراسة الحديث

---

(١) انظر التفاصيل في بحث القتال في الإسلام الوارد بكتابنا : الرسول القائد (٢٧ - ٤٦) .

النبوي الشريف وعلومه ، وعلوم العربية ، والتاريخ الإسلامي وسير الصحابة ومشاهر المسلمين وغيرها من العلوم ، مما يجعل العسكريّ المسلم مثقفاً ثقافة متكاملة ، فيكون عسكرياً متميزاً .

والسؤال الذي يتردّد اليوم هو : ألسنا مسلمين ؟! وإذا كنا مسلمين ، فلماذا لا ينصرنا اللّه على أعدائنا ؟!

والجواب على هذا السؤال ، يورده القرآن الكريم بصراحة ووضوح .

قال تعالى : ﴿وكان حقّاً علينا نَصْرُ المؤمنين﴾[١] ، فهل نحن مؤمنون حقّاً ؟!

وقال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا ، إن تَنْصرُوا اللّهَ يَنْصرُكُمْ ويُثَبِّتْ أقدامكم﴾[٢] ، فهل نَصرْنا اللّه بالإيمان واتخاذ تدابير الجهاد كاملة ، والابتعاد عن الذنوب وأسبابها ، والتمسّك بالمُثُل العليا الإسلامية ـ كما فعل المسلمون الأولون ـ حتى ينصرنا اللّه ويُثَبِّتْ أقدامنا ؟!

وقال تعالى : ﴿ ولَيَنْصُرَنَّ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إن اللّهَ لَقَوِيٌّ عزيز . الذين إنْ مكَّنَّاهم في الأرضِ أقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة وأمروا بالمعروفِ ونَهوا عن المُنْكَرِ ، وللّه عاقبة الأمور ﴾[٣] .

فهل أقمنا الصّلاة وآتينا الزكاة حقاً ، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر حقاً ؟!

وقال تعالى : ﴿انْفِروا خفافاً وثِقَالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسِكم في سبيل الله﴾[٤] .

فهل نفرنا خفافاً وثقالاً ، وهل جاهدنا بأموالنا وأنفسنا في سبيل اللّه ؟!

---

(١) الآية الكريمة من سورة الروم (٣٠ ـ ٤٧) .
(٢) الآية الكريمة من سورة محمد (٤٧ : ٧٠) .
(٣) الآيتان الكريمتان من سورة الحج (٩ : ٤٠ ـ ٤١) .
(٤) الاية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ٤١) .

ولكن ما مصير الذين لا ينفرون ؟

قال تعالى : ﴿إلاّ تَنْفِروا يُعَذِّبكم عَذاباً أليمًا﴾[1] .

كيف ينصرنا اللّه تعالى ، ونحن لا نطبِّق تعاليمه ، وهل ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى أنّ اللّه تعالى ينصر المسلمين الذين يتقبّلون الإسلام بدون تكاليفه في الجهاد والعمل الصالح ؟!

إنّ المسجد بصلاة الجماعة فيه ، وبما يُلقى فيه من محاضرات ودروس ، وما يُعلّم فيه من علوم ، كان ولا يزال وسيبقى الميدان الأول للتدريب العسكري والتهذيب ، وهو بحق معمل تفريخ المجاهدين الصادقين ، والعلماء العاملين ، والأفراد المخلصين .

لذلك كان يقول الفُرْس حين يرون المسلمين يؤدون صلاتهم في المسجد ، ويلمسون ما يبعثه المسجد في نفوس روّاده من سكينة ووقار ، وضبط ونظام ، وتعاون ومودّة : « أكل المسجد كبدنا . . . يعلِّم العرب الأدب !! » .

وكان الروم يقولون عن المسجد : « أكل المسجد كبدنا . . . يعلِّم العرب الأدب . . . » .

وكان الإسبان والفرنسيون والطليان في أيام مجد المسلمين يقولون عن المسجد : « أكل المسجد كبدنا . . يعلِّم العرب الأدب . . . » .

وكان الصليبيون يقولون عن المسجد : « أكل المسجد كبدنا . . . يعلِّم العرب الأدب . . . » .

وهم يقصدون بالأدب : الضبط والنظام والعلم والتضحية والفداء .

وجاء الاستعمار القديم ، فأخذ يقول عن المسجد ، فيردد أذنابه وعملاؤه ما يقول : « هذا أخطر وكر من أوكار الرجعيّة ! » .

---

(١) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ٣٩) .

وجاء الاستعمار الجديد ، فأخذ يقول عن المسجد ، فيردِّد أذنابه وعملاؤه ما يقول : « هذا أخطر وكر من أوكار الرجعيّة ! » .

وهم يقصدون بتعبير : وكر الرجعية ، بأنّ مُرتادي المسجد لا يعاونون الاستعمار ، ولا يتعاونون معه ، ويستقتلون في الجهاد لطرد الاستعمار من بلادهم .

وجاء الاستقلال ، فلم يكتف الحكّام بما كان يقوله المستعمِر عن المسجد ، بل أضافوا كلمات كثيرة في هجائه : وكر الرجعية ، والتعصّب ، والتخلّف !! إلى آخر الشريط المعروف . . .

وقرأت أمس حديثاً من أحاديث ندوة من الندوات ، قال فيه رئيس جامعة عربية في بلد عربي مسلم : « كان المسجد يعلِّم العلوم الدينية فهو بمثابة جامعة صغيرة ، ثم أصبحت بعض المساجد كبيرة تدرّس فيها العلوم الدينية المختلفة ، فكانت المساجد الكبرى جامعات دينية كجامعة المستنصرية ببغداد أيام العباسيين ، وقد نبذت الجامعات الحديثة بعد تطورها العلوم الدينية لأنها أصبحت متخلفة وليست ذات موضوع » . . . إلى آخره من مثل هذا الكلام المتهافت السخيف .

وكلّمت هذا الرئيس التافه الذي أصبح رئيس جامعة في غيبة العلم والعدل ، بالهاتف ، وأعدت إليه ما قاله في ندوته ونشرته الصحف اليوم ، فانهار انهياراً كاملاً ، وقال بالحرف الواحد : « ما كنت أتوقع أن تقرأ كلامي . . . لقد قلته لأنّ مَن معي يعجبهم مثل هذا الكلام !! » .

إنه يردد مثل هذا الكلام الهزيل ، ليرضي به الحكّام المستقلين ، لهذا نصّبوه رئيساً للجامعة ، مغتصباً حق غيره من العلماء في مثل هذا المنصب ، لأنّ حقّه أن يصبح أصغر مُعيدٍ في الجامعة في أحسن الظروف المؤاتية لأمثاله من المنافقين الهتافين الإمعات أشباه الرجال .

وأتساءل : من حق الفُرْس والروم والإسبان والفرنسيين والطليان

والصليبيين والمستعمِرين والصهاينة وأعداء العرب والمسلمين القُدامى والمحدثين ، أن يقولوا عن المسجد ما قالوه وأكثر ، لأنه الصّخرة العاتية والحصن الحصين للعلوم الإسلامية والعربية والتراث العربي الإسلامي الأصيل ، والثكنة الأولى للمجاهدين الصادقين والقادة المنتصرين والجنود المقاتلين .

وهذا ما يتوقعّه من هؤلاء الأعداء كل عربي ومسلم .

ولكن لم يتوقع عربي واحد ومسلم واحد ، أن يحارب المسجد في أيام الاستقلال كما كان يحارب في أيام الاحتلال !

فماذا وراء الأكمة ؟

إنّ الذي يحارب المسجد ـ كائناً من كان ـ كالذي ينتطح الصخرة برأسه، يريد أن يحطِّمها ، فلا يفعل شيئاً أكثر من تحطيم رأسه !

واللّه غالب على أمره .

وصدق اللّه العظيم : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِـمَّـنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فيها اسْمُهُ وسَعَى في خَرَابِها، أولئِكَ ما كانَ لهم أن يَدْخُلوها إلاَّ خائفين ، لهم في الدُنيا خِزْيٌ ولهم في الآخرة عذابٌ عَظِيم ﴾ [1] .

لكأنّ هذه الآية المباركة الكريمة نزلت اليوم ، واصفة أولئك المنافقين الإمعات من أشباه الرجال . . . ومصيرهم المخزي في الدنيا وعذابهم العظيم في الآخرة . . . صدق الله العظيم .

---

(١) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ١١٤) .

الخـــاتـــمة

ما كنتُ أتوقّع أن أُضيف إلى كُتيِّبي: الرسالة العسكرية للمسجـد، كلَّ هذه الإِضافات الضافية، ليتوسّع (الكُتيِّب) فيغدو (كتاباً).

وللحقيقة أذكر أنني بذلـت أقصى ما أستـطيع من نفسي وقلمـي، لكي أجعل من (الوجيز) في كُتيِّبي الذي كان، (وسيطاً)، في الكتـاب الـذي بـين يديك، ولولا هذا الضغط الشديد، لتجاوزت مرحلـة (الـوسيط) إلى مرحلـة (المطوّل)، ولعلّه سيصبح كذلك في يوم من الأيام.

وكانت خطّتي التي التزمت بها التزاماً صارماً عند إعادة كتابة (الـوجيز) ليصبح (وسيطاً)، هي الاقتصار على تسجيل مثل واحد ممـا عاناه (المسجـد) ويعانيه اليوم من تحديات، وكان بمقدوري إيراد أمثلة كثيرة على كل نوع من أنواع التحديات، ولكنني آثرت الاقتصار على التحديات الرئيسة دون التحديات الثانويّة، وعلى الأهم منها دون المهم، فقد تكـاثـر الأعداء على (المسجد)، واجتمعوا على حربه كما لم يجتمعوا على غيره من الأمور، إذ تجاوزوا تناقضاتهم لحرب (المسجد)، ولم يتجاوزوا عن تلك التناقضات في الأمور الأخرى، لأنّ (المسجد) هو الصخرة العاتية التي تتحطّم عليهـا محـاولات أعداء العـرب والمسلمين التخريبية في الخارج والداخل، لتحطيم معنويات العرب والمسلمين وكل مقوِّمات بقائهم أمة بين الأمـم، ولـولا رعـاية الله وحمايتـه لنجحـت محاولاتهم، بعد أن تكاثـرت عليهـم السِّهـام حتـى تكسّـرت النِّصـال علـى النِّصال.

ولست أكتم حرصي الشديد على أن يصبح هذا (الوجيز) بعد حين (مطولاً) أو (مبسوطاً)، لأنّ هدفي هو كشف الحقائق بعد تشويهها، وفضح المشوِّهين ومَنْ وراءهم، (وتكشيف) أعداء العربية لغة والإسلام ديناً لا الاكتفاء (بكشفهم).

وإني لأرجو أن يبارك الله فيه، فإنه إذا بارك في القليل كان كثيراً، وفي الفاني كان باقياً، وفي الضعيف كان قوياً.

ومصدر حرصي هو ما أراه من: قلب الحقائق وتزويرها، وجبن الأقلام وخوفها، وبيع الأفكار وشرائها، وصولة الباطل وشدّته، وضعف الحق وهوانه، وحبّ المادة وسيطرتها، وهجر الروح ونورها.

وكان لابد من أن يظهر الحقّ ويزهق الباطل، فعزمت أن أقول الحق بصراحة وأمانة، وثقتي بغير حدود بأنّ الله سيُظهر الحق على الباطل، فيندحر الظلام الذي يسنده السلطان بالأموال وأجهزة الإعلام، وينتصر النور الذي يحجبه الحاكم بالجبروت والأعوان.

ولست أجهل أنني أسير بقَدَمَي الحافيتين على الحَسك والشّوك، فالعدو غزير العَدَد قويّ العُدَد وافر المَدَد، ولكن لا غالب إلا الله، ولن يدع لغة القرآن تتقاذفها الأهواء، ودينه يقضي عليه الأعداء.

وإذا كان أصحاب الباطل أقوياء على باطلهم، فلماذا يتخاذل أصحاب الحق، والحق اسم من أسماء الله الحسنى، والله قويّ عزيز؟!

إنّ أعداء العربية والإسلام، يفتحون النار على مَن يدافع عن العربية والإسلام ويفتحون عليهم ما هو أشدّ مضاضة من النار وهي ألسنتهم وأقلامهم، يشنِّعون عليهم ما شاء لهم التشنيع، ويفترون عليهم الكذب، ويدفنونهم وهم أحياء، إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

فكيف يسكتون على الذين يهاجمونهم في عقر دارهم ولا يكتفون بالدفاع؟!!!

وعلى سدنة العربيّة، وحَرس الإسلام، ألاّ يخشوا هجمة الأعداء الشرسة، فكل شيءٍ في سبيل العربية والإسلام يهون، ولكل شيءٍ زكاة، وزكاة هؤلاء السدنة والحراس تحمّل الأذى بالصبر الجميل.

إنّ بيني وبين مَنْ أعرف ومَنْ لا أعرف من الناس، خطاً واضح المعالم معروف الاتجاه، هو حبّ العربية والإسلام، فأنا صديق كل مَنْ يدافع عن العربية لغة والإسلام ديناً، وعدو كلَّ مَنْ يعادي العربية لغة والإسلام ديناً.

ولست أخشى عدواً كائناً مَنْ كان، فليس لأحد فضل عليّ إلاّ الله، وليس لديّ شيء أخاف عليه، وليس لدى إنسان شيء أطمع فيه، وما عند الناس لا يبقى وما عند الله خير وأبقى.

واليوم أطالب سدنة العربية وحَرَس الإسلام، ألاّ يكتفوا بالدفاع عنهما، لأنّ العربية أقوى اللغات، والإسلام خاتم الأديان، فهما غير محتاجين إلى الدفاع ولا إلى المدافعين.

إنني أطالب بأن نرفع شعار: الهجوم بالعربية، والهجوم بالإسلام، على المعتدين الذين بدأوا العدوان، وصدق الله العظيم: ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكُونَ فِتْنَة ويكونَ الدِّينُ لله، فإن انْتَهَوْا فلا عُدْوَانَ إلاَّ على الظّالمين ﴾ (١).

إنّ لغة القرآن الكريم، ودين الله، حريّان بالدفاع عن المؤمنين بهما، لأن الله الذي أنزل الكتاب للناس كافة تكفّل بحفظه لغةً وعقيدة وتشريعاً ومُثلاً عليا، وصدق الله العظيم: ﴿ إنّا نحنُ نَزَّلْنا الذِّكْر، وإنا له لحافظون﴾ (٢).

وعنوان هذا الكتاب: رسالة المسجد العسكرية، يمكن أن تستبدل كلمة الإسلام بالمسجد، فيصبح العنوان: رسالة الإسلام العسكرية، ويمكن أن نستبدل كلمة: القرآن بالمسجد، فيصبح العنوان: رسالة القرآن العسكرية، لأنّ المسجد ليس ببنائه وأركانه، بل بالإسلام في تعاليمه وعلومه، والقرآن في رسالته وتعليمه، ولا معنويات لأي جيش بدون عقيدة راسخة، ولا نصر لجيش

---

(١) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ١٩٣). (٢) الاية الكريمة من سورة الحجر (١٥ : ٩).

بدون معنويات عالية .

والاعتزاز بالمسجد اعتزاز بالإسلام ، واعتزاز بالقرآن .

ولكن هذا الكتاب يكشف الحقائق التاريخية التي لها علاقة بالإسلام والعرب ، وبخاصة في الظروف الراهنة ، ليزيل الغطاء عن أعين الناس الذين يصدِّقون كل ما يَقرأون ويسمعون في الحاضر ، لأن هناك موجة عارمة من التضليل ، تطمس ما يؤثر في سمعة مروجيها ، وتُبرز ما يرفع من شأنهم ، وتمحو ما تشاء وتثبت ، دون التزام بالحقيقة ، بل التزام بالمصالح الشخصية لأفراد أو جماعات معيّنة .

والأهم من كشف الحقائق التاريخية في الحاضر ، هو كشفها للمستقبل ، ليكون الباحثون على جليّة من الأمر ، وليعيدوا التدقيق في الحوادث والأحداث مرات لا مرتين ، قبل أن يصدِّقوا ما يقرأونه في الصحف والمجلات والأبحاث والدراسات والكتب والمؤلفات ، فالناس في السر غير الناس في العلن ، وأكثر ما كتب مدفوع الثمن مالاً أو تزلفاً، فما كُتب ، إلاّ عن رغبة أو رهبة .

وقد شهدت سنة ١٩٦٨م مؤتمراً في بلد عربي شارك فيه قسم من أبرز الباحثين ، فأشادوا بمبدأ من المبادىء الوافدة ودعوا إليه ، ثم شاركت في مؤتمر آخر في بلد عربي آخر ، فوجدت أولئك الباحثين يسلقون ذلك المبدأ الوافد بألسنة حداد ويحذِّرون الناس منه .

وكان المبدأ الذى مدحوه مرة وهجوه مرة أخرى من المبادىء الاقتصادية التي لا تهمني ولا أحبّ أن أعرف عنها شيئاً ، ولكنّ هجاءها ومدحها من نفس الباحثين على جلالة قدرهم ، لفت نظري ، فتساءلت : كيف يجتمع شتاء وصيف في مكان واحد في وقت واحد ؟!

وقد كنت أعرف قسماً من أولئك الباحثين شخصياً ، وأسمع بقسم منهم وأقرأ ما يكتبون وكنت أظنّ بهم خيراً كثيراً ، ولكنني فجعت بصداقتهم بعد ما ظهر لي أنهم تجّار علم لا علماء ! ولم أعد أكترث بهم ، مردداً المثل المشهور : فلما تكلّم الشيخ ، آن لأبي حنيفة أن يمدّ رجله .

وكانت (القاعدة) في العلماء الأولين اعتبار العلم عبادة من أجلّ العبادات ، وكان (الاستثناء) فيهم اعتبار العلم تجارة من أربح التجارات .

أما اليوم فقد أصبحت (القاعدة) اعتبار العلم تجارة من أربح التجارات ، وأصبح (الاستثناء) اعتبار العلم عبادة من أجلّ العبادات .

لقد طغت المادة على كل مرفق من مرافق الحياة ، وما كان ينبغي أن تطغى على العلم ، لأن العالم إذا أصبح تاجراً في علمه ، فقد كرامته وهانت عليه نفسه ، وباع قلمه في المزاد العلني كأي سلعة من السلع ، وكتبَ ما يحبّ المموِّل أن يكتبَ لا ما يحتِّمه العلم أن يكتب ، فزُيِّفت الحقائق ، وشاع التضليل ، وقلّ الخير ، وكثر الشر .

وقد رأيت علماء يتهافتون على أبواب الحكّام ، من أجل دراهم معدودات ، أو منصب زائل ، فيعاملون على الأبواب معاملة غير كريمة ، ويقابلهم الحكّام بعد طول انتظار مقابلة جافة .

وما كان أحراهم أن يبتعدوا عن أبواب الحكّام ، ليصونوا ماء وجوههم على الأقل .

ورأيت علماء بأيديهم مؤلفاتهم ، يعرضونها على مَنْ يدفع لهم الثمن حتى ولو كان من أخسِّ مخلوقات اللّه .

ورأيت علماء يخدمون الناشرين كالخدم ، حتى يطبع لهم الناشرون مؤلفاتهم .

ورأيت علماء يتجولون على الصحف والمجلاّت ، لنشر مقالاتهم فيها ، من أجل أن يقبضوا المكافأة ولو كانت دراهم معدودات .

ورأيت علماء يذلون لمن بيدهم أمر انتدابهم إلى الخارج أو التَّعاقد معهم للعمل في الخارج ، ويخدمون أصحاب السلطة في المدارس والمعاهد والجامعات خدمة يترفع عنها العبد ، لكي يضمن العالم تمديد مدة انتدابه .

ورأيت علماء يستغلّون سلطتهم لترويج مؤلفاتهم ، فإذا كانوا يعملون

في المكاتب الحكومية أجبروا المراجعين لمكاتبهم على شراء تلك المؤلفات ، وإذا كانوا معلمين أو مدرسين أو أساتذة أجبروا تلاميذهم وطلابهم على شرائها .

وكل تلك المظاهر لا تتّفق مع كرامة العلم والعلماء .

لقد كان السّلف الصالح من العلماء ، يعلّمون بدون أجر ، وكان القادرون مادياً يدفعون المال سراً لتلاميذهم وطلابهم .

فقد حضر أسد بن الفرات فاتح جزيرتي (قُوْصَرة) و(صِقِلِّيَّة) ومصنّف كتاب (الأسدية) في فروع المذهب المالكي ،[1] مجالس الإمام محمد بن الحسن الشيباني[2] العامة في مدينة (بغداد) ، فلم يكتف بذلك بل طلب أن يسمح له بوقت يخصّه فيه بالدراسة ، فقال أسد لمحمد بن الحسن : « إني غريب وقليل النفقة ، والسّماع عندك نزر ، والطلب عندك كثير ، فما حيلتي ؟! » ، فرحّب محمد بن الحسن باستزادة تلميذه من العلم ، وقال له : « إسمع مع العراقيين بالنهار ، وقد جعلت لك الليل وحدك ، فتأتي فتبيت عندي ، فأُسمعك » . قال أسد : « فكنتُ أبيت في سقيفة بيت يسكن محمد بن الحسن في علوه ؛ فكان ينزل إليّ ، ويضع بين يديه قدحاً فيه ماء ، ثم يأخذ في القراءة ، فإذا طال الليل ورآني نعستُ ، ملأ يده ماء ، ونضح به على وجهي ، فأنتبه ، فكان ذلك دأبي ودأبه ، حتى أتيت على ما أُريد من السّماع عليه »[3] .

وقد أسبغ محمد بن الحسن الشيباني رعايته المادية والمعنوية على تلميذه أسد بن الفرات ، كما كان يفعل السّلف الصّالح من العلماء بتلامذتهم . قال أسد : « كنتُ جالساً يوماً في حلقة محمد بن الحسن ، فصاح صائح : الماء للسبيل . . فقمتُ مبادراً ، فشربت من الماء ، ثمّ رجعت إلى الحلقة ، فقال محمد بن الحسن : يا مغربي ! . . . أشربتَ ماءَ السبيل !! . . فقلت : أصلحك اللّه ، وأنا ابن سبيل ! . . ثم انصرفتُ . فلما كان الليل ، إذا

---

(١) انظر تفاصيل سيرته في كتابنا : بين العقيدة والقيادة (٢٤٩ ـ ٢٧٧)

(٢) انظر ترجمته في وفيات الأعيان (٣/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥)، وانظر مصادر ترجمته في كتاب السير الكبير (١/ ٥ ـ ٦).

(٣) رياض النفوس (١/ ١٧٥)

بإنسان يدقّ الباب ، فخرجت إليه ، فإذا خادم محمد بن الحسن ، فقال : مولاي يقرأ عليك السّلام ، ويقول لك : ما علمتُ أنك ابن سبيل إلاّ في يومي ، فخذ هذه النفقة ، فاستَعِنْ بها على حاجتك . . ثم دفع لي صُرَّة ثقيلة ! فقلت في نفسي : هذه كلّها دراهم . . ففرحت بها ، فلما دخلت منزلي فتحتها ، فإذا فيها ثمانون ديناراً »[1] .

هكذا كان السّلف الصالح من العلماء : يعلِّمون تلاميذهم بالمجان ، وينفق الغني منهم على تلاميذه وطلابه ، ويعلِّمونهم العلم والكرامة والخلق الكريم .

وقد بعث معاوية بن أبي سفيان رسولاً إلى أبي الأسود الدُّؤلي يستقدمه من (البصرة) إلى (دمشق) ليؤدِّب ولده ، فأخرج أبو الأسود كسرة من الخبز إلى رسول معاوية قائلاً : « ما دمتُ أملك هذه فلن أبرح مكاني » .

لقد كان فقيراً ، ولكنه باعتداده اعتداداً صادقاً بكرامة العلماء ، ومعرفته قدر نفسه ، كان أكبر من كلِّ ملك وكلِّ حاكم وصاحب سلطان .

وبعث هرون الرشيد إلى الإمام مالك بن أنس رضي اللّه عنه رسولاً يستقدمه من المدينة المنوّرة إلى (بغداد) ليؤدِّب ولديه الأمين والمأمون ، فقال الإمام مالك لرسول الرشيد : « مما تعلّمناه من أشياخنا أنّ العِلْم يُؤْتَى ولا يَأْتِي » ، فهو يقول للرشيد : إذا أردت أن تؤدب ولديك ،فليحضرا مجلسي في بلدي ، وإلاّ فلا أحضر مجلسك في بلدك !

وقال الرشيد عن الإمام مالك : « تكبّر علينا علمُ مالك ، فاستفدنا منه » .

ولو أردت أن أذكر أمثلة عن كرامة العلم والعلماء ، لأصبحت هذه الخاتمة مجلداً ضخماً ، وقد مضى عليّ ثلاثون سنة أجمع فيها حوادث تتصل بكرامة العلم والعلماء ، ولا أزال أجمع أمثال تلك الحوادث ، لتصدر في كتاب خاص

(١) رياض النفوس (١/ ٧٥)

بإذن اللّه .

ولكنني سأذكر لمحات عن الشيخ محمد الرضواني الذي عرفته شخصياً وتوفي في الموصل قبل سنوات ، عليه رحمة الله ورضوانه .

فقد كان تاجراً ذا ثراء عريض ، وكان ينفق على الفقراء والمحتاجين والتلاميذ والطلّاب والعلماء إنفاق مَن لا يخشى الفقر ، لأنّ ماله كان في يده لا في قلبه .

وكان شيخَ علماء الموصل علماً وورعاً وسلوكاً ومعاملة وخلقاً .

وكان يُدَرِّس قبل صلاة الفجر بساعتين ، فإذا انتهى من تدريس وجبة طلاب قبل الفجر ، أدّى فريضة الفجر ، ثم بدأ بتدريس وجبة طلّاب بعد الفجر حتى يرتفع الضحى .

ويتوجّه بعد ذلك إلى متجره ، ويزاول أعماله التي كان معظمها توزيع المال على الفقراء والقضاء بين المتخاصمين ، وحلّ مشاكل الناس ، فيصلي الظهر والعصر في مسجد (الأغوات) الواقع بين الجسرين قريباً من النهر ، ثم يعود إلى مدرسته ، فيدرس طلبة العصر حتى صلاة المغرب .

وبعد صلاة المغرب يتوجّه إلى منزله القريب ، ويبقى فيه حتى يسمع صوت المؤذن لصلاة العشاء ، فيحْضر مسجده ومدرسته ، ويعلِّم الطلاب إلى الهزيع الأول من الليل .

كان هذا دأبه في التعليم كلّ أيام الأسبوع ، وهذا دأبه في مزاولة أعماله التجارية سائر أيام الأسبوع عدا يوم الجمعة ، حيث يمكث في مسجده ومدرسته .

وكان ممن ابتلاه اللّه بوفاة أطفاله الذكور ، فكان يخفي على الطلاب وغيرهم موتهم ، وطالما أكمل وجبة تدريس الطلبة قبل الفجر ، فإذا حانت الصلاة صلاها وصلى على ابنه المتوفّي وحمله إلى مأواه الأخير ، وحينذاك يعرف الطلاب أنّ الشيخ قد فَقَد ولده !!

وحدثني والدي عليه رحمة اللّه وكان أحد طلابه الذين يأخذون عليه العلم ، فذكر أن الملك فيصل الأول ملك العراق ، زار الموصل في أواخر العشرينات ، فزاره من زاره من رجالات الموصل وتخلّف الشيخ الرضواني عن زيارته فيمن تخلّف ، لا تكبراً ورياء ، بل لأنه لا يملك الوقت لإنفاقه في الزيارات والمجاملات ، ولأنه كان يبتعد عن أصحاب السلطة ولا يحب مخالطتهم ولا معرفتهم .

وقصده الملك فيصل وسعي لزيارته ، ومن الصدف أنه وصل مدرسته ومسجده في يوم من أيام الجمعة عصراً ، فما كاد يدخل غرفة الشيخ تسبقه جماعة وتسير معه جماعة أخرى ، حتى تعالى صوت المؤذن لصلاة العصر ، فنهض الشيخ ليصلي ، فالتقى بالملك فيصل على عتبة غرفته ، فقال له : « فيصل أفندي ! الصّلاة » ، ومضى إلى حرم المسجد للصلاة .

وكان الشيخ يحسب أنّ لقب : (أفندي) أعلى لقب يمكن أن يطلق على إنسان ، لأنهم كانوا يُطلقون هذا اللّقب على أعلى الشيوخ مقاماً في العلم والورع ، فظن الشيخ الرضواني أنَّ هذا اللقب أرفع الألقاب دون استثناء .

وأدّى الشيخ صلاته كاملة كما يؤديها المتمهِّل ، ثم تريّث في المسجد يسبِّح اللّه ويذكره ، والملك فيصل ينتظره في غرفته خارج حرم المسجد ، حتى عاد الشيخ إلى الغرفة ، فحدّثه الملك حديثاً متشعباً ، والشيخ صامت يذكر اللّه ، فقال له الملك : « أحبّ أن تتولى رئاسة محكمة التمييز الشرعيّة ، فقال الشيخ : « لم أدخل دار الحكومة في حياتي ، فلا أدخلها اليوم » .

وعاد الملك أدراجه ، وعكف الشيخ على التدريس وإفتاء الناس وقضاء مصالحهم

أهذا شيخ والمتكالبون على متاع الدنيا شيوخ !!

ومات الشيخ ، فشيّعه أهل الموصل من المسلمين وغير المسلمين ، ويومذاك ظهر الفقر على مئتي عائلة ، لم يكن الناس يدرون من أيِّ مصدر

كانوا ينفقون !

لقد كان الشيخ ينفق على طلابه الفقراء وينفق على مَنْ يعولون ليتفرغوا للعلم ، ويشتري لهم الكتب الدراسية من ماله الخاص ، ويشتري لهم الكتب القيمة ، ويطعمهم ويكسوهم ، ويعودهم إذا مرضوا ويزورهم في الأفراح ، ويواسيهم في الأتراح ، ويقدِّم لهم الهدايا بالمناسبات ، ولكنه كان لا يؤجِّز[1] غير المستحق ، ولا يسامح المتكاسل ، ولا يسكت عن المتغيِّب ، ويحاسب المتهاون في أمور العلم والدين .

لذلك تخرّج من مدرسته علماء أعلام كالشيخ عبدالله النعمة ، فقد كان عليه رحمة الله يستحقّ أن يتولّى مشيخة الأزهر الشريف بكل كفاية علماً وورعاً وخلقاً ، لأنه كان بحراً زاخراً في علمه ، طوداً شامخاً في عزّته ، مثالاً عالياً للخلق الكريم .

وعشنا حتى رأينا شيوخاً يخشون أصحاب السلطان أكثر مما يخشون الله ، ويتزاحمون على (المادة) أكثر مما يتزاحمون على الصّلاة ، ويقصدون مَن يدفع لهم المال في مواطن النفط ، ويهربون من مكافحة المبشرين في مواطن التنصير من بلاد المسلمين ، ويعاونون الظالمين ولا يعينون المظلومين ، ولا يقولون كلمة الحق عند سلطان جائر .

أهؤلاء شيوخ وابن تيّمية والعز بن عبد السّلام والرضواني شيوخ !!

ولكنّ التردّي لم يقتصر على العلماء ، بل شمل أصناف الناس جميعاً ، والعلماء من أبناء الشعب بل من أفضل أبناء الشعب ، فإذا أصبحوا في أكثرهم تجّار علم لا علماء ، فهذا دليل على انصراف غالبية أبناء الشعب إلى (المادة) وجعلها (غاية) ، والمفروض أن تكون (وسيلة) لا (غاية) .

وهذه (العِلّة) ـ علّة تحوّل الغالبية إلى (المادة) ـ ، لا بدّ أن تعالج معالجة ناجعة ، ولكي يجُدي العلاج ، فلا بُدّ من اكتشاف (الداء) ليعطى للعليل

(١) يؤجِّز : يمنح إجازة للمتخرج في مدرسته ، شهادة على تخرجه ونجاحه في الدراسة ، وأنه أصبح عالماً من علماء الدين .

(الدواء) .

ولهذه العلّة أسباب عديدة ، لعلّ أهمها في نظري هو اهتمام الحكّام بالتحوّل المظهري للشعب ، وعدم اهتمامهم بالتحوّل الداخلي أو التحوّل (الجوّاني) ، وأنا أطلق عليه : التحوّل الخلقي الذي يتصل بالضمائر، فكان من أثر هذا التحوّل المظهري و إغفال التحوّل الخلقي، أن نجحت (العملية)ومات المريض ، كما يقول المثل !!

وبتعبير آخر ، انتعشت المظاهر ، وماتت الضمائر .

وقد كنت في بلد عربي سنة ١٩٥٠ الميلادية ، فأعجبني ما فيه من علماء فطاحل وشخصيات سياسية من الطراز الرفيع .

وعدت إليه في السبعينات ، فوجدته خواء من العلماء والشخصيات السياسية ، كل ما فيه ، تجار علم وتجار سياسة ، فقد قضى الزعيم والقائد على شخصيات البلد ، من أجل أن يبرز .

وكلّ البلاد العربية بخاصة والإسلامية بعامة ، انتعشت فيها (الجيوب) وماتت فيها (القلوب) . . إلا مَنْ رحم اللّه .

وتلك ثمرات ما غرسه المستعمِر في أيام الاحتلال ، أخذت تُعطى أُكلها مرتين في أيام الاستقلال .

ولا ننكر على المسؤولين في عهد الإستقلال ما قدّموه بحماسة واندفاع للمستعمِر من خدمات ، ليثمر ما غرس وينمو ما زرع ، فمن الإنصاف أن نذكر الفضل لذويه .

لقد بعث جدي بوالدي إلى الدراسة الدينيّة وسلّمه لأحد الشيوخ قائلاً : « أُمنيتي في الحياة أن ينشأ في دارنا شيخ ، يعلّمنا الدِّين ، ويؤمّنا في الصّلاة » .

وكان والدي ثالث أشقائه الأربعة ، وكان أشقاؤه الثلاثة يعملون في التجارة ، وكانت العائلة في دار واحدة ، يجتمع جدي بأولاده الأربعة كل يوم ، فلا يصغي لصوت المال ، بل يصغي ويصغي أولاده الأربعة لصوت الدين

والعلم .

وشيد والدي داره سنة ١٩٣٦ الميلادية ، وكان جدي قد شيد داره سنة ١٨٩٠ الميلادية .

وتهدّمت دار والدي سنة ١٩٧٠ الميلادية ، ولا تزال دار جدي قوية البنيان حتى اليوم .

وسألت والدي : لماذا تهدّمت دارك وبقيت دار جدي ؟!

وتنهّد الوالد عليه رحمة اللّه وقال : « دار جدِّك بنتها الأيدي المتوضِّئة على أنغام التكبير والتسبيح ، وداري بنتها الأيدي الملوّثة على أنغام الأغاني الداعرة » .

وتعلّمت من هذه الكلمات الموجزة درساً لا أنساه أبداً ، فقد شيّد دار جدي عمال يخافون اللّه ولهم ضمائر حيّة عامرة بذكر اللّه ، وشيّد دار والدي عمال يخافون الشيطان ولهم قلوب ميِّتة مظلمة بالفسق والفجور .

إنّ الحكّام اهتموا بالمظاهر دون المخابر ، والمظاهر تزول ، والمخابر هي الباقية .

وقد حكم كثير من الحكّام في البلاد العربية والإسلامية ، فظنّ بعضهم أنهم صَبَغوا شعوبهم بالصبغة التي يريدونها ، ولكنهم ما كادوا يذهبون إلى غير رجعة وخلفهم غيرهم من الحكّام ، إلاّ وعادت تلك الشعوب إلى ما كانت عليه وخلعت صبغتها خلعاً ، فأصبحت أثراً بعد عين .

وهذا هو الدرس الذي يجب أن يتعلّمه الحكام ، فكلّ صِبغة زائلة غير صِبغة اللّه ، وصدق اللّه العظيم : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ، ومَنْ أَحْسَنُ من اللّه صِبْغَةً ، ونحن له عابدون ﴾[1] .

والمهم ألا يصدِّق الحكّامُ المنافقين الذين يشجِّعونهم على الانحراف ،

---

(١) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ١٣٨) .

ويتظاهرون بتقبل صبغتهم وإقبال الناس عليها ، فهؤلاء المشجِّعون والمتظاهرون أصحاب مصالح أو منافقون أو جبناء .

والواقع أن (كميّة) المثقفين والعلماء زادت ، ولكنّ (نوعيّتهم) قَلَّتْ ، وزادت كمية المطبوعات ولكنّ نوعيتها قلّت أيضاً .

وازداد العمال وفرص العمل ، وقلّ الإنتاج ؛ وكثرت المحركات الزراعيّة الحديثة ، ولكنّ الأرض المزروعة قلّت !

والعدو الصهيوني يجثم على أرضنا المحتلّة ، ولكننا نرفض الهزيمة بادعاء النصر دون اتخاذ أسبابه .

وكبّلنا المرأة بقيود العمل في ميادين لم تخلق لها ، فخرّبت بيتها ولم تعمِّر عملها . ثمّ نزعم أننا حرّرنا المرأة .

ولو أنّ الضمائر حيّة ، لما تقدّمنا إلى الوراء !

إنّ الصداقة التي عرفناها في الكتب ولمسناها في جيلنا قد اختفت اليوم ، ولا رابط إلاّ المصلحة الشخصيّة وحدها !

قد كان أفراد جيلنا يهبّون لمساعدة غيرهم ، واليوم تجد مَن يعتدي على امرأة ضعيفة أو رجل هرم ، في الشارع أمام سمع وبصر الآخرين ، وليس مَنْ يمدّ يد العون للضحيّة !

هناك بالطبع أناس يهتمون بغيرهم تطوعاً لوجه اللّه ، لكنّ الأغلبية انغلقت على ذاتها في لامبالاة محزنة ، لأنها تأقلمت على الأنانية ، فلا تفكر إلاّ في نفسها ، ولا تريد الخير إلاّ لها ، ولا تؤدي خدمة إلاّ لقاء مكسب مادي .

وأكاد أتبيّن بأن سمات النخوة والمروءة والكرم والسِّمات الأخلاقيّة المتميِّزة التي لا يمكن أن يعتبر الإنسان بدونها إنساناً والتي تتعدى في الذاتِ إلى ذات أخرى ، فتعين الناس على نوائب الدهر ، أصبحت غريبة حتى في الجزيرة العربية أرض الرِّسالات السماويّة ، وأصبح الذي يصل الرَّحمَ ، ويصدق الحديث ، ويحمل الكَلَّ[1] ، ويُكْسِبُ المعدوم ، ويُقْري الضيف ، ويعين على

(١) الكَلُّ : مَن لا ولد له ولا والد ، ومَن يكون عبئاً على غيره ، وفي التنزيل العزيز : (وهو كَلّ على مولاه) ، والثقيل لاخير فيه ، والضعيف .

نوائب الحق ، ويصادق لوجه اللّه ويعادي لوجه اللّه ، ويتصدّق بماله ، غريباً بين قومه ، يُنظَر إليه بأنه شاذ منحرف عن جادة الكثرة الكاثرة من الناس .

كلّ ذلك نتيجة من نتائج التركيز على التنمية المادية وتوجيه الشّعب إلى (المادة) وحدها ، وإغفال الدين والتنمية الروحيّة إغفالاً كاملاً ، حتى أصبح الإنسان كالحيوان لا يفكّر إلا ببطنه وفرجه وإسطبله .

والذي يقتصر همّه على المادة ، لا يمكن أن يضحّي بروحه في الحرب من أجل مُثُل عليا ، لأنه لم يُخلق بعد الإنسان الذي يضحّي بروحه من أجل المادّة والمبادىء المادّية ، وكلّ الذين ضحّوا بأرواحهم من أجل المادة كالارتزاق أو من أجل المبادىء المادية ضحّوها قسراً لا عن طيب خاطر ، ورهبة لا رغبة ، بعكس الذي يضحّي روحه من أجل دينه ومُثُله العليا ، ليصبح شهيداً تسبغ عليه العناية الإلّهية الحياة الدائمة في جنّات عَدْنٍ .

وما أصدق عبداللّه بن المبارك حين قال : « ما جاء فساد هذه الأمة إلاّ من قِبَل الخواص وهم خمسة : العلماء ، والغزاة ، والزهّاد ، والتجار ، والولاة . أما العلماء فهم ورثة الأنبياء ، وأما الزهّاد فهم عماد أهل الأرض ، وأما الغزاة فجند اللّه في الأرض ، وأما التّجار فأمناء اللّه في أرضه ، وأما الولاة فهم الرعاة . فإذا كان العالم للدين واضعاً وللمال رافعاً ، فبمن يقتدي الجاهل ؟! وإذا كان الزاهد في الدنيا راغباً ، فبمن يقتدي التائب ؟! وإذا كان الغازي طامعاً مرائياً ، فكيف نظفر بالعدو ؟! وإذا كان التاجر خائناً ، فكيف تحصل الأمانة ؟! وإذا كان الوالي ذئباً ، فكيف تحصل الرعاية ؟! »

فمن أين يأتينا النصر ، إذا شيّدنا المظهر ، وحطّمنا الـمَخْبَر ؟!!

وكم أتمنى أن يفتح كل عربّي ومسلم عينيه وأذنيه ، على الجرائم التي ارتكبت والتي لا تزال ترتكب ، بأخبث الوسائل وأخفاها وأفتكها ، في غمرة الحديث عن النهضة والتطوّر ، وعن الأدب والفن ، وفي وقت من أشد الأوقات خطراً على مستقبل الحياة في الأمة العربية ، من حيث هي أمة واحدة ،

ثم على مستقبل سائر الأمم الإسلامية ، من حيث هي الصديق الطبيعي للعالم العربيّ ، ومن حيث هي الدرع التي تلقّت ضربات المعاول الأولى بيد الاستعمار الغربي ، ولا تزال تتلقاها ، ومن حيث هي الذّخيرة الباقية صداقتها وعونها لنا اليوم وغداً ، برغم كل ما أدّت إليه دسائس الاستعمار وصنائعه وعملائه في بلادنا وبلادهم .

وليس لعربي ومسلم أن يغفل أمر (التبشير) ويتجاهل آثاره ، لأنه أقوى العوامل التي مكّنت للاستعمار في بلاد العرب والمسلمين ، وجعلتنا في الحال التي نحن عليها الآن من الضعف والتفكّك ، والجهل بالأسباب الصحيحة التي تهيىء لنا مستقبلاً كريماً شريفاً في العالم بين الأمم الأخرى .

إن من تمام الجهل أن يظن المرء أنّ معنى (التبشير) هو اقتصار فئة من الرهبان أو القسوس بالدعوة إلى دينهم ، من حيث هي عقيدة يسمعها المرءُ فيرضاها أو ينكرها ، فهذا أمر باطل أشدّ البطلان ، لا من حيث الواقع فحسب ، بل من حيث شرح (المبشرون) أنفسهم معنى (التبشير) عندهم ، وهم الممارسون له العارفون بأسراره المطلعون على خفاياه ، فهم لذلك أدرى به . وأشدّ بطلاناً أن يتصوّر امرؤٌ أنّ (التبشير) بمعزل عن الغزو الحربي ، والغزو الاقتصادي ، والغزو الفكري ، والغزو السياسي ، وعن محاولة الجنس الأوروبي أن يُخْضِع الأمم لسيطرة تدوم ما دامت له حضارة . وأشدّ بطلاناً منها جميعاً أن يخطر ببال أحد أن (التبشير) قد غاب عن كثير من الدعوات التي قام أصحابها ينادون بضروب من الإصلاح في بلاد العرب والمسلمين وفي غيرها من البلاد ، وأنه لم يضع فيها إصبعه ليحوِّل معنى الإصلاح إلى معنى من معاني التدمير والهَدْم والتحطيم ، ومَنْ صَدَقَ النيّة واطّلع على كتب المبشرين أنفسهم ، عرف أنّ أكثر الحركات السياسية والاجتماعية قد لُوِّثت بمكرهِ الخفِيّ ، وأنه لم يغب عن شيءٍ من الحركات الوطنية أو القومية أو الثقافية او الأدبية أو ما شئت،بل كان من ورائها عاملاً يقظاً شديد الخفاء شديد الأثر ، يَتَـزَيّى بكلٍّ

(٢) أباطيل وأسمار (١/ ٢٠٤ - ٢٠٥)

زيٍّ ، على اختلاف الأمور ، لابساً لكل حالة لَبُوسَها ، ومرسلاً فيها أعوانه الذين قام على أمرهم دهراً طويلاً ، حتى لا ينكشف أمرهم للغافلين عن دسائسه المدروسة المخطّطة الطويلة الأجل .

وكان أخفى طريق عرفه المبشرون ، وأقرته سياسة الدول الأوروبيّة الغازية جميعاً ، هو طريق التعليم ؛ لأنّ حاجة الناس إلى العلم لا تنقطع وبخاصة في زمن اليقْظة بعد الغفوة ، كما أنّ التعليم يضمن تنشئة أجيال قد صُبغوا بأيدي معلميهم بالصبغة التي يريدها الدهاة من أساتذتهم ، وهو أخطر عامل في توجيه أفكار الصغار إلى الجهة التي يريدها المعلِّم ، فينشأ الطفل ويكبر حتى يصير رجلاً ، فلا يُحسّ في نفسه أنه قد طبع طبعاً جديداً ، يرادُ به استبقاء سيطرة الغازي عليه وعلى بلاده ، وتدمير أمته بمسخه هو وأقرانه إلى عبيد يذلّلون الطريق لأقدام السّادة الطغاة من حيث لا يدري أنه عبد مسخّر .

وإليك فقرات دالة عن كلام رجل من رؤوس المبشرين ، تُغني عن الإكثار هو المسيو شاتليه ، يقول في سنة ١٩١١ الميلادية : « إنّ إرساليات التبشير الدينية ، التي لديها أموال وفيرة ، وتدار أعمالها بتدبير وحكمة ، تأتي بالنفع الكثير في البلاد الإسلامية ، من حيث إنها تثبت الأفكار الأوروبية » .

ثم يقول : « ولا شكّ في أنّ إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية ، تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس معتقديها ، ولا يتمّ لها ذلك إلاّ ببث الأفكار التي تتسرّب مع اللغات الأوروبية، التي بنشرها، يتحكك الإسلام بصحف أوروبا ، وتتمهد السبل لتقدم إسلامي (مادي) ، وتقضي إرساليات التبشير لُبَانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية » .

وقال : « إنه مهما اختلفت الآراء في نتائج أعمال المبشرين من حيث خطتهم في (الهدم) ، فإنّ نزع الاعتقادات الإسلامية ملازم للجهود التي تبذل في سبيل التربية النصرانية . والتقسيم السياسي الذي طرأ على الإسلام ، سيمهِّد السبل لأعمال المدنية الغربية الأوروبية ، إذ من المحقّق أنّ الإسلام يضمحل من الوجهة السياسية ، ولن يمضي زمن قصير حتى يكون الإسلام في

حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوروبية »[1] .

وبعثت البعثات إلى الخارج ، فصار المتخرج يحسن لغة البلاد التي تعلّم بها ، ويحسن التعبير بها في العلم الذي درسه ، ثمّ لا يحسن مثله في لغته التي ينتمي إليها ، وكان القس المبشر (زويمر) يوصي المبشرين الذين خرّجهم بقوله : « تبشير المسلمين يجب أن يكون بلسان رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم ، لأنّ الشجرة يجب أن يقطعها أحد أبنائها » ، فبدأت الدعوة إلى العامية من الأجانب ، وبدأ الدس في التاريخ العربي الإسلامي من الأجانب ، ثمّ وجد هؤلاء المبشرون والأجانب من يُقدم على قطع الشجرة من أبنائها مع الأسف الشديد .

وللدلالة القاطعة على ارتباط التبشير الحاسم بالاستعمار ، ما فعله القس المبشر زويمر في مصر ، فقد أصرّ على عقد مؤتمره التبشيري في القاهرة برئاسته في بيت زعيم الثورة العرابية وقائدها أحمد عرابي المسلم العربي عدو الاحتلال البريطاني لمصر . وكان عرابي قد عاد من منفاه وحُرِم ماله وداره ، وأقام ببيت أولاده .

وللدلالة القاطعة على عداوة التبشير الحاسمة للإسلام ، ما ذكره أحد المؤتمرين في هذا المؤتمر وفي دار عرابي ، حول إنشاء جامعة نصرانية تتولى كلّ الكنائس المسيحية الإنفاق عليها ، لتتمكن من مزاحمة الأزهر ، ثم ختم كلامه بهذه العبارة : « ربما كانت العزّة الإلّهيّة قد دعتنا إلى اختيار مصر مركز عمل لنا ، لنسرع بإنشاء هذا المعهد المسيحي لتنصير الممالك الإسلامية »[1] .

وكان وليم جيفورد بلكراف قد قال قبل زويمر: « متى توارى القرآن ، وتوارت مدينة مكة ، من بلاد العرب ، يمكننا حينئذٍ أن نرى العربي يتدرّج في سبيل الحضارة (ويقصد الحضارة المسيحية) التي لم يبعده عنها إلاّ محمد

---

(١) أباطيل وأسمار (١/٢٠٨ - ٢١٢) .

(١) أباطيل وأسمار (١/٢٢٢) ، وعقد هذا المؤتمر في ٤ نيسان (أبريل) سنة ١٩٠٦ الميلادية .

وكتابه » ، ومفهوم أن القرآن لا يتوارى حتى تتوارى لغته[1].

وإذا كان الاستعمار العسكري والسياسي والاقتصادي قد رحل ، فلم يبق أمام الاستعمار والصهيونية وأذنابهما من المبشرين والماسونيين وأدعياء العلم والثقافة غير ميدان واحد ، هو بلبلة العقل العربي وتشكيكه في نفسه ، وإلاّ تحطيم الرابطة الأولى والأخيرة في حياة العرب ، وهي العربية الفصحى ، بتمزيقها إلى لغات ، وإلى تدمير الجسر الذي عاش أربعة عشر قرناً يجمع قلوب الأمم العربية والإسلامية ، على كلمة واحدة ، وعاطفة واحدة ، ورأي عام واحد . ومنذ ثلاثة قرون خلت ، بدأت أكبر معركة تدور في العالم العربي والإسلامي ، اشتدت وطأتها في القرن الأخير ، هي معركة البناء أو الهدم ، معركة الحياة أو الموت ، معركة الحرية أو الاستعباد ، معركة وحدة العرب والمسلمين بلغة عربية واحدة هي الفصحى ، أو تفرّق العرب والمسلمين أشتاتاً بلغات متنابذة هي العاميّة[2] ، حيث يصبح هذا القرآن مهجوراً ، ويدبّ إليه التحريف لا سمح اللّه ، وهيهات !

إنّ اتخاذ موقف حازم صلب لإيقاف المبشرين عند حدهم ، موقف إسلامي مشرِّف لمن يلتزم بالإسلام ديناً ، وكذلك اتخاذ موقف تجاه أولئك الذين يتسترون بشعارات فضفاضة من أجل تحقيق أهداف المبشرين ، فكلاهما مبشرون حاقدون يعملون للاستعمار بشتى أشكاله وأنواعه سراً وعلانية . أما الذين لا يعتمدون الإسلام ولا يلتزمون به ويدعون أنهم وطنيون أو قوميون ، فلا بدّ من أن يتخذوا نفس الموقف الإسلامي ، لأنّ المبشرين يُنَصِّرون قسماً من المسلمين في إفريقية وأندونيسيا ، فيحرمون العرب من حلفائهم الطبيعيين ، كما أنّ المسلم وحده في جميع أرجاء العالم هو الذي يدافع عن القضايا العربية دفاعاً مستميتاً ، أما الذي يَتَنَصَّر فلا يكترث بالعرب ولا بقضاياهم ، ولا يعيرها أي اهتمام .

---

(١) أباطيل وأسمار (١/ ٢١٤)

(٢) أباطيل وأسمار (١/ ١٧٢ - ١٧٣)

كما ينبغي مقاومة التيارات التي تحرِّف التاريخ العربي الإسلامي باسم إعادة كتابته ، والواقع أنهم يمسخون التاريخ ويدسُّون فيه ويحرِّفون أحداثه ، ويعلِّلون حوادثه لإظهارها بمظهر الحوادث التافهة ، أو يختارون الحوادث التي لا تشرِّف ويبرزونها ويبنون عليها نتائج مزرية .

وهؤلاء لا يعيدون كتابة التاريخ ، بل يترجمون مؤلفات الأجانب وأكثرهم يهود ومبشرون وجواسيس ، فهم يمسخون التاريخ العربي الإسلامي مسخاً .

وعندما كنتُ أكتب هذه الكلمات ، جاءني طالب في الدراسات العليا ، يحبّ أن يستخلص عبرة التاريخ للوحدة العربية الشّاملة . وبدأ الطالب بعبرة التاريخ البابلي والآشوري للوحدة ، فذكرت له أنني لا أرى في ذلك التاريخ أيّ عبرة للوحدة ! وذكرت له أنّ التاريخ العربي الإسلامي وحده فيه العبرة كلّ العبرة للعرب والمسلمين ، وبخاصة أنه جزء من حياتهم الماضية التي لاتزال تؤثر فيهم حتى اليوم ، والمرء يعتبر بتاريخه أولاً وقبل كل شيء .

ولم ينتبه هذا الطالب إلى خطورة انزلاقه إلى التاريخ البابلي والآشوري ، فهو قد تعلّم وتخرّج في كلية أساتذتها أكثرهم مستغربون ، كما أنه يعيش وسط ضجيج ادعاءات كاذبة تصمّ الآذان وتدع الحليم حيراناً .

فهناك أصوات في مصر تمجِّد الفراعنة ، وفي الشام أصوات تمجِّد الفينيقيين ، وفي العراق أصوات تمجِّد الآشوريين والبابليين ، ثم الادعاء بأنّ الأصل في سكان تلك البلاد الفراعنة والفينيقيون والآشوريون والبابليون !

وكل هذه الدعوات المنحرفة المريبة ، ترتفع باسم التراث وإحياء التراث .

والواقع أنّ العرب هم أصل سكان البلاد العربية حتى بالنسبة لغير العربي ، لأنه يعيش في حضارة عربية إسلامية ، والإسلام هو عقيدة أولئك السكان حتى بالنسبة لغير المسلم ، لأنه يعيش في بلاد تدين بالحضارة

الإسلامية .

والاهتمام بالتاريخ القديم للفراعنة والفينيقيين والآشوريين والبابليين شيءٌ ، وجعل هذا التاريخ كل شيء ـ مختلف جداً ـ، فلا بأس من تسجيل تاريخ الأقدمين ، ولكن كل البأس أن نجعله الأول والآخر بالنسبة للعرب ، لأن الأول والآخر بالنسبة للعرب في كل مكان هو التاريخ الإسلامي العربي .

إنّ الدعوة إلى الفرعونية في جزء من بلاد العرب ، والدعوة إلى الفينيقية في جزء آخر ، والدعوة إلى البابلية والآشورية في جزء آخر ، عمل لا وحدوي ، بل عمل يعادي الوحدة ، يحمله الذين يتخذون من (الوحدة) شعاراً لهم ، فلا تعجب إذا كانت دول جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥م عند توقيع ميثاقها سبع دول ، فأصبحت سنة ١٩٧٥م اثنتين وعشرين دولة !!

وقد بلغ تصديق التزييف مبلغاً حمل الطالب العربي المسلم على أن يتخذ منهاج أعداء الوحدة أساساً لبناء الوحدة !

إنّ التضليل المتعمّد غالباً والعفوي أحياناً ، بلغ حداً يهدِّد مستقبل العرب والمسلمين بعامة وقضاياهم المصيرية بخاصة ، إذا لم ينتبهوا انتباهاً لا مزيد عليه ويتّخذوا التدابير الحاسمة لفضح هذا التضليل وكشف دعاته .

ومن التضليل ما يمسّ الدين الإسلامي ، ومنه ما يمسّ فلسطين أهم قضية مصيرية للعرب والمسلمين .

إنّ الادعاء بأن الدين يناقض العلم خطأ فاحش من أخطر الأخطاء الفاحشة بالنسبة إلى الدين الإسلامي ، فإذا صحّ هذا الادعاء بالنسبة لغير الدين الإسلامي بحسب ادعاء معتنقيه في مؤلفاتهم التي مضى على قسم منها ثمانية قرون ، فلا يصحّ بالنسبة للإسلام . والذين ادعوا هذا الادعاء من الأجانب ، لم يقصدوا الإسلام بتعبير (الدين) ، بل قصدوا دينهم بالتخصيص ، فلما حلّ الاستعمار القديم بالبلاد العربية والإسلامية ، ترجم المربيون هذا الادعاء حرفياً ، دون أن يُخصِّصوا ديناً معيناً بل عمّموا على

الأديان !!

ولا يمكن أن يكون ذلك عن حسن نيّة ، لأنهم أقحموا هذا الادعاء على التلاميذ والطلاّب العرب والمسلمين إقحاماً ، ليزعزعوا ثقتهم بدينهم ويشككوهم في جدوى التمسك به ، لأنه يقودهم إلى التخلّف عن ركب العلوم والحضارات العالمية .

والإسلام لا يناقض العلم ، بل يدعو إليه ويحثّ عليه ويأمر به وينهى عن الجهل ، والقرآن الكريم وحديث النبيّ ﷺ وسيرته الطاهرة وسير أصحابه وخلفائه والملوك والحكام والعلماء لا تدع مجالاً للشك في أنّ الإسلام دين العلم دون منازع .

ولكنّ الإسلام يدعو إلى العلم الذي يفيد ويبْني ، لا إلى العلم الذي يضرّ ويهدم ، وهذا من مزايا الإسلام الخالدة التي يعتز بها العرب والمسلمون .

وقد بهرَ الغربُ بتفوقه العلمي المسلمين ، فأراد قسم من علمائهم أن يزجّوا بعض آيات الذكر الحكيم في المجال العلمي ، ليبرهنوا أنّ القرآن الكريم سبق علماء العصر في نطاق العلوم العامة والعلوم التطبيقية . وهذا التشبث يضطرنا إلى شرح مشكلة الإسلام والعلم بشكل جديد ، يناسب سمو الدين ومنطق العلم ، بحيث لا نبحث في الآيات الكريمة : هل ذكر فيها شيءٌ عن غزو الفضاء وتحليل الذرّة مثلاً ؟! وإنما نتساءل : هل في روحها ما يعطِّل حركة العلم ، أم في روحها ما يحثّ عليه ويشجِّعه ؟ ومن هذا المنطلق يجب أن نتساءل : هل يستطيع القرآن أن يخلق في المجتمع الإسلامي المناخ المناسب للروح العلمي ؟ وأن يطلق فيه الأجهزة النفسية الضرورية للتقدم العلمي من ناحية وتبليغه من ناحية أخرى ؟ ولست أعرف كتاباً مقدساً كرّم العلم والعلماء كما كرّمهما القرآن الكريم ، وصدق اللّه العظيم : ﴿ قل : هل يَسْتَوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الألباب ﴾[1] . كما أن المناخ

---

(١) الآية الكريمة من سورة الزمر (٣٩ : ٩)

العلمي الذي هيّأه القرآن الكريم للمسلمين هو الذي جعلهم يقودون الحضارة العالمية قروناً طويلة .

ولا يقتصر التضليل على الناحية العلمية بالنسبة للإسلام ، بل يتعداه إلى الناحية السياسية أيضاً .

فمن التهم التي توجّه للإسلام : التعصّب ، واضطهاد غير المسلمين ، والتفرقة ، ومن الواضح أنّ هذه التّهم وغيرها وُجِّهت إلى دين غير الإسلام ، فترجمت إلى العربية ووضعت فوق رأس الإسلام ، والإسلام منها بريء .

فالإسلام دين التّسامح لا دين التعصّب ، وكان من أهدافه القضاء على العصبية الجاهلية ، ولا فرق بين أمير وفقير وقوي وضعيف ، كلهم يقفون في صف واحد أمام اللّه في الصّلاة ، والتفاضل لا يكون بالمنصب أو المال أو الأصل ، بل يكون بالتقوى ، وصدق اللّه العظيم : ﴿ يا أيها النّاسُ إنّا خَلقْنَاكُمْ من ذَكرٍ وأُنْثَى وجعلناكُمْ شعُوباً وقبائلَ لتعارفوا ، إنَّ أكرمكُمْ عند اللّه أتْقاكُم ، إنّ اللّه عَلِيمٌ خَبِير ﴾[1] .

ولم يضطهد الإسلام غيرَ المسلمين في أيِّ وقت من الأوقات ، بل حماهم وصان أعراضهم وأملاكهم ما بقوا مسالمين ، وأكبر دليل على ذلك وجود جاليات غير إسلاميّة في البلاد الإسلامية ، حافظ عليها المسلمون كما حافظوا على أنفسهم ، فعاشت بينهم قروناً طويلة حتى اليوم .

لقد كانت الأندلس إسلامية لعدّة قرون ، فلما اختلف المسلمون وتفرّقوا ، أخرجهم الإسبان منها وأقاموا محاكم التفتيش لإبادة المسلمين حتى لم يبق مسلم واحد في الأندلس !

وفي الحروب الصليبية ارتكب الصليبيون مجازر فظيعة لإبادة المسلمين ، فلما انتصر المسلمون عليهم عاملوهم بالحسنى والرفق ، وأرسلوا الأطباء والأدوية لهم ، مما أذهل الصليبيين أنفسهم فسجّلوه في تاريخهم وفي

(١) الآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٩ : ١٣)

مؤلفاتهم .

إنّ الدين الذي يضطهد الأديان الأخرى ليس الدين الإسلامي ، ولا تزال يهود تضطهد مذاهب اليهودية ، وتضطهد الأجناس اليهوديةِ شرقيّة وغربيّة ، ولا تزال الحروب الدامية بين الكاثوليك والبروتستانت في ارلندا حتى اليوم .

فإذا كانت الأديان الأخرى غير الإسلام ، في صراعٍ مروِّع بين طوائفها ، فهي لغيرها من الأديان أشدّ عداوة واضطهاداً .

أمّا الإسلام ، فيطلق على أصحاب الأديان السماوية اسم : أهل الكتاب ، واقرأ الآية الكريمة التي تحدِّد علاقة المسلم بأهلِ الكتاب : ﴿ اليومَ أُحِلَّ لكُمُ الطَّيباتُ ، وطعامُ الذين أُوْتُوا الكتابَ حِلٌّ لَكُمْ وطعامُكُمْ حِلٌّ لهمْ ، والمُحْصناتُ من المؤمنات والمحصَناتُ من الذين أُوتوا الكتابَ من قَبْلِكُم إذا آتَيْتُموهُنَّ أُجورهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيرَ مُسَافحِين ولا مُتَّخِذي أخْدانٍ ، ومَنْ يكْفُرْ بالايمانِ فقد حَبِطَ عَمَلُهُ ، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[1] . ومن الآية الكريمة يُفْهم أنّ علاقة المسلم بغير المسلم هي : برٌّ ، وقسط ، وتعاون ، ومصاهرة .

أمّا الادعاء بأنّ الإسلام يفرّق ، فالعكس بالنسبة للإسلام هو الصحيح ، فقد وحّد الإسلام العرب، فحقَّق النبي ﷺ وحدة شبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام لأول مرة في التاريخ ، وحقق خلفاؤه من بعده وحدة ممالك ودول كثيرة تحت لواء الإسلام .

ولم يحقق الوحدة للعرب والمسلمين غير الإسلام .

أما التفرقة التي تثيرها العصبية الطائفية والمذهبية ، فان التفرقة التي تثيرها تلك العصبية في غير الإسلام أشدّ وأطغى ، ولا تزال هذه التفرقة قائمة في عنفوانها حتى أيامنا هذه كما هو معروف .

إنّ الإسلام يرفض العصبية العنصرية كما يرفض العصبية الطائفية ،ولا يقرّ

---

(١) الآية الكريمة من سورة المائدة (٥ : ٥)

غير الوحدة والأخوة .

والذين وصموا الدين بالتفرقة من الأجانب القدامى والجدد ، لم يقصدوا الإسلام بل قصدوا دينهم ، فجاء أولادنا المستغربون المترجمون ، فنقلوا هذه الفرية الظالمة ووصموا بها الإسلام .

وصدق اللّه العظيم : ﴿ إنّما المؤمنونَ إخْوَةٌ فأصْلِحوا بين أخويكُمْ واتّقوا اللّه ، لعلّكم تُرْحمون ﴾[1] ، فالإسلام يصلح ولا يفسد ، ويوحِّد ولا يفرِّق .

فإذا حدث بعض التفرقة الطائفية أو العنصرية في وقت من الأوقات وفي مكان من الأمكنة ، فهو تصرّف يخالف تعاليم الإسلام ومبادئه ، ولا يقع إلاّ على مرتكبيه الذين خالفوا نص القرآن الكريم .

ومع هذا ، فقد تجاوز الزمن العصبية الطائفيّة والحمد للّه ، أما الخلاف العنصري فقد استشرى لانحراف المسلمين عن الإسلام ، ولو عادوا إليه لذابت العصبية العنصرية كما ذابت العصبية الجاهلية بالإسلام .

وقد أجري استفتاء في شمالي العراق بين الإخوة الأكراد ، عن رغبتهم في اتخاذ اللغة الكردية لغة رسمية لهم ، والبقاء ضمن الحكومة العراقية أم الانفصال ، وكان هذا الاستفتاء في أوائل العشرينات من هذا القرن .

وحدّثني الشيخ هبة اللّه المفتي الذي كان مفتياً لقصبة (غقرة) ، فقال : « صوّت الأكراد بالإجماع على اتخاذ العربية الفصحى لا الكردية لغة رسمية لهم ، لأنّ العربية لغة القرآن الكريم ، وصوّتوا على البقاء ضمن الحكومة العراقية كجزءٍ لا يتجزأ منها ، ورُفض الانفصال بأي شكل من أشكاله ، لأنّ أهل العراق مسلمون والأكراد مسلمون » .

وفي سنة ١٩٦٣ الميلادية ، كنت عضواً عن الجانب العربي في لجنة المفاوضة مع الإخوة الأكراد ، فذكرت لهم أنّ العربية الفصحى لغة القرآن الكريم ، ونحن جميعاً مسلمون ، فقالوا : « كانت هذه الحجج تقنعنا في

---

(١) الآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٩ : ١٠) .

الماضي ، أما اليوم فلا تقنع أحداً ، انكم تقولون : القومية العربية ، فلا بد أن نقول : القوميّة الكردية ! » .

أما غير الإسلام من الأديان ، فلا أعرف ديناً كاليهودية بموجب نصوص التوراة التي وصلت إلينا وهي بين أيدينا ، ديناً عنصرياً متطرفاً في غلوٍ شديد ، فالدين اليهودي لبني إسرائيل ، وإله إسرائيل خاص باليهود ، وبنو إسرائيل وحدهم شعب اللّه المختار ، وبقية الناس أمميّون لا يستحقون الحياة .

أما المسيحيون فلا تزال العنصرية تطحنهم طحناً ، وكل شعب غربي يعتبر نفسه فوق الجميع ، والمسيحى الأبيض في إفريقية يضطهد المسيحي الأسود ، وحتى في الولايات المتحدة الأمريكية يُنظر إلى الزنوج نظرة المتعالي ، ويحرمونهم من دخول قسم من الجامعات والمتنزهات والمطاعم التي يسمح للأبيض وحده دخولها .

أمّا في الإسلام ، فقد قال النبيّ ﷺ عن سلمان الفارسي : « سلمان منا أهل البيت » .

وكان عمر بن الخطّاب رضي اللّه عنه يخاطب بلال الحبشيّ : « سيدنا ومولى سيدنا »، باعتبار بلال مولى أبي بكر الصِّديق رضي اللّه عنه .

ومن التضليل الادعاء بأنّ الإسلام هو السبب الأول لتأخر المسلمين .

ولا أجد ادعاء سخيفاً كهذا الادعاء .

لقد كان العرب قبل الإسلام مستعمَرين للفرس والروم والأحباش : سورية ولبنان وفلسطين والأردن ، أو ما كان يطلق عليه أرض الشام مستعمرة للروم .

وجزيرة ابن عمر مستعمرة للروم أيضاً .

والعراق مستعمرة للفرس ، وكذلك عربستان أو ما يطلق عليها اليوم : الأهواز .

واليمن الخضراء مستعمرة للأحباش .

وجاء الإسلام، فحُرِّرت اليمن في عهد النبيّ ﷺ ، وبعد ثلاث سنوات من التحاق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى ، أي سنة أربع عشرة الهجرية ، تمّ تحرير العراق وأرض الشام وجزيرة ابن عمر .

وكانت القوتان الأعظم في أيام النبيّ ﷺ وفي عهد خليفتيه أبي بكر وعمر بن الخطّاب رضي اللّه عنهما هما : فارس والروم .

وثلّ المسلمون عرش كسرى وزعزعوا عرش قيصر في سنوات معدودات ، ولم ترتد للمسلمين راية حتى سنة مئة الهجرية ، حيث توقّف مد الفتح الإسلامي العظيم ، لأنّ المسلمين غيّروا ما بأنفسهم ، فارتدّت راياتهم شرقاً وغرباً .

ومنذ توقّف مد الفتح الإسلامي العظيم حتى اليوم ، لم ينتصر المسلمون في فتوح جديدة أو في صدّ عدوٍ خارجيّ ، إلاّ في حالة واحدة لا ثاني لها أبداً ، هو تيسّر قيادة مؤمنة غاية الإيمان ، انتقل إيمانها بالعدوى إلى المحاربين بخاصة وإلى الشعوب بعامة ، فحقّقت بالإيمان النصر في معاركها الهجوميّة والدفاعيّة على حد سواء .

ولم أجد عبر التاريخ العربي والإسلامي ، قيادة واحدة انتصرت وهي محرومة من الإيمان الراسخ المتين .

وكل شواهد التاريخ تثبت بما لا يقبل الشك ، بأنّ القيادة المحرومة من الإيمان آثرت السلامة ، أو رضخت للأعداء ، أو استسلمت للغزاة ، أو تظاهرت بالنصر وكفى !

القيادة المؤمنة انتزعت للعرب والمسلمين النصر والمجد .

والقيادة المحرومة من الإيمان ، جلبت للعرب والمسلمين الهزيمة والعار .

وقد كان العرب والمسلمون في أيام انتصاراتهم مفخرة العالم وأزهار الدنيا ، فلما توالت هزائمهم أصبحوا غُثاء كغُثاء السيل .

وكان العرب ضعفاء متفرقين قبل الإسلام ، فوحّدهم الإسلام فأصبحوا به أقوياء فاتحين .

فلما تنكّروا لسرِّ وحدتهم وقوتهم ، عادوا ضعفاء متفرقين .

وقد جرّبوا مبادىء أخرى ذات شعارات براقة ، فأصبحوا موحَّدين أقوياء في حساب أجهزة إعلامهم وفي نطاق تصريحاتهم ، أما في حساب الواقع وفي نطاق الأمم ، فلا زالوا ضعفاء متفرقين .

ولعلّهم يتعلّمون الدرس والعبرة من هذه التجارب ، ليسلكوا الطريق السويّ الذي يقودهم إلى القوة والوحدة .

وتعاليم الإسلام السياسية ، تقضي بأن تكون العزّة للّه ولرسوله والمؤمنين : ﴿ ولِلَّهِ العِزَّةُ ولرسولِه وللمؤمنين ، ولكنّ المنافقين لا يعلمون ﴾ [1] . ومقتضيات العزّة معروفة مشهورة ، فلا معاونة للاستعمار ولا تعاون معه ولا استسلام له ولا رضوخ لأنظمته ولا قبول لقوانينه ، ولا سلام إلاّ بعدرحيله، وإلاّ فالحرب قائمة ما دام العدو في الوطن قائماً .

ولا أجد ديناً سماوياً ولا مبادىء أرضية ، تحارب الاستعمار حرباً لا هوادة فيها ، كما يفعل الإسلام .

فإذا وضعت الحرب أوزارها ، فالإسلام دين السّلام .

وقد تطرقنا إلى تعاليم الإسلام في الجهاد بما لا يدع مجالاً للشك في سموِّها ونبل مقاصدها ، ولكنّ التضليل المتعمّد استهدف شلّ الجهاد في الإسلام ، بل استهدف حتى القضاء على تعبير (الجهاد) في المحاضرات والمقررات وفي الكلمة المسموعة والمقروءة ، فأصبح المسلمون وبخاصة العرب منهم يقولون : نضال ، وكفاح . . الخ . ولا يقولون : جهاد ، حتى لا نخدش بها أسماع أعداء العرب والمسلمين وعلى رأسهم الاستعمار والصهيونية .

والتضليل المتعمّد الذي يمارسه أعداء العرب والمسلمين بالنسبة للدين

---

(١) الآية الكريمة من سورة (المنافقون) : (٦٣ : ٨)

الإسلامي لا حدود له مكاناً ولا توقيت له زماناً ، فهو في كلِّ مكان وكلِّ زمان ، بطرق ملتوية خبيثة ، تحقيقاً لشعارهم الذي لا يتفقون إلاّ عليه ، وهو : دمِّروا الإسلام قبل أن يدمِّركم .

ولعّل أخطر ما في هذا التضليل هو التشكيك في (العبادات) وفائدتها .

فهم يُشيعون إنّ العبادات عبارة عن أعمال رتيبة بدائية إذا أقنعت مَنْ عاش في القرون الأولى ؛ فهي لا تقنع المثقفين في القرن العشرين ، فحريّ بكل مثقف أن يرفضها جملة وتفصيلاً ، حتى لا يُتّهم بالجهل والتخلّف !!

وأنّ التديّن سمة بارزة لغير المثقفين من الرعاع ، فحريّ بالمثقف أن يبتعد عنها حتى يُبعد عن نفسه وصمة الجهل ويُثبت لنفسه مزية العلم .

وأنّ الصلاة قيام وقعود لا معنى لهما ، وهي تقيِّد المرء وتضيِّق على حريته وتبدِّد وقته سدى .

والزكاة والصدقة تبذير في المال ، وتشجيع على الكسل . والصوم إجهاد للنفس فيما لا طائل فيه ، وتعطيل لطاقات الإنسان ، وتأثير سيىء في صحته وعافيته . والحج تبذير وإسراف في الأموال ، وتعطيل للعمل ، وقتل للوقت ، وتحطيم للعافية .

ويقال عن العبادات الإسلامية ما لم يقله مالك في الخمر ، وقد بدأ هذا التشكيك مع بداية الاستعمار ، واستغلّ المستعمِر بخاصة خريجي الإعدادية (الثانوية العامة) الذين أوفدهم إلى الجامعات الأجنبية في أوروبا أو إلى الكلية الإنجيلية في بيروت التي أصبحت فيما بعد تسمى : الجامعة الأمريكية ، فبهرتهم المدنية الأوروبية ، واقتبسوا أساليب الحياة الأجنبية ، وتلوّثوا بالمظاهر الحضارية وهم في دور المراهقة من حياتهم ، ولم يتعلّموا من تعاليم دينهم ما يصونهم من الانحراف ، ولم يطّلعوا على صفحات تاريخهم المجيدة ، بل اطّلعوا على ما يعادي تعاليم دينهم ويشوِّهها ، وعلى ما يزيِّف تاريخهم ويشكِّك في حوادثه ، وأحداثه ، وتخرجوا على أساتذة يهود أو مبشرين أو جواسيس أو

ملحدين أو علمانيين ، فعاد أكثرهم وبالاً على دينه وتاريخه وتقاليد أمته وأصالة قومه ، بعقله ما تعلّمه من الأجنبي الحاقد ، وبيديه معاول الهدم .

وكان قسم من خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت يدرّسون في المدرسة الثانوية للبنين في الموصل ، كما كان يطلق عليها في الثلاثينات من هذا القرن ، حين كنت تلميذاً في هذه المدرسة ، فما سمعت منهم بدون استثناء غير التشكيك في الدين والتاريخ والقيم والتقاليد ، وما رأيت منهم بدون استثناء أيضاً غير الانحراف عن الدين والقيم والتقاليد والخروج على تعاليم الدين والمُثل العليا الإسلامية والأصالة العربية .

أذكر أنّ مدرس التاريخ الإسلامي لم يكن مسلماً ، وكان أحد خريجي الجامعة الأمريكيّة في بيروت ، بدأ أول درس من دروس التاريخ بنقد واضعي مناهج التاريخ في المدارس ، لأنهم اهتموا بتدريس تاريخ لا يستحق الاهتمام ، لأنه كان مزوّراً موضوعاً مختلقاً ، وهو في الواقع مآسٍ وتطاحن ومخازٍ وآلام . ثمّ عرَّج هذا المدرس مباشرة على النبيّ ﷺ فاتّهمه اتهامات باطلة، ثم قال : « إنه أعرابي من هؤلاء الأعراب الجهلاء . . » .

ومرّت الأيام ، فإذا به مقبوضاً عليه لتلبّسه بجريمة أخلاقية داخل المدرسة ، ومرت الأيام فإذا به رئيساً لحزب تقدّمي يصول ويجول !

وأذكر أنّ المدرّس الآخر للتاريخ الإسلامي الذي لم يكن مسلماً أيضاً ، أسرف في ذم الإسلام والعرب وانتقاصهم ، وتولى رئاسة لجنة الخطابة في المدرسة ، فوجّه الخطباء من التلاميذ إلى نقد الإسلام والعرب باسم البحث العلمي المحايد الذي يخضع للعقل ولا يخضع للعاطفة ، وفجأة أصبح أستاذاً في جامعة أمريكية بالولايات المتحدة الأمريكية ، ثم أصبح أستاذ كرسي التاريخ في تلك الجامعة يدرس فيه الشريعة الإسلامية والتاريخ الإسلامي .

إلى هنا ، وكل شيء طبيعي ومتوقّع ، ولكن غير الطبيعيّ وغير المتوقّع ، أن تقدّم له الدعوات الرسمية من قمم حكّام بعض البلاد العربية ، ويُستقبل في

البلاد العربية الإسلامية استقبال السلاطين ، ويُحتفى به احتفاء الفاتحين ، لا لشيءٍ إلا ليزيّف تاريخ العرب والمسلمين الحديث ، كما زيّف تاريخ العرب والمسلمين القديم !!

وما هو بمؤرّخ، لأنّ أهم صفات المؤرخ الصدق ، وهو لا يدّعي الصدق لنفسه ، إن هو إلا مخرِّب ، مرتبط بدوائر التبشير الأمريكية ، وجاسوس مرتبط بدوائر المخابرات المركزية الأمريكية ، ولكنه يُطلق على دوائر التبشير إسم : الجامعة ، ويطلق على المخابرات المركزية إسم : وزارة الخارجية الأمريكيّة .

ومن أغرب الصدف أنّ صديقاً يعمل فلاحاً في الريف ، يرتاد المساجد ويغشى مجالس الصالحين ، زارني وأنا أكتب هذه الكلمات ، فذكر لي أنّ ابنه سيتخرّج في نهاية عام ١٣٩٩ الهجرية من كلية الإمام الأعظم أبي حنيفة في بغداد ، وأساتذته يلحّون عليه لإكمال دراسته في فرنسا .

وقلت له : أليست دراسته إسلامية ، فما علاقة جامعات فرنسا بالدراسات الإسلامية ؟

هل يمكن أن تكون الجامعات الفرنسية أفضل من الأزهر والجامعات الإسلامية في الدراسات الإسلامية ؟!

وأعود إلى مدرّسي الثانوية المتخرجين من الجامعة الأمريكيّة ، فقد كان مظهرهم متخنثاً ، كأنهم بنات في حفِّ الذقون والشوارب وتلميع الوجه وترتيب الشعر وضيق الملابس وتنوع ألوانها وأشكالها .

وكانوا يمزجون مع كل كلمة عربية ، كلمة إنكليزية : يلفظون العربية خطأً ، ويلفظون الأنكليزية صواباً .

وكانوا في مادتهم العلمية ضعفاء ، إلى حد الكارثة ، فما استفاد الطلاّب من علمهم شيئاً مذكوراً .

ولكنهم كانوا يتقنون التشكيك في الدين واللغة والتاريخ ، كأنهم جميعاً

يقرأون في صحيفة مكتوبة واحدة !!

ولم ينجحوا مدرِّسين ، ولكنهم نجحوا مشكّكين !

وقد استطاعوا أن يؤثروا في بعض التلاميذ ، فأصبحوا يقلدونهم تقليداً أعمى .

وكان القاسم المشترك بين أولئك المدرسين ، هو هجرهم لتعاليم الإسلام ، فما صلّى أحدهم ولا صام !

وما يقال عن مدرّسي الثانويات من خريجي الجامعة الأمريكية ، يقال عن أساتذة الجامعات من خريجي الجامعات الأجنبية ، مع فارق واحد بين المدرّسين والأساتذة ، هو أنّ الأساتذة أكثر خطراً على الطلاّب من المدرّسين على التلاميذ ، أما في سائر الأمور فهم متشابهون في التشكيك بالدين واللّغة والتاريخ ، وفي الابتعاد عن تعاليم الدين الحنيف .

وهكذا نشأت أجيال من المعلّمين والمدّرسين والأساتذة والتلاميذ والطلاّب لا تجهل الدين واللّغة والتاريخ فحسب ، بل تكره الدين واللّغة والتاريخ .

وأصبح من هذه الأجيال آباء وأمهات ، يلقِّنون الأبناء والبنات كره الدين واللغة والتراث .

أعرف والداً لا ينفك يتذمّر من ولده ، لأنه يصلي ويقضي أوقات فراغه في المسجد لتعلّم قراءة القرآن الكريم ودراسة علوم الدين .

وبلغ التذمّر بأحد الآباء مبلغاً دفعه إلى تقديم تقرير عن ولده إلى السلطات ، يتّهم فيه ولده بأنه ينتسب إلى جماعة إسلامية تعادي الحكم القائم ، فحكم على ولده بالسجن سنتين لأنه يقول : ربّي اللّه ، ولأنه ينصح أباه بإقامة الصلاة وهجر الخمر والميسر والمحرمات .

وكما سجن الآباء أبناءهم على الإسلام في عهد الرسالة تمسكاً بأهداب

الجاهلية ، سجن الآباء أبناءهم على الإسلام أيضاً بعد مرور أربعة عشر قرناً على عهد الرسالة تمسكاً بمقتضيات التقدمية ، وهكذا يعيد التاريخ نفسه بالرغم من مرور القرون الطوال .

وصدق رسول اللّه ﷺ : « إنّ الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطُوبى للغرباء »[1]

ولعلّ من المفيد أن نقف قليلاً عند هذا الحديث الشريف الذي وصف حال الإسلام في أول عهد الناس به وفي آخر عهدهم أو في آخر عهودهم .

وقد جاء في شرح مُسْلم للنووي لهذا الحديث ما مختصره : طُوبى : فُعْلى من الطيب ، قاله الفراء، وفيها لغتان : تقول العرب : طُوباك وطُوبى لك . وأما معنى طوبى ، فاختلف المفسرون في معنى قوله تعالى : ﴿ طوبى لهم وحُسْنُ مآب﴾[2] . فرُويَ عن إبن عباس رضي اللّه عنهما أنّ معناه : فرحٌ وقُرّة عين ، وقال عِكْرِمة : نِعم مالَهُمْ ، وقال الضحّاك : غبطة لهم ، وقال قَتَادَة : حُسْنى لهم ، وعن قَتَادَة أيضاً : أصابوا خيراً . وقال إبراهيم : خير لهم وكرامة ، وقال ابن عجلان : دوام الخير ، وقيل : الجنة ، وقيل : شجرة في الجنّة .

وأما معنى الحديث ، فقاله القاضي عياض رحمه اللّه : في قوله غريباً : رُوِيَ عن مالك رضي اللّه عنه : أنّ معناه : في المدينة ، وأنّ الإسلام بدأ فيها غريباً وسيعود إليها . قال القاضي عياض :«وظاهر الحديث العموم ، وأنّ الإسلام بدأ في آحاد من الناس وقِلّة ، ثم انتشر وظهر ، ثم سيلحقه النقص والإخلال، حتى لا يبقى إلاّ في آحاد الناس وقِلّة أيضاً كما بدأ»[3] .

---

(1) رواه مسلم في كتاب الإيمان عن أبي هريرة ، والترمذي في كتاب الإيمان عن ابن مسعود ، وابن ماجه في كتاب الفتن عن أنس ، والطبراني في الكبير عن سلمان وسهل بن سعد وابن عباس ، حديث صحيح ، وانظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (١/ ١٣٣) ومختار الحسن والصحيح من الحديث الشريف (٤٦) ، ورواه أحمد بن حنبل انظر مفتاح كنوز السنة (٣٧٠)

(2) الآية الكريمة من سورة الرعد (١٣ : ٢٩)

(3) شرح النووي على مسلم ، كتاب الإيمان (١/ ٢١٦ ـ ٢١٧)،وانظر كتاب جامع الأصول من أحاديث =

ومعنى طوبى في اللغة : الطِّيبُ ، والحسنى ، والخير ، والخِيرَة ، وشجرة في الجنّة أو الجنّة[1] .

وهناك شروح كثيرة لهذا الحديث النبويّ الشريف ، وقد أحسن الشُراح غاية الإحسان في شروحهم ، وأحبّ أن أضيف شرحاً جديداً إلى تلك الشروح ، دون أن أكون نداً لأقلّهم علماً وتقوى وورعاً، فأين الثرى من الثُريا ؟ وأين العلماء من العسكريين !

وما دام الإسلام يصلح لكل زمان ومكان ، فلا بدّ أن تظهر تفسيرات جديدة للكتاب العزيز ، وتستجدّ شروح للحديث النبوي الشريف ، تناسب التطوّر الزمني والفكري وتخاطب الناس بما يفهمون .

لقد قاوم المشركون وعلى رأسهم قريش قومُ النبيّ ﷺ ويهودُ الرسالةَ وصاحبَها ، فكانوا يشنِّعون عليهما تشنيعاً قاسياً ، ويضلِّلون الناس ليصرفوهم عنهما . والقرآن الكريم حدّثنا عن التهم التي ألصقوها بصاحب الرسالة ، كما أنّ السيرة النبويّة الشريفة نقلت ما لاقاه المصطفى عليه الصّلاة والسّلام من تعذيب وتكذيب وما لاقاه الإسلام من صدٍّ عن دين اللّه .

وكلّ ذلك أثّر في الدعوة وشوّش عليها ، وعرقل حرية انتشارها ، فبدأ هذا الدين غريباً ، أي أنّ الذين يفهمونه كما ينبغي قليلون إذا لم يكونوا نادرين ، والقليل بالنسبة للكثير غريب ، والنادر بالنسبة للميسر غريب أيضاً .

وعلى هذا ، يكون ، طُوبى للغُرباء ، الذين فهموا الإسلام كما ينبغي ، لهم الخير والحسنى والجنّة ، جزاء فهمهم للدين ، ومن نتائج هذا الفهم : العمل به والتمسك ، والدعوة إليه .

= الرسول ﷺ (١/ ١٨٥ - ١٨٦) وشرح السّنّة للبغوي (١/ ١١٨ - ١١٩) ، والنهاية في غريب الحديث (٣/ ٥١) .

(١) ترتيب القاموس المحيط (٣/ ١٠١) ومعجم متن اللغة (٣/ ٦٤٢) والمعجم الوسيط (٢/ ٥٧٣)

وأخذ الإسلام يقوى ويشتد وبخاصة بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة وانتصار المسلمين في غزوة (بدر) الحاسمة ، فقد أصبح الحق مؤيداً بالقوّة ، وصدق رسول الله ﷺ : « إنّ الإسلام بدأ جَذَعاً [١] ، ثم ثَنِياً [٢] ، ثم رَباعِيّاً [٣] ، ثم سَرَيساً [٤] ، ثمّ بازِلاً [٥] » حديث صحيح رواه أحمد بن حنبل في مسنده [٦] .

وبلغ الإسلام أوج قوته في عهد النبيّ ﷺ ، لا من حيث عدد المسلمين ، بل من حيث نوعية الذين فهموا الإسلام ، فعملوا بتعاليمه عن فهم لا عن تقليد ، ودعوا إليه عن اقتناع لا عن اتباع ، وصدق رسول اللّه ﷺ : «خير الناس قَرْني ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» رواه الترمذي والحاكم ، وهو حديث صحيح [٧] .

لقد كان قرن النبيّ ﷺ خير القرون بالنوعيّة لا بالكميّة، أي أنّ نوعية المسلمين في قرنه أفضل من نوعية المسلمين في القرون الأخرى ، ذلك لأنّ المسلمين في قرنه أكثر فهماً للإسلام وأكثر عملاً بتعاليمه وأكثر دعوة إليه ، والأفضل في كل أمر (النوعيّة) لا (الكميّة) .

واستمرّ مَدّ انتشار الإسلام يرتفع ويرتفع ، فكثرت (الكميّة) ولكن قَلَّت (الكيفية) أو (النوعيّة) .

وفي عهد استعمار بلاد العرب والمسلمين الذي كان في القرن الرابع عشر الهجري وعهد استقلالهم ، أصبحت (كمية) المسلمين أكثر من أي وقت مضى في تاريخهم ، فقد بلغوا في هذه الأيام وهي نهاية القرن الرابع عشر الهجري ألف

---

(١) جذعاً : شاباً فتياً.

(٢) ثنياً : بلغ السادسة من الإبل .

(٣) رباعياً : بلغ السابعة .

(٤)سريساً: بلغ الثامنة .

(٥) بازلاً : بلغ التاسعة ، كملت قوته .

(٦) مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (١/ ١٣٣)

(٧) مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٢/ ١٣) .

مليون نسمة على أصح وأوثق التقديرات ، ولكنّ (نوعيّة) المسلمين بالنسبة إلى (كميتهم) لا تكاد تذكر ، لأنّ الذين يفهمون الإسلام ويعملون به ويدعون إلى اللّه على هدى وبصيرة أصبحوا قليلين نادرين ، لهذا عاد الإسلام غريباً كما بدأ .

إنّ التشويش على الإسلام والتضليل في مَدٍ عارم : من أعدائه المكشوفين وهم الاستعمار والصهيونية والماسونية والعملاء والمبشرون ، ومن أبنائه العائدين من الجامعات الأجنبية والجامعات الأمريكية في البلاد العربية الذين أصبحوا مدرسين وأساتذة في الجامعات والمدارس العربية والإسلاميّة ، والذين تخلوا منهم عن تعاليم الإسلام ، وأخذوا ينفثون سمومهم في طلابهم العرب والمسلمين ، فنجحوا في فتنة قسم من تلاميذهم وطلابهم عن دينهم ، فتخلى أكثر الطلاب والتلاميذ عن تعاليم دينهم .

وبهمّة أعداء الإسلام المكشوفين ، وهمّة المدرسين والأساتذة العرب والمسلمين الذين تخرجوا في جامعات أجنبية وشبه أجنبية على أساتذة من المبشرين ويهود وجواسيس وحاقدين ، وبهمة طلاّب وتلامذة هؤلاء الأساتذة والمدرسين الذين انحرفوا عن الدين ، استشرى الفساد والتخلي عن الدين ومكافحته ، والتشكيك والتضليل والدس في تعاليمه ، فتضاعف عدد المسلمين الذين لم يكتفوا بالتخلي نهائياً عن الدين ، بل نصبوا أنفسهم لمقاومته والتشكيك فيه ، فكان قسم منهم أشدّ عداوة للإسلام والذين آمنوا من أساتذتهم الصليبيين والمبشرين ويهود والحاقدين والاستعماريين ومَن لفّ لَفّهم ، فقالوا في الإسلام ما لم يجرؤ أساتذتهم من قبل على قوله .

ولو أنّ الأمر اقتصر على تخلي قسم من الطلاب والتلاميذ والأساتذة والمدرسين ، عن الدين وعن تعاليمه من جراء التضليل والتشويش والدس والتزييف الذي تقبّلوه قبولاً حسناً ،لأنهم في الأساس يجهلون الدين أو يعرفون عنه شيئاً قليلاً من مظاهره لا من روحه ، لو أنّ الأمر اقتصر على تخلّي هؤلاء بالرغم من خطورته البالغة ، لهان الأمر وعلّلنا أنفسنا بالباقين الذين يتمسّكون

بالإسلام ويرتادون المساجد .

ولكنّ (الجهل) شمل الغالبية العظمى من المتمسكين بالإسلام الذين يرتادون المساجد ، فمن النادر أن تجد من بينهم من يفهم الإسلام كما فهمه السّلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابع التابعين عليهم رضوان اللّه .

هؤلاء يكتفون بأداء العبادات ، ثم يمضون إلى مصالحهم ، فاذا تناقضت مصالحهم مع عباداتهم ، فضّلوا المصالح على العبادات .

وقسم منهم يظنّ أنّ تمام الإسلام بكثرة الأوراد ، حتى ولو صرفته كثرتها عن قراءة القرآن .

وقسم مشغول بالركعتين قبل صلاة الجمعة ، أهي سُنَّة أم بدعة ، وقراءة القرآن في المسجد قبل صلاة الجمعة أهي سنّة أم بدعة ، وإقامة الاحتفالات الدينية بمناسبة المولد النبويّ الشريف أهي سنّة أم بدعة ؟!

وقسم مشغول بترديد الخرافات ، وكأنها هي الدين الحنيف .

وقسم مشغول بتكفير المسلمين على أقل خطأ أو انحراف .

وقسم ينتظر على أحرٍّ من الجمر المهدي المنتظر ، ويُعدِّد قادته ووزراءه ، ويزعم أنّ خروجه بات وشيكاً .

وأكثرهم أصبحت العبادات عنده (عادة) من العادات ، يؤديها كما يؤدي أي واجب يومي من واجباته اليوميّة ، دون أن تؤثر فيه تلك العبادات .

وأكثرهم تعرف أوراده وقيامه وصيامه ، ولا تعرف له جهاداً بالأموال والأنفس في سبيل اللّه ، ولا تعرف له سعيه في قضاء حاجات إخوانه المسلمين ، ولا عمله في سبيل المصلحة العامة للمسلمين .

وكلّ فئة أو جماعة من هؤلاء تعتقد أنها على الحق وأنّ غيرها على الباطل ، والأمر المؤسف والمؤلم أيضاً أن تلك الفئات أو الجماعات تبذل غاية جهدها في تجريح ونقد بعضها تجريحاً غير كريم ونقداً قاسياً .

أما أعداء العرب والمسلمين الحقيقيين ، فتلك الفئات والجماعات في شغل شاغل عنهم بصراعهم الذي استنفد كل حيوياتهم وطاقاتهم .

وما هكذا كان النبيّ ﷺ والقلّة النادرة في بداية الإسلام يفهمون هذا الدين الحنيف .

إن النبيّ ﷺ والقلّة النادرة الذين آمنوا برسالته في بداية الإسلام كانوا غرباء في خضم الحشد الهائل من أعداء الإسلام مشركين ويهود ونصارى .

وعاد الإسلام غريباً في القرن الأخير الذي نعيش في نهايته اليوم ، كما بدأ في أول نزول الوحي ، لأنّ القلّة النادرة من المسلمين يفهمون الإسلام ويعملون به ويدعون إليه ، فهم غرباء في خضم الحشد الهائل من أعداء الإسلام مستعمِرين وصهاينة وماسونيين ومبشرين وصليبيين ، ومن المسلمين الجغرافيين الذين تخلّوا عن الإسلام أو الذين لم يتخلوا عنه بشعورهم الفيّاض وتخلّوا عنه بعقولهم ، فقلوبهم معه وسيوفهم مع غيره !

إنّ (فهم) الإسلام حقّ الفهم ، هو الذي جعل المسلمين الأولين السابقين إلى الإسلام غرباء ، لأنهم كانوا يومذاك قليلين نادرين بالنسبة إلى تعداد أعدائهم الكثيرين .

وهذا (الفهم) للإسلام حقّ الفهم ، هو الذي جعل المسلمين المتأخرين غرباء ، لأنهم أصبحوا اليوم قليلين نادرين بالنسبة إلى تعداد أعداء الإسلام الكثيرين ، وبالنسبة إلى تعداد المسلمين الجغرافيين .

وإلاّ فكيف بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، إذا كانت الغربة تعني عدد المسلمين ، والمسلمون اليوم ألف مليون نسمة !

لقد بدأ الإسلام غريباً لأنه كان في قلّة نادرة ، تفهم الإسلام ، وتعمل به وتدعو إليه ، وعاد غريباً كما بدأ ، لأنه أصبح في قلّة نادرة تفهم الإسلام ، وتعمل به وتدعو إليه .

فطوبى للغرباء الأولين والآخرين ، فلهم الحُسنى في الدنيا ولهم الجنّة في الآخرة .

ومن حقِّك عليَّ ، أن تسأل : كيف تفهم الإسلام ، وكيف تعمل به ، وكيف تدعو إليه ؟

إنّ العلماء لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة من أمور الإسلام ، إلاّ درسوها دراسة مستفيضة ودوّنوها في مؤلفاتهم القيّمة ، ونُشر أكثرها مطبوعاً محقّقاً ولا يزال بعضها مخطوطاً حتى اليوم .

وهذه المؤلفات القيّمة جزء مّما أبقاه الزمن ، لأنّ الذين دوّنوا العلم قبل اختراع المطبعة دوّنوه بالخط اليدويّ ، فبقي جزء منه ، وأتى الزمن على أجزاء !

يكفي أن تعلم أنّ هولاكو على رأس التتار الذين احتلّوا بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية في شهر صفر من سنة ست وخمسين وستمائة الهجرية (١٢٥٨م) ، قذفوا بالكتب في نهر (دجلة) فأصبحت لكثرتها جسراً يستطيع الإنسان العبور عليه ، وصار لون ماء النهر أسود من حِبر الكتب .

وبهذه المناسبة ، فقد قرأت مقالاً لأحد الشعوبيين المدافعين عن هولاكو والتتار ينفي عن هولاكو وقومه وصمة قذف الكتب المخطوطة في نهر (دجلة) ، ويدافع عنهم دفاعاً مستميتاً ، ثم اطلعت على أصل المقال في دراسة كتبها مستشرق يهودي ، وبالطبع لم يذكر كاتب المقال وهو عربي مسلم أنه ترجم مقاله عن الإنكليزية ، ربما أراد أن يذهب بفضل هذا الاكتشاف العلمي! لنفسه . على كل حال ، فهناك دليل ماديّ يثبت جريمة هولاكو ، لم يطّلع عليه المستشرق اليهودي ولا مترجم مقاله إلى العربية ، وهو كتاب في المكتبة القادرية الموجودة في جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني في بغداد ، استطاع أحد المسلمين في أيام احتلال بغداد انتشاله من نهر (دجلة) ، وسجّل عليه في أول صفحة من صفحاته ، أنه انتشله من نهر (دجلة) من بين الكتب التي قذفها هولاكو وقومه فيه ، ويستطيع كل قارىء أن يطلع على هذا الكتاب ، وعلى ما

هو مسجّل فيه، وعلى أثر البلل الـذي لحق بالكتاب فأربك الحبر في بعض صفحاته .

فإذا استطاع هولاكو والتتار تدمير مثل هذه الكمية الهائلة من الكتب في بغـداد وحدهـا ، فكم استطاعـوا أن يدمِّـروا من كتـب في البـلاد العـربية والإسلامية الأخرى !!

ولم يكن هولاكو والتتار هم النكبة الوحيدة التي لحقت بالتراث العربي الإسلامي ، بل لحقـت بهـذا التـراث نكبـات قبـل هولاكو ، ونكبـات بعـد هولاكو ، ولعلّ الجهل الذي تفشى في المسلمين في القرون المظلمة كان من أعظم النكبات ، إذ أُحرقت كتب لا تُعدّ ولا تحصى من جهلة لا يعرفون قيمة الكتب والعلم .

وكمثال على ذلك ، فإن التراث العربي الإسلامي في الناحية العسكرية (مثلاً) ، يملأ مكتبات أوروبا ومتاحفها ، وتزخـر بـه مكتبـات المخطوطـات العربية في شتى أصقاع الدنيا ، وحسبنا أن نذكر كتاب : (فهرست ابن النديم) الذي عدّد فيه : (الكتب المؤلفة في الفروسية وحمل السِّلاح ، وآلات الحـرب والتدبير والعمل بذلك لجميع الأمم) ، لنلمس بوضوح أيّ تراث عسـكريّ أصيل ، كان للعرب والمسلمين منذ أقدم العصور . ومن موازنة ما جاء في : (فهرست ابن النديم) عن الكتب العسكرية التي اطلع عليها هو في عصره ، بالكتب العسكرية العربية الإسلامية المعروفة في الوقت الحاضر ، يتبيّـن لنا أن كثيراً من التراث العربي الإسلامي في العلوم العسكرية لا يزال مفقوداً[1] .

والذي أريد أن أقوله هنا ؛ أنّ الجزء المطبوع من تراثنا العربي الإسلامي في العلوم الدينية ، يكفي وزيادة لاطلاع مَنْ يريد أن يفهـم هذا الـدين حق الفهم .

---

(١) ابن النديم ـ الفهرست ـ (٣١٤ ـ ٣١٥) ـ بيروت ـ ١٩٦٤ ، وانظر التفاصيل في كتابنا: بين العقيدة والقيادة (٣٦ ـ ٤٨)

إنّ هذا التراث الأصيل ، يضمّ علوم القرآن الكريم ومنها عشرات التفاسير المختصرة والمطوّلة ، ويضمّ علوم الحديث ، وقد خدم السلف الصالح هذا العلم بما لا مثيل له في الدنيا ، ويضم الفقه الإسلامي ، فقد أعطى فقهاؤنا الحلول لما حدث ، ولم يكتفوا بذلك بل أعطوا الحلول لما يتوقع أن يحدث ، ويضمّ التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية وسير الصحابة والعلماء والفقهاء والقادة ، وأنا اعتبر السيرة العطرة والتاريخ الإسلامي وسير رجال الإسلام ، التطبيق العلمي لتعاليم الإسلام في رجال ونساء وأحداث تمشي على الأرض .

كما أن باب الاجتهاد لما يستجدّ من أمورٍ مفتوح على مصراعيه ، وللمجتهد أجران إذا أصاب وأجر إذا أخطأ، كما قال المصطفى عليه الصّلاة والسّلام تشجيعاً على الاجتهاد .

بل إنّ جزءاً من هذا الجزء ، يكفي لهذا الفهم .

وليس هناك مطلقاً شخصيّة إسلامية مستنيرة تقول : إنّ باب الاجتهاد مغلق ، ما دامت تتوفّر في المجتهد شروط الاجتهاد .

والاجتهاد قد يكون فردياً ، وقد يكون جماعياً ، كالاجتهادات التي يُصدرها مجمع البحوث الإسلامية ومجمع الفقه الإسلامي (مثلاً) .

فكلّ شيءٍ ميسور والحمد للّه لفهم تعاليم الدين الحنيف ، ولكنّ المهم أن يسعى المسلم لفهمها إما بالاتصال الشخصي بأهل الذكر من العلماء ، وإما بدراسة المؤلفات الدينيّة .

ولست أجهل ما تلاقيه الكتب الدينيّة القديمة من عقوق شنيع ، فقد أحاط أعداء العرب والمسلمين هذه الكتب بدعاية معادية لها، لأنّهم يعلمون علم اليقين مبلغ فوائدها للعقول والقلوب معاً ، فزعموا أنها قليلة الفائدة ، تضيع الوقت سدى ، صعبة الفهم ، مغلقة التعابير ، وأطلقوا عليها : الكتب الصفراء ، استهزاء وسخرية ، ليصدّوا عنها العرب والمسلمين صدوداً

وواقع هذه الكتب مختلف جداً عن تشنيعات أعداء العرب والمسلمين عليها ، فهي كنز من كنوز العلم ، تملأ العقل علماً والفؤاد نوراً ، عظيمة الفائدة ، تستحق أكثر مما ينفق عليها من وقت في قراءتها ، سهلة الفهم ، مفتوحة التعابير ، واسمها عندي : كتب النور .

وأعود إلى جواب : كيف أفهم الإسلام ؟

قبل كل شيء ، يجب أن يتمسّك المسلم تمسكاً حاسماً بالكتاب والسنة ، حتى يصون نفسه من الانحراف والبدع .

فإذا سمع قولاً أو رأى عملاً ، فلا بدّ أن يعرضهما على الكتاب والسّنة ، فإذا وافقاهما صدّق ما سمع وعمل بما رأى ، وإلاّ فلا تصديق ولا عمل بكل ما يخالف الكتاب والسنة .

والذين يحرِّفون ما أنزل اللّه ولا يلتزمون التزاماً قاطعاً بالكتاب والسّنة ، فيبتدعون ولا يتّبعون ، حتى ولو طاروا في الهواء ومشوا على الماء ، هم شياطين من شياطين الإنس ، فحسبنا كتاب اللّه وسنّة نبيِّه المصطفى عليه الصّلاة والسّلام ، فكل بدعة ضلالة ، والضلالة وصاحبها في النار ؛ وقد أكمل اللّه للمسلمين ولغيرهم دينه ، وأتمّ على المسلمين نعمته ، ورضي لهم الإسلام ديناً .

والعبادات في الإسلام ، عبارة عن تدريب عملي للمسلم فرداً ، حتى يصبح بهذا التدريب عنصراً مفيداً في المجتمع الإسلامي .

وقد قيل الكثير في حكمة العبادات ، ولا يزال المجال مفتوحاً لمزيد من القائلين ، ولكنّ خلاصة تلك الحكم وقمتها ، هي التدريب العملي للفرد المسلم ليكون عنصراً مفيداً في المجتمع الإسلامي .

إنّ العبادات بالنسبة للفرد تدريب عملي لغرس تعاليم الإسلام في المسلم ، فيصبح ملتزماً بالمُثل العليا الإسلامية ، وهي الخلق الكريم ، ومكارم الأخلاق ، وحسن المعاملة ، والخلاصة أنه يصبح ملتزماً بخلق القرآن من

جهة ، وبالجهاد بالمال والنفس في سبيل اللّه من جهة أخرى ، وإيثار المصلحة العامة للمسلمين على المصلحة الخاصة بدون تردّد ولا أنانية .

والعبادات بالنسبة للمجتمع الإسلامي ، تغذية هذا المجتمع بعناصر ملتزمة بخلق القرآن الكريم ، وبالجهاد بالمال والنفس ، وبإيثار المصلحة العامة للمسلمين .

وكلّ مجتمع صالح ، يتألّف من أفراد صالحين ، ولا قيمة لفرد صالح لا يؤدي واجبه لتكوين المجتمع الصالح ولخدمة هذا المجتمع الصالح أفراداً وجماعات .

ومن خلق القرآن إيثار المصلحة العامة للمجتمع والأمة والدولة على المصلحة الذاتية للفرد ، لأنّ الجماعة في مصلحتها أفضل من الفرد في مصلحته ، بحيث يصل الفرد في تدريبه بالعبادات الإسلامية إلى مرتبة قول اللّه تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخْوَة ﴾[1] ، وقول رسول الله ﷺ : « لا يؤمنُ أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبّ لنفسه »[2] ، حديث صحيح ، وقوله عليه الصّلاة والسّلام : « مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم ،كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحُمَّى » ، وهو حديث صحيح رواه مسلم وأحمد بن حنبل عن النُّعمان بن بشير رضي اللّه عنه[3] .

فأيّ مجتمع هذا الذي يعتبر فيه كل فرد سائر الأفراد إخوته ، يحب لإخوته ما يحبّ لنفسه !

وأيّ مجتمع هذا الذي بلغ تماسكه وتعاونه : في تبادل المحبّة والتلاطف والتواصل ، بحيث أصبح كالجسد الواحد إذا مرض عضو من أعضائه

---

(١) الآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٩ : ١٠)

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد بن حنبل ، عن أنس بن مالك ، انظر مختصر الجامع الصغير للمناوي (٢/ ٣٦٦) .

(٣) مختصر الجامع الصغير (٢/ ٢٦٢)

تداعى له سائر أعضاء الجسد بمعاناة السَّهر والحمّى !

هذا المجتمع بمثل هذا السمو الروحي والمادي ، لا بدّ أن يكون مجتمعاً سعيداً في الدنيا أيام السّلام ، قوياً لا يغلب أبداً ، سعيداً في الآخرة ، عزيزاً في الدنيا والآخرة ، مثالياً بين المجتمعات ، يقود المجتمعات الأخرى إلى الحق والفضيلة والحضارة والسّلام .

وليس من السَّهل أن يحب المرء لأخيه ما يحبّه لنفسه ، إذ أنّ الإنسان جُبِلَ على حبّ ذاته ، وتفضيل الذات على غيرها ، وتقديم مصلحتها على المصالح الأخرى .

ولكنّ العبادات تجعل المسلم الحق يحب لأخيه ما يحبّ لنفسه ، ولا يقدِّم مصلحته على مصالح غيره ، بل يجعل مصلحته كمصالح الآخرين ، وقد يسمو فينسى نفسه من أجل إخوته ، فيفضِّلهم على نفسه ، ويقدِّم مصالحهم على مصلحته .

ويتساءل المرء حين يقرأ التاريخ الإسلامي : ما عدد الشرطة التي كانت في المدينة المنوّرة على عهد النبيّ ﷺ لتوطيد الأمن والنظام ؟، ما عدد المحاكم التي كانت تقضي بين الناس؟، ما عدد القضاة الذين كانوا يقضون بين الناس؟ ،ما عدد السجون والمعتقلات التي يزج فيها المسجونونوالمعتقلون ؟، كم عدد المعتقلين والمسجونين حين ذاك ؟.

لا شيء من ذلك في المدينة المنوّرة !

لقد حقّق المجتمع الإسلامي بفضل الإسلام أحلام الفلاسفة والحكماء في جمهورية أفلاطون والمدينة الفاضلة ، ولكنّ الإسلام تفوق على ما تخيّله الفلاسفة والحكماء فواقاً بعيداً .

هذا المجتمع الذي يمكن أن نطلق عليه : مجتمع المحبة والإخاء ، كان الفرد المؤمن فيه يدعو ربه بهذا الدعاء القرآني : ﴿ والذين جاءوا من بَعْدِهم يقولون : ربَّنا اغْفِرْ لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمانِ ، ولا تجعلْ في قلوبنا

غِلًّا للذين آمنوا ، ربَّنا إنَّك رؤف رحيم ﴾[1] .

هذا المجتمع الذي يتألّف من أفراد وصفهم اللّه في القرآن الكريم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا مَنْ يَرْتَدَّ منكم عن دِينِهِ فسوفَ يَأْتِي اللّهُ بقومٍ يُحِبُّهم ويُحِبُّونه ، أَذِلَّةٍ على المؤمنين أعِزَّةٍ على الكافرين ، يُجاهدون في سبيل اللّه ولا يخافون لَوْمَة لائم ، ذلك فضل اللّهِ يؤتيه مَنْ يشاءُ ، واللّهُ واسعٌ عليم ﴾[2] .

تلك هي صفات الفرد المسلم الذي يعمل في المجتمع الإسلامي : يحبّه اللّهُ ويحب اللّه ، ذليل على المؤمنين يبذل نفسه ومصلحته لهم ، عزيز على الكافرين حتى يرد عدوانهم ويأخذ حقوق عقيدته وأرضه ، مجاهد لإعلاء كلمة اللّه ، يصدع بالحق ولا يخاف في ذلك لومة لائم .

وهذه الصفات التي يتمتع بها المسلم فضلٌ من اللّه يؤتيه مَنْ يشاء ، إذ لا يمكن أن تكون في غير المسلم الذي لا يؤمن بدين اللّه .

هذا المجتمع الذي يتّصف قائده ويتّصف مَنْ معه بصفات ذكرها اللّه في القرآن الكريم : ﴿ محمدٌ رسولُ اللّه والذين مَعَهُ ؛ أشدّاءُ على الكُفَّارِ رُحماءُ بينهم ، تراهُمْ رُكَّعاً سُجَّدا ، يبتغون فضلاً من اللّهِ ورِضواناً ، سيماهُمْ في وجوههم من أثرِ السُّجود ﴾[3] .

إنّ التدريب الفردي بالعبادات الإسلامية ، واضح المعالم ملموس النتائج بالنسبة للمسلم الذي يؤدي العبادة كاتصال مباشر باللّه الذي يجب أن يعبده كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإن اللّه يراه . فإذا خرج من داره وهو على وضوء ، فهو يحرص على غض نظره وابتعاده عن المحرّمات، فإذا صلى فإنّ صلاته تنهاه عن الفحشاء ، والمنكر : ﴿ إنَّ الصلاةَ تَنْهَى عن الفحشاء

---

(١) الآية الكريمة من سورة الحشر (٥٩ : ١٠)

(٢) الآية الكريمة من سورة المائدة (٥ : ٥٤)

(٣) الآية الكريمة من سورة الفتح (٤٨ : ٢٩)

والمنكر، ولذكرُ الله أكْبَر﴾[1]، وإذا أدى الصلاة كعادة من العادات لا كعبادة من العبادات ، فإنّ الصّلاة لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر ، ومَنْ لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من اللّه إلاّ بُعْداً ، كما قال عليه أفضل الصّلاة والسّلام .

والصيام تدريب على الخلق الكريم وحسن المعاملة ، والنبيّ ﷺ يقول : « مَنْ لم يَدَعْ قول الزور والعمل به ، فليس للّه حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » ، حديث صحيح[2] .

وما يقال عن الصوم يقال عن الحج ، قال تعالى : ﴿ الحجُّ أشْهُرٌ معلوماتٌ ، فمنْ فرضَ فيهنَّ الحجَّ فلا رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جِدالَ في الحجِّ ، وما تَفْعَلوا من خيرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ ، وتَزَوّدوا فإنّ خَيرَ الزَّادِ التَّقْوى ، واتَّقُونِ يا أُولي الألباب ﴾[1] .

أما الزّكاة ، فلا يستطيع أحد من المسلمين وغيرهم أن ينكر نفعها أو يتنكّر لفضلها البالغ في الخلق الكريم وحسن المعاملة ، فإنها تجرِّد المرء من أنانيته الطاغية في حبِّ المال حباً جمّاً ، وتجعله يتنازل عن جزء من ماله للفقراء والمحتاجين والأيتام والضعفاء والآخرين الذين يستحقون الزكاة ويستحقون الصدقة ، وتجعله يؤثر غيره على نفسه بماله ولا يستأثر به وحده لنفسه وأهله ومَنْ يعول ، كما أنّ الزكاة تذيب الفوارق الطبقية وتزيد من الترابط في المجتمع الإسلامي وتصونه من الصِّراع الطبقي الذي حطّم كثيراً من المجتمعات الأخرى .

كلّ هذه العبادات ، وعلى رأسها التوحيد المطلق الصافي النقيّ والعقيدة السليمة النقية من الشرك التي يتدفّق بها الدين الحنيف ، تدريب عمليّ على

(١) الآية الكريمة من سورة العنكبوت (٢٩ : ٤٥)

(٢) رواه البخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد في مسنده ، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٢/٣١٦) .

(٣) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ١٩٧) .

الخُلق الكريم والمعاملة الحسنة للفرد المسلم ، ليصبح هذا الفرد عنصراً مفيداً في المجتمع الإسلامي ، الذي يتعاون أفراده تعاوناً وثيقاً نابعاً من الضمائر الطاهرة لإعلاء شأنه ورفع مكانته وجعله قوياً عزيزاً متماسكاً ، فيؤثرون مصلحة المجتمع بدون تردّد على مصلحتهم الشخصيّة ،إذاكان هناك تناقض بين المصلحتين ، ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه ، لتكون كلمة اللّه هي العليا .

وقد جعلتُ القرآن الكريم وسنّة المصطفى عليه الصّلاة والسّلام هي الحكم الفصل ، لإرشاد المسلم الملتزم بالعبادات ولا يلتزم بالخلق الكريم والسلوك الحسن ، حتى يعرف موقفه الحقيقي من الإسلام وموقف الإسلام منه ، فلا يغترّ بالأماني ويعلّل نفسه بالآمال على غير هُدى ولا بصيرة .

وسأجعلها الحكم الأول والأخير بين المسلم الذي يلتزم بالعبادات ولا يلتزم بالجهاد .

قال تعالى : ﴿ إلاّ تَنْفِروا يُعَذِّبْكُمْ عذاباً أليماً ويَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ولا تَضُرُّوهُ شيئاً ، واللّهُ على كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ ﴾[1]، وقال تعالى :﴿ فَرِحَ المُخَلَّفونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رسولِ اللّهِ وكرِهوا أنْ يُجاهِدوا بأموالِهِمْ وأنفُسِهِمْ في سَبِيلِ اللّهِ ، وقالوا : لا تَنْفِروا في الحَرِّ ، قُلْ : نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لو كانوا يَفْقَهون ﴾[2] .

وعن أبي أمامة الباهلي رضي اللهُ عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: « مَنْ لم يَغْزُ ولم يجهِّز غازياً ، أو يخلف غازياً في أهله بخير ، أصابه اللّه بقارعة يوم القيامة » ، وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه ، فيما رواه مُسْلم ، أنّ رسول الله ﷺ قال: «من ماتَ ولم يَغْزُ ولم يُحَدِّثْ نفسه بغزوٍ، ماتَ

---

(١) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ٣٩)

(٢) الآية الكريمة من سورية التوبة (٩ : ٨١)

على شعبة من النفاق »[1] .

إنّ القرآن الكريم والسنّة النبويّة المطهّرة ، تنصّان بصراحة ووضوح ، أنّ المسلم الملتزم بالعبادات **وغير الملتــزم** بالخلـق الـكريم والسـيرة الفاضلـة والمعاملة الحسنة والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله ،لا قيمة لعباداته ولا ينجو من العذاب الأليم .

وأقول : إنّ العبادات أعمال ثمراتها الخلق والسلوك والمعاملة والجهاد ، ولا فائدة من بذر لا ثمر له ، وحينذاك لا يكون الذنب على البذر ، بل على الأرض التي لا تنبت !

والعبادات على أهميتها البالغة وجلالة قدرها ، أجرها عند اللّه أقلّ بكثير من أجر الجهاد مثلاً ، لأنّ العبادات هي لمصلحة الفرد ، والجهاد هو للمصلحة العامة للمسلمين ،ولا قيمة للمصلحة الشخصيّة بالنسبة للمصلحة العامة .

عن أبي سعيد الخُدرِيّ رضي اللّه عنه : « قيل لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : يا رسول اللّه ! أيّ الناس أفضل ؟ قال : مؤمن يجاهد في سبيل اللّه بنفسه وماله » .

وعن سهل بن سعد السّاعدي رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال : « رباط يوم في سبيل اللّه خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحهـا العبد في الجهاد في سبيل اللّه والغدوة خير من الدنيا وما عليها » .

وقال عليه الصّلاة والسّلام : « الجنّة تحت ظلال السيوف » .

ورُوي أنّ رسول الله ﷺ بعث جيشاً فيهم عبدالله بن رَواحة، فتأخّر ليشهد الصّلاة مع النبيّ ﷺ، فقال له النبيّ ﷺ. «والذي نفسي بيده، لو أنْفقتَ ما في الأرض ما أدركتَ فضل غزوتهم».

وقال عليه أفضل الصّلاة والسّـلام : « لأَنْ أُشيِّع غازياً غدوة غزوة أو

---

(1) انظر التفاصيل في الأحاديث النبوية في الجهاد (٥٣ ـ ٥٨) من كتابنا : ومضات من نور المصطفى ﷺ .

روحة أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها » .

وقال عليه أفضل الصّلاة وأزكى السّلام : « لغدوة أو روحة في سبيل اللّه ، خير مما طلعت عليه الشمس » .

وقال ﷺ : «مَنْ رابط لله حارساً من وراء المسلمين، كان له مثل أجْر مَنْ خَلْفَه ممن صاه وصلّى» .

وعن عثمان بن عفّان رضي الله عنه ؛ أنّ النبيّ ﷺ قال : «مَنْ رابط ليلة في سبيل اللّه سبحانه وتعالى ، كانت كألف ليلة صامها وقامها » .

وعن أبي موسى الحارثي، أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ اغبرّت قدماه في سبيل اللّه ، حرّمه اللّه على النار » .

وقال عليه أفضل الصّلاة والسّلام : « كل الميت يُختم على عمله ؛ إلاّ المرابط فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة »[1] .

فلينظر المسلم ، بعد أن يجعل القرآن والسنّة حَكَماً ، هل هو مسلم حق ، أم هو مسلم جغرافيّ ، ثم لينظر بعد ذلك كيف يفعل !

إنّ المسلم الذي يكتفي بالعبادات ، ثم لا يلتزم بالخلق الكريم والمعاملة الحسنة في بيته وبين أقربائه وأصحابه ومع الناس ، ولا يعين أخاه المسلم ويعاونه مادياً ومعنوياً ، ولا ينظر إلى المسلمين كافة كأنهم إخوة له في اللّه ، ولا يجاهد بماله ونفسه في سبيل اللّه ، عليه أن يعيد النظر في إسلامه ، ويجعل القرآن الكريم وسنّة النبيّ ﷺ حكَماً عدلاً بين الإسلام وبينه، ليعرف بالضبط أين مكانه بالضبط من الإسلام .

وطالما قلت لمن أعرف ، وكتبت في كتبي وبحوثي ومقالاتي ، أنّ الاختبار العملي لأي مسلم ، هو أن تجرِّبَهُ بالمال والنفس : هل ينفق من ماله في سبيل اللّه ، وهل يعرِّض نفسه للخطر في سبيل اللّه ، فإن فعل فهو مسلم حق ، وإلاّ

---

(١) انظر التفاصيل في كتابنا : ومضات من نور المصطفى ﷺ (٥٣ ـ ٥٨) ، فصل : من الأحاديث النبوّية في الجهاد .

فهو مسلم جغرافيّ ، وكدت أقول مسلم مزيف .

وقد مرّت على العرب والمسلمين ظروف عصيبة تقتضي التعاون بالمال والنفس لاجتيازها ،فقصدت مَنْ أظنّ بهم خيراً في تدينهم أستعين بهم على بذل ما يستطيعون من مال ، والتكتّل في قوّة تتحرّك في سبيل الحق والخير ، فاستجاب الأقلّون واعتذر الأكثرون !

وقد رأيت طرازاً من الدعاة ظننت بهم خيراً ، لأنهم ثبتوا أمام الطغيان وتحملوا الجور والحرمان ، فعملوا في قطر غير قطرهم هروباً من الاضطهاد ، ومنحوا مرتبات ضخمة مجزية جزاء ثباتهم وصبرهم ، فلما تبدّلت الأحوال في قطرهم ، وأصبح الناس محتاجين إلى توجيههم الديني لأنهم يثقون بهم ، ضنوا بمرتبهم الضخم المجزي بالنسبة لمرتبهم في قطرهم ، وآثروا البقاء في القطر الآخر على العودة إلى وطنهم !

هذا هو الاختيار الذي لا يُخطىء أبداً : المال ، والنفس .

وأعود إلى السؤال : كيف تفهم الإسلام ؟

أفهم الإسلام بأنه خاتم الأديان ، صالح لكل زمان ومكان ، يقود إلى المجد في الدنيا وإلى الجنة في الآخرة . جهاد دائب لا يهدأ ما دام الإسلام مهدّداً وأرض المسلمين مهدّدة ، وتضحية بالمال والنفس لإعلاء كلمة اللّه ، وخلق رفيع ومعاملة فائقة تبهر العدو وتدهش الصديق ، وأخوة في اللّه يعاون الأخ أخاه بكل ما يقدر عليه ، وسلام دائم ما دامت يد المسلمين هي العليا ، وإلاّ فجهاد دائم حتى يزهق الباطل ويعلو الحق ، وعقيدة لا تُناقض العقل وتأمر بالعلم وتنهى عن الجهل وتكرّم العلماء ، وذكر للّه وقيام وصياح وحجّ وزكاة ، ويقين بأنّ ما عند الناس لا يبقى وما عند اللّه خير وأبقى .

وقبل كل ذلك ،وأهمّ ، عقيدة راسخة بتوحيد اللّه ، بريئة من الشرك الظّاهر والخفيِّ ، وعمل بالكتاب والسنّة والتزام بهما ، والابتعاد عن البدع والخرافات ، وصدق اللّه العظيم : ﴿ اليومَ أكملتُ لكمْ دينَكُم وأتْمَمْتُ

عليكم نِعْمَتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً ﴾[1] ، فلا اجتهاد في مجال النص بل اتباع بدون ابتداع ، وباب الاجتهاد مفتوح في كل زمان ومكان بالنسبة للحائزين على شروط الاجتهاد المعروفة المشهورة فقط ، أما غيرهم فعليهم أن يسألوا أهل الذكر وهم علماء المسلمين ، وهم أحرار في اختيار العلماء العاملين المخلصين .

والعمل بالعلم والإخلاص في العمل ، والإخلاص والحب للّه ولرسوله وصالح المؤمنين ، فهي التجارة الباقية وغيرها فانٍ .

هذا هو الإسلام الذي أفهمه ، والذي يجعل المسلمين أفراداً وجماعات يخافون اللّه ولا يخافون أحداً سواه ، ويحكمهم (الضمير) الذي يخشى اللّه ، ولا يحكمهم أصحاب السلطان بما يخالف أوامر اللّه .

وهذا هو سر فزع الغرب والشرق والصهيونية وأصحاب المبادىء الوافدة والحكام المنحرفين منه وإجماعهم على محاربته واجتماعهم على مقاومته ، حيث لا يجمعون على شيء آخر ولا يجتمعون عليه .

إنهم جميعاً يخشونه ، لأنّ الذين اعتنقوه وعملوا به بإخلاص ، اكتسحوا الدنيا في سنين قلائل معدودات ، فلا عجب أن يتضافر أعداؤه عليه ويتكالبوا على محاولة تخلي المسلمين عنه ، ليصبحوا جثة هامدة تستسلم للأعداء .

والإسلام ليس صعب الفهم ، فهو دين الفطرة ، ولكنّ روحه في النية السليمة والعمل المخلص ، والعطاء المتواصل بدون انتظار للأخذ .

وقد ورد في وصف الصحابة والتابعين والشخصيات المتميزة من المسلمين كالخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز رضي اللّه عنهم جميعاً ، جواباً على سؤال السائل : كيف كانت عبادتهم ؟ إنهم لم يكونوا أكثر صلاة ولا صياماً منكم ، ولكنهم تميّزوا بشيء وَقَر في القلب .

---

(١) الآية الكريمة من سورة المائدة (٥ : ٣)

وهذا الشيء هو الإيمان العميق ، الذي يدفع صاحبه للتضحية بكل شيء في سبيل عقيدته ، والذي باع نفسه للّه ولرسوله ولصالح المؤمنين .

ذلك هو الجواب على : كيف تفهم الإسلام ؟ وما كان بمقدوري أن أعيد تدوين كل ما ذُكر عن الإسلام ، فحسبي أن أدلّ على الطريق ، وعلى السّالك أن يسير عليه ، حتى يبلغ مأمنه بإذن اللّه .

أما كيف أعمل به ، فاللّه أعلم بالسرائر ، ولكنني أحاول أن أفهم المبادىء وأتتبع سيرَ السّلف الصالح ، وأعمل بما أعلم كما عملوا ، ومجمل عملي هو أن أفهم المبادىء وأتخذ القدوة الصالحة والأسوة الحسنة ، وقدوتي هو الرسول المصطفى عليه أفضل الصّلاة والسّلام ، لم أعجز عن دراسة سيرته ، وعجزت عن اقتفاء أثره ، وأين الثرى من الثريا .

أما كيف أدعو إليه ، فكنت ولا أزال أردِّد قول اللّه سبحانه وتعالى : ﴿ أُدْعُ إلى سبيل ربِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحَسَنَةِ ، وجادِلْهُمْ بالتي هي أحْسَنُ ، إنّ ربَّك هو أعْلَمُ بمن ضَلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾[1] .

فإذا بلغ الضال المدى ، وعمل جهراً على الإضرار بالإسلام وسحق المسلمين ، كان جهاده عليّ حق وعلى غيري ، مهما تكن نتائج هذا الجهاد .

وحين أتقدّم بالنصح الخالص لوجه اللّه سبحانه وتعالى للحكّام العرب والمسلمين ، أن يعودوا إلى التمسك بدينهم الحنيف ؛ أعلم أنّ اللّه يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، كما قال عثمان بن عفّان رضي اللّه عنه .

وإذا عاد الحكام والمحكومون العرب والمسلمون إلى الإسلام من جديد ، وتقبلوه بما فيه من تكاليف التضحية والفداء ، حققوا النصر في ميداني الحرب والسّلام ، وتفوقوا على أعدائهم فواقاً ساحقاً ، وكانت عودتهم من صالح البشرية جمعاء لا من صالحهم وحدهم .

وهنا لابدّ من أن أقف قليلاً ، لمناقشة الذين يدّعون بأن الدين لا علاقة له

---

(١) الآية الكريمة من سورة النحل (١٦ : ١٢٥)

بالسلوك الشخصي السياسي وغير السياسي أيضاً . وهؤلاء لا ينفكّون يذكرون أمثلة من الواقع عن متدينين لم يكن سلوكهم السياسي وغير السياسي مرضياً ، وما يذكرونه من أمثلة واقعيّة لا يخلو من الصحّة والصدق .

وردي على ادعاءاتهم أنّ المسلم الحق يجب أن يلتزم بالسلوك والخلق الإسلامي ، والإسلام كما يعرف المسلمون وغير المسلمين ، دين مُثُلٍ عليا وأخلاق كريمة وسلوك متميّز ، وكلّ مسلم لا يلتزم بخلق القرآن الكريم ليس مسلماً حقاً بل مسلماً مزيفاً ، وليس ذنب الانحراف الشّخصي يقع على الإسلام ، بل يقع على المسلم المنحرف .

ولست أجهل المصادر التي اعتمدها الذين يدّعون بأن الدين لا علاقة له بالسلوك الشخصي السياسي بخاصة وغير السياسي بعامة ، فهؤلاء اعتمدوا المصادر الأجنبية التي تتحدّث عن الدين غير الإسلامي ، فنقلوا ادعاءاتهم عن تلك المصادر نقلاً دون تدقيق ولا تمحيص ، وترجموا كلمة (الدين) وطبّقوها على الدين الإسلامي بسوء نية وقصد ، أو بحسن نيّة وجهل ، والحقيقة أنّ الإسلام بريء من زعمهم ، لا يقبل الانحراف ولا يرتضيه .

وأستطيع أن أذكر أمثلة لا تُعَدّ ولا تحصى عن مسلمين جغرافيين ، تظاهروا بمظهر (الوطنية) والحرص على الأرض ، ولكنّ المحتلّ كان لهم بالمرصاد ، يعرف انحرافهم الأخلاقي ، فاستغلّ ذلك الانحراف لمصلحته ، وأشبع انحرافهم الجنسيّ أو المالي مقابل تنفيذ مصلحته ، فانكشف أمر هؤلاء الأدعياء ، أو ظلّ مستوراً ، والنتيجة واحدة هي تمشية مصالح المحتل وتحقيق أهدافه على حساب الإضرار بمصالح وطنهم الذي تشدّقوا به طويلاً وتغنوا بالوطنية وغيرها من الشعارات .

هل يرضى المسلم الحق باحتلال أرضه ؟ ! هل يتعاون أو يعاون المحتل ؟ ! هل يسكت على نهب خيرات بلاده ؟ ! هل يتقبّل المال الحرام ؟ ! هل يرضى بالذلّ والهوان ؟ ! هل يغريه الجنس الحرام ؟ ! هل يقبل الظلم ويرضخ للظالمين ؟ ! هل يؤثر مصلحة المحتل على مصلحة بلاده ؟ !

إنّ المسلم الحق يقاوم الاحتلال ، ولا يعاون المحتل ولا يتعاون معه ، ولا يسكت على نهب خيرات بلاده ، ويرفض المال الحرام ، ولا يرضى الذل والهوان ، ولا يغريه الجنس الحرام ، ويثور على الظلم والظالمين ، ويؤثر مصلحة بلاده على مصلحته الشخصية .

ولا ينقض العهود والمواثيق ، ويجنح للسلم ولا يجنح للاستسلام .

تلك هي جزء من تعاليم الإسلام السياسية ، فأيّ مسلم (وطني) يرفض هذه التعاليم ؟ !

أما المسلم الجغرافيّ الذي يدّعي (الوطنية) ويتخلّى عن تعاليم الإسلام ، فهو مسلم مزيّف بلا مراء ، وإلاّ فكيف يصاحب صهيونية ، أو يغضّ الطرف عن المحتل مكتفياً بالكلام ، أو يُثري على حساب وطنه بأموال المحتل الغاصب !! . . . ولا أزيد .

لقد كانت القوتان الأعظم قبل ظهور الإسلام : الإمبراطورية الفارسية وعلى رأسها كسرى في الشرق ، والإمبراطورية البيزنطية وعلى رأسها قيصر في الغرب .

ولم يكن للعرب في حساب الدول العظمى أي وزن بأي ميزان .

وظهر الإسلام ، فجمع شمل العرب ووحّد كلمتهم ، فأصبحوا خلال سنوات معدودات القوّة الأعظم الأولى في العالم بدون منافس .

واليوم أصبحت القوتان الأعظم في العالم : الاتحاد السوفياتي في الشرق ، والولايات المتحدة الأميركية في الغرب .

ولو أن العرب تمسكوا بالإسلام كما تمسّك به أسلافهم من قبل ، لأصبحوا خلال سنوات معدودات القوّة الأعظم الأولى في العالم .

إنّ من مصلحة حكّام العرب أن يعودوا إلى الإسلام من جديد ، أكثر من مصلحة شعوبهم والشعوب الإسلامية ، لأنهم سيعودون إلى تولي القيادة

للمسلمين كافة ولغيرهم،فالبلادالعربية في الموقع السَّوقي للعالم ، وبيد العرب موارد وخامات ومصادر طبيعية أكثر من غيرهم من الأمم الأخرى .

وبالإمكان استغلال الموقع السّوقي والثروات العربية الهائلة لمصلحتهم ، ولن يتم ذلك بدون عقيدة راسخة ، ولا عقيدة للعرب منشئة بناءة رائدة غير الإسلام ، وقد جربوه فانتصروا ، وجربوا غيره فذلوا وهُزموا .

ولكنّ التضليل لا يقتصر على الناحية الدينية ، بل يشمل القضايا المصيرية ومنها قضية فلسطين .

لقد دأبت أجهزة الإعلام العربية بخاصة على تهوين أمر العدو الصهيوني قبل كل حرب خاضها العرب على هذا العدو .

وأذكر أنّ الجيوش العربية حين دخلت فلسطين سنة ١٩٤٨ م ، توقّع العرب أنّ العدو الصهيوني سينتهي أمره خلال ساعات ، فلم يتحقق ما توقّعه العرب .

وفي سنة ١٩٥٦ م عند الاعتداء الثلاثي : البريطاني ، الفرنسي ، الصهيوني على الشقيقة مصر ، وانسحاب المعتدين عن الأرض التي احتلوها ، أظهرت أجهزة الإعلام العربية أنّ العرب انتصروا بقوتهم الذاتية ، وأنّ الاعتداء الثلاثي اندحر لضعفه !!

وكنت أحد أعضاء الوفد العراقي إلى مفاوضات الوحدة الثلاثية التي جرى توقيع ميثاقها في ١٧ نيسان (أبريل) من سنة ١٩٦٣ م ، فانتهزت فرصة وجود المرحوم عبد الحكيم عامر عضواً في الجانب المصري ، وكلمته عن العدو الصهيوني ، فأذهلني حقاً بأنه زعم أنّ مصر قادرة على اكتساح هذا العدو خلال ساعات قليلة ، فلا أهمية للعدو الصهيوني ولا قيمة ولا وزن ، ويومها قلت لمن حولي : إنّ مثل هذا القائد يقود أمته إلى هزيمة نكراء !

وفي حرب عام ١٩٦٧م هُزم العرب هزيمة نكراء لا مثيل لها في تاريخ الحروب ، ومع ذلك هوّنت أجهزة الإعلام العربية من أمر هذه الهزيمة ،

ووصفتها بأنها (نكسة) لا هزيمة ، وكان أصحاب الشعارات المعروفون يغضبون أشد الغضب حين يوصف اندحار العرب بالهزيمة ، ويردون قائلين بغضب : ليست هزيمة ولكنها نكسة .

وجاء عبور قناة السويس في حرب رمضان سنة ١٩٧٣ م أملاً باسماً ، ولكنّ العبور توقّف فجأة ، وانتهى الأمر بنصر تعبويّ محدود .

والعجيب أنّ (تهوين) أجهزة الإعلام العربية بأمر العدو الصهيوني قبل الحرب ، يتلوه (تضخيم) لهذا العدو بعد الحرب ،لتسويغ هزيمة القوات العربية بالنسبة للرأي العام العربي .

والتهوين من جهة ، والتضخيم من جهة أخرى ، هو (التضليل) الأكبر بالنسبة للقضية الفلسطينية ، ومن هذا التضليل الادعاء القائل : بأن جيش إسرائيل لا يُقهر .

ومنذ عام ١٩٤٨ م ، عام مولد الكيان الصهيوني في الأرض العربية المحتلّة ، كانت صيحة العرب قاطبة والمسلمين صيحة موحّدة تنادي بتحرير الأرض العربية المحتلّة واستعادة حقوق العرب في فلسطين بالحرب ، وكانت هناك دعوات فردية مريبة للسلام ترتفع بين وقت وآخر ثم تخفت كما تخفت نار الهشيم بسرعة ، ولكن دعوة السّلام ارتفعت سنة ١٩٧٧ م علناً وتساهل أصحابها في حقوقهم المشروعة دون أن يتساهل العدو الصهيوني في حقوقهم المغتصبة .

وانقسم العرب قسمين في مجال الحرب والسّلام ، قسم يدعو للحرب ، وقسم يدعو للسلام ، والانقسام من مصلحة العدو الصهيوني ، ما في ذلك أدنى شك .

أما دعاة السّلام فأمرهم مكشوف ، وأما دعاة الحرب ، فترتفع أصوات بعضهم داعية إلى الحرب الشعبية تارة وإلى الحرب الثوريّة تارة أخرى ، وإلى أنواع من الحروب لا يعرفها الناس ولم يسمعوا بها ، مبتكرة حقاً على الورق ،

ثم لا ترى أثراً ملموساً ولا جهداً مبذولاً لتحقيق النظريات الحربية المبتكرة التي اقترحها مناضلون نظريون لم يخوضوا حرباً ولم يقاتلوا أحداً . . . إلاّ على الورق .

وعقدت مؤتمرات قمةعربية ،ومؤتمرات جماعية في نطاق الجامعةالعربية ، ومؤتمرات ثنائية وثلاثية على مستويات شتى خارج نطاق جامعة الدول العربية ، وظهرت مقررات عاطفية طنانة دون أن تجد لها أثراً أو تأثيراً في تحرير الأرض واستعادة الحقوق .

وكان أهم مقررات مؤتمرات القمة العربية على الإطلاق من الناحية العسكرية،هو قرار مؤتمر القمة الأول الذي عقد في القاهرة خلال المدة من ١٣ كانون الثاني (يناير) إلى ١٧ منه من سنة ١٩٦٤ م ، هو قرار إنشاء القيادة العربية الموحّدة ، لحشد الطاقات العربية مادياً ومعنوياً في حرب العدو الصهيوني .

وما كادت تلك القيادة تبدأ عملها وتسير خطوات على طريق الوحدة العسكرية ، حتى جُمِّدت في أوائل سنة ١٩٦٧ م ، وألغيت عملياً سنة ١٩٦٨ م ، وانتهت تماماً سنة ١٩٧٠ !

وحتى اليوم لا يعرف أحد أسرار تجميدها و إلغائها في وقت تحتاجها الأمة العربية ، بل هي بأمسّ الحاجة إليها .

ولقد قطع العدو الإسرائيلي الصهيوني أشواطاً بعيدة في مجال العلوم التطبيقية ذات العلاقة المباشرة بالأسلحة وتطويرها واختراع أسلحة غير تقليدية ، كالأسلحة النووية والأسلحة الكيمياوية والأسلحة الجرثومية .

والحكام العرب كلهم بدون استثناء يعلمون أنّ العدو اصهيوني أنتج السلاح النووي مثلاً ، وإنّ الحلّ الوحيد أمام العرب لحماية أنفسهم يكمن في إنتاج السلاح النووي العربي ، ولكنّ كاتباً عربياً تقدمياً يقول : « وقد يبدو لي غريباً على الدوام سكوت الدول العربية على الأمر،ليس بمعنى العمل على

امتلاك العرب القنبلة الذرية ، فإنني غير مؤمن بجدواها بالنسبة لنا سواء إزاء إسرائيل أو العالم الخارجي ، ولكن أقصد السكوت السياسي والدولي عن حقيقة امتلاك إسرائيل للقنبلة الذرية » ، ثم يقول : « إنني أفضل أن نسلك سبيل ترشيد الرأي العام لا تهييجه . وفي هذه الحالة يكون علينا أن نعلن امتلاك إسرائيل للقنبلة الذريّة ونقنع الرأي العام لدينا بعدم جدوى امتلاك قنبلة مقابلة في هذه الظروف »[1] .

هكذا نرشد الرأي العام العربي بإعلان امتلاك العدو الصهيوني للسِّلاح النووي ، وإقناعه بأنّ امتلاك العرب لهذا السِّلاح في الوقت الراهن ليس في مصلحة العرب !!

وقلت لنفسي بعد قراءة هذا المقال : إني أهنىء العدو الصهيوني على مثل هذا المفكر العربي التقدمي !

والصراع قائم بين المفكرين العرب بخاصة حول الصهيونية التي لها أطماع توسعية استيطانية في البلاد العربية ، وتوسعها المعلن هو (من النيل إلى الفرات) ، وتظاهرها بالسّلام كذب وغش وخداع ، فهناك من مفكري العرب من يفرِّق بين : يهودي وصهيونيّ ، وبين صهيونيّ تقدمي وصهيونيّ رجعي . والواقع هو أن كلّ يهودي صهيوني ، لأنّ الصهيونية منطلقها ديني عنصري ، وليس هناك فرق بين يهودي تقدميّ ويهودي رجعي ، فلم يتخلّف عن جيش (الهاكانا) في حروب العدو الصهيوني كلّها صهيونيّ تقدميّ واحد ، ولم تفرق صواريخ هذا العدو وقنابله العنقودية بين عربي تقدمي وعربي رجعيّ ، بل اكتسحت الجميع في كل حرب خاضها الصهاينة على العرب ، وتصنيف الصهاينة إلى تقدميين ورجعيين نابع من خيال الذين يريدون تفتيت الأفكار العربية وتشتيت جهودها ، فقد يكون في الصهاينة أحزاب عديدة

---

(١) ص (٧) جريدة الأهرام القاهرية - ١٩٧٨/١٠/٢٩ ، وص (١٢) - جريدة الوطن الكويتية - ١٩٧٨/١٠/٢٩ .

تختلف في أيام السّلام كاختلاف الصقور والحمائم من الصهاينة ، ولكنهم يصبحون صفاً واحداً في أيام الحرب .

وقد أبدى بعض كتّاب الصهاينة بعض العطف على العرب ، فهلّل العرب لهؤلاء كأنهم أصبحوا أيتاماً يستجدون العطف من الناس . ودعت سنة ١٩٧٠ م جامعة الدول العربية أحد هؤلاء إلى القاهرة ، وحشدت له جمعاً من السياسيين والمفكرين ليستمعوا إلى خطاب الصهيوني الذي يعطف على العرب ، فإذا بخطابه دفاع عن الكيان الصهيوني في وسط عربي بنفقات عربية !!

وسألت الصهيوني المحاضر : هل من حق الصهيونية أن تستولي على جزء من البلاد العربية ،وتطرد منها أصحابها الشرعيين ،وتؤسس لها دولة وكياناً في الأرض العربية المغتصبة ؟ ! وهل ولدت إسرائيل لتزول أم لتبقى !!

وجمجم الصهيوني المحاضر وتلعثم ، ولمحت عيون الإمعات وأشباه الرجال من العرب تلومني بصمت ، وكأنها تقول لي : كيف تجرؤ على إحراج هذا الصهيوني الذي يعطف على العرب ، فنخسر عطفه فلا يعود يعطف على العرب . . .

وأقول لكل عربي وكل مسلم ، إنّ أمثال هذا الصهيوني الذي يعطف على العرب ، ثم يصرِّح علناً في أرض عربية وجمع عربي : أن إسرائيل وجدت لتبقى ، وأن فلسطين أرض يهود ، هذا الصهيوني يضحك علناً على عقول العرب وعلى ذقونهم أيضاً ، فلا ينبغي أن يبلغ الإسفاف وقلّة العقل والغفلة بالعرب هذا المبلغ الشنيع من التردي والإسفاف.

إنّ جيش العدو الصهيوني لا يُقهر ، ادعاء عريض روجه العرب مع الأسف الشديد ، ولا يقنع به عاقل عربي أو غير عربي ، بل لا يستطيع أن يدعيه حتى الصهاينة من باب الدعاوة أو الفخر !

وقد احتلّ الصهاينة مدينة (جنِينْ) الباسلة في حرب سنة ١٩٤٨ م ،

وكانت قواتهم المحتلة عشرة آلاف مقاتل حسب المعلومات التي ذكرها الصهاينة في مؤلفاتهم الرسمية وغير الرسمية ، وكان تعداد نفوس مدينة (جنين) مئتي ألف نسمة مع مئتي ألف نسمة أخرى من اللاجئين .

وهاجم هذه القوةَ الصهيونيةَ فوجٌ عراقي تعداده (٨١٢) جندياً وضابط صف وضابطاً ، في هجوم ليلي غير مدبّر ، وليس بين منتسبي الفوج العراقي مَنْ يعرف أي شي عن (جنين) وعن طرقها التقريبيّة وعن موقعها وطبيعة أرضها وسكانها !!

ومع كل ذلك ، استطاع الفوج العراقي سحق القوات الإسرائيلية ، وحرّر مدينة (جنين) واستولى على منطقة واسعة شمالي تلك المدينة ، وغنم أسلحة من الصهاينة مقدارها عشرة أضعاف أسلحة الفوج العراقي ، ولا تزال بعض تلك الأسلحة في متحف السلاح التابع لوزارة الدفاع العراقية ببغداد .

والذين يحبّون أن يعرفوا حقيقة ما يتحلّي به الصهاينة من شجاعة أو جبن ، عليهم أن يزوروا متحف السلاح العراقي ، ليطّلعوا على مقدار السّلاح الصهيوني وأنواعه الذي غنمه الجيش العراقي من الصهاينة الذين ولّوا هاربين بالرغم من تفوقهم الساحق عَدَداً وعُدَداً على الفوج العراقي .

ولا أدري ما حلّ بالعرب والمسلمين في هذه السنين العجاف ! إنهم يصدقون أجهزة الإعلام ولا يعودون إلى القرآن الكريم ، ليطّلعوا على وصفه يهود بالجبن والخور والانحلال والتفسخ !

قال تعالى : ﴿وضُرِبتْ عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصواْ وكانوا يعتدون ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عليهم الذِلّةُ أيْنَما ثُقِفُوا إلاّ بحبل من الله وحَبْلٍ من النّاس ، وباءوا بغضب من اللّه ،وضُربَتْ عليهم المسْكَنَةُ ﴾[2] .

---

(١) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢ : ٦١) .

(٢) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣ : ١١٢) .

وقال تعالى : ﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جميعاً إلاّ في قُرىً مُحَصَّنَةٍ أو مِنْ وراءِ جُدُرٍ ، بأْسُهُمْ بينهم شديدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جميعاً وقلُوبُهمْ شَتَّى ، ذلك بأنَّهم قَوْمٌ لا يَعْقِلون ﴾[1] .

تلك أمثلة قليلة مما جاء في الذكر الحكيم عن يهود ، أهؤلاء يوصف جيشهم بأنه لا يُقْهر !!!

إنه جيش لا يمكن أن يقاتل إلاّ مستفيداً من تفوقه في التسليح كمية ونوعيّة ، ومستفيداً أكثر من تفوقه بالسّلاح من اختلاف العرب وتفرقهم وحرمانهم من إرادة القتال .

إنّ العدو الصهيوني يصنع أكثر اسلحته ، ويستورد من الدول الغربية والشرقية أيضاً ما ينقصه من سلاح ، وقطع أشواطاً بعيدة في العلوم التطبيقية ، وأنتج السلاح النووي ، وهو يستقطب الكفايات العالية من الصهاينة ويوليهم المراكز القيادية في الجيش .

تلك هي أسباب انتصار العدو الصهيوني على العرب .

كما أنّ العرب اتخذوا خطة الدفاع في حروبهم على العدو الصهيوني عدا حرب رمضان من سنة ١٩٧٣ م ، حيث اتخذوا خطة التعرّض المحدود .

أما العدو الصهيوني ، فقد اتخذ خطة التعرض في حروبه للعرب ، والمدافع لا ينتصر أبداً ، والمهاجم ينتصر أبداً .

فإذا أراد العرب الانتصار على العدو الصهيوني وتحرير الأرض العربية المحتلّة واسترجاع حقوق العرب المغتصبة ، فعليهم صنع أسلحتهم بأيديهم ، واستيراد الأسلحة المتطورة بأموالهم الضخمة ، وإنتاج السلاح النووي ، واللِّحاق بالتقدم العلمي وبخاصة في مجال العلوم التطبيقية ، وتولية القادة اللاّمعين ، واتخاذ خطة التعرّض ، والعودة إلى العقيدة الإسلامية التي قادت إلى النصر .

---

(١) الآية الكريمة من سورة الحشر (٥٩ : ١٤) .

وحينذاك سيجد العالم أين يصبح العدو الصهيوني !

أما إذا بقينا لا نُصنِّع سلاحنا ، ولا نستورد الأسلحة المتطوِّرة ، ولا ننتج السّلاح النووي ، ونبقى في عصر العلم بعيدين عن العلم ، بما فيه العلم التطبيقي ، ونولي القيادة من لا يستحقها ، ونصر على خطة الدفاع ، ونهجر العقيدة الإسلامية ونفتش على عقائد مستوردة ، فسنبقى أذلاء : أرضنا محتلّة ، وحقوقنا مغتصبة ، نقاتل بالكلمة المكتوبة والمسموعة والمرئية ، ونناقش قضية فلسطين بين الطّاس والكأس .

والعرب في الوقت الحاضر متفرقون ، وهم أقرب إلى الخصام منهم إلى الوئام ، ولو كانوا متّحدين لما أصبح للعدو الصهيوني كيان في الأرض العربية المحتلّة فلسطين .

وقد روى الوزير البريطاني أنتوني ناتنك أنّ زعماء وزارة الخارجية الإسرائيلية قالوا له : « إنّ حكومتنا ستلجأ إلى كل وسيلة ممكنة من أجل إبقاء جيراننا العرب متفرقين »[١] .

وقال المؤرخ البريطاني توينبي : « إنّ القضية الفلسطينية لن تحُلَّ حلاً نهائياً إلاّ إذا اتحّد العرب »[٢] .

إنّ الوحدة تضع مئة وخمسين مليوناً من العرب (فعلاً) بمواجهة ثلاثة ملايين من العدو الصهيوني ، وتحشد طاقات العرب المادية والمعنوية (عملياً) بمواجهة الطاقات المادية والمعنوية الصهيونية ، فيكون التفوق مع العرب على العدو الصهيوني .

ولو أنّ الوحدة تحقّقت ، لوجد العدو الصهيوني طريقاً آخر غير الحرب للتعايش مع العرب ، ولاستسلم للعرب بدون قيد ولا شرط وبدون قتال .

ولكن لنفرض أنّ الوحدة لا تتحقّق، فهل يسكت العرب عن العدو

(١) أنتوني ناتنك - شاهدت بعيني - (٩٣) .

(٢) هكذا ضاعت وهكذا تعود (٢٥٦) .

الصهيوني ، دون اتخاذ أي نشاط في مجال تحرير الأرض العربية المغتصبة ؟.

إنّ العدو الصهيونيّ والاستعمار الجديد والأيادي الخفية تبذل قصارى جهودها لإحباط محاولات العرب لإقامة الوحدة ، فهل يبقى كيان العدو الصهيوني في الأرض المقدّسة إلى الأبد !!

إنّنفوس أية دولة عربية محيطة بالكيان الصهيوني ، هي أضعاف نفوس العدو الصهيونيّ ، فلا عذر لدولة عربية أن تبقى متفرجة أو تقاتل بالكلمات الهوائية .

وإذا عزّ على العرب أن يقيموا وحدة سياسية ووحدة اقتصادية ووحدة عسكرية ، فلا أقلّ من أن يقيموا وحدة عسكرية : تحميهم من الاعتداء الخارجي ، وتحرّر أرضهم المغتصبة في فلسطين .

والسبيل إلى هذه الوحدة ، يكون في إحياء القيادة العربية الموحّدة ، على أن تكون بإمرتها قيادتان : القيادة الشرقية ، والقيادة الغربية .

القيادة الشرقية ، تضم جيوش : العراق ، وسورية ، ولبنان ، والأردن ، والسعودية ، واليمن الشمالية ، واليمن الجنوبية ، وإمارات الخليج العربي .

والقيادة الغربية ، تضم جيوش : مصر ، والسودان ، وليبيا ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب ، والصومال .

ومن المهم أن نستفيد من الأخطاء التي حدثت في القيادة العربية الموحّدة ، والقيادة الشرقية ، والقيادة الغربية ، ولعلّ أهم تلك الأخطاء ، أنّ القادة كانوا (يرجون) ولا (يأمرون) ، أي أنّ القائد العام يرجو الدول أن تفعل كذا وكذا ، وقد تستجيب رجاءه وقد لا تستجيب ، والمفروض أن يكون القادة (يأمرون) ولا (يرجون) .

وإذا كان من أسباب تعثر الوحدة العربية ، حماية الكراسي ، واعتزاز كل ملك أو أمير أو رئيس بمنصبه وكرسيه ، فلا أقلّ من أن نضع الوحدة العسكرية

في حيز التطبيق العملي ، لحماية تلك الكراسي والمناصب من تهديد العدو الصهيوني لها بالتوسّع والاستيطان .

أنّ الدول العربية التي أصبحت بعد اكتشاف النفط فيها ، أكبر مستودع عالمي للنفط وأكبر مصدر له ، أمست كالدار الغنية بالجواهر والذهب والفضة والتحف الغالية ، مطمعاً للصوص والدجالين والمخربين ، فلا بد من وضع خطة مفصلة دقيقة في أسلوب الدفاع عنها وحمايتها ، ولا يتم ذلك إلا بالجيوش العربية المتعاونة المتكاتفة المتحدة .

فإذا لم يحرص حكّام العرب على تحرير الأرض المغتصبة من العدو الإسرائيلي العنصري ، فلا أقلّ من أن يحرصوا على كراسيهم وبلادهم وثرواتهم ومواردهم التي يتهالك عليها الشرق والغرب .

وما دامت العنصرية الصهيونية قد أنتجت السّلاح النووي ، فلا بد للعرب من إنتاجه حماية لأنفسهم وثرواتهم على الأقل ، وإنتاج هذا السّلاح ميسور جداً ، لأنه لم يبق سراً من الأسرار ، ولا يحتاج إلاّ إلى المال ، وهو متيسر في البلاد العربية وفائض عن حاجتها والحمد للّه .

وأستطيع أن أُبشِّر الدولة العربية التي تعيد للعرب أرضهم السليبة ، وتنتج السلاح النووي ، وتدخل القدس كما دخلها صلاح الدين الأيوبي ، بأنها ستصبح دولة الوحدة دون منازع ، وأن تطير العروش والرئاسات والإمارات ، لتندمج في الدولة المنتصرة المحرِّرة ، كما انهارت العروش في أيام صلاح الدين ، وأصبح صلاح الدين القائد والملك ، لأنه الفاتح والمحرِّر .

وكثيراً ما يلوِّح العدو الصهيوني بالسَّلام تظاهراً ، ليكسب الرأي العام العالمي إلى جانبه ، وفي الوقت الذي يتظاهر فيه بالسّلام ، يسرع سرعة جنونية في تصنيع الأسلحة محلياً ، واستيراد الأسلحة المتطورة من الخارج ، والعمل في مجال العلوم التطبيقية لإنتاج الأسلحة النووية والكيمياوية والجرثومية !

إنّ العدو الصهيوني يريد سلاماً يقوم على الأمر الواقع الذي فرضَه بالقوّة

المسلّحة : « وفق شروط يفرضها هو [1] » ، أي أنه : « لا يقدِّم أية تنازلات مهما تكن [2] » .

ومهما تظاهر هذا العدو الصهيوني بالسّلام ، فإنه لا يريد إلاّ الحرب ولا يؤمن إلاّ بالحرب ، إذ لا يمكنه أن يحقّق أهدافه التوسعية الاستيطانية إلاّ بالحرب .

كما أن المجتمع الصهيوني المؤلف من تناقضات عنصرية ولغوية وحضارية ، لا يمكن أن يتماسك في الظاهر على الأقل أمام الأمم إلاّ من خلال تهديده بالحرب والخوف من الحرب ، فهذا التهديد والخوف وحدهما يجعله متماسكاً ، لذلك فزعماء العدو الصهيوني يخشون السّلام ، لأنه يفجِّر كل تناقضاته .

كما أن الكيان الصهيوني يعيش إلى درجة كبيرة على الإعانات الخارجية ، بحجّة تغطية تكاليف إنتاج السِّلاح واستيراده والاستعداد للحرب دفاعاً عن هذا الكيان ومصير الصهاينة فيه . فإذا حلّ السّلام ، فمن يقدِّم للعدو الصهيوني الإعانات ويجمع له التبرعات ويجند الصهيونية العالمية بخاصة ويهود العالم بعامة مادياً ومعنوياً لخدمته ؟

كما أنّ العنصر الديني في الصهيونية هو أهم مقوِّماتها ، وأهم أركان العنصر الديني هي نبوءة التوراة : من النيل إلى الفرات .

فإذا تخلى العدو الصهيوني عن العنصر الديني في مقوماته ، لا يبقى له ما يستطيع جمع يهود العالم حوله وحشدهم لخدمة مصالحه ، كما يتزعزع المجتمع الصهيوني ويهدِّده التفسّخ والانحلال .

والذي يدرس السّلام الصهيوني دراسة دقيقة ، يجد أنه سلام يعتمد

---

(١) BURNS (General) - Between Arab and Israeli - London. 1965-P.(311).

(٢) هراري إيتار ـ جعل الذئب نباتيا ـ مجلة النظرة الجديدة ـ المجلد (٦) ـ العدد (٣) ـ شباط (فبراير) ـ ١٩٦٢ م .

الخديعة والغش ، فزعماء العدو الصهيوني يعرضون للعرب السّلام لقاء تنازلهم عن الأرض العربية المحتلة في سنة ١٩٦٧ م مثلاً ، فإذا انخدع العرب بهم ، وضعوا شرطاً جديداً هَو البقاء في القدس والجولان ، فإذا استجاب العرب لهم أضافوا شرطاً جديداً ، حتى لا تبقى أرض عربية ينسحبون منها ، ولا ينسحبون ولا يتنازلون . إنّ سلامهم تعجيز لاكتساب الوقت ، ثم يشنون حرباً جديدة .

وتظاهرهم بالسَّلام لكسب الوقت ، حتى يرضخ العرب للأمر الواقع ، وحينذاك يقتطعون جزءاً جديداً من الأرض العربية .

وما داموا لا يؤمنون بالسّلام ، ولا يفهمون غير لغة الحرب ، فلا بدّ من أن يستعدّ العرب لحرب جديدة لا مفرّ منها .

وهذه الحرب تكون حرباً نظامية ، لأنّ ساحة القتال مكشوفة غالباً ، خالية من الجبال المنيعة والغابات الكثيفة والمستنقعات المترامية ، وهذه هي الموانع الطبيعية التي تناسب حرب العصابات ، فالحرب في فيتنام مثلاً تختلف في شكلها وأساليبها عن الحرب في البلاد العربية ، والذين يريدون أن يطبِّقوا الحرب الفيتنامية على الحرب العربية ، إما أن يكونوا مدنيين من أدعياء العلم بكل شيء وهم لا يعلمون شيئاً ، أو عسكريين لا خبرة لهم ولا تجربة لهم عملية في الحرب ، أو أغبياء أنفقوا وقتهم - الذي كان ينبغي أن ينفق في إتقان العلوم العسكرية وفنّ الحرب - أنفقوه بأمور لا تعنيهم ولا صلة لها بالعسكرية من قريب أو بعيد .

إنّ ثقتي بالأمة العربية لا حدود لها ، فإذا اقتنع الفرد العربي البسيط، بأنّ الحاكم العربي أو الحكام العرب ، قد حزموا أمرهم على حرب العدو الصهيوني ، فإنه سيبذل نفسه وما يملك في تلك الحرب من أجل إحراز النصر.

وسرّ تخاذل الأفراد والجماعات العربية ، هو أنهم سمعوا كثيراً جداً عن حرب العدو الصهيوني ، ولكنهم لم يجدوا حرباً حقيقية!

سمعوا كثيراً جداً، ولم يروا عملاً قليلاً ولا كثيراً، فلا عجب أن يفقدوا ثقتهم بالحكّام، فيبدو ذلك تخاذلاً منهم، وما هو بالتخاذل، ولكنه الثقة الضائعة التي لا نصر بدون تبادلها بين الحكّام والمحكومين.

فاذا حشد العرب طاقاتهم البشرية للحرب، ونفوسهم اليوم خمسون ومئة مليون نسمة، فإنهم قادرون على حشد خمسة عشر مليوناً من المقاتلين في ميدان القتال، بمعدل عشرة بالمئة من طاقتهم البشرية.

وإذا حشدوا نصف طاقاتهم البشرية للحرب، أصبح لديهم سبعة ملايين ونصف المليون من المقاتلين بنسبة خمسة بالمئة من طاقاتهم البشرية.

وإذا حشدوا واحداً بالمئة من تعداد نفوسهم، أي عشر طاقاتهم البشرية، لأصبح لديهم مليون ونصف المليون جندي في ساحة الحرب.

ليت شعري، ماذا سيقول التاريخ عن أبناء هذا الجيل من العرب؟!

أما الطاقات المالية للعرب، فهي مكدّسة في المصارف الأجنبية، وبالإمكان توظيفها في إنتاج السِّلاح التقليدي وغير التقليدي، وحشد الطاقات البشرية للحرب، فما كان العرب أكثر أموالاً في جيل من الأجيال كما هم عليه اليوم، ومعهم النفط وهو دم الحرب، ومعهم الأموال المكدسة التي لم يحلم بها قارون ولا غيره، ولا أعلم سبباً واحداً يسوِّغ تجميد هذه الأموال الطائلة في المصارف، والمال هو عصب الحرب.

بقي عليّ أن أقول كلمة قصيرة ولكنها صريحة للفدائيين الفلسطينيين:

لقد سمعت تصريح أحد زعمائهم من الإذاعة المرئية وأنا أكتب هذه الكلمات، فقد سأله المذيع سؤالاً يردده كل عربي ومسلم وهو: «لماذا لا تتوحّد المنظمات الفدائية!».

وأجاب الزعيم المرموق: «كيف تتوحد المنظمات الفدائية وبينها اختلافات عقائدية! هذا غير ممكن».

وأنا أنقل نصّ جوابه حرفياً.

والذي أعلمه أنّ الذين يقاتلون لاستعادة حقوقهم المغتصبة، لا يمكن أن يكونوا من عقيدة واحدة، فثوار ارتيريا وثوار الفلبين من عقائد شتى، يجمعهم هدف واحد، هو إنقاذ بلادهم من الغاصب واستعادة حقوقهم المشروعة.

وما كان ثوار الجزائر من عقيدة واحدة، بل كانوا من أجنحة شتى، يجمعهم هدف واحد، هو طرد الفرنسيين من بلادهم: الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر بلدنا.

وكل الثوار في الشرق والغرب وأيام الحرب والسّلام لا يكونون من عقيدة واحدة، ولكن لكل مجموعة منهم عقيدة معينة.

وأذكر قصة يذكرها المؤرخون عن (كليمنصو) رئيس وزراء فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م - ١٩١٨م)، فقد قال كلمة لأحد النواب الفرنسيين، اعتبرها النائب إهانة وطلب مبارزة (كليمنصو). وكان الألمان حينذاك قد اخترقوا حدود فرنسا، وأصوات مدافعهم تُسمع بوضوح في باريس، فقال (كليمنصو) لذلك النائب: «دعنا نصفي معاً حسابنا مع الألمان في الوقت الحاضر، وحينذاك تصبح تصفية الحساب بيني وبينك من أبسط الأمور».

وتذكرت هذه القصة حين سمعت الزعيم الفدائي يجيب جواباً ليس له أساس تاريخي ولا منطقي ولا نظري ولا عملي، فما دام العدو الصهيوني جاثماً على صدور العرب، فأي تناقض في العقيدة يقف حائلاً دون الوحدة؟!

أريد أن أنصح الفدائيين بالوحدة أولاً، لتكون قيادتهم واحدة، وأموالهم واحدة وهدفهم واحد، وحينذاك يصبحون قوة واحدة، سيوفها على العدو لا عليها، وأموالها على العدو في ميزانية واضحة المعالم دقيقة الحسابات!

ولقد قلت لأبرز زعيم فيهم منذ عام ١٩٦٤ م، حين قدم بغداد، وشرح لي أهدافه ونياته: «ينبغي أن تحرصوا غاية الحرص على تحقيق هدفين: الأول

بقاء الفدائيين في الميدان مقاتلين، وإياك أن يوزعوا على المكاتب ليصبحوا موظفين لا فدائيين. والثانية أن تتقبلوا المال من أية دولة عربية ومن أي جماعة عربية ومن أي فرد عربي بدون شروط الانضواء تحت لواء دولة عربية، وبمعنى آخر، أن تكونوا مع الدول العربية كافة لا مع دولة أو دولتين أو أكثر، لأنّ الولاء لدولة أو دول عربية دون سائر الدول العربية، يؤدي إلى تفرقكم وبعثرة طاقاتكم».

واقتنع الرجل بهذا الرأي، ولكنه لم ينفِّذه، فأصبحت كل جماعة فدائية تدين لدولة من الدول، وتعادي غيرها بشكل أو بآخر.

وكم يسرني، ويسر كل عربيّ وكل مسلم، أن ينفّذ الزعماء الفدائيون ما نصحتُ به قبل بضع عشرة سنة، كان الواجب يقضي علينا جميعاً، أن ننتهز كل لحظة من لحظاتها لجمع الشمل ورصّ الصفوف.

وقد تعلّمتُ هذا الدرس من ثورة الجزائر، فقد كان زعماؤها يقبضون من كل دولة عربية، ولكنهم كانوا لا ينضوون تحت لواء دولة عربية معينة ولا يعادون دولة عربية معينة، ولاؤهم للثورة الجزائرية وحدها، فانتصروا بالوحدة، ولن ينتصر غيرهم بالفرقة.

وكان الأجدر بالمنظمات الفدائية أن تتعلّمه من تلك الثورة الرائدة حقاً، لأنّ تفرق المنظمات وانضواء أكثرها تحت لواء دولة عربية أو أكثر، أفقدها كثيراً من قوتها وحرمها من عطف بعض الدول العربية عليها، وأثار حرب التشكيك فيما بينها، كلُّ منظمة تدّعي أنها المخلصة وحدها ولا إخلاص في المنظمات الأخرى، وتشكِّك في زعماء المنظمات، وتهاجمهم سراً وعلانية، وهذا التفرّق والتباين والتشكيك من مصلحة العدو وحده.

إني أطالب بتوحيد المنظمات الفدائية، ووضع الأُسس السليمة لصندوق فلسطين، فيه الواردات المالية للمنظمات والنفقات والموازنة العامة، فالوحدة قوّة لمصاولة العدو الصهيوني، والنزاهة قوّة لمصاولة العدو والصديق ولصدّ

حملات التشكيك التي قد تكون عن حسن نيّة وقد تكون عن سوء نية، وكلاهما سلاح مسموم.

ومن التضليل أجهزة الإعلام العربية. فكذبها كثير، وصدقها قليل، ومادتها تافهة، وإنتاجها هزيل، وادعاؤها عريض، والثقة بها صفر على الشمال.

والكذب يؤدي إلى زعزعة الثقة، ولا ثقة بدون صدق مطلق، فإذا زعزعت الثقة في أجهزة الإعلام أعرض الناس عنها، وانتقلوا إلى أجهزة إعلامية أخرى، قد تضع السمّ في العسل، فتؤثر في المستقيمين وتحرفهم عن استقامتهم، كما أنّ إعراض شعب من الشعوب عن أجهزة إعلامه، يجرِّد الحاكم من أقوى أسلحته.

إنّ الإذاعة المرئية والمسموعة في جميع الدول العربية ملك للدولة، أما الصحف والمجلات فملك للدولة في قسم من الدول العربية وملك للأفراد أو الشركات في قسم آخر، ولكنّ الصحف والمجلات التي ليست ملكاً للدولة تتلقى هبات ومعونات حكومية تجعلها إسمياً ملكاً للأفراد والشركات وفعلياً ملكاً للدولة لقاء الهبات والمعونات.

ومعنى ذلك أن أجهزة الإعلام العربية كافة، تنشر وتذيع ما يحب الحكام أن يقرأوه أو يسمعوه أو يروه، ولا تنحرف عن هوى الحكّام ورغباتهم، لهذا يمكن أن نطلق عليها: أجهزة الحكّام الإعلامية، لا أجهزة الشعب الإعلاميّة، لأنها تقتصر على أقوال الحكّام وخطبهم وأحاديثهم وبرقيات التأييد لهم، فإذا بقي وقت في الإذاعة المسموعة والمرئية أو مكان في الصحف والمجلاّت، غطّوه بمقالات هزيلة لم يسمع أحد بكتّابها ولم يستفد أحد مما يكتبون!

والمفروض أن يكون في كل صحيفة يومية مقال دسم يفيد القارىء في كل يوم، يكتبه عالم مختص معروف، ولكنك لا تجد مثل هذا المقال في الاسبوع أو في الشهر وحتى في السنة لأنّ الكتاب من الهواة المبتدئين، وقد تقرأ مقالاً في

العسكرية دبّجته يراعة معلّم في المدارس الابتدائية، بينما يستبقر المختصون العسكريون في دورهم لا يستشارون ولا يشاوَرون.

وما يقال عن المختصين العسكريين، يقال عن غيرهم من المختصين في مختلف مجالات العلم والأدب والفنّ.

لهذا أصبحت أكثر الصحف والمجلات لا يفتقدها أحد إذا لم يرها يوماً أو أياماً أو شهوراً، وأصبح أغلب قراء الصحف يحرصون على مطالعتها لقراءة صفحة الوفيات.

كما أصبح المثل المتداول: «أصدق ما في الصحف العربية صفحة الوفيات» شائعاً بين القراء العرب، ولو أنه مثل ظالم بالنسبة للقليل من الصحف العربية والمجلاّت.

ومما يحز في نفسي، أن أجد توزيع الصحف الأجنبية والمجلات، أكثر من توزيع الصحف العربية والمجلات بالنسبة للأفراد العرب الذين يدفعون الثمن، لا بالنسبة لما يطبع ويوزّع من الصحف العربية والمجلاّت على المؤسسات والدوائر الحكومية والسفارات والأفراد العرب الرسميين، وطالما رأيت تلك الصحف العربية والمجلات أكداساً في المؤسسات والدوائر الحكومية والسفارات العربية التابعة للدولة التي أصدرت تلك الصحف والمجلات، لا يقربها أحد ولا يمسّها بسوء.

إن في إقبال العرب على الإذاعات الخارجية والصحف والمجلات الأجنبية، خطراً داهماً على الفكر العربي، وعلى المسؤولين كباراً وصغاراً أن يفكّروا في سبب إعراض العرب عن أجهزة إعلامهم العربية، وإقبالهم على أجهزة الإعلام الأجنبية، ويضعوا الحلول لتبديل الوضع الراهن من حال إلى حال.

وقد كان هناك في دولة عربية واحدة صحف ومجلات يمتلكها أصحابها، فكانت سلعة كالسلع التي تباع وتشترى في المزاد العلني، تمدح كل مَنْ يدفع الثمن وتقدح كل من لا يدفع الثمن.

وقد حدثني صديق عن صحفي مشهور في ذلك البلد العربي، دعاه لتناول الغداء في قصره العامر الواقع على ساحل البحر، وحين تناول الطعام قال الصحفي للصديق: «يجب أن تأكل أكثر من الآخرين ، لأنّ دولتك هي التي دفعت أكثر ثمن هذا القصر وكل نفقاتي» .

وقد يقبض الصحفي من دولة عربية ويقبض من غيرها ويقبض من الأجنبيّ ، فهو يؤمن بمبدأ الانفتاح على الجميع.

وقد هاجرت أكثر تلك الصحف والمجلات إلى الغرب، واستقرت في باريس ولندن، يغدق عليها العرب والأجانب، وتطبع أفخر طباعة على أفخر ورق، وكم يسر الحاكم ويتمنى أن تظهر صورته في تلك المجلة أو الصحيفة، وتظهر فيها مقالة في الثناء عليه، وفي سبيل تلك الصورة والثناء يدفع عشرات ومئات الألوف، بينما يحتاج أفراد شعبه إلى القليل وإلى الأقلّ من القليل.

ولندن وباريس عاصمتان من عواصم الاستعمار البغيض الذي لا يكره شيئاً في الدنيا كما يكره العرب والمسلمين، فكيف نتوقّع من القارىء أن يصدِّق ما تكتبه تلك الصحف والمجلاّت دفاعاً عن العرب والمسلمين، وكيف يمكن أن نصدِّق بأنّ كُتّاب المقالات في تلك الصحف والمجلات صادقون!!!

لقد أصبح في لندن وباريس سوق رائجة للأقلام العربية التي تلتزم بمتطلبات المادة وحدها ولا تلتزم بمتطلبات أخرى غير المادة، وهي مستعدة أن تبيع نفسها في سوق النفاق والتهريج.

بقي عليّ أن أُنبِّه إلى خطورة الإذاعة المرئية، فقد بلغت المدى في إشاعة الانحلال من القيم والمثل العليا.

وكمثال على هذا الاتجاه، ما عرض وأنا أكتب هذه الكلمات في الإذاعة المرئية، حول شخص حطّمته أوامر والديه الصارمة في اجتناب الخمر والاختلاط بالنساء اللواتي لا تربطه بهن صلة قربى أو نسب!!!

والقاسم المشترك في التمثيليات: الرقص ، واحتساء الخمر، والتدخين، ولعب القمار.

ولا أظن أن هناك مَنْ يُقر مثل هذه التمثيليات التي يحب عارضوهـا أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

والمفروض أن تكون التمثيليات وسيلة لتثقيف أفراد الشعب، تدعوه إلى التمسك بالقيم، وتنهاه عن الفحشـاء والمنـكر والبغـي، وتعلِّمـه تاريخ أمتـه وأمجادها.

وقد عقدت مؤتمرات كثيرة على مستوى وزراء الإعلام العرب ومستويات أخرى كمدراء وكالات الأنباء العربية، ومدراء الإذاعـات المرئية والمسموعـة العربية، والهدف من عقد تلك المؤتمـرات هو التنسيق بـين أجهـزة الإعـلام العربية، لتعمل يداً واحدة في مصاولة الاستعمار والصهيونية بخاصة وأعداء العرب والمسلمين بعامة.

وفكرة عقد تلك المؤتمرات صائبة مفيدة، وجاءت بمقررات سليمة نافعة، ولكن ما مصير تلك المقررات في مجال التنفيذ؟!

لكي نحظى بالجواب العملي على هذا السؤال، علينا أن نفتح صحيفـة عربية صادرة في يوم معيَّن في بلد عربيّ معيَّن، ثم نفتح صحيفة عربية أخرى صادرة في بلـد عربـي آخـر في نفس اليوم، ونقـارن بـين محتـوى ما جاء في الصحيفتين من مواد إخبـارية وتعليقـات سياسية، فسنجـد أن التنـاقض بـين الصحيفتين كبير شنيع.

وما يقال عن تناقض الصحف يقال عن تناقض ما يصدر عن وكالات الأَنباء العربية وما يذاع في الإذاعات المسموعة والمرئية.

ذلك هو مبلغ التنسيق بين أجهزة الإعلام العربية فبعضها يسير مشرِّقاً، وبعضها يسير مغرِّباً، وشتان بين مُشَرِّق ومُغَرِّب!

وقد أتى على العرب والمسلمين حين من الدهر، أصبحوا يشمئزون فيه ممن يستمع إلى الإذاعات الأجنبية ولا يستمع إلى الإذاعات العربية.

وكان الذين يعرضون عن الإذاعات العربية والإسلامية من العرب والمسلمين قليلين عَدَداً، يُقابلون من الأكثرية بالسخط والتعنيف، وكانوا يسترقون السمع سراً خوفاً ممن حولهم من الناس.

واليوم أصبح الذين يستمعون الإذاعات الأجنبية من العرب والمسلمين كثيرين عَدَداً، لا يحتج عليهم أحد ولا يسخط، ولا يسترقون السمع سراً بل يستمعونها علناً.

وعلى أجهزة الإعلام العربية والإسلامية أن تعرف أسباب إعراض العرب والمسلمين عنها، وإقبالهم على أجهزة الإعلام الأجنبية، ووضع حد لهذا التشتت والانهيار.

وكم يسرّ كل عربيّ ومسلم، أن تصبح أجهزة الإعلام العربية والإسلامية للشعوب لا للأفراد، وللمصلحة العامة لا للمصلحة الخاصة، وللبناء لا للهدم، وللتعمير لا للتخريب، وللخير لا للشر؛ وحينذاك سيعود العرب والمسلمون إلى أجهزة إعلامهم فخورين بها، حاملين راياتها، مقدِّرين العاملين فيها، متجاوبين معها، منقادين إلى توجيهاتها، متقبِّلين أفكارها، عاملين على تنفيذها، مصغين إليها مقبلين عليها، مدبرين عن غيرها.

ومن التضليل ما أشاعه المستعمر من تفوق الأجنبي على العربي والمسلم فرداً، وبقاء هذا التضليل بعد رحيل الأجنبي بعد الاستقلال.

وقد لمع اسم أحد الأطباء العرب العاملين في بريطانيا بطب القلب، فاستقدمته إحدى الدول العربية إلى بلادها لعلاج أحد حكامها، وحين علم الحاكم العربي والأطباء العرب بأنّ الطبيب الذي استقدموه من بريطانيا عربي، هبط فجأة في عيون الجميع، ولم يسمح له الحاكم العربي بعلاجه، واعتذر له الأطباء العرب واعتبروا استقدامه من الأخطاء!!

وقد حرص العرب والمسلمون المستغربون على تنمية عقدة الأجنبي لا إزالتها، فعمقوا جذور (الانبهار) بالأجنبيّ والشعور العميق بتفوقه فرداً على الفرد العربي والمسلم.

ومن النكات المتداولة أنّ أحد أبناء العرب الذين درسوا في الغرب بعد تخرجه في الإعدادية (الثانوية العامة) من بلاده مباشرة، كتب إلى والده يقول: «تصوّر أنني وجدت الخدم في المطاعم والمقاهي من الإنكليز!!». وقد كان الأخ يرى أنّ الانكليزي خلق حاكمًا، ولا يمكن أن يكون إلاّ حاكمًا.

والعرب والمسلمون الذين تعلّموا في الغرب بعد تخرجهم في جامعات الوطن العربي أو الإسلامي، أي بعد نضوجهم علمياً وشخصياً، يعلمون أنّ الفرد الأجنبي ليس متفوقاً على الفرد العربي المسلم، وغالباً ما كان الفرد العربي أو المسلم متفوقاً على الفرد الأجنبي في الدراسة والعلم.

ولو قيل: إنّ الغرب متفوق حضارياً على العرب والمسلمين وبخاصة في الصناعة والإنتاج، لكان هذا القول حقاً لا غبار عليه، وقد كان العرب والمسلمون متفوقين على الغرب حضارياً في القرون الوسطى، وكانوا أساتذة الغرب في الأندلس وصقلية، وفي البلاد العربية أيام الحروب الصليبية، وكان العرب والمسلمون يشعرون بالتفوق على الإفرنج، وكان الإفرنجُ يقرّون بتفوّق العرب والمسلمين عليهم ويعتبرون أنفسهم طلاباً وتلاميذ لهم، وكان الدارس في الجامعات العربية والإسلامية، وحتى الذي يبقى مدة من الزمن في المشرق يعتبر نفسه متميزاً على قومه الإفرنج، ويعتبره قومه متميزاً عليهم في علمه وخلقه وسلوكه.

ومن الطريف أنّ أسامة بن مُنْقِذ الذي توفي سنة (٥٨٤ هـ ١١١٨م) كتب في مذكراته التي سماها كتاب (الاعتبار) [١]، يصف طبائعَ الإفرنج وأخلاقهم فقال: «سبحان الخالق البارىء، إذا خبر الإنسان أمور الافرنج سبّح الله تعالى وقدّسه ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لاغير، كما في البهائم فضيلة القوّة والحمل»، ووصف صديقاً له من الافرنج فقال: «وطرق سمعي كلامٌ ما يخرج من رأس عاقل»[٢]، ثم تكلم عن إسفافهم فى الطب وقلّة معلوماتهم

---

(١) - الاعتبار - مطبعة جامعة برنستون - الولايات المتحدة الامبركية - ١٩٣٠م - (٢) - الاعتبار (١٣٢)

فيه، ثم يقول: «وكل مَنْ هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين تبلّدوا وعاشروا المسلمين»[1] وتبلّدوا من: البلد، ويقصد بالبلد بلد المسلمين، وتبلّدوا: أصبحوا كالمسلمين في بلادهم. وذكر أن أحد الفرنج قاده إلى صورة للسيدة العذراء، والمسيح عليه السّلام صغير في حجرها فقال: «هذا الله صغير» [2]، ثم ذكر ما هو معروف عن الإفرنج حتى اليوم وهو أنهم ليس لديهم غيرة جنسية وليس لديهم شيء من النخوة والغيرة فيترك الرجل امرأته مع غيره على انفراد [3]، وذكر أنّ إفرنجياً وجد رجلاً غريباً في فراشه مع امرأته فقال: «وحق ديني إن عدت فعلتِ كذا تخاصمت أنا وأنت» فكان هذا مبلغ نكيره ومبلغ غيرته [4].

وختم أسامة فصله فقال: «ومن الإفرنج قوم قد تبلّدوا وعاشروا المسلمين، فهم أصلح من القريبي العهد ببلادهم. فمن ذلك أنني مضيت مع صديق لي إلى دار فارس من فرسان الإفرنج العتق (القدامى) الذين خرجوا في أول خروج الإفرنج (يقصد مضى عليه مدة طويلة من الزمن بين المسلمين)، وقد اعتفى من الديوان والخدمة (تقاعد) وله بأنطاكية مُلْكٌ يعيش منه، فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة. ورآني متوقفاً عن الأكل فقال: كُلْ طيِّبَ النَّفس، فأنا ما آكل من طعام الإفرنج، ولي طباخات مصريّات ما آكل إلاّ من طبيخهنّ، ولا يدخل داري لحم خنزير، فأكلت وأنا محترز وانصرفنا».

وسبحان مقلِّب الأحوال، فقد كان الذي يسكن المشرق من الإفرنج يتطبع بطبائع المسلمين ويتخذ أسلوبهم الحياتي ويُعتبر متميزاً على أبناء قومه، ويقلد المسلمين في كل شيءٍ حتى في التخلي عن أكل لحم الخنزير.

وكل أسلوب أُسامة وتعبيره في وصف أخلاق الإفرنج وطبائعهم وأساليب غيره من المسلمين، تدل على الاعتزاز بالعرب والمسلمين والشعور بتفوُّقهم

---

(١) الاعتبار (١٣٤) - (٢) - الاعتبار (١٣٥) - (٣) - الاعتبار (١٣٥) - (٤) - الاعتبار (١٣٦).

على الإفرنج بما لا يمكن المقارنة بين الطرفين.

واليوم إذا تفـوّق الغـربيون على العـرب والمسلمـين بالعلـوم التـطبيقية والمصانع، فإنّ هذا التفوق ليس ملكاً لشعب دون شعب، ولا لأمة دون أمة، ولا للغرب دون الشرق، فقد أتقن اليابانيون العلـوم التـطبيقية، وأصبحـت مصانعهم تنافس المصانع الغربية وتتفوق عليها في كثير من الصناعات، وأصبح إنتاجهم الصناعي ينافس إنتاج الغرب الصناعي حتى في عقر دار الغربيين، مع أنّ الأمة اليابانية أمة شرقية واليابان بلد شرقيّ.

إن الفرد الغربي لا يتفوق على الفرد العربي المسلم، ولكنني اكتشفت أنّ الجماعة الغربية تتفوّق على الجماعة العربية والمسلمة، لأن كل فرد منهم يعمل ضمن اختصاصه ويؤدي واجبه كاملاً، وبذلك يكمل كل فرد ضمن الجماعة نواقص غيره، ولا يقتصر تفكيره على شخصه دون سواه، بل يشمل الجماعـة وفائدتهـا ونجاحهـا، وبهـذا تتفـوّق الجماعـة الغـربية على الجماعـة العـربية والإسلامية، لأنّ غالبية الأفراد العرب والمسلمين يفكرون بأنفسهم أكثـر من اللزوم ويحاولون إظهـار أنفسهـم على حسـاب الآخـرين من أفـراد الجماعة، ويسعون إلى أن يُحمدوا بما لـم يفعلوا بل بما فعلتـه الجماعـة لا فرد واحـد من أفرادها.

وهذه النزعة يحاربها الإسلام: الأنانية، وحب الظهور، واقتناص المدح والثناء الشخصي على حساب الأفراد الآخرين، وصـدق الله العـظيم: ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الذين يَفْرَحُونَ بما أَتوْا ويُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بما لم يَفْعَلوا، فلا تَحْسَبَنَّهُمْ بمفازةٍ من العذاب، ولَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [1].

إنّ العقول العربية والإسلامية التـي هاجـرت من الشرق إلى الغـرب، أثبتت وجودها في القمة من العقول الغربية، وقد انتشرت العقول المهاجرة في المصانع المختلفة،ومنها مصانع تطـوير الأسلحـة ومصانـع الصـواريخ عابـرة

---

(١) ـ الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣: ١٨٨)

القارات ومصانع الأقمار الصناعيةومصانع الأسلحة النووية ومختبرات الطب والكيمياء والفيزياء.

إنّ العرب والمسلمين بالجهد والجد والمثابرة، يستطيعون اقتباس العلوم التطبيقية واللِّحاق بالغرب ومجاراته في الصناعات المتقدمة.

ولكن الغرب لا يستطيع مجاراة المسلمين في المصانع التي اختص بها الإسلام، والخاصة بالنفس البشرية ورفع مستوى الروح، لترقى فوق المادة وفوق متطلباتها منطلقة إلى الملأ الأعلى على أجنحة من نور إلى مصدر الخَلْق والنور.

إنّ إقامة مصنع كبير، أسهل بكثير من خلق فرد صالح، الذي يجعله الإسلام خلقاً جديداً بقوة الله وعزّته وقدرته.

والدول العربية اهتمت حقاً بالتحولات الاجتماعية بالنسبة إلى الفرد والمجتمع، ولكنّ هذه التحولات اقتصرت على الناحية (المادية) فقط، دون الاهتمام بالناحية (الدينية)، وقد علّمنا التاريخ أنّ التحولات الاجتماعية المادية تزول مع زوال الدعاة إليها، أما التحولات الدينية فهي الباقية بقاء الإنسان على الأرض.

فقد كان كثير من الذين يعتنقون المبادىء المادية يؤمنون باتجاه ماديّ معيّن اليوم، ثم ينصرفون عنه غداً، وما يقال عن الفرد يقال عن المجتمع، فقد تظاهر شعب بأنه يؤمن بالمبدأ المادي الفلاني تحت ضغط القوّة والإرهاب، فلما زال الضغط والإرهاب عاد أدراجه إلى ما كان عليه من قبل.

وكان الواجب على الدول العربية أن تهتم بالتحولات الاجتماعية من الناحيتين المادية والمعنوية، ولكن كيف تستطيع أن تنفذ ذلك إذا كانت التحولات الاجتماعية المادية تناقض التحولات الاجتماعية الدينيّة؟!

إنّ التحولات الاجتماعية المادية إلى الإشتراكية في بعض الدول العربية وإلى الرأسمالية في بعض الدول العربية الأخرى، لا تفيد شيئاً من الناحية

العسكرية، التي تتطلب من الفرد ان يضحي بماله وروحه في سبيل عقيدة يؤمن بها، وتتطلّب من المجتمع أن يتحمّل بصبر ويلات الحرب وكوارثها دون أن يستسلم أو يفكّر بالاستسلام.

والفرد العربي أو المسلم لا يمكن أن يضحي بماله وروحه في سبيل الاشتراكية أو الرأسمالية،أو في سبيل أيّ مبدأ مادي من المبادىء المادية المعروفة، لأنّ مال الفرد هو أغلى من كل المبادىء المادية، فهو مادة بيد الفرد يحرص عليها إذا كان الميزان بالنسبة إليه ميزانا مادياً فحسب.

وما يقال عن الفرد يقال عن المجتمع.

ولكن هذا الفرد يضحي بماله وروحه أيضاً من أجل عقيدته الدينية، فهو حين تتعرض حياته للخطر في الحرب، يذكر الله ويتوسّل إليه ويصرخ: الله أكبر، خارجة من قلبه، وهذا هو أثر الدين في ثبات الفرد والمجتمع.

وقد تساهل الاتحاد السوفياتي مع قواته المسلّحة في القضايا الدينية في أيام الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ م - ١٩٤٥ م) وشجع عليها، فأقبل الناس على دور العبادة، وظهرت الأيقونات والصلبان، بالنسبة للمسيحيين السوفيات والقرآن الكريم والكتب الدينية الأخرى بالنسبة للمسلمين، فالمرء حين يداهمه الخطر، يعود إلى الله ويدعوه سراً وعلانية، ولا يمكن أن يعود إلى الاشتراكية أو الرأسمالية ويدعوها لتفرغ عليه صبراً وتثبت أقدامه وتنصره على القوم الكافرين.

وفي تلك الحرب طالب الروس الشعوب الأخرى بإجراء الصلاة في الجوامع والكنائس من أجل النصر [١].

وقد ألقى أحد المنشقين البارزين الروس [٢] محاضرة في الولايات المتحدة الاميركية معقل الرأسمالية في العالم، أدان فيها الكتلة الشرقيّة ممثلة في الاتحاد

(١) انظر كتابنا: بين العقيدة والقيادة (٨٠) (٢) - هو الكاتب والأديب السوفياتي (سولجنستين)

السوفياتي، والكتلة الغربية ممثلة في الولايات المتحدة الاميركية، وحمّلهما معاً ما تعانيه البشرية في العصر من تمزّق، وكان من جملة ما قاله: «إنّ العالم منذ انتهاء العصور الوسطى وبدء عصر النهضة، أخذ يهجر الدين ويتمرد على القيم الروحية ويحطّ من شأنها، ويجعل القيم المادية هي أساس حياته ومحور أفكاره وبرهان تقدمه ومصدر سعادته. . . وأصبح طموح الفرد مادياً ووعود الزعماء مادية وثقافة أجهزة الإعلام مادية. . هذا التفكير المطلق يلتقي فيه الشرق والغرب، فإذا كان الشرق مادياً وملحداً رسمياً وبحكم فلسفة الدولة، فالغرب يصل إلى نفس النتيجة عن طريق آخر، طريق الانغماس في المصلحة والمادة وحبّ الذات. إنّ فلسفة الغرب المادية تعتبر أنّ الانسان خلق للسعادة، وبالتالي فإن كلّ شيء يجب أن يكون لمصلحة الفرد. ولكنّ الإنسان كما خلق للحياة فقد خُلق للموت أيضاً، وبالتالي فلا بدّ له من الإيمان: الإيمان بالله والقيم الروحية والمعنويّة، وبأنّ رسالة الإنسان هي الارتقاء إلى قيم أعلى»[1].

إن الذي يحسب أنّ هذه الحياة الدنيا (مادة) فحسب لا (روح) فيها، ويبدِّد حياته في إشباع رغباته الجامحة في السكن المريح والملابس الفاخرة، والأطعمة اللذيذة، والفروج المباحة، يعيش حياة حيوانية، لأنّ الحيوان وحده يقتصر اهتمامه على إسطبله وبطنه وفرجه؛ أما الإنسان السويّ فيبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا.

إن حياة الحيوان (مادية) فقط، وحياة الماديين من البشر حياة حيوانية، أما الإنسان فيهتم بالمادة كما يهتم بالروح، وهذا هو الفرق بين حياة الحيوان وحياة الإنسان.

والدولة التي تحسن صنعاً في مجتمعها، يجب أن تبنيه مادياً ودينياً، وألاّ تقتصر على بنائه المادي وتهمل بناءه الديني، فكل بناء مادي إلى زوال، والبناء الديني هو الباقي، بل إنّ البناء المادي إذا رافقه بناءديني رسخ وقوي، والحاكم

(١) ألقيت في النصف الأخير من سنة ١٩٧٨ م.

الذي يحبّ لبنائه المادي أن يرسخ ويقوى عليه أن يردفه بالبناء الديني، وإلاّ لابقاء للمادة بدون روح، كالجسد الذي يدبّ على الأرض بالروح، فإذا فارقته الروح تفسّخ وانتهى لأنه أصبح في عداد الأموات.

وفي الوقت الذي يقلق الاتجاه المادي مفكري الغرب ويجعلهم يحذرون قومهم من مغبّة الإنصراف عن الدين، وينصحونهم بالعودة إلى الدين، يقلِّد العرب والمسلمون الشرق والغرب في اتجاههم المادي، ويركِّزون على بناء الإنسان من الناحية المادية فقط، بينما أرضنا أرض الرسالات والنبوّات وأرض الوحي والدين، ومنها خرجت الأديان السماوية الثلاثة التي تسود العالم وتهدي إلى الخير.

إنّ الاتجاه المادي بدون ضوابط دينية، سيجعل العلم التطبيقي يتجه نحو الخراب والتدمير، وهذا ما نجده سائداً في الشرق والغرب: الانطلاق بسرعة نحو تخريب العالم وتدمير البشرية.

وما لم يُقَيّد العلم التطبيقي بضوابط دينية، تأمر بالخير، وتنهى عن الشر، وتحثّ على السّلام، وتحذِّر من الحرب، فإن هذا العلم سيقود العالم إلى خراب العالم ودمار البشرية.

والعرب مادة الإسلام، والإسلام روح العرب، والعرب بالإسلام كل شيء، والعرب بدون إسلام لا شيء.

ولا أعرف وقتاً من الأوقات أصبح الإسلام فيه ضرورة من أعظم الضرورات للعرب كهذا الوقت بالذات.

إنّ العرب متخلفون عن ركب الحضارة العالمية، تتفشى بينهم الأميّة، والإسلام يأمر بالعلم وينهى عن الجهل ويقضي على التخلّف.

والعرب متفرقون بأسهم بينهم شديد، يسود بينهم التناقض الفكريّ، والإسلام يوحِّدهم ويجمع شملهم ويشيع فيهم الانسجام الفكريّ.

والعرب ضعفاء غُلبوا على أمرهم وسيطر العدو الصهيوني على بلادهم، لا يتحلون بإرادة القتال، والإسلام بالجهاد يقودهم إلى النصر بإذن الله.

إنّ الاستعمار بكل أشكاله والصهيونية بكل صورها وأعداء العرب والمسلمين بمختلف اتجاهاتهم، هم الذين يريدون أن يتخلى العرب والمسلمون عن دينهم، ليبقى الاستعمار للاستغلال وتتوسّع الصهيونية في الاحتلال، ويستشري شرّ أعداء العرب والمسلمين، دون أن يستطيعوا زحزحة الاستعمار والصهيونية وأعدائهم عن أرضهم وعرضهم وعقيدتهم.

وخير دليل على ذلك هو هذا الواقع المرير الذي يسود بلاد العرب والمسلمين.

ورسالة المسجد في هذه الظروف هي الحثّ على العودة إلى الإسلام ديناً والعربية لغة، وإلى تحرير الأرض وصيانة العرض ومصاولة أعداء العرب والمسلمين في كل مكان.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلى الله على سيدي ومولاي رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومنْ والاه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

***

المصادر

ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن الأثير الجزري الملقب بعزالدين) :

١ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ طهران ١٣٧٧ هـ .

٢ ـ تجريد أسماء الصحابة ـ حيدر آباد الدكن ـ ١٣١٥ هـ .

٣ ـ الكامل في التاريخ ـ القاهرة ـ ١٣٠٣ هـ .

ابن الأثير (مجد الدين أبو السعادات مبارك بن محمد بن محمد بن الأثير الجزري) :

٤ ـ جامع الأصول من أحاديث الرسول ﷺ ـ القاهرة ـ ١٣٦٨ هـ .

٥ ـ النهاية في غريب الحديث ـ القاهرة ـ ١٣٢٣ هـ .

ابن باديس (عبد الحميد بن باديس) :

٦ ـ تفسير ابن باديس ـ القاهرة ـ ١٣٨٤ هـ .

ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي) :

٧ ـ النجوم الزاهرة ـ القاهرة ـ ١٣٤٨ هـ .

ابن تيميّة (تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن تيمية) :

٨ ـ السياسة الشرعيّة ـ تحقيق محمد المبارك ـ بيروت ـ ١٣٨٦ هـ .

ابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي) :

٩ ـ تاريخ عمر بن الخطّاب ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد ابن علي الكناني العسقلاني) :

١٠ ـ الإصابة في تمييز الصحابة ـ القاهرة ـ ١٣٢٥ هـ .

١١ ـ تهذيب التهذيب ـ حيدر آباد الدكن ـ ١٣٢٧ هـ .

١٢ ـ فتح الباري بشرح البخاري ـ القاهرة ـ ١٣٠١ هـ .

ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي) :

١٣ ـ أسماء الصحابة الرواة وما لكل واحد منهم من العدد ـ ملحق بجوامع السيرة ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .

١٤ ـ أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم على مراتبهم في كثرة الفتيا ـ ملحق بجوامع السيرة ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .

١٥ ـ جمل فتوح الإسلام ـ ملحق بجوامع السيرة ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .

١٦ ـ جمهرة أنساب العرب ـ تحقيق عبد السّلام هرون ـ القاهرة ـ ١٣٨٢ هـ .

١٧ ـ جوامع السيرة ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .

ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل البغدادي الموصلي) :

١٨ ـ صورة الأرض ـ لايدن ـ ١٩٣٨ م .

ابن خرداذبّة (أبو القاسم عبيدالله بن خرداذبّة) :

١٩ ـ المسالك والممالك ـ طهران ـ ١٩٦٣ م .

ابن خلدون (عبدالرحمن بن خلدون) :

٢٠ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ القاهرة ـ ١٢٨٤ هـ .

٢١ ـ المقدمة ـ تحقيق علي عبد الواحد وافي ـ القاهرة ـ ١٣٨٤ هـ .

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان) :

٢٢ ـ وفيات الأعيان ـ القاهرة ! ١٩٤٨ م .

ابن دحلان (السيد أحمد بن زيني دحلان) :

٢٣ ـ الفتوحات الإسلامية ـ القاهرة ـ ١٣٤٥ هـ .

ابن دقماق (إبراهيم محمد بن آيدم العلائي المعروف بابن دقماق) :

٢٤ ـ الانتصار بواسطة عقد الأمصار ـ القاهرة ـ ١٨٩٣ م .

ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر بن رستة) :

٢٥ ـ الأعلاق النفيسة ـ لايدن ـ ١٨٩١ م

ابن سعد (أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهريّ) :

٢٦ ـ الطبقات الكبرى ـ بيروت ـ ١٣٧٦ هـ .

ابن سيِّد الناس :

٢٧ ـ عيون الأثر ـ القاهرة ـ ١٣٥٦ هـ .

ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر) :

٢٨ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .

ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله بن عبد الحكم) :

٢٩ ـ فتوح مصر وأخبارها ـ لايدن ـ ١٩٢٠ م

٣٠ ـ فتح مصر والمغرب ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .

ابن عبد الحكم (أبو محمد عبدالله بن عبد الحكم) :

٣١ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز ـ دمشق ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٥٤ م .

ابن عبد ربه (شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه) :

٣٢ ـ العقد الفريد ـ القاهرة ـ ١٣٤٦ هـ .

ابن عذاري (أبو عبدالله محمد بن عذاري المراكشي) :

٣٣ ـ البيان المغرب في أخبار المغرب ـ بيروت ـ بلا تاريخ .

ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله بن الحسين بن عساكر الشافعيّ) :

٣٤ ـ تهذيب ابن عساكر ـ دمشق ـ ١٣٢٩ هـ .

ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن ابراهيم الهمذاني المعروف بابن الفقيه) :

٣٥ ـ مختصر تاريخ البلدان ـ لايدن ـ ١٨٨٥ م .

ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري) :

٣٦ ـ الشعر والشعراء ـ بيروت ـ ١٩٦٤ م .

٣٧ ـ عيون الأخبار ـ القاهرة ـ ١٣٨٣ هـ .

٣٨ ـ المعارف ـ تحقيق ثروت عكاشة ـ القاهرة ـ ١٩٦٠ م .

ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي) :

٣٩ ـ البداية والنهاية في التاريخ ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .

٤٠ ـ تفسير ابن كثير ـ القاهرة ـ ١٣٤٧ هـ .

ابن ماجه (محمد بن يزيد بن ماجه القزويني) :

٤١ ـ سنن ابن ماجه ـ القاهرة ـ ١٣١٣ هـ .

ابن المعتز (عبدالله بن المعتزّ بن المتوكِّل بن المعتصم بن هرون الرشيد) :

٤٢ ـ طبقات الشعراء ـ تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج ـ القاهرة ـ ١٣٧٥ هـ .

ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري) :

٤٣ ـ لسان العرب ـ بيروت ـ ١٣٧٤ هـ .

ابن النديم :

٤٤ ـ الفهرست ـ بيروت ـ ١٩٦٤ م .

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري) :

٤٥ ـ السيرة النبوية ـ تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٣٥٦ هـ .

أبو الفدا (اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة) :

٤٦ ـ تقويم البلدان ـ باريس ـ ١٨٤٠ م .

٤٧ ـ المختصر من أخبار البشر ـ القاهرة ـ ١٣٢٥ هـ .

أبو يعلى (حمزة القلانسي) :

٤٨ ـ ذيل تاريخ دمشق ـ بيروت ـ ١٩٠٨ م .

أبو يعلى (محمد بن الحسين الفراء الحنبلي) :

٤٩ ـ الأحكام السلطانية ـ تحقيق محمد حامد الفقي ـ القاهرة ـ ١٣٥٦ هـ .

أبو يوسف (القاضي أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم صاحب الإمام أبي حنيفة) :

٥٠ ـ الخراج ـ القاهرة ـ ١٣٤٦ هـ .

أحمد بن حنبل (الإمام أحمد بن حنبل) :

٥١ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل ـ القاهرة ـ ١٣١٣ هـ.

أحمد رضا :

٥٢ ـ معجم متن اللغة ـ بيروت ـ ١٣٧٨ هـ .

أسامة بن منقذ :

٥٣ ـ كتاب الاعتبار ـ مطبعة برنستون ـ أمريكا ـ ١٩٣٠م.

الإدريسي (الشريف الإدريسي) :

٥٤ ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ـ نشره دوزي ودي جوجه ـ لايدن ـ ١٨٦٦ م

الأصبهاني (أبو نعيم أحمد بن عبد الله الاصبهاني) .

٥٥ ـ حلية الأولياء ـ القاهرة ـ ١٣٥٦ هـ .

الاصطخري (أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي) :

٥٦ ـ المسالك والممالك ـ تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني ـ القاهرة ـ ١٣٨١ هـ .

الآلوسي (محمود شكري الآلوسي) :

٥٧ ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ـ تحقيق محمد بهجة الأثري ـ الطبعة الثالثة ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .

الباجي (أبو عبدالله محمد الباجي المسعودي) :

٥٨ ـ الخلاصة النقيّة في أمراء إفريقية ـ تونس ـ ١٣١٣ هـ .

البخاري (الإمام أبو عبدالله بن اسماعيل البخاري) :

٥٩ ـ صحيح البخاري ـ بولاق ـ ١٣٠٠ هـ.

البشاري (المقدسي المعروف بالبشاري) :

٦٠ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ لايدن ـ ١٩٠٦م.

البغوي (الإمام البغوي) :

٦١ ـ تفسير البغوي ـ على هامش تفسير ابن كثير ـ القاهرة ـ ١٣٤٧ هـ .

٦٢ ـ شرح السنّة ـ بيروت ـ ١٣٩١ هـ .

البكري (أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز البكري) :

٦٣ ـ المغرب في ذكر بلاد إفريقيّة والمغرب ـ الجزائر ١٩١١ م .

البلاذري (أحمد بن يحيي بن جابر البلاذري) :

٦٤ ـ فتوح البلدان ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ م .

البلخي (أبو زيد أحمد بن سهل البلخي) :

٦٥ ـ البدء والتاريخ ـ مطهر بن طاهر المقدسي ـ باريس ـ ١٨٩٩ م .

البلوي (يوسف محمد البلوي) :

٦٦ ـ ألف باء ـ القاهرة ـ ١٢٨٧ هـ .

بهاء الدين بن شدّاد :

٦٧ ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ـ تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ م .

البيضاوي (القاضي أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي) :

٦٨ ـ تفسير البيضاوي ـ القاهرة ـ ١٣٣٠ هـ .

البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي) :

٦٩ ـ دلائل النبوّة ـ القاهرة ـ ١٣٨٩ هـ .

الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي) :

٧٠ ـ صفة الصفوة ـ حيدر آباد الدكن ـ ١٣٥٥ هـ .

الحلبي (علي بن برهان الدين الحلبي) :

٧١ ـ إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون (السيرة الحلبية) : القاهرة ـ بلا تاريخ .

الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي) :

٧٢ ـ شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب ـ القاهرة ـ ١٣٥٠ هـ .

الخزرجي (أحمد بن عبدالله الخزرجيّ) :

٧٣ ـ خلاصة تذهيب الكمال في أسماء الرجال ـ القاهرة ـ ١٣٢٢ هـ .

الخطيب البغدادي :

٧٤ ـ تاريخ بغداد ـ القاهرة ـ ١٢٤٩ هـ .

خليفة بن خياط :

٧٥ ـ تاريخ خليفة بن خياط ـ تحقيق الدكتور ضياء العمري ـ النجف ـ ١٣٨٦ هـ .

الذّهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي) :

٧٦ ـ تاريخ الإسلام ـ القاهرة ـ ١٣٦٨ هـ .

٧٧ ـ دول الإسلام ـ القاهرة ـ ١٣٦٨ هـ .

٧٨ ـ سير أعلام النبلاء ـ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .

٧٩ ـ العبر ـ تحقيق فؤاد سيد ـ الكويت ـ ١٩٦١ م .

٨٠ ـ ميزان الاعتدال ـ القاهرة ـ ١٣٢٤ هـ .

الزاوي (طاهر أحمد الزاوي الطرابلسي) :

٨١ ـ ترتيب القاموس المحيط ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ م .

الزبيري (أبو عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيري) :

٨٢ ـ نسب قريش ـ نشره ليفي بروفنسال ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .

الزّمخشري (أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر الزمخشريّ) :

٨٣ ـ تفسير الكشّاف ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ ١٣١٩ هـ .

السرخسي (محمد بن أحمد السرخسي) :

٨٤ ـ شرح كتاب السير الكبير ـ لمحمد بن الحسن الشيباني ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ م .

السّلاوي (أحمد بن خالد الناصري السلاوي) :

٨٥ ـ الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ـ الدار البيضاء ـ ١٩٥٤ م .

السمهودي المدني :

٨٦ ـ خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ﷺ ـ القاهرة ـ ١٣٦٧هـ .

السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين السيوطي) :

٨٧ ـ تاريخ الخلفاء ـ القاهرة ـ ١٣٥١ هـ .

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري) :

٨٨ ـ تاريخ الأمم والملوك ـ القاهرة ـ ١٣٥٨ هـ .

٨٩ ـ تفسير الطبري ـ القاهرة .

٩٠ ـ الجهاد وكتاب الجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء ـ لايدن ـ ١٩٣٣ م .

٩١ ـ المنتخب من كتاب ذيل المذيّل من تاريخ الصحابة والتابعين ـ القاهرة ـ ١٣٥٨ هـ .

الظاهري (غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري) :

٩٢ ـ زبدة كشف الممالك و بيان الطرق والمسالك ـ باريس ـ ١٨٩٤ م ـ

عبد البديع صقر :

٩٣ ـ مختار الحسن والصحيح من الحديث الشريف ـ بيروت ـ ١٣٩١ هـ .

العصامي (عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي) :

٩٤ ـ سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ـ القاهرة ـ ١٣٧٩ هـ .

علي بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسي :

٩٥ ـ حلية الفرسان وشعار الشجعان ـ القاهرة ـ ١٩٥١ م .

عياض (القاضي عياض) :

٩٦ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ القسطنطينية ـ ١٣١٢ هـ .

فنسنك (الدكتور) :

٩٧ ـ مفتاح كنوز السنّة ـ القاهرة ـ ١٣٥٢ هـ .

قدامة بن جعفر (أبو الفرج) :

٩٨ ـ كتاب الخراج وصنعة الكتابة ـ لايدن ـ ١٨٨٩ م .

القرشي (يحيى بن آدم القرشي) :

٩٩ ـ كتاب الخراج ـ تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ـ القاهرة ـ ١٣٤٧ هـ .

القرطبي (أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي) :

١٠٠ ـ الجامع لأحكام القرآن ـ القاهرة ـ ١٣٥٦ هـ .

القزويني (زكريا بن محمد القزويني) :

١٠١ ـ آثار البلاد وأخبار العباد ـ بيروت ـ ١٣٨٠ هـ

القلقشندي (أبو العباس احمد القلقشندي) :

١٠٢ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ـ القاهرة ـ ١٩١٣ م .

١٠٣ ـ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ـ تحقيق إبراهيم الإبياري ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ م .

الكلبي (أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي) :

١٠٤ ـ الأصنام ـ القاهرة ـ ١٣٣٢ هـ .

الكنديّ (أبو عمر محمد بن يوسف الكندي) :

١٠٥ ـ الولاة والقضاة ـ لايدن ـ ١٩١٢ م .

لابوم (جول لابوم) :

١٠٦ ـ تفصيل آيات القرآن ـ القاهرة ـ ١٣٤٢ هـ .

المالكي (أبو عبدالله بن أبي عبدالله المالكي) :

١٠٧ ـ رياض النفوس ـ تحقيق الدكتور حسين مؤنس ـ القاهرة ـ ١٩٥١ م .

الماوردي (أبو الحسن علي بن حبيب البصري الماوردي) :

١٠٨ ـ الأحكام السلطانية ـ القاهرة ـ ١٣٤٧ هـ .

المبرد (محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير المبرد) :

١٠٩ ـ الكامل ـ القاهرة ـ ١٣٤٧ هـ .

مجمع اللغة العربية في القاهرة :

١١٠ ـ المعجم الوسيط ـ القاهرة ـ ١٣٨٠ هـ.

المحب الطبري :

١١١ ـ الرياض النضرة ـ القاهرة ـ ١٣٢٧ هـ .

محمد رشيد رضا (الشيخ) :

١١٢ ـ تفسير المنار ـ القاهرة ـ ١٣٢٥ هـ .

محمد زكريا محمد يحيي الكاندهلوي :

١١٣ ـ مكانة الصّلاة في الإسلام وأهميتها في حياة المسلم ـ ترجمة محمد الحسني ـ لكهنو (الهند) ـ ١٣٩٣ هـ .

محمد بن شاكر الكتبي :

١١٤ ـ فوات الوفيات ـ تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٩٥١ م .

محمد فؤاد عبد الباقي :

١١٥ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ القاهرة ـ ١٣٧٨ هـ .

المراكشي (عبد الواحد المراكشي) .

١١٦ ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ القاهرة ـ ١٣٤٧ هـ .

المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي) :

١١٧ ـ التنبيه والإشراف ـ بيروت ـ ١٩٦٥ م .

١١٨ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ الطبعة الرابعة ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ م .

محمد مصطفى عمارة :

١١٩ ـ مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي ـ القاهرة ـ ١٣٧٣ هـ .

المقري (أبو العباس أحمد المقري) :

١٢٠ ـ نفح الطيب ـ تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٣٦٧ هـ .

مؤلف مجهول :

١٢١ ـ العيون والحدائق في أخبار الحقائق ـ لايدن ـ بلا تاريخ .

النووي (أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي) :

١٢٢ ـ تهذيب الأسماء واللغات ـ دمشق ـ بلا تاريخ .

١٢٣ ـ شرح النووي على مسلم ـ القاهرة ـ ١٢٨٣ هـ .

النويري (شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري) :

١٢٤ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب ـ القاهرة ـ بلا تاريخ .

الهرثمي (صاحب المأمون) :

١٢٥ ـ مختصر سياسة الحروب ـ تحقيق عبد الرؤوف عون ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ م .

ياقوت (شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي البغدادي) :

١٢٦ ـ المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ـ لايدن ـ ١٨٤٦ م .

١٢٧ ـ معجم البلدان ـ القاهرة ـ ١٣٢٣ هـ .

اليعقوبي (أحمد بن يعقوب) :

١٢٨ ـ البلدان ـ لايدن ـ ١٨٩٢ م .

المراجع العربية

أحمد أمين (الدكتور) :

١ ـ ضحى الإسلام ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية .

أحمد بيلي (الدكتور) :

٢ ـ حياة صلاح الدين الأيوبي ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ـ ١٣٤٥ هـ .

أحمد عطية الله :

٣ ـ القاموس الإسلامي ـ القاهرة ـ ١٣٨٣ هـ .

أحمد محمد غنيم وأحمد أبو كف :

٤ ـ اليهود والحركة الصهيونية في مصر ـ القاهرة ـ ١٩٧٢ م .

الرشيدي (الدكتور سالم الرشيدي) :

٥ ـ محمد الفاتح ـ القاهرة ـ ١٣٧٥ هـ .

أوزيغان (عمار أوزيغان) :

٦ ـ الجهاد الأفضل ـ بيروت ـ ١٩٦٤ م .

توينبي (آرنولد توينبي) :

٧ ـ محاضرات توينبي ـ ترجمة فؤاد زكريا ـ القاهرة ـ ١٩٦٦ م .

الدر (نقولا الدر) :

٨ ـ هكذا ضاعت وهكذا تعود ـ بيروت ـ ١٩٦٤ م .

الزركلي (خير الدين الزركلي) :

٩ ـ الأعلام ـ القاهرة ـ ١٣٧٣ هـ إلى ١٣٧٨ هـ .

شاكر (محمود محمد شاكر) :

١٠ ـ أباطيل وأسمار ـ القاهرة ـ ١٣٨٥ هـ .

الشرباصي (الشيخ أحمد الشرباصي) :

١١ ـ الماسونية ـ مجلة الهلال ـ العدد (٦) ـ يونية (حزيران) ـ القاهرة ـ ١٩٧٧ م .

صالح مسعود أبو يصير :

١٢ ـ جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ـ الطبعة الرابعة ـ بيروت ـ ١٩٧١ م .

مصطفى صادق الرافعي :

١٣ ـ وحي القلم ـ الطبعة الثامنة ـ بيروت ـ بلا تاريخ .

مونتغومري (المشير) :

١٤ ـ السبيل إلى القيادة ـ تعريب العميد الركن حسن مصطفى ـ بيروت ـ ١٩٦٩ م .

الندوي (أبو الحسن علي الحسني الندوي) :

١٥ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ الطبعة السادسة ـ بيروت ـ ١٣٨٥ هـ .

هيكل (الدكتور محمد حسين هيكل) :

١٦ ـ الأمبراطورية الإسلامية ـ القاهرة .

١٧ ـ في منزل الوحي ـ القاهرة ـ ١٣٥٦ هـ .

المراجع الأجنبية

BUCAILLE (MAURICE):

1- LA BIBLE, LE CORAN, ET LA SCIENCE. PARIS, 1976.

BURNS (GENERAL):

2 - BETWEEN ARAB AND ISRAELI. LONDON, 1965.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
مقدمة	٧
الثكنة الأولى	٣٧
بناء الانسان المسلم	٥١
الدعائم الثلاث	٥٢
العقيدة الإسلامية	٥٤
١ ـ العرب	٥٤
٢ ـ الإسلام	٥٨
القدوة الحسنة	٦٦
١ ـ في مكة المكرمة	٦٦
٢ ـ في المدينة المنورة	٧٣
٣ ـ في نفسه	٨٣
اختيار المسؤولين	٨٩
أثر الرسالة في العربي المسلم	٩٩
في عهد الرسالة	١٠٠
١ ـ في مكة المكرمة	١٠٠
٢ ـ في المدينة المنورة	١٠٤
٣ ـ في ميدان الجهاد	١٠٧
أ ـ في غزوة بدر الكبرى	١٠٧
ب ـ في أحد	١١٠
ج ـ شهداء الرُّجيع	١١٢

الموضوع	الصفحة
د ـ في غزوة الخندق	١١٣
و ـ غزوة المرْيْسيع	١١٦
ز ـ في صلح الحديبية	١١٧
ح ـ في غزوة مؤتة	١١٨
ط ـ تحدّي الأهل وأصنامهم	١٢٠
ي ـ في غزوة الفتح	١٢١
٤ ـ الجهاد بالأموال	١٢٢
بعد صاحب الرسالة	١٢٥
١ ـ في حرب الرِّدة	١٢٥
٢ ـ في معارك الفتوح	١٢٧
المسجد في أيام الفتح الاسلامي العظيم وبعده	١٣٥
المسجد في أيام الفتح الإسلامي	١٣٦
المسجد بعد الفتح	١٤٣
المسجد بين أيام الاحتلال والاستقلال	١٥١
المسجد في أيام الاحتلال	١٥٢
المسجد في أيام الاستقلال	١٦٩
التربية والتعليم في ظل الاحتلال والاستقلال	١٨٥
التربية والتعليم في عهد الاحتلال	١٨٦
في عهد الاستقلال	١٩٧
التربية والتعليم العسكرية في العهدين	٢٢٧
أثر المسجد في المجاهدين	٢٤٩
المجاهدون	٢٥٠
المسجد والعسكرية	٢٦٩

الموضوع	الصفحة
الخاتمة	٢٨٦
المصادر	٣٦٧
المراجع العربية	٣٨٠
المراجع الأجنبية	٣٨١